إيزابيل الليندي

ابنة الحظ

ترجمة : صالح علماني



ابنة الحظ



المؤلف: إيزابيل الليندي
عنوان الكتاب: ابنة الحظ
ترجمة: صالح علماني
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 2000
الطبعة الرابعة: 2014

Author: Isabel Allende
Title: Hija De La Fortuna
Translator: Saleh Almani
P.C. : Al-Mada
First Edition: 2010
Fourth Edition: 2014



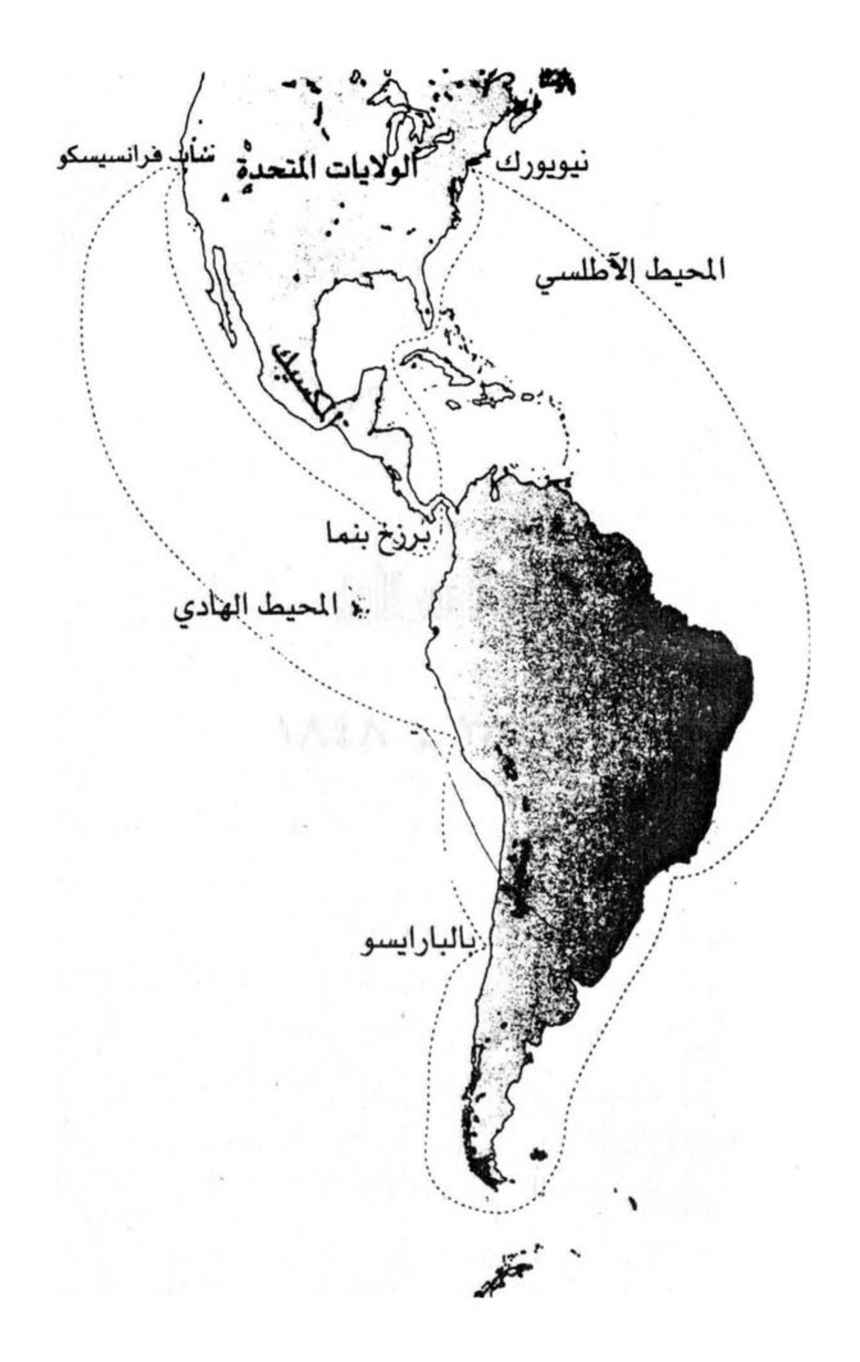
للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289



سان فرانسيسكو
الولايات المتحدة
نيويورك
المحيط الأطلسي
برزخ بنما
المحيط الهادي
بالبارايسو

القسم الأول

١٨٤٣ ـ ١٨٤٨

بالبارايسو

الجميع يولدون مزودين بموهبة ما ، وإلزا سوميرز اكتشفت منذ وقت مبكر أن لديها موهبتين اثنتين : حاسة شم حادة وذاكرة قوية . وقد أفادتها الموهبة الأولى في كسب حياتها والثانية في تذكرها ، إن لم يكن بدقة ، فعلى الأقل بغموض عراف شاعري . ما يُنسى يكون كما لو أنه لم يحدث قط ، ولكن ذكرياتها الحقيقية أو أوهامها كانت كثيرة ، فكانت كما لو أنها تعيش مرتين . وقد اعتادت أن تقول لصديقها الوفي ، الحكيم تاو تشين ، إن ذاكرتها أشبه بكرش السفينة التي تعارفا فيها ، فهي فسيحة ومظلمة ، ممتلئة بالصناديق والبراميل والأكياس ، تتراكم فيها أحداث حياتها كلها . لم يكن من السهل عليها وهي مستيقظة أن تجد شيئاً في تلك الفوضى الهائلة ، ولكنها كانت تستطيع عمل ذلك وهي نائمة على الدوام ، مثلما علمتها ماما فريسيا في ليالي طفولتها العذبة ، حين كانت ظلال الواقع لا تكاد تكوّن سوى خط نحيل من حبر باهت . فكانت تدخل إلى عالم الأحلام عبر درب طالما اجتازته وترجع بحذر شديد واحتياطات كبيرة كي لا تمزق الرؤى الباهتة بارتطامها بنور الوعي الفظّ . لقد كانت تثق بهذا الأسلوب مثلما يثق آخرون بأسلوب الأرقام ، وقد شحذتْ فنونَ التذكر إلى حد صارت معه قادرة على رؤية مس روز منحنية فوق علبة صابون مرسيليا التي كانت مهدها الأول .

ـ من المستحيل أن تتذكري ذلك يا إلزا . فحديثو الولادة أشبه بالقطط ، ليست لهم مشاعر ولا ذاكرة . . هذا ما كانت تؤكده لها مس روز في المناسبات القليلة التي تحدثتا فيها حول الموضوع .

ومع ذلك ، فإن صورة تلك المرأة التي تنظر إليها من أعلى ، بفستان بلون الياقوت بينما خصل شعرها مفلتة ومشعثة بفعل الريح ، كانت محفورة في ذاكرة إلزا ولم تستطع أن تتقبل أي تفسير آخر حول أصلها .

كانت مس روز قد أكدت لها عندما بلغت سناً تمكنها من الفهم :

ـ أنت مثلنا ، يسري في عروقك دم إنكليزي . فلا يمكن أن يخطر إلا لأحد أفراد الجالية البريطانية أن يضعك في سلة عند باب الشركة البريطانية للاستيراد والتصدير . ولاشك في أنه كان يعرف طيبة قلب أخي جيرمي وخمن بأنه سيلتقطك . وقد كنتُ في ذلك الحين أتلهف بجنون لأن يكون لي ابن ، فسقطتِ أنت بين ذراعي كهدية من الرب ، كي أربيك على مبادئ الإيمان البروتستانتي الراسخة واللغة الإنكليزية .

وكانت ماما فريسيا تدحض تلك الأقوال من وراء ظهر السيدة :

ـ أنت إنكليزية ؟ دعك من الأوهام أيتها الطفلة ، فشعرك شعر هندية ، مثلي .

لقد كان ميلاد إلزا موضوعاً محظوراً في ذلك البيت ، فاعتادت الطفلة على الغموض والأسرار . ولم تكن تأتي على ذكر هذا الموضوع ، مثل أمور حساسة أخرى ، أمام روز وجيرمي سوميرز ، ولكنها كانت تناقشه همساً في المطبخ مع ماما فريسيا التي تصر على دقة وصفها لعلبة الصابون ، بينما راحت رواية مس روز حول العثور على إلزا تتجمل مع مرور السنوات إلى أن تحولت إلى حكاية حوريات . فالسلة التي وُجدت فيها ، حسب قولها ، في المكتب كانت مصنوعة من قشور خيزران طرية جداً ومبطنة بقماش قطني ناعم ، وكان قميصها مطرزاً بغرزة النحلة ، والملاءة مزينة بإطار من دانتلا بروكسل

المخرمة ، وكانت الوليدة مدثرة فوق ذلك بدثار من فرو النمس المسكي ، وهذا شيء غريب لم يُعرف له مثيل في تشيلي . ومع مرور الزمن أضيفت إلى القصة ست قطع نقد ذهبية ملفوفة بمنديل حريري وملاحظة مكتوبة بالإنكليزية توضح أنه على الرغم من كون الطفلة غير شرعية ، إلا أنها من سلالة طيبة ، ولكن إلزا لم تر أي شيء من ذلك على الإطلاق . ففرو النمس المسكي والقطع النقدية والملاحظة اختفت كلها بخفة ولم يبق أي أثر من آثار ولادتها . ومع ذلك ، فقد كان تفسير ماما فريسيا أقرب شبهاً إلى ذكرياتها : عند فتح باب البيت في صباح أحد أيام آخر الصيف ، وجدوا مخلوقة أنثى عارية في علبة صابون .

وتؤكد لها المرأة :

- لم يكن هناك أي دثار من فرو النمس أو أية نقود ذهبية . أنا كنت حاضرة وأتذكر الأمر جيداً . لقد كنتِ ترتجفين في سترة رجل ، بل إنهم لم يضعوا لك حفاضة ، وكنتِ مغطاة بالبراز تماماً . لقد كنتِ مخاطية حمراء البشرة مثل جرادة بحر مسلوقة ، مع زغب ناعم على رأسك . هكذا كنتِ . دعك من الأوهام ، فأنت لم تولدي لتكوني أميرة ، ولو أن شعرك كان أسود حينذاك مثلما هو الآن لألقى بك السادة إلى القمامة .

ولكن الجميع يتفقون على الأقل بأن الطفلة قد دخلت حياتهم يوم ١٥ أذار ١٨٣٢ ، أي بعد سنة ونصف سنة من وصول آل سوميرز إلى تشيلي ، ولهذا السبب اعتبروا ذلك اليوم عيد ميلادها . وما سوى ذلك كان على الدوام ركاماً من المتناقضات . وتوصلت إلزا في نهاية الأمر إلى أنه ليس هناك ما يستحق عناء استنفاد الجهد في تقليب المسألة ، فمهما كانت الحقيقة ، لن تتمكن من تغييرها بأي حال . المهم هو ما يفعله المرء في هذه الدنيا ، وليس كيف جاء إليها . هذا ما اعتادت أن تقوله لتاو تشين خلال سنوات صداقتهما الطويلة الرائعة ، ولكنه لم يكن يوافقها الرأي ، فقد كان من المستحيل عليه أن

يتصور حياته بمعزل عن السلسلة الطويلة من الأسلاف الذين لم يسهموا في إعطائه خصائصه الجسدية والذهنية وحسب ، وإنما أورثوه كذلك « الكارما » . فقَدَره محدد ، حسب اعتقاده ، بأعمال أقربائه الذين عاشوا من قبل ، ولهذا عليه أن يكرّمهم بصلوات يومية وأن يخشاهم حين يظهرون بثياب شبحية ليطالبوا بحقوقهم . ويمكن لتاو تشين أن يرتل أسماء جميع أسلافه ، حتى النائين منهم ، وأن يوقر أجداده الميتين منذ أكثر من قرن . وقد كان همّه الأكبر في أزمنة البحث عن الذهب يتلخص في العودة إلى قريته في الصين ليموت فيها ويدفن إلى جانب ذويه ، لأنه إن لم يفعل ذلك فستبقى روحه هائمة إلى الأبد على غير هدى في بلاد الغربة . وكانت إلزا تميل بالطبع إلى قصة السلة المنمقة ـ لأنه ليس هناك من يفضل أن يظهر إلى الحياة في علبة صابون عادية ـ ولكنها لم تكن قادرة على تقبلها من أجل شرف الحقيقة . إن حاسة شمّها التي هي كحاسة كلب صيد تذكّرها جيداً بأول رائحة في حياتها ، وهي لم تكن رائحة ملاءات قطنية نظيفة ، وإنما رائحة صوف ، وعَرَقِ رَجُلٍ وتبغ . والرائحة الثانية هي نتانة عنزة غامضة .

ترعرعت إلزا وهي تتطلع إلى البحر الباسفيكي من شرفة منزل ذويها بالتبني ، المعلق على سفح رابية في ميناء بالبارايسو ، وكان البيت يحاول تقليد الطراز الشائع آنذاك في لندن ، ولكن متطلبات أرض الموقع والمناخ والحياة في تشيلي اضطرتهم إلى إجراء بعض التعديلات الجوهرية ، فكانت النتيجة مسخاً قبيحاً . وراحت تولد في أقصى الفناء ، مثل أورام عضوية ، عدة غرف بلا نوافذ وبأبواب كبوابات السجن ، حيث كان جيرمي سوميرز يخزن أثمن شحنات الشركة التي يمكن لها أن تختفي في مستودعات المرفأ .

ـ هذه بلاد لصوص ، فالشركة لا تتحمل في أي مكان في العالم مثل هذه النفقات التي تتحملها هنا من أجل تأمين البضاعة . إنهم يسرقون كل شيء ، وما ينجو من السارقين يغرق في الشتاء أو يحترق في الصيف أو يسحقه زلزال .

ـ هذا ما كان يكرره كلما جيء بالبغال المحملة بالبضائع لإفراغها في فناء بيته .

ولكثرة ما كانت إلزا تجلس قبالة النافذة لترى البحر وتعدّ السفن والحيتان في الأفق ، أقنعت نفسها بأنها ابنة غريق ، وليست ابنة أم قاسية يمكنها هجر طفلتها عارية في يوم مشكوك فيه من آذار . وقد كتبت في مذكراتها أن صياد سمك قد عثر عليها على الشاطئ ما بين بقايا سفينة محطمة ، فلفها بسترته وتركها أمام أكبر بيت في حي الإنكليز . وتوصلت مع مرور السنوات إلى أن هذه القصة ليست سيئة تماماً : فهناك شيء من الشاعرية والسرية في كل ما يقذفه البحر . «لو أن المحيط يتراجع ، فإن الرمل الذي فيه سيتحول إلى صحراء فسيحة رطبة مزروعة بحوريات بحر وأسماك محتضرة» ، هذا ما كان يقوله جون سوميرز ، شقيق جيرمي وروز الذي جاب كل بحار العالم ، وكان يصف بحيوية كيف ينحسر الماء وسط صمت رهيب كصمت المقابر ، لكي يعود في موجة هائلة ، تحمل كل شيء أمامها . ويؤكد : إنه أمر رهيب . ولكنه يتيح الوقت على الأقل للهرب نحو الجبال ، أما في الهزات الأرضية بالمقابل ، فإن أجراس الكنائس تُقرع معلنة عن الكارثة حين يكون الجميع قد انطلقوا هاربين ما بين الأنقاض .

في الزمن الذي ولدت فيه الطفلة كان عمر جيرمي سوميرز ثلاثين سنة ، وكان قد بدأ يهيئ لنفسه مستقبلاً لامعاً في الشركة البريطانية للاستيراد والتصدير . فقد كان يتمتع في الأوساط التجارية والمصرفية بسمعة مشرفة : فكلمته مع مصافحة تساوي عقداً مبرماً ، وهذه فضيلة لا بد منها في أي صفقة ، لأن الاعتمادات المصرفية كانت تتأخر شهوراً في اجتياز المحيط . وكانت السمعة الطيبة بالنسبة إليه ، هو الذي يفتقر إلى الثروة ، أهم من الحياة نفسها . فقد توصل بالتضحية إلى منصب مضمون في ميناء بالبارايسو النائي ، وكان آخر ما يتمناه في حياته المنظمة هو مخلوقة حديثة الولادة تأتي لتُفسد روتين تلك الحياة ، ولكن عندما سقطت إلزا في البيت لم يستطع عدم

احتضانها ، لأنه رأى أخته روز متشبثة بالطفلة مثل أم ، فوهنت عزيمته .

كان عمر روز حينئذ عشرين سنة فقط ، ولكنها كانت قد أصبحت امرأة ذات ماض ، ويمكن اعتبار احتمالات توصلها إلى زواج لائق ضئيلة إلى أدنى الحدود . وكانت قد راجعت حساباتها من جهة أخرى ، وقررت أن الزواج سيكون صفقة مشؤومة بالنسبة إليها ؛ فهي تتمتع إلى جانب أخيها جيرمي باستقلالية لا يمكن لها الحصول عليها مع الزوج . وقد توصلت إلى ترتيب حياتها ولم تستسلم للخوف من وصمة العانسات ، بل على العكس من ذلك ، كانت مصممة على أن تكون محط حسد المتزوجات ، على الرغم من النظرية الرائجة بأنه حين تتحول النساء عن دورهن كأمهات وزوجات تنمو لهن الشوارب ، مثل أولئك المطالبات بحق التصويت . ولكن ما كان ينقصها هو الأبناء ، وكان هذا هو المنغص الوحيد الذي لا يمكن له أن يتحول إلى انتصار من خلال الممارسة المنضبطة للمخيلة . كانت تحلم أحياناً بجدران غرفتها مغطاة بالدم : دم يبلل السجادة ، دم يلطخ حتى السقف . وهي في الوسط ، عارية ومشعثة مثل مجنونة ، تلد سمندراً . فتستيقظ صارخة وتقضي بقية اليوم مشوشة ، غير قادرة على التخلص من الكابوس . وكان جيرمي يراقبها قلقاً على أعصابها وشاعراً بالذنب لأنه جرجرها بعيداً جداً عن إنكلترا ، وإن كان لا يستطيع تفادي نوع من الرضا الأناني للترتيب الذي توصلا كلاهما إليه . فبما أن فكرة الزواج لم تكن قد خطرت لذهنه قط ، فإن وجود روز يحل المشاكل البيتية والاجتماعية ، وهما مظهران بالغا الأهمية في عمله . فأخته تعوض عن طبيعته الانطوائية والمتوحدة ، ولهذا يتحمل بطيب نفس تقلب مزاجها ونفقاتها غير الضرورية . عندما ظهرت إلزا أصرت روز على الاحتفاظ بها ، ولم يتجرأ جيرمي على المعارضة أو على التعبير عن شكوك دنيئة ، وحسر بشهامة كل المعارك من أجل الإبقاء على الطفلة بعيدة عنه ، بدءاً من

المعركة الأولى عندما أرادوا تسميتها . فقد قررت روز بعد أن أطعمت الصغيرة وحممتها ولفتها بشالها بالذات :

ـ سيكون اسمها إلزا ، مثل أمنا ، وستحمل كنيتنا كذلك .

ـ هذا غير ممكن بأي حال من الأحوال يا روز! ماذا تظنين أن الناس سيقولون ؟

فردت عليه ، مدركة رعب أخيها حيال أدنى ظل من العاطفية :

ـ هذا أمر سأهتم به أنا . الناس سيقولون إنك قديس لأنك التقطت هذه اليتيمة المسكينة يا جيرمي . ليس هناك مصير أسوأ من عدم امتلاك أسرة . ما الذي كان سيجري لي أنا بالذات لو لم يكن لي أخ مثلك ؟

لم يكن ثمة مفر من انتشار الأقاويل ، وكان لا بد لجيرمي سوميرز من الإذعان في هذا الشأن أيضاً ، تماماً مثلما رضي أن تحمل الطفلة اسم أمه ، وأن تنام في السنوات الأولى في غرفة أخته وأن تفرض صخبها في البيت . وأشاعت روز القصة التي لا تُصدق عن السلة الفاخرة التي وضعتها يد مجهولة في مكتب الشركة البريطانية للاستيراد والتصدير ولم يبتلعها أحد . وبما أن أحداً لا يستطيع اتهامها بارتكاب زلة ، لأن الجميع كانوا يرونها كل يوم أحد تغني في القداس الأنجليكاني ، وكان خصرها النحيل يشكل تحدياً لقوانين التشريح ، فقد قالوا إن الطفلة هي نتاج علاقة ما لجيرمي مع إحدى المومسات ولهذا السبب تكفل الأخوان تربيتها كابنة للأسرة . ولم يتكلف جيرمي عناء التصدي للإشاعات الخبيثة . كانت لاعقلانية الأطفال تربكه وتقلقه ، ولكن إلزا عرفت كيف تستحوذ عليه . وبالرغم من أنه لم يعترف بذلك ، إلا أنه كان يستعذب رؤيتها تلعب عند قدميه في الأمسيات ، عندما يجلس على أريكته ليقرأ الجريدة . لم تكن هناك مظاهر تعاطف بينهما ، فقد كان يتصلب لمجرد مصافحة يد بشرية ، وكانت فكرة أي اتصال أكثر حميمية تثير فيه الرعب .

●

عندما ظهرت الوليدة في بيت آل سوميرز في ذلك الخامس عشر من آذار ، كان رأي ماما فريسيا التي تقوم بدور الطاهية وحافظة مفاتيح البيت بأنه لا بد لهم من التخلص منها .

ـ إذا كانت أمها قد هجرتها ، فلا بد أن تكون ملعونة ومن الأفضل عدم لمسها . ـ قالت ذلك ، ولكنها لم تستطع عمل شيء ضد مشيئة سيدتها .

ما إن حملتها مس روز بين ذراعيها ، حتى انفجرت الصغيرة بالبكاء بملء رئتيها ، مزعزعة البيت ومعذبة أعصاب ساكنيه . ولعجزها عن حملها على الصمت ، ارتجلت مس روز لها مهداً من أحد أدراج خزانتها وغطتها بما يحميها ريثما تخرج مندفعة للبحث عن مرضعة . وسرعان ما رجعت بامرأة وجدتها في السوق ، ولكنها لم تفكر في فحصها عن قرب ، بل اكتفت برؤية ضخامة صدرها المتفجر تحت بلوزتها لتسرع إلى التعاقد معها . دخلت تلك الفلاحة المتخلفة بعض الشيء البيت مع صغيرها ، وهو طفل لا يقل وساخة عنها . فكان عليهم أن ينقعوا الصغير طويلاً في ماء فاتر لكي ينزعوا القذارة الملتصقة بمؤخرته ، وأن يغطسوا المرأة في برميل ماء مع محلول الصودا لتخليصها من القمل . أصيب الطفلان ، إلزا وابن المرضعة ، بمغص رافقه إسهال صفراوي وقف حياله طبيب الأسرة والصيدلي الألماني عاجزين . وانهزمت مس روز أمام بكاء الطفلين الذي لم يكن بسبب الجوع وحده وإنما الألم أيضاً ، فراحت تبكي هي أيضاً . وأخيراً تدخلت ماما فريسيا في اليوم الثالث بمزاج معكر ، ودمدمت متذمرة :

ـ ألا ترين أن ثديي هذه المرأة متعفنان ؟ اشتري عنزة لتغذية الصغيرة وقدمي لها مغلي القرفة ، وإلا فإنها ستنفق قبل حلول يوم الجمعة .

في ذلك الحين كانت مس روز في بداية تلعثمها باللغة الإسبانية ، ولكنها فهمت كلمة عنزة ، فأرسلت الحوذي ليشتري واحدة وصرفت المرضعة . وما إن وصلت البهيمة حتى حملت الطاهية الهندية إلزا ووضعتها تحت ضرعها

المنتفخ مباشرة ، أمام رعب مس روز التي لم تكن قد رأت من قبل مشهداً بمثل ذلك الانحطاط . ولكن سرعان ما سكّن الحليب الفاتر ومغلي القرفة الوضع ، فتوقفت الطفلة عن البكاء ، ونامت سبع ساعات متواصلة واستيقظت وهي تمص الهواء بهستيرية . وبعد بضعة أيام بدت عليها ملامح الوداعة التي تميز الأطفال الأصحاء ، وصار واضحاً أن وزنها يزداد . وقد اشترت مس روز زجاجة رضاعة حين لاحظت أنه ما إن تشفو العنزة في الفناء ، حتى تبدأ إلزا بالتشمم بحثاً عن حلمة الضرع . فهي لم تشأ رؤية الطفلة تترعرع وقد سيطرت عليها الفكرة الغريبة بأن البهيمة هي أمها . لقد كان ذلك المغص أحد الإصابات المرضية القليلة التي أصيبت بها إلزا في طفولتها ، أما الإصابات الأخرى فكانت تُعالج بصورة حاسمة لدى ظهور أول الأعراض بأعشاب ماما فريسيا ورقاها ، بما في ذلك جائحة الحصبة الإفريقية القاسية التي حملها بحار يوناني إلى بالبارايسو . فطوال الأيام التي استمر فيها الخطر ، كانت ماما فريسيا تضع في الليل قطعة لحم نيئة على سرة إلزا وتثبتها بربطها بقوة بمنديل صوفي أحمر ، وهو أحد أسرار الطبيعة لتجنب العدوى بالوباء .

في السنوات التالية جعلت مس روز من إلزا دميتها . فكانت تقضي ساعات وهي تشغل نفسها بتعليمها الغناء والرقص ، وتنشد لها أشعاراً كانت الصغيرة تحفظها دون جهد ، وتجدل لها شعرها وتلبسها بأناقة ، ولكن ما إن تجد تسلية أخرى أو يداهمها وجع الرأس حتى ترسلها إلى المطبخ حيث ماما فريسيا . فترعرعت الصغيرة ما بين غرفة الخياطة والأفنية الخلفية ، تتكلم الإنكليزية في جانب من البيت وخليط من الإسبانية والمابوتشي - لغط مربيتها الهندية - في جانب آخر ، وهي تلبس وتنتعل مثل دوقة في بعض الأيام وتلعب مع الدجاج والكلاب في أيام أخرى ، حافية وبملابس سيئة أشبه بمريلة يتيمة . وكانت مس روز تقدمها في سهراتها الموسيقية ، وتأخذها في العربة لتناول الشكولاته في أفضل محل حلويات ، أو حين تذهب للشراء أو لزيارة

السفن في الميناء ، ولكنها قد تسهو عنها كذلك عدة أيام وهي مشغولة بالكتابة في دفاترها الغامضة أو بقراءة رواية ، دون أن تفكر بمحميتها . وحين تتذكرها تهرع نادمة للبحث عنها ، فتغطيها بالقبلات ، وتغرقها بالحلوى وتعود لتُلبسها بأبهة كدمية لتأخذها في نزهة . لقد اهتمت بتقديم أوسع تربية ممكنة لها ، دون أن تتجاهل التجملات التي لا بد منها لآنسة . وعلى اثر نوبة هياج أصابت إلزا بسبب تمارين البيانو ، أمسكتها من ذراعها وجرتها جراً دون أن تنتظر الحوذي ونزلت بها اثنتي عشرة كوادرا على الرابية نحو دير هناك . وعلى الجدار الطيني ، فوق بوابة خشبية سميكة تتخللها تبشيمات حديدية ، كانت لوحة باهتة الطلاء بفعل هواء البحر المالح تقول : بيت اللقيطات .

- احمدي الله أننا ، أنا وأخي ، قد تولينا رعايتك . ففي هذا المكان يستقر أبناء الزنى والأطفال المهجورون . أهذا هو ما تريدينه ؟

هزت الصغيرة رأسها بالنفي وقد أصابها البكم .

- من الأفضل لك إذن أن تتعلمي العزف على البيانو مثل طفلة مؤدبة . هل تفهمين ما أعنيه ؟

وتعلمت إلزا العزف دون موهبة ولا أصالة ، ولكنها بصرامة الانضباط تمكنت منذ بلوغها الثانية عشرة من مرافقة مس روز خلال الحفلات الموسيقية . ولم تفقد المهارة على الرغم من قضائها فترات طويلة دون تمرين ، وقد استطاعت بعد عدة سنوات من ذلك أن تكسب عيشها في ماخور متنقل ، وهي نهاية لم تكن لتخطر مطلقاً لمس روز عندما سعت جاهدة لتعلمها فن الموسيقى السامي .

بعد سنوات طويلة من ذلك ، وفي إحدى الأمسيات الهادئة بينما هي تتناول شاياً صينياً وتتبادل الحديث مع صديقها تاو تشين في الحديقة اللطيفة التي يزرعانها معاً ، توصلت إلزا إلى أن تلك الإنكليزية غير مستقرة الأطوار

كانت أماً جيدة وشكرتها على فضاءات الحرية الداخلية الكبيرة التي منحتها إياها . وكانت ماما فريسيا هي عماد طفولتها الثاني . فقد كانت تتعلق بأذيال تنانيرها السوداء العريضة ، وترافقها وهي تمارس أعمالها وتجننها في أثناء ذلك بأسئلتها . هكذا تعلمت أساطير وخرافات السكان الأصليين ، وكيف تفسر رموز الحيوانات والبحر ، وتعرف عادات الأرواح ورسائل الأحلام ، مثلما تعلمت الطبخ كذلك . فكانت قادرة بحاسة شمها التي لا تكل على تحديد المواد والأعشاب والبهارات وهي مغمضة العينين ، مثلما كانت تحفظ قصائد الشعر ، وتتذكر كيف تستخدمها . وسرعان ما فقدت أطباق ماما فريسيا الكريولية وحلويات مس روز أسرارها . لقد كانت تتمتع بميل غريب إلى الطبخ ، ففي السابعة من عمرها كانت قادرة ، ودون قرف ، على سلخ لسان بقرة أو انتزاع أحشاء دجاجة ، أو عجن عشرين فطيرة دون أن تشعر بالتعب ، أو قضاء ساعات في فرط الفاصولياء ، بينما هي تستمع بذهول إلى الأساطير الهندية القاسية تقصها عليها ماما فريسيا أو إلى رواياتها الوردية حول حياة القديسين .

لم تكن روز وأخوها جون ينفصلان أحدهما عن الآخر منذ طفولتهما . فكانت هي تتسلى في الشتاء بحياكة صدريات لأخيها القبطان ويسعى هو من جهته لأن يحضر لها من كل رحلة حقائب ممتلئة بالهدايا وصناديق كبيرة من الكتب التي يُحفظ عدد كبير منها وراء قفل في خزانة روز . وكان من حق جيرمي ، باعتباره صاحب البيت وزعيم الأسرة ، أن يفتح رسائل أخته ويقرأ مذكراتها الخاصة ، وأن يطالب بنسخة من مفاتيح خزائنها وأدراجها ، ولكنه لم يُبدِ يوماً أي ميل لعمل ذلك . فكان جيرمي وروز يقيمان فيما بينهما علاقة بيتية تستند إلى الجدية ، إذ لم يكن يجمع بينهما سوى القليل ، باستثناء اعتماد كل منهما المتبادل على الآخر والذي يبدو لهما أحياناً شكلاً سرياً من أشكال العداء . فقد كان جيرمي يتولى الإنفاق على حاجات روز الضرورية ،

ولكنه لا يمول نزواتها ولا يسأل من أين تأتي بالنقود لإشباع تلك النزوات ، فقد كان يعرف أن جون يقدمها إليها . وكانت هي بالمقابل تدير البيت بفعالية وفخامة ، وبحسابات واضحة على الدوام ، ولكن دون أن تزعجه بالتفاصيل الصغيرة . لقد كانت تمتلك ذوقاً جيداً صائباً وظرافة غير متكلفة ، تضفي بريقاً على حياتيهما ، وتدحض بحضورها ذلك الاعتقاد الشائع جداً في تلك الأنحاء ، بأن الرجل الذي بلا أسرة هو شخص قاس تماماً .

وكان جيرمي سوميرز يؤكد :

ـ طبيعة الذكر وحشية ؛ وقدر المرأة هو حماية القيم الأخلاقية والسلوك الحميد .

فتقول روز ساخرة :

ـ آي يا أخي! أنا وأنت نعرف أن طبيعتي أشد وحشية من طبيعتك .

●

جاكوب تود ، الرجل الجذاب ذو الشعر المائل إلى الحمرة ، وصاحب أعذب صوتِ واعظٍ سُمع قط في تلك الأنحاء ، وصل إلى ميناء بالبارايسو في عام ١٨٤٣ ومعه شحنة تضم ثلاثمئة نسخة من الكتاب المقدس باللغة الإسبانية . ولم يستغرب أحد رؤيته حين وصل : إنه مبشر آخر من المبشرين الكثيرين الذين يجوبون كل الأنحاء داعين إلى الإيمان البروتستانتي . أما بالنسبة إليه ، فقد كانت الرحلة نتيجة فضوله إلى المغامرات وليس لحميته الدينية . ففي إحدى تلك التبجحات التي يطلقها رجل شريب استقرت في جوفه كمية كبيرة من البيرة ، راهن على مائدة لعب في ناديه في لندن بأنه قادر على بيع نسخ من الكتاب المقدس في أي ركن من أركان الكوكب الأرضي . فعصب أصدقاؤه عينيه ، وأداروا كرة أرضية فوقع إصبعه على واحدة من مستعمرات مملكة إسبانيا ، ضائعة في الجزء السفلي من العالم ، حيث لم يكن أحد من أولئك الأصدقاء السعداء يعتقد بأن ثمة حياة هناك . وسرعان ما اكتشف أن

تلك الخريطة قديمة ، وأن المستعمرة قد استقلت منذ أكثر من ثلاثين سنة وأنها تشكل الآن جمهورية تشيلي المجيدة ، وهي بلاد كاثوليكية لا سبيل إلى إدخال الأفكار البروتستانتية إليها ، ولكن الرهان كان قد أُنجز ، ولم يكن مستعداً للتراجع . لقد كان أعزب ، بلا روابط عاطفية أو مهنية ، وقد اجتذبته على الفور غرابة مثل تلك الرحلة . وكان المشروع طويل الأجل باعتبار أنه يحتاج إلى ثلاثة أشهر للذهاب وثلاثة أشهر أخرى للإياب مبحراً في محيطين . هلل رفاقه الذين تنبؤوا له بنهاية مفجعة على أيدي أتباع البابوية في تلك البلاد الجاهلة والبربرية ، وبمساعدة مالية من جمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية ، التي أمنت له الكتب وحصلت له على بطاقة السفر ، بدأ رحلة العبور الطويلة في سفينة متوجهة إلى ميناء بالبارايسو . كان التحدي في الرهان يتمثل في بيع نسخ الكتاب المقدس والعودة خلال مهلة سنة ومعه إيصال موقع عن كل نسخة يبيعها . قرأ في أرشيف المكتبة رسائل رجال لامعين ، من بحارة وتجار زاروا تشيلي وقدموا وصفاً لشعب مولّد يزيد قليلاً على المليون نفس ، وجغرافية غريبة ذات جبال مذهلة ، وشواطئ وعرة ، ووديان خصبة ، وغابات قديمة ، وثلوج دائمة . وقرأ عن بلاد مشهورة بأنها الأكثر تعصباً في شؤون الدين في القارة الأمريكية ، حسب تأكيدات من زاروها . وبالرغم من ذلك ، فإن مبشرين فاضلين حاولوا نشر البروتستانتية وهم لا يعرفون كلمة واحدة من اللغة القشتالية أو لغة الهنود ، ووصلوا إلى الجنوب حيث تتفتت اليابسة إلى مسبحة من الجزر ، فمات بعضهم من الجوع أو البرد ، أو التهمهم ، كما يشتبه البعض ، أفراد رعيتهم أنفسهم . ولم يكن مصير أولئك المبشرين أفضل في المدن . فقد كانت مشاعر كرم الضيافة لدى التشيليين أقوى من التعصب الديني ، فكانوا يسمحون للمبشرين بلباقة أن يلقوا مواعظهم ، ولكن دون أن يعيروهم كبير اهتمام . وإذا ما حضروا ندوات الكهنة البروتستانتيين القليلين ، فإنهم يفعلون ذلك مثل من يذهب لمشاهدة استعراض ، مستمتعين برؤية أن

يأتي من يصفهم بأنهم هراطقة . ولكن ذلك كله لم يفت من حماس جاكوب تود ، لأنه لم يكن ذاهباً كمبشر ، وإنما كبائع كتب مقدسة .

واكتشف في أرشيف المكتبة أن تشيلي منذ استقلالها عام ١٨١٠ ، قد فتحت أبوابها للمهاجرين الذين توافدوا بالمئات واستقروا في تلك الأراضي الطويلة والنحيلة التي يحممها المحيط الهادئ من أعلاها إلى أدناها . وقد حقق الإنكليز ثروات سريعة كتجار وبناة سفن ، وجاء كثيرون منهم بأسرهم واستقروا . فشكلوا أمة صغيرة ضمن البلاد ، بعاداتهم ، وطقوسهم ، وصحفهم ، وأنديتهم ، ومدارسهم ، ومستشفياتهم ، ولكنهم فعلوا كل ذلك بأساليب طيبة أبعد ما تكون عن إثارة الشكوك ، جعلتهم نموذجاً في التحضر . لقد آووا أسطولهم في بالباريسو ليتحكموا بحركة النقل البحري في المحيط الهادي ، وهكذا فإن بالبارايسو التي كانت مجرد دسكرة بائسة وبلا مصير عند بداية الجمهورية ، تحولت في أقل من عشرين سنة إلى ميناء هام ، ترسو فيه السفن الشراعية القادمة من الأطلسي عبر رأس هورنوس ، ثم السفن البخارية فيما بعد التي كانت تعبر من خلال مضيق ماجلان .

وقد فوجئ الرحالة المتعب حين ظهرت بالبارايسو أمام عينيه . إذ كانت هناك أكثر من مئة سفينة ترفع أعلام نصف بلدان العالم . وبدت له الجبال التي يغطي الثلج قممها قريبة جداً مما يوحي بأنها تبرز مباشرة من بحر زرقته كزرقة الحبر ، يعبق بشذا حوريات مستحيل . وقد جهل جاكوب تود دوماً أنه تحت ذلك السكون المائي العميق توجد مدينة كاملة من السفن الشراعية الإسبانية الغارقة ، وهياكل عظمية لمواطنيه مقيدة من كواحلها بأحجار ثقيل ، أغرقها جنود القائد العام الإسباني . ألقت السفينة مرساتها في الخليج ، بين آلاف النوارس التي كانت تشوش الهواء بخفق أجنحتها الرهيبة وبزعيقها الجائع . وأعداد لا حصر لها من الزوارق التي تصارع الأمواج ، بعضها محمل بثعابين بحر وأسماك قادوس ضخمة ما تزال حية ، تجاهد الهواء بيأس . قيل

له إن بالبارايسو هي المركز التجاري للمحيط الهادي ، في مستودعات مينائها تُخزّن المعادن ، وصوف الأغنام والألبكة ، والحبوب والجلود لترسل إلى أسواق العالم . تولت عدة زوارق نقل ركاب وحمولة السفينة الشراعية إلى اليابسة . ولدى النزول إلى الميناء ما بين بحارة وحمالين ومسافرين وحمير وعربات ، وجد نفسه في مدينة محصورة بمدرجات جبال شاهقة ، مأهولة وقذرة مثل مدن كثيرة رائجة الأسماء في أوربا . بدت له خطأ معمارياً من بيوت طينية وخشبية في شوارع ضيقة ، يمكن لأدنى حريق أن يحولها إلى رماد في ساعات قليلة . حملته عربة يجرها حصانان في حالة مزرية مع حقائبه وصناديقه إلى الفندق الإنكليزي . ومر في أثناء ذلك قبالة عمارات حسنة البناء في محيط ساحة ، وعدة كنائس أقرب إلى الخشونة ومنازل من طبقة واحدة محاطة بحدائق وبساتين واسعة . أحصى حوالى مئة كتلة أبنية ، ولكنه أدرك على الفور أن المدينة تخدع البصر ، إنها متاهة من الأزقة والمسالك . لمح في البعيد حي صيادين ذا أكواخ في مواجهة ريح البحر وشِباك معلقة مثل أنسجة عناكب هائلة ، وفيما وراءها حقول خصبة مزروعة بالخضار والفواكه . وكانت تذرع شوارع المدينة عربات حديثة كتلك التي في لندن ، عربات من نوع البيرلوتش والفاكرة والكليسا ، وكذلك قطعان بغال يحرسها أطفال بأسمال ، وعربات تجرها الجواميس تمضي في مركز المدينة . ورأى على النواصي رهباناً وراهبات يتسولون الصدقات للفقراء ما بين قطعان كلاب متشردة ودجاجات تائهة . تأمل بعض النسوة المحملات بأكياس وسلال ، وأولادهن في أثرهن ، وكن حفاة ولكنهن يغطين رؤوسهن بمناديل سوداء ، ورجالاً كثيرين بقبعات مخروطية يجلسون على العتبات أو يتبادلون الحديث في جماعات ، وفي كسل دائم .

بعد ساعة من نزوله من السفينة كان جاكوب تود يجلس في صالون الفندق الإنكليزي الأنيق ، يدخن سجائر ثقيلة مستوردة من القاهرة ويتصفح

مجلة بريطانية أخبارها قديمة . تنهد ممتناً ، يبدو أنه لن يواجه مشاكل التأقلم ، وإذا ما أحسن التصرف بأمواله فإنه سيتمكن من العيش هناك براحة مثلما كانت حياته في لندن تقريباً . كان ينتظر أن يأتي نادل لخدمته - يبدو أنه ليس هناك من هو مستعجل في هذه الأنحاء - عندما اقترب منه جون سوميرز ، قبطان السفينة الشراعية التي سافر فيها . إنه رجل قاتم الشعر وذو بشرة محمصة مثل جلد حذاء ، يتباهى بوضعه كشرّيب حديث ، وزير نساء ، ولاعب ورق ونرد لا يكل . كانا قد عقدا صداقة جيدة وتسليا باللعب في ليالي الإبحار الأبدية في عرض البحر وفي الأيام العاصفة والجليدية عند اجتياز رأس هورنوس في أقصى جنوب العالم . لقد جاء جون سوميرز برفقة رجل شاحب ، له لحية مشذبة جيداً ويرتدي السواد من قدميه إلى رأسه ، وقدمه على أنه أخوه جيرمي . كان من الصعب العثور على نمطين من البشر بمثل ذلك الاختلاف . فجون يبدو كأنه صورة للصحة والمتانة ، وهو شخص صريح ، صاخب ، لطيف ، بينما كان للآخر مزاج ومظهر من هو عالق في شتاء أبدي . لقد كان واحداً من أولئك الأشخاص الذين لا يبدون كاملي الحضور أبداً ، ومن يجد المرء صعوبة في تذكرهم ، لأنهم يفتقرون إلى ملامح محددة ، هذا ما انتهى إليه جاكوب تود . ودون أن ينتظرا دعوته ، انضما إلى طاولته بتآلف مواطني البلاد نفسها في أراضي الغربة . وأخيراً ظهرت خادمة ، فطلب القبطان جون سوميرز زجاجة ويسكي ، بينما طلب أخوه شاياً بالرطانة التي اخترعها البريطانيون للتفاهم مع الخدم .

- كيف هي الأحوال في الوطن ؟ - قال جيرمي مستفسراً . وكان يتكلم بصوت خافت ، أقرب إلى الهمس ، وهو لا يكاد يحرك شفتيه ، وبنبرة فيها بعض التأثر .

فقال القبطان :

- منذ ثلاثمئة سنة لا يحدث شيء في إنكلترا .

وسأله جيرمي سوميرز :

- اعذر فضولي يا مستر تود ، ولكنني رأيتك تدخل الفندق ولم أستطع عدم الانتباه إلى أمتعتك . بدا لي أنه كان بينها عدة صناديق تحمل علامة الكتاب المقدس... هل أنا مخطئ ؟

- بالفعل ، إنها نسخ من الكتاب المقدس .

- لم يخبرنا أحد بأنهم سيرسلون إلينا قساً آخر...

فهتف القبطان :

- لقد أبحرنا معاً طوال ثلاثة شهور ولم أعرف أنك قس يا مستر تود!

- أنا لست قساً في الواقع - ردّ جاكوب تود موارياً خجله وراء سحابة من دخان سيجارته .

فعلق جيرمي سوميرز :

- أنت مبشر إذن . أعتقد بأنك تفكر في الذهاب إلى أرض النار . هنود منطقة باتاغونيا جاهزون للتبشير الانجليكاني . أما الهنود الأراوكانيين فدعك منهم يا رجل ، فقد اصطادهم الكاثوليكيون .

فقال أخوه :

- لا بد أن من تبقوا هم مجرد حفنة من الأراوكانيين . فقد كان هؤلاء القوم مولعين بتسليم أنفسهم للمجازر .

- لقد كانوا أكثر هنود أميركا توحشاً يا مستر تود . وقد مات معظمهم وهم يقاتلون ضد الإسبان . وكانوا من آكلة لحوم البشر .

وأضاف القبطان :

- كانوا يقطّعون أسراهم إلى أشلاء وهم أحياء ، لأنهم يفضلون لحمهم طازجاً . وهو ما سنفعله أنا وأنت إذا ما قتلوا أهلنا وأحرقوا قريتنا وسلبونا أرضنا .

فرد أخوه باستياء :

ـ يا للروعة يا جون ، إنك تدافع الآن عن أكل لحوم البشر! على أي حال يجب عليّ أن أحذرك يا مستر تود بألا تتدخل مع الكاثوليك . يجب ألا نستفز الأهالي . فهؤلاء أناس يؤمنون جداً بالشعوذات .

ـ معتقدات الآخرين هي شعوذات يا مستر تود . أما معتقداتنا فتسمى ديناً . وبالمناسبة ، هنود أرض النار ، الباتاغونيون ، يختلفون كثيراً عن الأراوكانيين .

فقال جيرمي :

ـ إنهم متوحشون مثلهم . يعيشون عراة في مناخ رهيب .

فعلق القبطان :

ـ احمل إليهم ديانتك يا مستر تود ، فربما يتعلمون ارتداء السراويل الداخلية على الأقل .

لم يكن تود قد سمع بذكر أولئك الهنود ، وكان آخر ما يتمناه هو التبشير بشيء لا يؤمن هو نفسه به ، ولكنه لم يتجرأ على الاعتراف لهما بأن رحلته هي نتيجة رهان بين سكارى . فرد بغموض بأنه يفكر في القيام بحملة تبشيرية ، ولكن مازال عليه أن يتدبر أمر تمويلها .

ـ لو أنني عرفت بأنك قادم للتبشير بأهداف إله طاغية بين هؤلاء الناس الطيبين ، لكنت ألقيت بك من حافة السفينة في عرض المحيط الأطلسي يا مستر تود .

قاطعتهم الخادمة التي أحضرت الويسكي والشاي . كانت مراهقة ناضحة ، ترتدي ثوباً أسود مع ربطة رأس ومئزر منشيين . وحين انحنت بالصينية خلّفت في الهواء عبير أزهار مهروسة ورائحة مكواة فحم . لم يكن جاكوب تود قد رأى نساءً في الأسابيع الأخيرة ، فراح يتأملها بمغص الوحدة . فانتظر جون سوميرز إلى أن انصرفت الفتاة وقال :

ـ كن حذراً يا رجل ، فالتشيليات رهيبات .

فقال جيرمي سوميرز وهو يوازن فنجان الشاي :

- لا يبدون لي كذلك . إنهن قصيرات ، عريضات الأرداف ولهن صوت كريه .

فهتف القبطان :

- البحارة يهجرون السفن من أجلهن .

- إنني أوافقك ، فأنا لست خبيراً في شؤون النساء . لا وقت لدي من أجل ذلك . يجب أن أهتم بصفقاتي وبأختنا ، هل نسيت ذلك ؟

- لم أنسه لحظة واحدة ، فأنت تذكرني بالأمر دوماً . أترى يا سيد تود ، أنا نعجة الأسرة السوداء ، والأرعن الطائش . ولولا جيرمي الطيب...

فقاطعه جاكوب تود وهو يلاحق بنظره الخادمة التي كانت تقوم في تلك اللحظة على خدمة طاولة أخرى :

- هذه الفتاة تبدو إسبانية . لقد عشتُ شهوراً في مدريد ورأيت كثيرات مثلها .

- الجميع هنا مولدون ، بما في ذلك الطبقة الراقية . إنهم ينكرون ذلك بالطبع . وهم يخفون الدم الهندي مثلما يخفون وباء مهيناً . وأنا لا أدينهم ، فالهنود مشهورون بأنهم قذرون ، سكيرون ، كسالى . والحكومة تحاول تحسين السلالة باجتذاب مهاجرين أوربيين . إنهم يقدمون في الجنوب أراضي للمستوطنين .

- ورياضتهم المفضلة هناك هي قتل الهنود لانتزاع الأراضي منهم .

- إنك تبالغ يا جون .

- ليس من الضروري أن تتم تصفيتهم بالرصاص دوماً ، فقد يكفي جعلهم يدمنون على الكحول . ولكن قتلهم ممتع أكثر بالطبع . ونحن الإنكليز لا نشارك على أي حال في هذا النوع من اللهو يا مستر تود . فنحن لا تهمنا الأراضي . لماذا نزرع البطاطا إذا كان بإمكاننا جني ثروات دون أن نخلع قفازاتنا ؟

ـ هنا لا تنعـدم الفـرص المـواتيـة لأي رجل طمـوح . فكل شيء في طور الإنشـاء في هذه البـلاد . إذا رغبت في الازدهار فـاذهب إلى الشـمـال . فـهناك الفضة ، والنحاس ، وملح البارود ، والغوانو...

ـ وما هو الغوانو ؟

فأوضح البحار :

ـ إنه براز الطيور .

ـ لا أفهم شيئاً من هذا يا سيد سوميرز .

ـ السـيد تود لا يهتم بتكوين ثروة يا جيـرمي . فمـا يهـمـه هو الإيمـان المسيحي ، أليس كذلك ؟

ـ الجالية البروتسـتانتيـة كبيرة ومزدهرة ، وهي ستساعدك . تعال غداً إلى بيتي . ففي أيام الأربعاء تنظم أختي روز سهرة موسيقية ، وستكون فرصة جيدة للتعرف على أصدقاء . سأبعث عربتي لتأخذك في الخامسـة مسـاء . ولسـوف تستمتع . . قال جيرمي سوميرز ذلك وهو يودع لينصرف .

في اليوم التالي ، حين كان قد استعاد حيويته بعد ليلة دون أحلام ، وعلى أثر حمام طويل لانتزاع ترسبات الملح الملتصقة بروحه ، وإن كانت خطواته ما تزال مترنحة بسبب الاعتياد على الإبحار ، خرج جاكوب تود ليتمشى في الميناء . اجتاز دون تسرع الشارع الرئيسي في المدينة ، الموازي للبحر وغير البعيد عن الضفة التي تلطخه بالأمواج ، وشرب بضع كؤوس في أحد المقاهي وتناول الطعام في أحد مطاعم السوق . لقد غادر إنكلترا في شتاء جليدي من شهر شباط ، وبعد أن اجتاز صحراء أبدية الماء والنجوم ، حيث اختلطت عليه حتى غرامياته السابقة ، وصل إلى النصف الجنوبي من الكرة الأرضية في بداية شتاء قاس آخر . لم يكن قد خطر له الاستفسار عن المناخ قبل أن يغادر . وكان يتصور أن تشيلي بلاد حارة ورطبة مثل الهند ، لأنه يظن أن بلاد الفقراء هي هكذا ، ولكنه وجد نفسه تحت رحمة رياح جليدية تخترق عظامه وتثير

زوابع من الرمال والقمامة . ضل الطريق عدة مرات في الشوارع المتعرجة ، فكان يدور ويدور ليجد نفسه في المكان الذي بدأ منه . كان يصعد أزقة ضيقة بلا نهاية ، محفوفة ببيوت معلقة بلا مكان ، محاولاً برصانة عدم النظر من النوافذ إلى حميمية الآخرين . واصطدم بساحات رومنطيقية ذات مظهر أوربي متوجة بعرائش ، حيث فرق موسيقية عسكرية تعزف للعشاق ، واجتاز حدائق خجولة تجوسها الحمير . وكانت هناك أشجار ضخمة تنمو على جوانب الشوارع الرئيسية متغذية بمياه نتنة تنزل من الهضاب في مجارٍ مكشوفة . وفي المنطقة التجارية كان وجود البريطانيين واضحاً إلى حد أن المرء يتنفس هواء وهمياً من بلاد أخرى . فقد كانت لافتات عدد من المتاجر مكتوبة باللغة الإنكليزية ، وكان مواطنوه يمرون وهم يلبسون كما في لندن ، ويحملون مظلات حفاري القبور السوداء نفسها . وما ان ابتعد عن الشوارع المركزية حتى داهمته مشاهد الفقر مثل صفعة ؛ فالناس يظهرون سيئي التغذية ، ناعسين... رأى جنوداً ببدلات مخططة ، ومتسولين عند بوابات المعابد . وفي الساعة الثانية عشرة ظهراً دوت أجراس جميع الكنائس في وقت واحد ، وعلى الفور هدأ الصخب ، فتوقف المشاة ، وخلع الرجال قبعاتهم ، وجثت النساء القليلات ، ورسموا جميعهم إشارة الصليب . واستمر المشهد طوال قرع الأجراس اثنتي عشرة مرة ثم تجددت الحركة في الشارع كما لو أنه لم يحدث أي شيء .

الإنكليز

وصلت العربة التي أرسلها آل سوميرز إلى الفندق متأخرة نصف ساعة . كان الحوذي قد أفرغ كثيراً من الكحول ما بين صدره وظهره ، ولكن جاكوب تود لم يكن في وضع يسمح له بالاختيار . فقاده الرجل باتجاه الجنوب . كان المطر قد هطل طوال ما يقرب من ساعتين ، فأصبحت الشوارع غير صالحة للمرور في بعض المناطق حيث برك الماء والوحل تخفي مصايد قاتلة من حفر يمكن لها أن تبتلع حصاناً ساهياً . وعلى جانبي الشارع كان هناك أطفال ينتظرون ومعهم أزواج من الجواميس ، جاهزين لسحب العربات التي تعلق في الوحل مقابل قطعة نقدية . ولكن الحوذي تمكن من تفادي المطبات على الرغم من بصره الزائغ من السكر ، وسرعان ما بدأا بصعود رابية . وحين وصلا إلى ثيرّو أليغري ، حيث يعيش معظم أفراد الجالية الأجنبية ، تبدل منظر المدينة تماماً واختفت الأكواخ والبيوت الجماعية المشتركة التي في الأسفل . وتوقفت العربة أمام منزل واسع الأبعاد ، ولكنه قبيح المظهر ، فهو مسخ من أبراج مدعية وأدراج بلا فائدة ، مزروع ما بين مستويات الأرض المتفاوتة ومضاء بأعداد كبيرة من المشاعل التي طغى عليها الظلام . خرج خادم محلي ليفتح الباب مرتدياً بدلة خدم واسعة عليه ، وتسلم معطف تود وقبعته وقاده إلى قاعة فسيحة مزينة بأثاث جيد الصنعة وستائر فيها شيء من المسرحية من مخمل

أخضر مثقلة بالتزينات ، وليس فيها سنتمتر واحد من بياض يريح البصر . وخيل إليه أن الناس في تشيلي ، مثلما هم في أوربا ، يرون أن أي جدار عارٍ هو علامة فقر ، ولم يخرج من هذا الخطأ إلا بعد وقت طويل ، عندما زار بيوت التشيليين القنوعة . كانت اللوحات معلقة بصورة مائلة للنظر إليها من أسفل بينما البصر يضيع في ظلمة السقوف العالية . وكانت المدفأة المشتعلة بقطع ثخينة من الحطب ، فضلاً عن عدة مجامر فحم ، توزع الدفء بصورة غير متوازنة فتبقي الأقدام متجمدة بينما يكون الرأس محموماً من الحر . وكان هناك أكثر من اثني عشر شخصا يلبسون على الطريقة الأوربية وعدة خادمات بزي موحد يطفن بالصواني . تقدم جيرمي وجون سوميرز لتحيته . وقال له جيرمي وهو يقوده إلى أقصى الصالة :

ـ أقدم لك أختي روز .

وعندئذ رأى جاكوب تود المرأة التي ستقوض سلام روحه جالسة إلى يمين المدفأة . لقد بهرته روز سوميرز على الفور ، ليس لجمالها وإنما لثقتها بنفسها ومرحها . لم يكن فيها أي شيء من القبطان البذيء ولا من وقار أخيها جيرمي الممل ، بل كانت امرأة ذات ملامح مشعة وكأنها جاهزة على الدوام للانفجار في ضحكة متفنجة . وعندما تفعل ذلك تظهر شبكة من التجاعيد الدقيقة حول عينيها ، وقد كان ذلك ـ لسبب ما ـ هو أكثر ما جعل جاكوب تود ينجذب إليها . لم يستطع تقدير سنها ، ربما هي بين العشرين والثلاثين ، ولكنه توقع أنها ستبقى بعد عشر سنوات مثلما هي الآن ، لأنها ذات عظام متينة ولها هيئة ملكة . كانت ترتدي ثوباً من التفتا بلون الدراقن ، ولا تضع أي زينة باستثناء قرطين بسيطين من المرجان في أذنيها . وكانت أبسط قواعد اللياقة تستدعي ضرورة الإيحاء لها بأنه يقبّل يدها ، دون أن يلمسها بشفتيه ، ولكن ذهنه اضطرب ولم يدر كيف طبع القبلة على اليد . بدت تلك التحية غير مناسبة إلى حد أنهما بقيا معلقين بالحيرة للحظة أبدية ، فكان يمسك بيدها

مثل من يمسك سيفاً بينما هي تنظر إلى أثر اللعاب دون أن تتجرأ على مسحه عن يدها كيلا تهين الزائر ، إلى أن دخلت طفلة ترتدي ملابس أميرة . عندئذ استيقظ تود من اضطرابه ، وعندما اعتدل في وقفته تمكن من ملاحظة إيماءة سخرية تبادلها الأخوان سوميرز . فحاول المداراة بالالتفات نحو الطفلة باهتمام مبالغ فيه ، مستعداً لكسب ودها . فقال له جيرمي سوميرز .

ـ إنها إلزا ، محميتنا .

واقترف جاكوب تود البلادة الثانية حين سأله :

ـ وما معنى هذا ؟ محمية ؟

فأوضحت له إلزا بصبر ، وبلهجة من يتحدث إلى أحمق :

ـ هذا يعني أنني لستُ من الأسرة .

ـ لا ؟

ـ إذا ما أسأتُ التصرف فسيرسلونني إلى حيث الراهبات الكاثوليكيات .

فقاطعتها مس روز وهي تنهض :

ـ ماذا تقولين يا إلزا! لا تأخذ كلامها على محمل الجد يا مستر تود . فالأطفال تخطر لهم أمور غريبة . إلزا هي فرد من أسرتنا بالطبع .

كانت إلزا قد أمضت اليوم مع ماما فريسيا في إعداد العشاء . وكان موقع المطبخ في الفناء ، ولكن مس روز ربطته بالبيت عبر ممر مسقوف لكي تتفادى حرج تقديم أطباق الطعام باردة أو ملوثة بفضلات الحمام . تلك الحجرة المسوَدة بالدهن وهباب الموقد كانت مملكة ماما فريسيا التي لا جدال فيها . كانت هناك قطط وكلاب وطيور إوز ودجاج تتجول على هواها فوق الأرضية المبلطة بآجر خشن دون تلميع ، وكانت تثغو هناك طوال الشتاء العنزة التي أرضعت إلزا ، وقد هرمت كثيراً ، ولكن أحداً لم يتجرأ على ذبحها ، لأن ذلك سيكون أشبه بقتل أم . كانت الصغيرة إلزا تحب رائحة الخبز النيئ في القوالب بينما الخميرة تقوم ما بين التنهدات بعملها السحري في جعل العجين

إسفنجياً ؛ ورائحة السكر المخفوق لتزيين قوالب الحلوى ؛ ورائحة كتل الشوكولاته وهي تذوب في الحليب . وفي أيام الأربعاء التي تقام فيها السهرات كانت الخادمتان ـ وهما صبيتان هنديتان تعيشان في البيت وتعملان مقابل طعامهما ـ تلمعان الأدوات الفضية ، وتكويان شراشف الطاولات وتمسحان الزجاج . وعند الظهر يرسلون الحوذي إلى محل الحلويات ليشتري حلوى جاهزة تُحضر وفق وصفات يُحتفظ بها بحرص منذ العهد الاستعماري . وكانت ماما فريسيا تنتهز الفرصة لتعلق في سرج أحد الحصانين زق لبن طازج ليفرز منه الزبد في مسيرة الذهاب والإياب

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر تستدعي مس روز الصغيرة إلزا إلى غرفتها ، حيث يضع الحوذي والخادم حوض استحمام برونزي له قوائم أسد ، فتبطنه الخادمتان بشرشف وتملآنه بماء ساخن معطر بأوراق النعنع الريحان . فتلعبط فيه روز وإلزا مثل طفلتين إلى أن يبرد الماء وترجع الخادمتان وأيديهما محملة بالملابس لمساعدتهما في ارتداء جوارب وأحذية طويلة ، وسراويل داخلية تصل حتى منتصف الساقين ، وقميص قطني ، ثم تنورة داخلية ذات حشوة عند الردفين لإبراز نحول الخصر ، وتلي ذلك ثلاث تنانير منشاة ، وأخيراً الفستان الذي يغطيهما بالكامل ، ولا يترك مكشوفاً سوى الرأس واليدين . وكانت مس روز تستخدم فوق ذلك مشداً مسلحاً بعظام حوت ومشدوداً إلى حد لا تستطيع معه التنفس بعمق أو رفع ذراعيها إلى ما فوق كتفيها ؛ ولا يكون بإمكانها كذلك أن ترتدي ملابسها بمفردها أو أن تنحني لأن عظام الحوت قد تنكسر وتنغرس مثل إبر في جسدها . كان ذلك هو الحمام الوحيد في الأسبوع ، يُمارس بطقوس لا يمكن مقارنتها إلا بطقس غسل الشعر في أيام السبت والذي يمكن لأي ذريعة أن تلغيه ، لأنهم يعتبرونه مضراً بالصحة . وكانت مس روز تستخدم الصابون بحذر خلال أيام الأسبوع الأخرى ، فهي تفضل أن تفرك وجهها بإسفنجة مبللة بالحليب ثم ترطبه بماء

تواليت معطر برائحة الفانيلا ، مثلما هي الموضة في فرنسا منذ أزمنة مدام بومبادور ، كما سمعت ؛ وقد كان بإمكان إلزا أن تتعرف عليها وهي مغمضة العينين وسط حشد من الناس بسبب رائحة الحلوى المميزة التي تفوح منها . وبالرغم من تجاوزها الثلاثين ، كانت تحتفظ بتلك البشرة الشفافة الرقيقة التي تكون للشابات الإنكليزيات قبل أن يحولها ضوء الدنيا والعجرفة إلى ما يشبه جلد رَقّ الكتابة . كانت تحافظ على مظهرها باستخدام ماء الورد والليمون من أجل تبييض البشرة ، والعسل لنعومتها ، والبابونج لمنح الشعر بريقاً ، ومجموعة من البلاسم والعطور التي يجلبها أخوها جون من الشرق الأقصى ، حيث توجد حسب قوله أجمل نساء الكون . وكانت تخترع فساتين تستوحيها من المجلات اللندنية وتصنعها بنفسها في غرفة الخياطة ؛ وكانت بالحدس والذكاء تعدل فساتينها بالأشرطة والأزهار والرياش فتستخدمها لسنوات دون أن تبدو قديمة . ولم تكن تستخدم طرحة سوداء ، مثل التشيليات ، تتغطى بها عندما تخرج ، وهي عادة تبدو لها فظيعة ، لأنها تفضل استخدام عباءاتها القصيرة ومجموعة قبعاتها ، بالرغم من أنهم كانوا ينظرون إليها في الشارع كما لو أنها مومس .

ولأن مس روز كانت سعيدة لرؤية وجه جديد في الاجتماع الأسبوعي ، فقد غفرت لجاكوب تود قبلته المتهورة ، وأمسكته من ذراعه لتقوده إلى طاولة مستديرة في أحد أركان الصالة . وعرضت عليه الاختيار من عدة أصناف من المشروبات ، ملحة عليه بأن يتذوق الميستيلا التي أعدتها بنفسها ، وهو مشروب كريه من القرفة والخمر والسكر لم يستطع ابتلاعه فسكبه خفية في أحد الأصص . ثم عرفته بعد ذلك على الضيوف : مستر ابيلغرين ، صانع أثاث ، ترافقه ابنته ، وهي شابة باهتة وخجولة ؛ ومدام كولبيرت ، مديرة مدرسة إنكليزية للإناث ؛ ومستر ابيلينغ صاحب أفضل متجر لقبعات الرجال وزوجته التي انقضّت على تود مستفسرة منه عن أخبار الأسرة المالكة

الإنكليزية وكأنها تسأل عن أقرباء لها . كما تعرف على الجراحين بيج وبويت .

وأوضحت له مس روز بتقدير :

ـ الطبيبان يجريان العمليات الجراحية باستخدام الكلوروفورم .

وشرح لها أحد الجراحين :

ـ هذا أمر ما يزال جديداً هنا ، أما في أوربا فقد تطورت ممارسة الطب كثيراً

ولأن تود لم يكن يعرف شيئاً عن الموضوع ، فقد أضاف لمجرد قول شيء :

ـ يخيل إليّ أنهم يستخدمونه عادة في عمليات التوليد . ألم تستخدمه الملكة فيكتوريا ؟

ـ الأمر هنا يجد معارضة كبيرة من جانب الكاثوليك . فاللعنة التوراتية للمرأة تقتضي الولادة بألم يا مستر تود .

فردت مس روز بخجل عنيف :

ـ ألا يبدو لكم ذلك جائراً أيها السادة ؟ لعنة الرجل هي أن يعمل بعرق جبينه ، ولكن في هذا الصالون ، ودون أن نذهب بعيداً ، يكسب الرجال حياتهم من عرق الآخرين .

ابتسم الجراحان بارتباك ، أما تود فتفحصها بحذر . كان مستعداً للبقاء إلى جانبها طوال الليلة كلها ، بالرغم من أن التصرف الصحيح في سهرات لندن ، حسب ما يتذكر جاكوب تود ، هو الانصراف بعد نصف ساعة من المجيء . لاحظ أن الحضور في هذا اللقاء يبدون مستعدين للبقاء وافترض أنه لا بد أن يكون الوسط الاجتماعي محدوداً جداً ، وربما كان الاجتماع الأسبوعي الوحيد هو الذي يقام في منزل آل سوميرز . وكان يفكر في ذلك عندما أعلنت مس روز بدء التسلية الموسيقية . أحضرت الخادمات مزيداً من

الشمعدانات ، فأضيئت الصالة كما في وضح النهار ، وصفوا كراسي حول بيانو وجيتار وقيثارة ، وجلست النساء في نصف دائرة وبقي الرجال واقفين وراءهن . استقر رجل ممتلئ الخدين وراء البيانو ، وتقطر من يديّ الجزار اللتين له لحن ساحر ، بينما كانت ابنة صانع الأثاث تغني أغنية بالاد اسكتلندية قديمة بصوت عذب جعل تود ينسى تماماً هيئتها التي مثل هيئة جرذ مذعور . ثم ألقت مديرة مدرسة الإناث قصيدة حماسية ، وطويلة دون مبرر ، أما روز فغنت أغنيتين لاذعتين مع أخيها جون ، على الرغم من الاستنكار الواضح الذي أبداه أخوها جيرمي سوميرز ، ثم طلبت بعد ذلك من جاكوب تود أن يهدي إليهم شيئاً من محفوظاته . فكانت تلك فرصة الزائر ليتألق بصوته الجيد .

ـ أنت لقية حقيقية يا مستر تود! لن نفلتك . فأنت محكوم عليك منذ الآن بالمجيء كل يوم أربعاء! ـ هتفت بذلك عندما توقف التصفيق ، دون أن تهتم بالنظرة المبهورة التي كان الزائر يتأملها بها .

كان تود يحس بأن أسنانه ملتصقة بسكر وأن رأسه يدور ، دون أن يدري إذا ما كان السبب هو إعجابه بروز سوميرز فقط ، أم أنه بسبب كؤوس الخمر التي شربها وقوة السيجار الكوبي الذي دخنه برفقة القبطان سوميرز كذلك . لم يكن من الممكن رفض تناول كأس أو طبق يُقدم في ذلك البيت دون إغضاب مضيفيه ، وسرعان ما اكتشف أن تلك هي إحدى السمات الوطنية في تشيلي ، حيث يتبدى كرم الضيافة في إجبار المدعوين على الشرب والأكل إلى حدود تفوق طاقة البشر . في الساعة التاسعة أعلنوا عن جاهزية العشاء وانتقلوا في موكب إلى صالة الطعام ، حيث كانت تنتظرهم أطباق حاسمة أخرى وحلويات جديدة . وقرابة منتصف الليل نهضت النساء عن المائدة وواصلن تبادل الحديث في الصالون ، بينما كان الرجال يتناولون البراندي ويدخنون في صالة الطعام . وأخيراً ، عندما كان تود على وشك أن يصاب بالإغماء ، بدأ المدعوون بطلب معاطفهم وعرباتهم . والزوجان إيلينغ اللذان أبديا اهتماماً

حيوياً ببعثة تود التبشرية المزعومة إلى أرض النار ، عرضا عليه توصيله إلى فندقه ، فوافق على الفور ، لأنه كان مرتعباً من فكرة العودة في الظلام عبر تلك الشوارع الكابوسية مع حوذي آل سوميرز المخمور . وقد بدت له الرحلة لا نهائية ، فقد كان يشعر بعدم القدرة على التركيز في المحادثة ، وكان دائخاً ومعدته مقلوبة .

وقد قال له مستر إيبلينغ بوقار وهو يودعه :

- زوجتي ولدت في أفريقيا ، وهي ابنة أحد المبشرين الذين كانوا ينشرون الدين الحقيقي هناك ؛ ونحن نعرف ما الذي يعنيه هذا العمل من تضحية يا مستر تود . ونأمل أن تمنحنا امتياز مساعدتك في مهمتك النبيلة بين الوطنيين .

لم يستطع جاكوب تود النوم في تلك الليلة ، فقد كانت رؤية روز سوميرز تنخنسه بقسوة ، وقبل حلول الفجر كان قد اتخذ قرار التودد إليها بجدية . لم يكن يعرف أي شيء عنها ، ولكنه لم يول ذلك اهتماماً ، فربما كان قدره أن يخسر رهاناً ويصل إلى تشيلي لكي يتعرف على زوجة المستقبل وحسب . وكان سيبدأ مكاشفتها بذلك منذ اليوم التالي ، لولا أنه لم يستطع النهوض من السرير بسبب آلام مغص حادة ألمت به . وهكذا بقي نهاراً وليلة فاقداً الوعي أحياناً ومحتضراً في أحيان أخرى ، إلى أن تمكن من جمع قواه ليطل من الباب ويطلب مساعدة . وبناء على رغبته بعث صاحب الفندق من يخبر آل سوميرز ، معارفه الوحيدين في المدينة ، واستدعى خادماً لتنظيف الغرفة التي كانت تعبق برائحة مزبلة . حضر جيرمي سوميرز إلى الفندق ومعه أشهر حَجّام في بالبارايسو ، وقد تبين أنه يعرف شيئاً من اللغة الإنكليزية ، وبعد فصد الدم من ساقيه وذراعيه وتركه مستنفداً ، أوضح أن جميع الأجانب يمرضون حين يطؤون أرض تشيلي أول مرة .

ثم طمأنه بالقول :

- ليس هناك ما يستدعي القلق ، فقلة هم الذين يموتون على حد علمي .

أمره بأن يتناول كينين قدمه إليه في رقائق خبز رز ، ولكنه لم يستطع ابتلاعه ، وكان يتلوى من الاشمئزاز . لقد عاش في الهند من قبل ، وكان يعرف أعراض الملاريا وغيره من أمراض المناطق الاستوائية التي تعالج بالكينين ، ولكن هذا الداء الذي أصابه لا يشبهها ولو من بعيد . وما كاد الحجّام يغادر حتى عاد الخادم وشطف الغرفة مرة أخرى . ترك له جيرمي سوميرز عنوان الطبيبين بيج وبويت ، ولكن لم يكن ثمة وقت لاستدعائهما ، إذ ظهرت في الفندق بعد حوالى ساعتين امرأة طلبت رؤية المريض . وكانت تمسك بيدها طفلة ترتدي ثوباً من المخمل الأزرق ، وحذاء أبيض وقلنسوة مطرزة بأزهار ، وكأنها إحدى شخصيات الحكايات . إنهما ماما فريسيا وإلزا ، وقد أرسلتهما روز سوميرز التي كان إيمانها ضعيفاً بالحجامين . دخلتا إلى الحجرة بثقة كبيرة لم يتجرأ معها جاكوب تود خائر القوى على الاعتراض . لقد حضرت الأولى منهما بصفة مداوية والثانية كمترجمة لها .

- تقول ماميتا إنها ستخلع عنك البيجاما . وأنا لن أنظر - أوضحت الطفلة ذلك والتفتت نحو الجدار بينما كانت الهندية تعريه بحركات سريعة ، وبدأت تفرك جسده كله بالخمر .

وضعتا في سريره قطع آجر ساخنة ، ودثرتاه بالأغطية وقدمتا إليه شراب أعشاب مراً ومحلى بالعسل من أجل تخفيف آلام المغص .

وقالت الطفلة :

- ستقوم مامتي الآن بالقراءة على الداء .

- وما هو هذا ؟

- لا تخف ، فهو غير مؤلم .

أغمضت ماما فريسيا عينيها وبدأت تمر بيديها على الصدر والبطن بينما هي تهمس بتعزيمات بلغة المابوتشي . أحس جاكوب تود بنعاس شديد ،

وقبل أن تنتهي المرأة كان يغفو بعمق ولم يدر متى غادرت ممرضتاه . نام ثماني عشرة ساعة واستيقظ مبللاً بالعرق . وفي اليوم التالي رجعت ماما فريسيا وإلزا من أجل إجراء تدليك جديد وتقديم زبدية حساء دجاج إليه .

وترجمت الصغيرة :

- تقول مامتي إنه عليك ألا تشرب الماء أبداً . اشرب شاياً ساخناً فقط ، ولا تأكل الفواكه وإلا فإن الرغبة في الموت ستعاودك من جديد .

بعد أسبوع ، عندما تمكن من النهوض على قدميه ونظر إلى نفسه في المرآة ، أدرك أنه لا يمكنه الظهور بهذا المظهر أمام مس روز : كان قد فقد عدة كيلو غرامات من وزنه ، وشحب لونه ، ولم يكن بإمكانه أن يخطو خطوتين دون السقوط لاهثاً على كرسي . وعندما صار في حالة تتيح له أن يبعث إليها ملاحظة شكر لأنها أنقذت حياته وبعض الشوكولاته إلى ماما فريسيا وإلزا ، علم أن الشابة قد سافرت مع صديقة لها وخادمتها إلى سنتياغو في رحلة محفوفة بالمجازفة ، لسوء أحوال الطريق وقسوة المناخ ؛ لقد كانت مس روز تقطع الطريق الذي يمتد أربعة وثلاثين فرسخاً مرة في السنة ، تفعل ذلك دوماً في بداية الخريف أو في أوج الربيع ، من أجل مشاهدة المسرح ، والاستماع إلى موسيقى جيدة والقيام بمشترياتها السنوية من المخزن الياباني الكبير ، المعطر بالياسمين والمضاء بمصابيح غاز ذات كرات زجاجية وردية ، حيث يمكنها شراء الترهات التي تجد صعوبة في الحصول عليها من ميناء بالبارايسو . وقد كان لديها في هذه المرة مع ذلك سبب وجيه للذهاب في الشتاء : فهي تريد رسم صورة لها . إذ وصل إلى البلاد الرسام الفرنسي المشهور مونفوازان ، بدعوة من الحكومة لتأسيس مدرسة في الرسم بين الفنانين الوطنيين . وكان المعلم يرسم الرأس فقط ، ثم يكمل مساعدوه البقية ، ومن أجل كسب مزيد من الوقت ، كانت الدنتيلا تُلصق فوراً على قماش اللوحة ، وبالرغم من كل تلك الحيل المخادعة ، لم يكن هناك زهواً أكبر من الحصول على صورة تحمل توقيعه . وقد

أصر جيرمي سوميرز على اقتناء صورة لأخته كي يضعها في صدر الصالون . كانت اللوحة تكلف ست أونصات ذهباً وأونصة أخرى لكل يد ، ولكن مثل هذا الأمر لم يكن يستدعي الاقتصاد والتوفير . ففرصة الحصول على لوحة أصلية لمونفوازان العظيم لا تتوفر مرتين في الحياة ، على حد قول زبائنه .

وقد علقت مس روز :

ـ إذا كانت النفقات غير مهمة ، فإنني أريده أن يرسمني بثلاث أيد . ستكون أشهر لوحاته وسينتهي بها المطاف في أحد المتاحف بدل تعليقها فوق مدفأة بيتنا .

كانت تلك هي سنة الفيضانات التي بقيت مسجلة في الكتب المدرسية وفي ذاكرة الأجداد . لقد جرف الطوفان مئات البيوت ، وعندما هدأت العاصفة أخيراً وبدأت المياه تنخفض ، جاءت سلسلة هزات أرضية خفيفة اعتبرت ضربة من الله ، فقوضت ما كانت المياه قد لينته . فراح الأوغاد يجوبون الأنقاض ويستغلون الفوضى ليسرقوا من البيوت ، وتلقى الجنود تعليمات بإعدام من يضبطونه يقوم بذلك ، ولكن الجنود الذين تحمسوا للقسوة ، أخذوا يوزعون ضربات سيوفهم لمجرد الاستمتاع بسماع العويل والحشرجات ، فكان لا بد من سحب الأوامر قبل أن يقضوا على الأبرياء أيضاً . جاكوب تود المحبوس في الفندق ليشفى من إصابة بالرشح وهو ما يزال ضعيفاً على أثر أسبوع المغص ، كان يقضي الساعات يائساً من تواصل قرع نواقيس الكنائس الداعية إلى التوبة والتكفير ، وهو يقرأ صحفاً قديمة ويبحث عن رفاق يلعب معهم الورق . خرج مرة إلى الصيدلية بحثاً عن مُقَوٍّ لتقوية معدته ، ولكن الدكان كان ركناً ضيقاً تعمه الفوضى ، مترعاً بقوارير زجاجية زرقاء وخضراء يغطيها الغبار ، حيث قدم إليه بائع ألماني زيت عقارب وخلاصة ديدان . فأحس للمرة الأولى بالندم لابتعاده الكبير عن لندن .

وكان لا يكاد ينام في الليل بسبب صخب وشجار السكارى ومواكب الدفن التي تجري ما بين الثانية عشرة ليلاً والثالثة فجراً . كانت المقبرة الجديدة فوق إحدى الروابي المطلة على المدينة . وقد انشقت الحفر خلال العاصفة وتدحرجت قبور على السفوح في فوضى عظام خلطت الموتى كلهم في الإهانة نفسها . وعلّق كثيرون بأن من ماتوا قبل عشر سنوات هم أحسن حالاً ، إذ كان الأغنياء يدفنون موتاهم في الكنائس ، والفقراء في الوعر ، والأجانب على الشاطئ . إنها بلاد عجيبة ، كان هذا ما توصل إليه تود وهو يربط منديلاً على وجهه لأن الريح كانت تحمل نتانة النكبة المقززة التي كافحتها السلطات بمواقد ضخمة تحرق فيها الأوكاليبتوس . وما كادت صحته تتحسن حتى أطل ليرى المواكب . لم تكن تلك المواكب تلفت الاهتمام عموماً ، لأنها تتكرر كل سنة بالطريقة نفسها خلال ستة أيام أسبوع الآلام واحتفالات دينية أخرى ، ولكنها تحولت هذه المرة إلى احتفال حاشد من أجل التضرع إلى السماء لوضع حد للعاصفة . كانت تخرج من الكنائس صفوف من المؤمنين ، يتقدمها أعضاء جمعيات دينية متشحين بالسواد ، يحملون على محفات تماثيل القديسين بملابس بديعة مطرزة بالذهب والأحجار الكريمة . وعمود ينتهي بمسيح مسمر على صليب مع تاج الشوك حول رقبته . وقد أوضحوا له إنه مسيح أيار الذي جيء به خصيصاً من سنتياغو لهذه المناسبة ، لأنه التمثال الأكثر إعجازاً في العالم ، والوحيد القادر على تعديل حالة المناخ . فقبل مئتي سنة كان زلزال مروع قد دمر العاصمة وحولها أنقاضاً وانهارت كنيسة سان أغوسطين بالكامل ، باستثناء المذبح الذي كان عليه ذلك المسيح . وقد انزلق إكليل الشوك يومئذ من الرأس إلى العنق ، حيث ما يزال موجوداً ، لأنهم كلما حاولوا وضعه في مكانه ، تعود الزلزلة . كانت المواكب تضم عداداً من الرهبان والراهبات ، ومؤمنين منهوكين من كثرة الصيام ، وشعباً بائساً يصلي ويغني بصراخ مجروح ، وتائبين بثياب التكفير الخشنة ، وجلادي أنفسهم يسوطون

ظهورهم العارية بسياط جلدية تنتهي بقطع حديدية مدببة الحواف . يسقط بعضهم مغمى عليهم فتعتني بهم نساء يمسحن لحمهم المشقق ويقدمن لهم مرطبات ، ولكنهم ما أن يستعيدوا وعيهم حتى يدفعونهم إلى الموكب من جديد . تمر صفوف هنود يعذبون أنفسهم بحماس جنوني ، وفرق موسيقية تعزف أناشيد دينية . دوي تراتيل التوبة يبدو شلال ماء قوي ، والهواء الرطب يعبق برائحة البخور والعرق . كانت هناك مواكب أرستقراطيين يرتدون ملابس فاخرة ، ولكنها قاتمة ودون مجوهرات ، ومواكب أخرى لرعاع حفاة يرتدون الأسمال تمر متقاطعة مع تلك في الساحة نفسها ولكن دون أن يلامس هذا الموكب ذاك أو يختلط به . وكلما تقدمت المواكب ازداد الصياح وأصبحت دلائل الورع أشد زخماً ؛ فالمؤمنون يصرخون طالبين الغفران لخطاياهم ، وهم واثقون من أن سوء الأحوال الجوية عقاب إلهي على ذنوبهم . ويهرع النادمون للاعتراف في حشود غفيرة ، فلم تعد الكنائس تكفي وصار الرهبان يصطفون تحت مظلات ليتلقوا الاعترافات . بدا المشهد فاتناً للإنكليزي ، فهو لم ير في أي واحدة من أسفاره شيئاً بمثل تلك الغرابة والكآبة . فقد كان يشعر ، هو المعتاد على البساطة البروتستانتية ، وكأنه قد ارتد إلى القرون الوسطى . لن يصدق أصدقاؤه في لندن ذلك مطلقاً . حتى وهو على مسافة حذرة يمكنه أن يشعر برعشة البهيمة البدائية والمتألمة التي تذرع الكتلة البشرية في موجات . تسلق بمشقة فوق قاعدة تمثال في الساحة الصغيرة ، قبالة كنيسة ماتريث ، حيث يمكن رؤية مشهد بانورامي للحشود . وفجأة أحس بأن هناك من يشده من بنطاله ، فأنزل بصره ورأى طفلة مذعورة تغطي رأسها بطرحة ووجهها ملطخ بالدم والدموع . أبعد نفسه بجفاء ، ولكن حركته جاءت متأخرة ، فقد كانت قد لوثت بنطاله . أطلق لعنةً وحاول أن يبعدها عنه بالإيماءات ، ذلك أنه لم يستطع أن يتذكر الكلمات المناسبة لعمل ذلك بالإسبانية ، ولكنه فوجئ عندما ردت عليه بإنكليزية واضحة بأنها قد ضلت

الطريق وإذا ما كان يمكنه أن يوصلها إلى بيتها . عندئذ نظر إليها بتمعن . فدمدمت الطفلة :

ـ أنا إلزا سوميرز . هل تتذكرني ؟

لقد انتهزتْ فرصة وجود مس روز في سنتياغو من أجل رسم صورتها ، وكون جيرمي سوميرز لا يأتي إلى البيت إلا قليلاً في تلك الأيام ، لأن الفيضانات قد أغرقت مستودعات مكتبه ، ففكرت بالذهاب إلى الموكب ، وقد ألحت على ماما فريسيا كثيراً إلى أن رضخت المرأة لرغبتها . كان أسيادها قد حظروا عليها الإتيان على ذكر الطقوس الكاثوليكية أو الهندية أمام الطفلة أو أخذها لرؤيتها ، ولكنها هي نفسها أيضاً كانت تموت لهفة لرؤية مسيح أيار ولو مرة واحدة في حياتها . وفكرت بأن الأخوة سوميرز لن يعلموا بذلك أبداً . وهكذا خرجتا معاً بصمت من البيت ، ونزلتا الرابية مشياً على الأقدام ، وركبتا عربة أوصلتهما إلى مقربة من الساحة حيث انضمتا إلى فرقة من الهنود التائبين . وكان كل شيء سيسير وفق ما خططتا لو أن إلزا ، في ازدحام وحماسة ذلك اليوم ، لم تفلت يد ماما فريسيا التي انتقلت إليها عدوى الهستيريا الجماعية ولم تنتبه للأمر . بدأت الطفلة تصرخ ، ولكن صوتها ضاع وسط التراتيل ودوي الطبول الكئيبة للفرق الدينية . راحت تركض باحثة عن مربيتها ، ولكن جميع النساء كن يبدون متشابهات تحت الطرحات السوداء ، وكانت قدماها تنزلقان على أحجار الطريق المغطاة بالوحل والشمع الذائب والدم . وسرعان ما تجمعت مختلف الفرق في حشد واحد راح يتجرْجر مثل حيوان جريح ، بينما أجراس الكنائس تُقرع وصفارات البواخر تدوي في الميناء . لم تعرف كم من الوقت بقيت مشلولة من الرعب ، إلى أن بدأت الأفكار تتضح شيئاً فشيئاً في ذهنها . وعندئذ كان الموكب قد هدأ ، وجثا الجميع على ركبهم ، وأقام المطران شخصياً قداساً مغنى في طريق قبالة الكنيسة . فكرت إلزا بالسير نحو رابية ثيرو أليغري ، ولكنها خافت أن

يداهمها الظلام قبل أن تصل إلى بيتها ، فهي لم تكن قد خرجت وحدها من قبل ، ولم تكن تعرف كيف تتوجه . فقررت ألا تتحرك إلى أن تتفرق الحشود ، فربما تجدها عندئذ ماما فريسيا . عندئذ التقت عيناها بشخص طويل القامة ذي شعر مائل إلى الحمرة متعلقاً بتمثال الساحة وتعرفت فيه على المريض الذي كانت قد عالجته مع مربيتها . فشقت طريقها إليه دون تردد .

هتف الرجل :

- ما الذي تفعلينه هنا! هل أنت جريحة ؟

- إنني ضائعة ؛ هل يمكنك أن توصلني إلى البيت ؟

مسح جاكوب تود وجهها بمنديله وتفحصها بسرعة ، وتأكد من عدم وجود أي جراح ظاهرة . وتوصل إلى أن الدماء لا بد أن تكون ممن يجلدون أنفسهم .

- سآخذك إلى مكتب مستر سوميرز .

ولكنها توسلت إليه ألا يفعل ذلك ، لأن حاميها إذا ما علم بخروجها إلى الموكب ، فسوف يطرد ماما فريسيا . خرج تود للبحث عن عربة يستأجرها ، ولم يكن العثور عليها سهلاً في تلك اللحظات ، بينما الطفلة تمشي صامتة ودون أن تفلت يده . أحس الإنكليزي للمرة الأولى في حياته برعشة حنان حيال تلك اليد الصغيرة الدافئة المتشبثة بيده . وبين حين وآخر كان ينظر إليها خفية متأثراً لهذا الوجه الطفولي ذي العينين السوداوين اللوزيتين . وأخيراً وجدا عربة يجرها بغلان ووافق الحوذي على نقلهما إلى الرابية مقابل أجر يعادل ضعف التعرفة المعهودة . قاما بالرحلة بصمت وبعد ساعة من ذلك ترك إلزا قبالة بيتها . ودعته شاكرة ، ولكن دون أن تدعوه للدخول . رآها تبتعد ، صغيرة وهشة ، مغطاة حتى قدميها بالطرحة السوداء . وفجأة استدارت الطفلة وركضت نحوه ، ثم ألقت بذراعيها حول عنقه وطبعت قبلة على خده . وقالت مرة أخرى : شكراً . رجع جاكوب تود إلى فندقه في العربة نفسها . وبين فينة

وفينة كان يلمس خده ، متفاجئاً بذلك الإحساس العذب والكئيب الذي أوحت به الطفلة إليه .

●

أفادت المواكب في زيادة الندم الجماعي ، وأفادت كذلك ، كما ثبت لجاكوب تود نفسه ، في وقف المطر ، وأكدت مرة أخرى شهرة مسيح أيار الرائعة . ففي أقل من ثمان وأربعين ساعة صفت السماء وأطلت شمس خجولة ، واضعة لمسة تفاؤل على كونشيرتو التعاسة في تلك الأيام . وبسبب العاصفة والأوبئة انقضت تسعة أسابيع قبل أن تتجدد سهرات الأربعاء في بيت آل سوميرز ، ثم انقضت بضعة أسابيع أخرى قبل أن يتجرأ جاكوب تود على التلميح عن مشاعره العاطفية لمس روز . وعندما فعل ذلك أخيراً ، تظاهرت هي بعدم سماعه . ولكنها حيال إلحاحه خرجت عليه بجواب مفحم :

- الشيء الجيد الوحيد في الزواج هو الترمل .

فرد عليها دون أن يفقد طيب مزاجه :

- مهما كان الزوج أبله ، فإنه يمتع .

- ليس في مثل حالتي . فالزوج سيكون عقبة ولن يوفر لي شيئاً لا أملكه .

- ربما يقدم لك أبناء ؟

- ولكن... كم تظن عمري يا مستر تود ؟

- ليس أكثر من تسع عشرة سنة!

- لا تسخر . ثم إن لدي إلزا لحسن الحظ .

- إنني عنيد يا مس روز ، وأنا لا أستسلم أبداً .

- أشكرك يا مستر تود . فليس الزوج هو الذي يمتع وإنما كثرة المعجبين .

وكانت روز على أي حال هي السبب في بقاء جاكوب تود في تشيلي لوقت أطول بكثير من الشهور الثلاثة المقررة لبيع كتبه المقدسة . لقد كان آل

سوميرز صلة الوصل الاجتماعية المناسبة تماماً ، فبفضلهم فتحت له على مصراعيها أبواب الجالية الأجنبية المزدهرة ، والمستعدة لمساعدته في حملته التبشيرية الدينية المزعومة إلى أرض النار . استعد للتعلم والدراسة من أجل التعرف على أحوال هنود باتاغونيا ولكنه بعد أن ألقى نظرة ناعسة على بعض المجلدات في المكتبة ، أدرك أن المعرفة وعدم المعرفة سيان ، لأن الجهل في الموضوع كان جماعياً . يكفيه أن يقول تلك الأشياء التي يرغب الناس في سماعها ، وهو يعتمد في ذلك على لسانه الذهبي . ولكي يضع شحنة الكتب المقدسة بين زبائن تشيليين أقوياء ، لا بد له من تحسين إسبانيته المزعزعة . وبفضل الشهرين اللذين كان قد أمضاهما سابقاً في إسبانيا وأذنيه الجيدتين ، تمكن من تعلم اللغة بسرعة أكبر وصورة أفضل من بريطانيين كثيرين جاؤوا إلى البلاد قبل عشرين سنة . لقد أخفى في أول الأمر أفكاره السياسية شديدة الليبرالية ، ولكنه لاحظ أنهم يحاصرونه في كل لقاء اجتماعي بأسئلة وتحيط به على الدوام جماعة من المستمعين المذهولين . فخطاباته الداعية إلى الانعتاق والمساواة والديمقراطية كانت تهز سبات أولئك الناس الطيبين ، وتكون سبباً في مناقشات أبدية بين الرجال وصرخات ذعر ما بين السيدات الناضجات ، ولكنها تجتذب بالتأكيد أكثرهن شباباً ، وكان الرأي العام يصنفه على أنه مجنون ، وبدت أفكاره النارية مسلية ، أما سخرياته من العائلة المالكة البريطانية بالمقابل فكانت سيئة الوقع جداً بين أفراد الجالية الإنكليزية الذين كانوا يرون في الملكة فيكتوريا إلهاً وفي الإمبراطورية أمراً لا يمكن المس به . كان دخله المتواضع ، إنما غير التافه ، يتيح له أن يعيش حياة بطالة وكسل دون أن يكون قد عمل بجد قط ، وكان هذا يضعه في مرتبة الفرسان . وعندما اكتشفوا أنه متحرر من الارتباطات ، لم تعدم فتيات في سن الزواج يسعين جاهدات لاصطياده ، ولكنه بعد أن تعرف على روز سوميرز ، لم تعد له عينان لرؤية غيرها . لقد تساءل ألف مرة عن سبب بقاء الشابة عازبة وكان

الجواب الوحيد الذي خطر لذلك اللاأدري العقلاني هو أن السماء قد حددت قدرها ورصدتها له .

وكان يقول لها ممازحاً :

- إلى متى ستواصلين تعذيبي يا مس روز ؟ ألا تخشين أن أمل من ملاحقتك ؟

فترد :

- لن تمل يا مستر تود . فملاحقة القط أجمل بكثير من الإمساك به .

بلاغة المبشر المزيف كانت أمرا مستجدا في تلك الأجواء ، وما أن عُرف بأنه قد درس الكتابات المقدسة بعمق ، حتى طلبوا منه الكلمة في القداس . كان هناك معبد أنجليكاني صغير ، تنظر إليه السلطات الكاثوليكية بغير عين الرضا ، ولكن الجالية البروتستانتية كانت تلتقي كذلك في بيوت خاصة . «أين رؤيت كنيسة دون رسوم العذراء والشياطين ؟ الغرباء جميعهم هراطقة ، لا يؤمنون بالبابا ، ولا يعرفون كيف يصلّون ، وهم يقضون الوقت في الغناء ، بل إنهم لا يشاركون في تناول خبز القربان» ، كانت ماما فريسيا تدمدم مستهجنة عندما يكون موعد إقامة قداس الأحد في بيت آل سوميرز . استعد تود ليقرأ بإيجاز حول خروج اليهود من مصر ثم لينتقل بعد ذلك مباشرة إلى الحديث عن أوضاع المهاجرين الذين عليهم ، مثل اليهود ، أن يتأقلموا في أرض غريبة ، ولكن خطر لجيرمي أنه مبشر وطلب منه أن يتحدث عن هنود أرض النار . لم يكن جاكوب تود يعرف أين هو موقع المنطقة ولا سبب تسميتها بهذا الاسم الموحي ، ولكنه تمكن من التأثير على مستمعيه إلى حد استدرار الدمع بقصة عن ثلاثة متوحشين اصطادهم قبطان إنكليزي لحملهم إلى إنكلترا . وقال إن أولئك التعساء الذين كانوا يعيشون عراة في البرد الجليدي والمعتادين على اقتراف أكل اللحم البشري ، صاروا خلال أقل من ثلاث سنوات يمضون بملابس أنيقة ، وقد تحولوا إلى مسيحيين طيبين وتعلموا

العادات المتحضرة ، بل إنهم تحملوا الطعام الإنكليزي . ولكنه لم يوضح مع ذلك بأنهم ما أن أعيدوا إلى موطنهم حتى عادوا على الفور إلى عاداتهم السابقة ، وكأنهم لم يعرفوا قط لمسة إنكلترا أو كلمة يسوع . وباقتراح من جيرمي سوميرز ، جرى هناك بالذات تنظيم حملة تبرعات من أجل مهمة نشر الدين . وكانت الحصيلة جيدة إلى حد أمكن معه لجاكوب تود أن يفتح في اليوم التالي حساباً في فرع مصرف لندن في بالبارايسو . وكان الحساب يتغذى أسبوعياً بمساهمات البروتستانتيين ويزداد بالرغم من تحويلات تود الكثيرة لتمويل نفقاته الخاصة ، عندما لم يكن دخله كافياً لتغطية تلك النفقات . وكلما ازدادت الأموال كانت تتكاثر العراقيل والحجج لتأخير الحملة التبشيرية . فمضت على تلك الحال سنتان .

●

وصل الأمر بجاكوب تود إلى الإحساس بالراحة في بالبارايسو وكأنه قد ولد هناك . ففي طباع التشيليين والإنكليز عدد من الملامح المشتركة ؛ فكل شيء يحلّونه عن طريق الوكلاء والمحامين ؛ ويشعرون بتمسك عبثي بتقاليد ورموز الوطن والروتين ؛ يتبجحون بأنهم فرديون وأعداء للتباهي الذي يزدرونه لأنه رمز للوصولية الاجتماعية ؛ يبدون لطفاء وتحت السيطرة ، ولكنهم قادرون على اقتراف قساوات عظيمة . ومع ذلك فإن التشيليين ، وعلى خلاف الإنكليز ، يشعرون بالرعب من الشذوذات الغريبة ولا يخشون شيئاً مثل خشيتهم من أن يبدوا مضحكين . وفكر جاكوب تود : إذا ما أتقنت تكلم الإسبانية ، فسوف أشعر كما لو أنني في بيتي . كان قد استقر في نزل تملكه أرملة إنكليزية تربي قططاً وتخبز أشهر حلوى في الميناء . ينام مع أربع هررة على السرير ، وهي رفقة لم يعرف أفضل منها من قبل ، ويكون فطوره كل صباح من حلويات مضيفته المغرية . أقام اتصالات مع تشيليين من كل الأصناف ، ابتداء من أكثرهم بؤساً ممن كان يتعرف عليهم في جولاته في

أحياء الميناء السفلى ، وحتى أرفعهم مقاماً ومنزلة . وقد قدمه جيرمي سوميرز في نادي الاتحاد ، حيث قُبل كعضو مدعو . وهو امتياز لا يمكن أن يتمتع به سوى الأجانب ذوي الأهمية المعترف بها ، ذلك أنه ناد للإقطاعيين والسياسيين المحافظين ، حيث تقاس مكانة المشاركين بقيمة كنيتهم . وانفتحت له الأبواب بفضل مهارته في ألعاب الورق والنرد ؛ وكان يخسر بظرافة شديدة إلى حد أن قلة هم الذين كانوا ينتبهون إلى كثرة ما يكسبه . وهناك صار صديقاً لأغوسطين دل بايي ، وهو مالك أراض زراعية في المنطقة ، وقطعان أغنام في الجنوب الذي لم تطأه قدماه قط ، إذ كان لديه مشرفون أحضرهم من اسكتلندا . وقد أتاحت له هذه الصداقة الجديدة فرصة زيارة بيوت الأسر الأرستقراطية التشيلية الصارمة ، وهي أبنية مربعة وقاتمة مؤلفة من حجرات كبيرة وشبه خاوية ، مزينة دون ذوق ، بمفروشات ثقيلة ، وشمعدانات مأتمية وبلاط مصلوبين نازفين وعذراوات من الجبس وقديسين بملابس على طريقة النبلاء الإسبان القدماء . إنها بيوت مقلوبة نحو الداخل ، مغلقة على الشارع ، ذات شباك قضبان حديدية عالية ، غير مريحة وخشنة ولكنها مجهزة بممرات باردة وباحات داخلية مزروعة بالياسمين وأشجار البرتقال وشجيرات الورد .

عندما أطل الربيع دعا أغوسطين دل بايي آل سوميرز وجاكوب تود إلى إحدى إقطاعياته . كان الطريق كابوساً ؛ ومع أنه بإمكان فارس على حصانه أن يقطعه في أربع أو خمس ساعات ، إلا أن قافلة الأسرة وضيوفها التي خرجت في الفجر لم تصل إلا بعد أن تقدم الليل كثيراً . فقد كان آل دل بايي يتنقلون في عربات تجرها الجواميس ، حيث يضعون طاولات وآرائك من القطيفة . يتبعون قافلة من البغال المحملة بالأمتعة وعمالاً على خيول مسلحين بطبنجات قديمة للدفاع عنهم من قطاع الطرق الذين يكمنون عادة منتظرين في منعطفات الجبال . ويضاف إلى بطء الحيوانات المثير للأعصاب ، حفر الطريق حيث كانت

تعلق العربات ، والتوقفات الكثيرة للراحة ، حيث يقدم الخدم الأطعمة من السلال وسط سحابة من الذباب . لم يكن تود يعرف شيئاً عن الزراعة ، ولكن نظرة واحدة كانت كافية لمعرفة أنه يمكن لكل شيء أن ينمو بوفرة في تلك الأراضي الخصبة ؛ فالثمار تسقط عن الأشجار وتتعفن على الأرض دون أن يتكلف أحد مشقة التقاطها . وفي المزرعة وجد أسلوب الحياة نفسه الذي كان قد شهده قبل سنوات من ذلك في إسبانيا : أسرة كبيرة العدد متحدة بروابط دم متشابكة وبقانون شرف صارم . كان مضيفه بطريركا متنفذاً وإقطاعياً يتحكم بقبضة محكمة بمصائر ذريته ويتباهى ، بعجرفة ، بنسب يصل حتى أول الفاتحين الإسبان . كان يقول : أسلافي مشوا أكثر من ألف كيلومتر وهم متسربلون بدروع حديدية ثقيلة ، اجتازوا جبالاً ، وأنهاراً ، والصحراء الأشد قحولة في العالم ، لكي يؤسسوا مدينة سنتياغو . لقد كان بين ذويه رمزاً للسلطة والوقار ، أما خارج طبقته فكان يعرف على أنه شيطان بغيض . له ذرية كبيرة من الأبناء غير الشرعيين وسمعة سيئة بأنه قد قتل أكثر من واحد من فلاحيه المستأجرين في نوبات نزقه الأسطورية ، ولكن تلك الميتات ، مثل خطايا أخرى كثيرة ، لم تكن تُناقش أبداً . لقد كانت زوجته في الأربعينات ، ولكنها تبدو مثل عجوز مرتعشة ومنحنية ، ترتدي ثياب الحداد دوماً على الأبناء المتوفين في الطفولة ، وتختنق تحت ثقل المشد والدين وذلك الزوج الذي جعله الحظ من نصيبها . كان أبناء الأسرة الذكور يقضون حياة البطالة ما بين الصلوات ، والنزهات ، والقيلولات ، والألعاب والعربدة ، بينما البنات يطفن مثل حوريات غامضات في الحجرات والحدائق ، ما بين حفيف التنانير ، ودوماً تحت العين المتيقظة لصاحباتها . لقد جرت تربينهن منذ صغرهن من أجل حياة فاضلة ، وإيمان ونكران للذات ؛ وكان قدرهن هو زيجات مصلحة والأمومة .

وحضروا في الريف مصارعة ثيران لا تشبه ولو من بعيد استعراض الشجاعة والموت اللامع في إسبانيا ؛ فلا شيء من البدلات الفخمة ، والتبجح

والمجد ، بل مشادة سكارى متهورين يعذبون الحيوان بحراب وشتائم ، ينقلبون على التراب بضربات قرون ما بين لعنات وقهقهات . وكان أصعب ما في تلك المصارعة هو سحب البهيمة الهائجة والمزرية من الحلبة ، ولكن على قيد الحياة . وحمد تود أنهم يوفرون على الثور الإهانة الأخيرة بالإعدام العلني ، ذلك أن قلبه الإنكليزي الطيب يفضل رؤية المصارع ميتاً وليس الثور . وفي الأمسيات كان الرجال يلعبون الورق ، يخدمهم كما الأمراء ، جيشٌ حقيقي من الخدم القاتمين والبائسين الذين لا ترتفع أبصارهم عن الأرض ولا تعلو أصواتهم عن الهمس . وهم يبدون عبيداً دون أن يكونوا عبيداً . فهم يعملون مقابل الحماية ، والسقف وجزء من المحصول ؛ لقد كانوا أحراراً نظرياً ، ولكنهم يبقون مع المالك ، مهما كان ظالماً ومهما كانت الشروط قاسية ، لأنه ليس لديهم مكان يذهبون إليه . كانت العبودية قد أُلغيت منذ أكثر من عشر سنوات دون صخب كبير . فالمتاجرة بالأفارقة لم تكن رابحة قط في تلك الأنحاء ، حيث لا وجود لمزارع كبيرة ، ولكن أحداً لم يكن يأتي على ذكر المصير الذي حاق بالهنود الذين جردوا من أرضهم وحولوا إلى البؤس ، ولا مستأجري الأرض الذين يباعون ويورثون مع الأملاك ، مثل البهائم . ولم يكن هناك كذلك أي حديث عن العبيد الصينيين والبولينيزيين الذين يرسلون إلى مكامن الغوانو في جزر تشينتشاس . إذ ليس هناك أي مشكلة ما داموا لم ينزلوا إلى البر : فالقانون يحرم العبودية في الأرض القارية ، ولكنه لا يقول شيئاً عن البحر . وبينما الرجال يلعبون الورق ، كانت مس روز تكتم ضجرها برفقة السيدة دل بايي وبناتها الكثيرات . أما إلزا بالمقابل ، فكانت تعدو على جواد في الحقول الفسيحة مع باولينا ، ابنة أغوسطين دل بايي الوحيدة التي خرجت على النموذج الخامل لنساء تلك الأسرة . لقد كانت أكبر من إلزا بعدة سنوات ، ولكنها استمتعت معها في ذلك اليوم وكأنهما في السن نفسها ، كلتاهما تسوطان بهيمتيهما بشعرهما المفلت مع الريح ووجهيهما للشمس .

آنسات

كانت إلزا سوميرز طفلة نحيلة وضئيلة ، ذات تقاطيع ناعمة مثل رسم بالريشة . وعندما أكملت في عام ١٨٤٥ ثلاث عشرة سنة من عمرها وبدأ صدرها وخصرها يتخذان شكلهما ، كانت ما تزال طفلة ، وإن بدأت تُلمح عذوبة حركاتها التي ستكون أفضل ملامح جمالها . وكانت مراقبة مس روز الصارمة لها قد أكسبت هيكلها العظمي استقامة الرمح : فقد كانت تجبرها على إبقاء جذعها منتصباً بواسطة قضيب حديدي مثبت على ظهرها خلال الساعات الطويلة التي تقضيها في التدرب على البيانو والتطريز . ولكن قامتها لم تَطل كثيراً واحتفظت بالمظهر الطفولي المخادع نفسه الذي أنقذ حياتها أكثر من مرة . وقد بقيت طفلة في أعماقها ، حتى أنها واصلت بعد سن البلوغ النوم متكورة على نفسها في مهد طفولتها نفسه ، محاطة بدمى وماصة إصبعها . وكانت تقلد سلوك جيرمي سوميرز في إظهار الفتور والملل ، لأنها كانت تظن أنها علامة صلابة داخلية . وقد تعبت مع مرور السنوات من التظاهر بالملل ، ولكن ذلك أفادها في السيطرة على شخصيتها . كانت تشارك في مهمات الخدم : يوماً في صنع الخبز ، وآخر في طحن الذرة ، يوماً في تشميس الفراش ، وآخر لغلي الملابس البيضاء . وكانت تقضي ساعات وهي قابعة وراء ستارة النافذة تلتهم الأعمال الكلاسيكية في مكتبة جيرمي سوميرز واحداً بعد

آخر ، وروايات مس روز الرومنسية ، والصحف القديمة وكل ما هو متوفر من قراءات ، مهما كانت مملة . وتمكنت من جعل جاكوب تود يهدي إليها واحداً من كتبه المقدسة باللغة الإسبانية ، وكانت تحاول فك رموزه بصبر عظيم ، لأن تعليمها المدرسي كان باللغة الإنكليزية . فكانت تغرق في العهد القديم بافتتان مَرَضيّ بفجور وغراميات الملوك الذين يغوون زوجات الآخرين ، والأنبياء الذين يُنزلون العقاب بصواعق رهيبة ، والآباء الذين ينجبون ذرية من بناتهم . وفي حجرة الأمتعة المهملة ، حيث تتراكم أشياء عتيقة ، وجدت خرائط وكتب رحلات ووثائق إبحار لخالها جون ، أفادتها في تحديد حدود العالم . وعلّمها المربون الذين تعاقدت معهم مس روز اللغة الفرنسية ، والكتابة ، والتاريخ ، والجغرافية ، وشيئاً من اللاتينية ، أكثر بكثير مما يلقنونه في أفضل مدارس الإناث في العاصمة ، حيث كان الشيء الوحيد الذي يعلمونه في نهاية المطاف هو الصلوات وأساليب السلوك الحميد . وكانت القراءات غير المنتظمة ، وحكايات القبطان سوميرز ، تطلق العنان لمخيلتها . لقد كان ذلك الخال البحار يحضر إلى البيت مع حمولته من الهدايا ، مثيراً أوهام خيالها بقصصه الغريبة عن أباطرة زنوج يتربعون على عروش من الذهب الخالص ، وعن قراصنة من الملايو يجمعون عيوناً بشرية في علب لآلئ ، وعن أميرات يُحرقن مع جثث أزواجهن المسنين في المحرقة نفسها . وفي كل زيارة من زياراته كان كل شيء يؤجل ، ابتداء من الواجبات المدرسية وحتى دروس البيانو . وكانت تقضي السنة في انتظاره وفي وضع دبابيس على الخريطة متخيلة الأماكن التي تمضي فيها سفينته الشراعية في عرض البحر . وقلما كانت إلزا تتصل ببنات في مثل سنها ، فقد كانت تعيش في العالم المغلق لبيت المحسنين إليها . في الوهم الأبدي بأنها ليست هناك ، وإنما في إنكلترا . فقد كان جيرمي سوميرز يوصي على كل شيء من خلال كاتالوج المشتريات ، ابتداء من الصابون وحتى أحذيته ، وكان يتمسك بتقويم النصف الشمالي من الكرة الأرضية ، فيرتدي

ملابس خفيفة في الشتاء ومعطفاً في الصيف . وكانت الصغيرة تسمع وتراقب باهتمام ، وبمزاج مرح ومستقل ، ولا تطلب مساعدة أحد مطلقاً ، وتمتلك الموهبة الغريبة بالتحول إلى غير مرئية حسب إرادتها ، والاختفاء بين الأثاث والستائر وأزهار ورق الجدران . وفي اليوم الذي استيقظت فيه ووجدت قميص نومها ملطخاً ببقعة حمراء ، ذهبت إلى حيث مس روز لتخبرها بأنها تنزف من أسفل .

ـ لا تكلمي أحداً بهذا الأمر ، إنه خاص جداً . لقد صرتِ امرأة ويجب أن تتصرفي كامرأة ، لقد انتهت الولدنات . وحان الوقت لتذهبي إلى مدرسة مدام كولبيرت للإناث .. كان هذا هو كل التفسير الذي قدمته لها أمها بالتبني ، ألقته عليها دفعة واحدة ودون أن تنظر إليها ، بينما هي تُخرج من الخزانة دزينة من فوط قماشية صغيرة كانت هي نفسها قد هذبت أطرافها .

وقد حذرتها فيما بعد ماما فريسيا التي لم تستطع إلزا إخفاء الخبر عنها :

ـ لقد وقعت الآن أيتها الصغيرة ، سيتبدل جسدك ، وستغيم أفكارك ، ويمكن لأي رجل الآن أن يفعل بك ما يشتهي .

كانت الهندية تعرف نباتات يمكن لها أن تقطع إلى الأبد تدفق الحيض ، ولكنها أحجمت عن تقديمها إليها خوفاً من أسيادها . وقد أخذت إلزا ذلك التحذير على محمل الجد وقررت البقاء متيقظة للحيلولة دون تحقق تلك المخاوف . فربطت صدرها بمشد حريري مثبت جيداً وهي واثقة من أنه إذا كان هذا الأسلوب قد نجح على امتداد القرون في الصين ، في تصغير أقدام الصينيات ، مثلما يقول الخال جون ، فليس هناك ما يبرر عدم صلاحيته في تسطيح نهديها . واستعدت كذلك لتبدأ بالكتابة ؛ فقد كانت ترى مس روز طوال سنوات وهي تكتب في دفاترها ، وافترضت أنها تفعل ذلك لمقاومة لعنة الأفكار الضبابية الغائمة . أما بالنسبة إلى الجزء الأخير من النبوءة ـ أنه يمكن لأي رجل أن يفعل بها ما يحلو له ـ فلم توله كبير اهتمام . لأنها لم تستطع

ببساطة أن تتصور وجود رجال في مستقبلها . لأنهم جميعهم مسنون يكبرونها بعشرين سنة على الأقل ؛ والعالم خال من كائنات من جنس الذكور من جيلها . والرجلان الوحيدان اللذان يروق لها الزواج منهما ، هما القبطان جون سوميرز وجاكوب تود ، وقد كانا بعيدين عن متناول يدها ، لأن الأول هو خالها والثاني مغرم بمس روز ، مثلما تعرف بالبارايسو بأسرها .

بعد سنوات من ذلك ، وحين كانت إلزا تتذكر طفولتها وشبابها ، راحت تفكر بأن مس روز ومستر تود كانا سيؤلفان ثنائياً جيداً ، فقد كانت يمكن لمس روز أن تهذب خشونة تود ، وكان يمكن له بالمقابل أن يُخرجها من الضجر . ولكن الأمور سارت بطريقة أخرى . ومع تقلب السنوات ، عندما صارا كلاهما يسرحان شعرهما الأشيب وجعلا من الوحدة عادة طويلة ، سيلتقيان في كاليفورنيا في ظروف غريبة ؛ وسيعود عندئذ إلى مغازلتها بالزخم نفسه وستعود هي إلى صده بالحزم نفسه . ولكن هذا كله سيحدث بعد وقت طويل جداً .

●

لم يكن جاكوب تود يضيع فرصة للتقرب من آل سوميرز ، ولم يكن هناك زائر أكثر مواظبة ودقة منه في حضور السهرات ، ولا من هو أكثر منه انتباهاً عندما تغني مس روز بزغرداتها المندفعة ، ولا من هو أكثر استعداداً للاحتفاء بمداعباتها ، بما فيها تلك المداعبات القاسية بعض الشيء التي اعتادت أن تعذبه بها . لقد كانت شخصية مليئة بالتناقضات . ولكن ، ألم يكن هو أيضاً كذلك ؟ أليس هو ملحد يبيع الكتب المقدسة ويغش نصف العالم بحكاية بعثته التبشيرية المزعومة ؟ كان يتساءل عن سبب عدم زواجها رغم جاذبيتها ؛ فامرأة عازبة في مثل تلك السن ليس لها مستقبل ولا مكان في المجتمع . وكان هناك همس يدور بين الجالية الأجنبية عن فضيحة ما جرت في إنكلترا ، قبل سنوات ، وهذا يفسر وجودها في تشيلي متحولة إلى خازنة مفاتيح أخيها ،

ولكنه لم يرغب قط في تقصي التفاصيل ، مفضلاً الغموض على اليقين في أمر ربما لن يستطيع التسامح بشأنه . وكان يكرر : الماضي لا يهم كثيراً . فقد كان أي خطأ في الحساب أو زلة واحدة في الرصانة كافية لتلطيخ سمعة امرأة والحيلولة دون توصلها إلى زواج طيب . وكان مستعداً لإنفاق سنوات من عمره ومستقبله مقابل الحصول على تجاوبها ، ولكنها لم تبد أي علامة من علامات الاستسلام للحصار ، مع أنها لم تحاول في الوقت نفسه أن تبعث فيه القنوط ؛ لقد كانت تتسلى مستمتعة بلعبة إطلاق العنان له لكي تكبحه بعد ذلك فجأة ودفعة واحدة .

ـ مستر تود هو طائر شؤم ذو أفكار غريبة ، له أسنان حصان ويدان متعرقتان . لا يمكنني أن أتزوج منه أبداً ، حتى ولو كان العازب الأخير في الدنيا ـ اعترفت مس روز بذلك ضاحكة لإلزا .

لم تر الصغيرة ظُرفاً في ذلك التعليق . فقد كانت مدينة لجاكوب تود ، ليس لأنه أنقذها في موكب مسيح أيار وحسب ، وإنما لأنه تكتم على الحادث وكأنه لم يحدث قط . كانت معجبة بهذا الحليف الغريب : فله رائحة كلب كبير ، مثل الخال جون . والانطباع الطيب الذي سببه لها تحول إلى عاطفة وفاء عندما سمعته يوماً ، وكانت مختبئة وراء ستارة القطيفة الخضراء في الصالون ، يتحدث إلى جيرمي سوميرز .

ـ يجب علي أن أتخذ قراراً بشأن إلزا يا جاكوب . ليس لديها أي تصوّر لموقعها في المجتمع . الناس بدؤوا يتساءلون ولا بد أن إلزا تتخيل مستقبلاً ليس لها . فليس هناك ما هو أخطر من شيطان الوهم القابع في أعماق النفس الأنثوية .

ـ لا تبالغ يا صديقي . إلزا ما تزال صغيرة ، ولكنها ذكية ومن المؤكد أنها ستجد موقعها .

ـ الذكاء عقبة بالنسبة إلى المرأة . وروز تريد إرسالها إلى مدرسة مدام

كولبيرت للآنسات ، ولكنني لا أؤيد فكرة تعليم البنات كثيراً ، لأنهن يصبحن صعبات المراس لا يمكن السيطرة عليهن . وشعاري هو أنه لا بد لكل شخص من يعرف مقامه .

- العالم يتغير يا جيرمي . فالرجال الأحرار في الولايات المتحدة الآن متساوون أمام القانون . لقد أُلغيت الطبقات الاجتماعية .

- نحن نتكلم عن النساء وليس عن الرجال . أضف إلى ذلك أن الولايات المتحدة هي بلاد تجار ورواد ، بلا تقاليد وبلا مغزى للتاريخ . المساواة غير موجودة في أي مكان ، ولا حتى بين الحيوانات ، وخصوصاً في تشيلي .

- إننا أجانب هنا يا جيرمي ، لا نكاد نحسن اللغط بالقشتالية . ماذا تهمنا الطبقات الاجتماعية في تشيلي ؟ فنحن لن ننتمي مطلقاً إلى هذه البلاد...

- يجب علينا أن نقدم قدوة حسنة . إذا كنا نحن البريطانيين عاجزين عن الحفاظ على بيتنا مرتباً ، فما الذي يمكن أن نأمله من الآخرين ؟

- إلزا تربت في هذه الأسرة . ولا أظن أن مس روز ستتخلى عنها لمجرد أنها تكبر .

وكان ذلك هو ما حدث . فقد تحدت روز أخاها بقائمة أمراضها كاملة . في البدء كان المغص ، ثم تلا ذلك صداع مثير للذعر ، وأصابها العمى بين ليلة وضحاها . وخلال عدة أيام دخل البيت في حالة سكون : فأُسدلت الستائر ، وصار المشي على رؤوس الأصابع ، والحديث يدور همساً . لم يعد الطعام يُطبخ ، لأن روائحه تزيد من أعراض المرض ، وصار جيرمي سوميرز يأكل في النادي ويرجع إلى البيت بحالة من التشوش والهياب كمن يزور مستشفى . عمى روز الغريب وأوجاعها العديدة ، ومعها الصمت الماكر للعاملين في البيت ، قوض صمود جيرمي . والأدهى من كل ذلك هو أن ماما فريسيا التي علمت بطريقة غامضة بمناقشات الأخوين الخاصة ، تحولت إلى حليف رهيب لسيدتها . كان جيرمي سوميرز يعتبر نفسه رجلاً مثقفاً وبرغماتياً ، لا يمكنه

أن يتأثر بتخويفات ساحرة مشعوذة مثل ماما فريسيا ، ولكن عندما أشعلت الهندية شموعاً سوداء ونشرت دخان المريمية في كل أنحاء البيت بحجة إبعاد البعوض ، حبس نفسه في مكتبه وهو ما بين خائف وغاضب . كان يسمعها في الليل تجرجر قدميها الحافيتين في الجهة الأخرى من الباب وتدندن بصوت خافت ترتيلات ولعنات . وحين وجد يوم الأربعاء سحلية ميتة في زجاجة الكونياك ، قرر التصرف بحزم . فطرق لأول مرة باب حجرة أخته وسُمح له بالدخول إلى حرمة ذلك المكان الأنثوي الغامض الذي كان يفضل تجاهله ، مثلما يتجاهل غرفة الخياطة ، والمطبخ ، وحجرة الغسل ، والغرف الضيقة القاتمة المتطرفة حيث تنام الخادمات ، وكوخ ماما فريسيا في أقصى الفناء ؛ لقد كان عالمه هو الصالونات ، والمكتبة ذات الخزائن المصنوعة من خشب الكابلي الفاخر ومجموعة لوحاته عن الصيد ، وصالة البلياردو بطاولتها الفخمة المزخرفة ، وحجرته المؤثثة ببساطة إسبارطية إضافة إلى حجرة صغيرة جدرانها مغطاة ببلاط إيطالي من أجل اغتساله الشخصي ، حيث يفكر في أن يُركِّب مرحاضاً حديثاً مثل تلك التي في كاتالوجات نيويورك ، لأنه كان قد قرأ بأن أسلوب المَباوِل وجمع الغائط البشري في دلاء لاستخدامه كسماد ، هو مصدر للأوبئة .

كان عليه أن ينتظر إلى أن تعتاد عيناه على العتمة ، بينما هو يشم مشوشاً مزيجاً من رائحة أدوية وعبق فانيلا ملّح . كانت روز شاحبة ومتألمة ، لا تكاد تكون مرئية ، وهي مستلقية على ظهرها في السرير الذي بلا وسادة : وذراعاها متقاطعتان فوق صدرها وكأنها تمارس موتها الخاص . وإلى جوارها إلزا تعصر منديلاً مبللاً بشاي أخضر لتضعه على عينيها .

- دعينا وحدنا أيتها الصغيرة - قال جيرمي سوميرز وهو يجلس على كرسي إلى جوار السرير .

انحنت إلزا انحناءة خفيفة وخرجت ، ولكنها كانت تعرف بدقة نقاط

الضعف في البيت ، فألصقت أذنها بالجدار الرقيق واستطاعت سماع المحادثة التي نقلتها بعد ذلك إلى ماما فريسيا ودونتها في يومياتها .

ـ حسن يا روز . لا يمكننا البقاء في حالة حرب . فلنتفق . ما الذي تريدينه ؟ ـ سأل جيرمي المهزوم مسبقاً .

فتنهدت روز بصوت لا يكاد يُسمع :

ـ لا شيء يا جيرمي...

ـ لن يقبلوا إلزا في مدرسة مدام كولبيرت مطلقاً . فهناك لا يقبلون إلا بنات الطبقة الراقية والأسر المستقرة . والجميع يعرفون أن إلزا ابنة متبناة .

فهتفت هي باندفاع غير متوقع من محتضرة :

ـ أنا سأجعلهم يقبلونها!

ـ اسمعيني يا روز ، إلزا لا تحتاج إلى مزيد من التعليم . يجب أن تتعلم مهنة لكي تكسب قوتها . ما الذي سيجري لها عندما لا نعود أنا وأنت موجودين لحمايتها ؟

ـ إذا كانت متعلمة فستحصل على زواج جيد . قالت روز وهي تلقي بكمادة الشاي الأخضر إلى الأرض وتعتدل في السرير .

ـ إلزا ليست تحفة في الجمال يا روز .

ـ أنت لم ترها جيداً يا جيرمي . إنها تتحسن يوماً بعد يوم ، وستكون جميلة ، أؤكد لك . وستجد كثيرين يتقدمون لطلب يدها!

ـ وهي يتيمة ودون دوطة ؟

ـ ستكون لها دوطة . ردت عليه مس روز وهي تخرج من السرير متلمسة ما حولها وتخطو كعمياء ، مشعثة الشعر وحافية القدمين .

ـ وكيف ذلك ؟ نحن لم نتحدث في هذا الأمر من قبل...

ـ لأن الوقت لم يكن قد حان يا جيرمي . ففتاة في سن الزواج تحتاج إلى مجوهرات ، وإلى جهاز عروس فيه ملابس كثيرة تكفي لعدة سنوات وكل ما لا

بد منه لبيتها ، فضلاً عن مبلغ جيد من المال لكي يبدأ العروسان عملاً ما .

ـ وهل يمكنني أن أعرف ما الذي ستكونه مساهمة العريس ؟

ـ البيت ، كما أنه سيكون عليه إعالة المرأة مدى الحياة . وعلى كل حال ما زالت هناك عدة سنوات قبل أن تصبح إلزا في سن الزواج ، وحتى ذلك الحين ستكون لديها دوطتها . أنا وجون سنتولى تقديمها إليها ، ولن نطلب منك قرشاً واحداً ، ولكن لا حاجة إلى إضاعة الوقت في هذا الحديث الآن . يجب عليك أن تعامل إلزا وكأنها ابنتك .

ـ ولكنها ليست كذلك يا روز .

ـ عاملها إذن على أنها ابنتي . هل توافق على هذا على الأقل ؟

فرضخ جيرمي سوميرز :

ـ أجل أوافق .

كان لمنقوع الشاي نتائج إعجازية . فقد تحسنت المريضة تماماً واستردت بصرها خلال ثمان وأربعين ساعة وبدت متألقة . وانهمكت في الاهتمام بأخيها بعناية فاتنة ؛ ولم تكن أكثر عذوبة وابتساماً في معاملته من قبل . عاد البيت إلى إيقاعه المعتاد وخرجت من المطبخ نحو غرفة الطعام الأطباق الكريولية الشهية التي تعدها ماما فريسيا ، والخبز الشذي الذي تعجنه إلزا والحلويات اللذيذة التي طالما أسهمت في شهرة كرم ضيافة آل سوميرز . ابتداء من تلك اللحظة بدلت مس روز بصورة صارمة سلوكها المستهتر مع إلزا وانهمكت في العناية بها عناية أمومية لم تُظهرها من قبل قط من أجل إعدادها للمدرسة ، بينما بدأت في الوقت نفسه حصاراً لا يُقاوم لمدام كولبيرت . لقد صممت على أن توفر لإلزا تعليماً ودوطة وسمعة بأنها جميلة ، حتى لو لم تكن كذلك ، لأن الجمال ، حسب رأيها ، هو مسألة أسلوب . فكانت تؤكد بأن أي امرأة تتصرف على أنها جميلة وهي واثقة من نفسها ، فإنها تتوصل في نهاية المطاف إلى إقناع الجميع بأنها جميلة . الخطوة الأولى من أجل انعتاق إلزا

ستكون زواجاً جيداً ، نظراً لأن الفتاة لا تملك أخاً أكبر منها ليكون غطاء لها ، مثلما هي حالها بالذات . فهي نفسها لم تكن ترى فائدة في الزواج ، لأن الزوجة هي ملكية خاصة للزوج ، وحقوقها أقل من حقوق خادم أو طفل ؛ ولكن بقاء المرأة وحيدة من جهة أخرى ، ودون ثروة ، يوقعها تحت رحمة أسوأ أشكال الاستغلال . والمرأة المتزوجة ، إذا ما كانت ماكرة بعض الشيء ، فإنها ستكون قادرة على التلاعب بالزوج ، بل ويمكن لها بقليل من الحظ أن تترمل باكراً...

- إنني أقدم نصف حياتي راضية مقابل الحصول على قدر من الحرية مثل الذي يتمتع به الرجل يا إلزا . ولكننا نساء ونحن مغبونات . الشيء الوحيد الذي يمكننا عمله هو محاولة استخلاص شيء من القليل الذي نملكه .

لم تقل لها إنها في المرة الوحيدة التي حاولت التحليق فيها وحدها ، اصطدمت بالواقع وهوت على أنفها . لأنها لم تكن تريد أن تغرس أفكار التمرد في ذهن الصغيرة . كانت مصممة على أن توفر لها مصيراً أفضل من مصيرها ، ستدربها على فنون المداراة والتلاعب والكيد ، لأنها أكثر فائدة من السذاجة ، وهو أمر متأكدة منه . كانت تحبس نفسها معها ثلاث ساعات في الصباح وثلاث ساعات أخرى في المساء من أجل دراسة النصوص المدرسية المستوردة من إنكلترا ؛ وعززت دراسة الصغيرة للغة الفرنسية مع أستاذ خصوصي ، لأنه لا يمكن لفتاة حسنة التربية أن تجهل هذه اللغة . وفي ما تبقى من الوقت كانت تراجع شخصياً كل غرزة في جهاز العروس الذي تعده لإلزا : في الملاءات ، والمناشف ، والشراشف والملابس الداخلية المطرزة بإتقان ، ثم تحفظان معاً كل ذلك في صناديق مبطنة بقماش قطني ومعطرة بالخزامى . وكل ثلاثة شهور كانتا تُخرجان محتويات الصناديق وتنشرانها في الشمس ، لتتجنبا بذلك أضرار الرطوبة والعث خلال سنوات انتظار العريس . واشترت علبة لمجوهرات الدوطة وكلفت أخاها جون بمهمة ملئها بهدايا من أسفاره .

فاجتمع فيها ياقوت أزرق من الهند ، وزمرد وجمشت من البرازيل ، وعقود وأساور من ذهب فينسيا ، بل ومشبك من الألماس أيضاً . لم يعلم جيرمي سوميرز بتلك التفاصيل وبقي جاهلاً الطريقة التي يمول بها أخواه تلك الشذوذوات .

دروس البيانو ـ وصارت الآن بمساعدة أستاذ قادم من بلجيكا كان يستخدم عصا لضرب أصابع تلاميذه غير الحاذقة ـ تحولت إلى عذاب يومي بالنسبة إلى إلزا . وكانت تواظب كذلك الذهاب إلى معهد لتعلم رقصات الصالونات ، وبإيعاز من معلم الرقص ، أجبرتها مس روز على السير ساعات وهي توازن كتباً على رأسها بهدف جعلها تنمو منتصبة دون انحناء . وكانت إلزا تنفذ واجباتها ، وتمارس تمارينها على البيانو وتمشي منتصبة مثل شمعة حتى وهي لا تحمل كتاباً على رأسها ، ولكنها تنسل في الليل حافية إلى فناء الخدم وغالباً ما يفاجئها الفجر وهي نائمة على نضيدة من التبن في أحضان ماما فريسيا .

●

بعد سنتين من كارثة الفيضانات تبدل الحظ ونعمت البلاد بمناخ جيد ، وهدوء سياسي ورخاء اقتصادي . كان التشيليون مثل من يمشون على الجمر ، فهم معتادون على الكوارث الطبيعية ، وقد بدا لهم كل ذلك الرخاء كما لو أنه استعداد لكارثة عظمى . أضف إلى ذلك أنه تم اكتشاف مكامن غنية بالذهب والفضة في الشمال . فخلال الغزو ، حين كان الفاتحون الإسبان يجوبون أنحاء أميركا بحثاً عن هذه المعادن الثمينة ويأخذون كل ما يجدونه في طريقهم ، كانت تشيلي تعتبر مؤخرة العالم ، لأنه لم يكن فيها ما تقدمه بالمقارنة مع ثروات بقية أجزاء القارة . ففي المسيرات الشاقة في جبالها الهائلة وعبر صحراء الشمال القمرية كان الجشع يُستنفد في قلوب أولئك الغزاة ، وإذا ما بقي شيء منه ، كان الهنود الجامحون يتولون تحويله إلى ندم . فكان قادة

الغزو المستنفدون والفقراء يلعنون هذه الأراضي التي لم يعد لهم مفر من غرس راياتهم فيها وانتظار الموت ، لأن عودتهم دون أمجاد ستكون أسوأ من موتهم . وبعد مرور ثلاثمئة سنة ، كان اكتشاف هذه المناجم التي لم تلمحها عيون جنود إسبانيا الطامعين ، وظهورها فجأة كالسحر ، وكأنه مكافأة غير منتظرة لأحفادهم . تشكلت ثروات جديدة ، وأضيفت إليها ثروات أخرى من الصناعة والتجارة . وأحست أرستقراطية مالكي الأراضي القديمة التي كانت تمسك الأعنة دائماً ، بأن امتيازاتها مهددة وبأن ازدراءها من قبل أثرياء الصناعة الجدد قد تحول إلى سمة ترفع ووجاهة .

أغرم أحد هؤلاء الأثرياء الجدد بباولينا ، ابنة أغوسطين دل بايي الكبرى . إنه فيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث الذي ازدهر خلال سنوات قليلة بفضل منجم ذهب استثمره مناصفة مع أخيه . لم يكن يُعرف الكثير عن أصوله ، باستثناء الشك بأن أسلافه كانوا يهوداً متحولين إلى النصرانية وأن كنيته المسيحية الرنانة إنما اتخذت للنجاة من محاكم التفتيش ، وهذا سبب أكثر من كاف لكي يرفضه آل دل بايي المتكبرين . كان جاكوب تود يقدر باولينا من بين بنات أغوسطين ، لأن طبعها الجريء والمرح يذكره بمس روز . فقد كانت الشابة تطلق ضحكات صريحة تتناقض مع ابتسامات أخواتها المستترة وراء المراوح اليدوية والطرحات . وحين علم بنية والدها في حبسها في دير للراهبات من أجل قطع دابر غرامياتها ، قرر جاكوب تود أن يساعدها بالرغم من المحاذير . وقبل أن يأخذوها إلى الدير ، تدبر الأمر ليتبادل معها جملتين على انفراد في غفلة من ذويها . ولإدراكها بأنه ليس لديها وقت لتقديم تفسيرات ، أخرجت باولينا من صدرها رسالة مطوية ومطوية إلى حد تبدو معه وكأنها حجر ورجته أن يوصلها إلى حبيبها . وفي اليوم التالي ذهبت الشابة ، مخطوفة من قبل والدها ، في رحلة تستمر عدة أيام عبر دروب مستحيلة إلى كونثيبثيون ، وهي مدينة في الجنوب بالقرب من بقايا السكان

الأصليين ، حيث ستتولى الراهبات واجب إعادتها إلى صوابها من خلال الصلوات والصيام . ومن أجل تجنب أن تخطر لها فكرة التمرد أو الهرب ، أمر أبوها بأن يحلقوا شعر رأسها . وجمعت الأم جدائل الشعر ولفتها بقطعة قماش قطني مطرزة وأهدتها إلى طوباويات كنيسة ماتريث ليصنعوا منها باروكات لتماثيل القديسين . وفي أثناء ذلك لم يتمكن تود من تسليم الرسالة وحسب ، وإنما عرف من أخوة الفتاة كذلك الموقع الدقيق للدير ، ونقل هذه المعلومة إلى فيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث . فشكره العاشق ونزع ساعة الجيب مع سلسلتها الذهبية وأصر على إعطائها لرسول غرامه المبارك ، ولكن هذا رفضها غاضباً .

فتلعثم فيليثيانو مرتبكاً :

- ليس لدي ما أكافئك به على ما فعلته من أجلي .

- وليس عليك أن تفعل .

لم يعد جاكوب تود يعرف شيئاً عن العاشقين المنكوبين لبعض الوقت ، ولكن بعد شهرين من ذلك كان الخبر الطيب عن هرب الآنسة هو حديث كل المحافل الاجتماعية ، ولم يستطع أغوسطين دل بايي المتكبر الحيلولة دون أن يضيف الناس إلى قصة الهروب تفاصيل طريفة جللته بالسخرية . والرواية التي قصتها باولينا بعد شهور من ذلك على جاكوب تود ، هي أنه في مساء يوم من حزيران ، وهو واحد من تلك المساءات الشتائية التي يخيم فيها الظلام باكراً ، تمكنت من خداع المراقبة وهربت من الدير مرتدية مسوح راهبة مستجدة ، وحاملة شمعدان المذبح الكبير الفضي . وبفضل المعلومات التي كان قد قدمها جاكوب تود ، انتقل فيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث إلى الجنوب وأقام اتصالاً سرياً معها منذ البداية ، منتظراً فرصة اجتماع شملهما من جديد . وفي ذلك المساء ، انتظرها على مقربة من الدير ، وقد احتاج حين رآها إلى عدة ثوان للتعرف على تلك الراهبة المستجدة نصف الصلعاء التي تهاوت بين ذراعيه

دون أن تفلت الشمعدان .

ـ لا تنظر إلي هكذا يا رجل ، فالشعر ينمو من جديد ـ قالت له ذلك وهي تقبله من شفتيه مباشرة .

حملها فيليثيانو في عربة مغلقة عائداً بها إلى بالبارايسو وأنزلها مؤقتاً في بيت أمه الأرملة ، وهو أكثر المخابئ التي استطاع أن يتصورها وقاراً ، وفي نيته صون شرفها إلى أبعد حد ممكن ، وإن لم يكن بالإمكان تفادي الوصمة التي ستُلحقها بهما الفضيحة . وكان أول ما فكر فيه أغوسطين هو مواجهة من غرر بابنته في مبارزة ، ولكنه حين أراد عمل ذلك علم أن خصمه قد سافر في رحلة عمل إلى سنتياغو . فكعف عندئذ على مهمة العثور على باولينا ، يساعده أبناؤه وأبناء أخوته المسلحون والمصممون على الثأر لشرف العائلة ، بينما الأم والأخوات يصلين في كورال جماعي صلاة المسبحة من أجل الابنة الضالة . أما العم القس الذي أوصى بإرسال باولينا إلى الراهبات ، فحاول أن يضفي شيئاً من الاتزان لتهدئة الخواطر ، ولكن أولئك الفحول الأفظاظ لم يكونوا في وارد الاهتمام بمواعظ مسيحي طيب . كانت رحلة فيليثيانو إلى سنتياغو جزءاً من خطة وضعها مع أخيه وجاكوب تود . فقد ذهب دون ضجة إلى العاصمة بينما انهمك الآخران في تنفيذ الخطة في بالهارايسو ، فنشرا في جريدة ليبرالية خبر اختفاء الآنسة باولينا دل بايي ، وهو الخبر الذي كانت الأسرة تتستر عليه جيداً للحيلولة دون انتشاره . وقد أنقذ ذلك حياة العاشقين .

وأخيراً رضخ أغوسطين دل بايي وتقبل أن الأزمنة لم تعد تسمح بتحدي القانون ، وأنه من الأفضل غسل الشرف بزواج علني بدلاً من عمل ذلك بجريمة قتل مزدوجة . فأُقرت أسس المصالحة الاضطرارية ، وبعد أسبوع من ذلك ، عندما هيئ كل شيء ، رجع فيليثيانو . ومَثُلَ الهاربان في منزل آل دل بايي برفقة شقيق العريس ومحام وأسقف . بينما بقي جاكوب

تود بعيداً عن الأنظار . ظهرت باولينا بفستان بسيط ، ولكنها عندما رفعت الطرحة رأوا أنها تضع بتحدٍ أكليل ملكة على رأسها . تقدمت ممسكة بذراع حماتها المستقبلية التي كانت مستعدة للتأكيد على عفتها ، ولكنهم لم يفسحوا لها المجال لقول ذلك . وبما أن آخر ما كانت تتمناه الأسرة هو ظهور خبر ثان في الصحيفة ، فإن أغوسطين دل بايي لم يجد مفراً من استقبال الابنة المتمردة وعشيقها غير المرغوب فيه . فعل ذلك محاطاً بأبنائه وأبناء اخوته في غرفة الطعام التي تحولت إلى محكمة في تلك المناسبة ، بينما نساء الأسرة محبوسات في أقصى الجهة الأخرى من البيت ، يطلعن على التفاصيل من الخادمات اللواتي يتنصتن من وراء الأبواب ويركضن لنقل ما يسمعن . قلن إن الفتاة قد حضرت بكل ذلك الألماس الذي يلمع ما بين شعرها القصير المنتصب ، وواجهت أباها دون أي أثر من التواضع أو الخوف ، معلنة أنها ما زالت تملك الشمعدان ، وأنها أخذته فقط لتزعج الراهبات . رفع أغوسطين دل بايي مقرعة خيول ليضربها ، ولكن العريس وقف في مواجهته ليتلقى العقاب . عندئذ تدخل الأسقف المتعب ، وأدلى بثقل سلطته بالحجة التي لا تُدحض بأنه لا يمكن أن يكون هناك زفاف علني لوضع حد للتقولات إذا ما كانت في وجه العروسين آثار كدمات .

واقترح رجل الكنيسة السامي :

ـ اطلب أن يقدموا لنا فنجاناً من الشوكولاته يا أغوسطين ، ولنجلس لنتحدث كأناس محترمين .

وهذا ما فعلوه . أمروا الابنة وأرملة رودريغيث دي سانتا كروث أن تنتظرا خارجاً ، لأن المسألة من شأن الرجال ، وبعد تناول عدة أباريق من الشوكولاته ذات الرغوة توصلوا إلى اتفاق . حرروا وثيقة وضحت فيها البنود الاقتصادية وحُفظ شرف الطرفين ، وقعوا عليها بحضور الأسقف ثم انتقلوا إلى وضع

تفاصيلَ حفلة الزفاف . وبعد شهر من ذلك حضر جاكوب تود سهرة لا تُنسى ؛ كان هناك رقص ، وغناء ، وأكل وفير حتى اليوم التالي ، ومضى المدعوون وهم يتحدثون عن جمال العروس ، وسعادة العريس وحسن حظ الحموين اللذين زوجا ابنتهما لثروة راسخة ، وإن تكن محدثة . وسافر العروسان فوراً إلى شمالي البلاد .

سمعة سيئة

تحسر جاكوب تود لسفر فيليثيانو وباولينا ، ذلك أنه كان قد عقد صداقة جيدة مع مليونير المناجم وزوجته المتألقة . وكان يشعر بالراحة بين رجال الأعمال الشباب بقدر ما بدأ يشعر بالضيق بين أعضاء نادي الاتحاد . فقد كان أولئك الصناعيون الشباب متشربين ، مثله ، بالأفكار الأوربية ، فهم حديثون وليبراليون ، على عكس ملاكي الأراضي القدماء المتخلفين نصف قرن إلى الوراء . كان ما يزال لديه مئة وسبعون نسخة من الكتاب المقدس مكدسة تحت السرير . ولكنه لم يعد يتذكرها ، لأنه خسر الرهان منذ زمن . وكان قد أتقن اللغة الإسبانية بصورة لا بأس بها وبما يكفي لقضاء حاجاته دون مساعدة ، وبقي على حبه لروز سوميرز ، وإن لم يُقابَل باستجابة من جانبها ، وهما سببان كافيان لبقائه في تشيلي . فقد تحول صد الفتاة المتواصل له إلى عادة لم يعد يشعر معها بالمهانة . واعتاد على تلقي صدها له بسخرية والرد عليها دون خبث ، مثل لعبة طابة لا يعرف قوانينها السرية أحد سواهما . وكان قد ارتبط بعلاقة مع بعض المثقفين وصار يقضي ليالي بطولها في مناقشة أفكار الفلاسفة الفرنسيين والألمان ، والاكتشافات العلمية التي تفتح أفاقاً جديدة أمام المعرفة البشرية . وكانت لديه ساعات طويلة يكرسها للتفكير ، والقراءة ، والمناقشة . وراح ينشر أفكاراً يدونها في دفتر سميك أتلفته كثرة

الاستخدام ، وينفق جزءاً لا بأس به من دخله على كتب يوصي عليها من لندن وكتب أخرى يشتريها من مكتبة سانتوس تورنيرو ، في حي ألميندرال حيث يعيش الفرنسيون وحيث يوجد أيضاً أفضل ماخور في بالبارايسو . وكانت تلك المكتبة هي نقطة التقاء جماعة من المثقفين والكتّاب الواعدين . وكان من عادة تود قضاء أيام كاملة في القراءة ؛ وتقديم الكتب إلى رفاقه التشيليين الذين يترجمونها ترجمة بائسة وينشرونها في كتيبات متواضعة يجري تداولها من يد ليد .

أصغر جماعة المثقفين سناً كان خواكين اندييتا ، الذي لم يكد يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، ولكنه كان يعوض قلة خبرته بنزوع متدفق إلى القيادة . وكانت شخصيته المندفعة تبدو أكثر جلاء ، بسبب فتوته وفقره . لم يكن خواكين ذاك رجل كلمات كثيرة ، وإنما رجل ممارسة ، إنه واحد من قليلين يتمتعون بالوضوح والشجاعة الكافيتين لتحويل أفكار الكتب إلى دافع ثوري . أما الآخرون فيفضلون الاقتصار على مناقشة تلك الأفكار إلى الأبد وهم جالسون حول زجاجة شراب في الغرفة الخلفية من المكتبة . وقد تمكن تود من تمييز أندييتا منذ البداية . إذ كان يجتذبه في ذلك الشاب شيء مثير للقلق والشجون . وكان قد انتبه إلى حقيبته البالية وقماش بدلته المهترئ والشاف والقابل للتفتت مثل قشرة بصلة . ولم يكن يرفع قدميه أبداً حين يجلس ، حتى لا تظهر الثقوب التي في نعل حذائه ؛ كما أنه لم يكن يخلع سترته ، لأن قميصه ، مثلما خمن تود ، لا بد أن يكون ممتلئاً بالرقع والتصليحات . ولم يكن يملك معطفاً لائقاً ، ولكنه كان أول من يخرج باكراً في الشتاء لتوزيع منشورات وإلصاق لافتات تدعو العمال إلى التمرد ضد استغلال أرباب عملهم ، أو البحارة ضد القباطنة وشركات الملاحة ، ولكنه كان عملاً غير مجد ، لأن من توجه إليهم تلك النداءات كانوا أميين في الغالب . فكانت دعواته إلى العدالة تبقى تحت رحمة الريح وعدم المبالاة البشرية .

ومن خلال تقص خفي ، اكتشف جاكوب تود أن صديقه موظف في الشركة البريطانية للاستيراد والتصدير . وأنه يقوم بتسجيل المواد التي تمر من مكتب الميناء مقابل أجر بائس وساعات عمل منهكة . وكان يُطلب منه كذلك وضع ياقة منشاة وانتعال حذاء لامع . وكانت حياته تمضي في قاعة دون تهوية وسيئة الإنارة ، حيث تصطف مناضد الموظفين بعضها وراء بعض إلى ما لا نهاية وتتكدس المصنفات والمجلدات السميكة المغطاة بالغبار التي لا يراجعها أحد طوال سنوات . سأل تود عنه جيرمي سوميرز ، ولكن هذا لم يتذكره ؛ وقال إنه ربما يراه يومياً ، ولكنه لا يقيم علاقة شخصية مع مرؤوسيه ونادراً ما يتمكن من معرفتهم بأسمائهم . وعرف عبر سبل أخرى أن أنديتا يعيش مع أمه ، ولكنه لم يستطع معرفة شيء عن أبيه ؛ فافترض أن يكون بحاراً عابراً وأن تكون الأم واحدة من أولئك النساء خائبات الرجاء اللواتي لا متسع لهن في أي طبقة اجتماعية ، ربما تكون ابنة زنا أو مطرودة من أسرتها . كانت لخواكين أنديتا تقاطيع أندلسية والرشاقة الرجولية التي لمصارع ثيران شاب ؛ كل ما فيه كان يوحي بالصلابة ، والمرونة ، والتحكم ؛ كانت حركاته دقيقة ، ونظرته مكثفة وكبرياؤه مؤثراً . وكان يعارض أفكار تود المثالية بإحساس صخري بالواقع . فقد كان تود يبشر بمجتمع تعاوني ، دون رهبان ودون شرطة ، يُحكم ديمقراطياً بقانون أخلاقي وحيد غير قابل للاستئناف .

فكان خواكين يقاطعه :

ـ أنت تهيم في القمر يا مستر تود . لدينا الكثير لنعمله ، وليس من المناسب إضاعة الوقت في مناقشة الأوهام .

ـ ولكن ، كيف سنتمكن من إقامة مجتمع الكمال إذا نحن لم نبدأ بتخيله ؟ ـ هكذا كان يرد عليه الآخر وهو يشهر دفتره الذي يبدو أضخم حجماً في كل مرة ، إذ يكون قد أضاف إليه مخططات لمدن مثالية فاضلة ، حيث يزرع كل قاطن طعامه ، وحيث يترعرع الأطفال أصحاء وسعداء في كنف رعاية

الجماعة ، ذلك أنه في ظل إلغاء الملكية الخاصة ، لا تعود هناك إمكانية للمطالبة بملكية الأولاد .

ـ يجب علينا أن نحسّن هذه الكارثة التي نعيش فيها هنا . وأول ما علينا عمله هو إستنهاض العمال والفقراء والهنود ، ومنح الأرض للفلاحين وإلغاء سلطة القساوسة . لا بد من تغيير الدستور يا مستر تود . فمن يحق لهم التصويت هنا هم الملاكون وحدهم ، هذا يعني أن الأغنياء هم من يحكمون . أما الفقراء فلا مكان لهم .

حاولت حاكوب تود أن يبتدع أساليب معقدة لمساعدة صديقه ، ولكنه ما لبث أن تخلى عن ذلك لأن مبادراته كانت تسبب الغضب لخواكين . فقد كان يكلفه ببعض الأعمال ليجد ذريعة لإعطائه نقوداً ، ولكن انديتا كان ينجز تلك الأعمال بضمير ثم يرفض رفضاً قاطعاً تلقي أي مقابل . فإذا ما قدم إليه تود سجائر ، أو كأساً من البراندي ، أو مظلته في ليلة عاصفة ، كان انديتا يردها ببرودة متكبرة ، مسبباً الحيرة ، والغضب أحياناً للآخر . لم يذكر الشاب أي شيء قط عن حياته الخاصة أو عن ماضيه ، كان يبدو وكأنه يتجسد باقتضاب لكي يشارك في بضع ساعات من الأحاديث الثورية أو القراءات المتحمسة في المكتبة ، قبل أن يتحول إلى دخان ويتلاشى عند انتهاء تلك السهرات . لم يكن يملك نقوداً ليذهب مثل الآخرين إلى الحانة كما أنه لم يكن يقبل دعوة لا يستطيع أن يردها .

في إحدى الليالي لم يستطع تود أن يتحمل الشكوك لمزيد من الوقت ، فلحق به عبر متاهة دروب الميناء ، حيث بإمكانه التخفي في عتمة البوابات وفي منعطفات تلك الأزقة العبثية التي جرى إنشاؤها متلوية عن عمد كما يقول الناس ، من أجل منع الشيطان من دحونها . ورأى خواكين انديتا يشمر ساقي بنطاله ، ويخلع حذاءه ويلفه في ورقة صحيفة ويخبئه بحذر في حقيبته البالية ، ويُخرج منها صندل فلاح لينتعله . لم تكن هناك في الشوارع في تلك الساعة

المتأخرة سوى بعض النفوس التائهة والقطط المتشردة تنقب في القمامة . تقدم تود وراء صديقه عن قرب في الظلام وهو يشعر بأنه أشبه بلص ؛ وكان بإمكانه أن يسمع أنفاسه المضطربة وحفيف يديه وهو يفركهما دون توقف ليقاوم لسعات الريح الجليدية . قادته قدماه إلى أحد البيوت المشتركة ، مدخله هو واحد من تلك الأزقة الضيقة التقليدية في المدينة . صفعت وجهه رائحة نتانة بول وبراز ؛ فنادراً ما تمر شرطة النظافة من تلك الأحياء بخطافاتها الطويلة لتسليك المجاري . وفهم حرص اندييتا على خلع حذاءه الوحيد ؛ إذ لم يكن يعرف ما الذي تطأه قدماه اللتان كانتا تغوصان في سائل متعفن . في تلك الليلة غير المقمرة ، كان الضوء الشحيح ينفذ من بين أخشاب النوافذ المخلعة - وكثير منها دون زجاج - المغطاة بقطع كرتون أو بألواح خشب ، فيمكن للمار أن يلمح من الشقوق حجرات بائسة مضاءة بشموع . وكان الضباب الخفيف يضفي على المشهد أجواء غير واقعية . رأى خواكين اندييتا يشعل عود ثقاب ، ويحميه من الهواء بجسده ، ويُخرج مفتاحاً ويفتح باباً على ضوء اللهب المرتعش . « أهذا أنت يا بني ؟ » سمع بوضوح صوتاً نسائياً ، أشد وضوحاً وشباباً مما توقعه . ثم أُغلق الباب في الحال . بقي تود وقتاً طويلاً في الظلام يتأمل البيت البائس وفيه رغبة كبيرة للطرق على الباب ، ولم تكن تلك الرغبة مجرد فضول وحسب ، وإنما عاطفة جامحة تجاه صديقه . ودمدم أخيراً : اللعنة ، إنني أتحول إلى أبله . ثم دار على عقبيه ومضى إلى نادي الاتحاد ليشرب كأساً ويقرأ الصحف ، ولكنه قبل أن يصل أحس بالندم ، فهو غير قادر على مواجهة التناقض ما بين الفقر الذي خلّفه وراءه للتو وتلك الصالونات ذات الأثاث الجلدي ومصابيح الكريستال . رجع إلى غرفته تلهبه نيران حنان تشبه إلى حد بعيد تلك الحمى التي أوشكت أن تقضي عليه خلال أسابيعه الأولى في تشيلي .

●

كانت الأمور على هذه الحال في أواخر عام ١٨٤٥ ، عندما أرسل أسطول بريطانيا العظمى التجاري كاهناً إلى بالبارايسو من أجل إنجاز الضروريات الروحية للبروتستانتيين . جاء الرجل مستعداً لتحدي الكاثوليكيين ، ولبناء معبد أنجليكاني راسخ وإعطاء بريق جديد لطائفته . وكان أول عمل رسمي قام به هو مراجعة حسابات المشروع التبشيري في أرض النار ، والذي لم تكن تلمح نتائجه في أي مكان . أثّر جاكوب تود على أغوسطين دل بايي ليدعوه إلى الريف ، وهو يفكر بمنح القس الجديد وقتاً يفتر خلاله حماسه . ولكنه عندما رجع بعد أسبوعين من ذلك ، تبين له أن القس لم ينس القضية . ووجد تود لبعض الوقت أعذاراً أخرى لكي يتجنبه ، ولكنه اضطر في النهاية إلى مواجهة مدقق حسابات ثم لجنة من الكنيسة الانجليكانية بعد ذلك . أوغل في تفسيرات متشابكة وعويصة كانت تزداد خيالية وغرابة كلما كانت الأرقام. تؤكد الاختلاس بوضوح الهاجرة . أعاد النقود التي بقيت في حسابه ، ولكن سمعته تعرضت لنكسة لا سبيل إلى إصلاحها . فقد انتهت بالنسبة إليه إلى غير رجعة سهرات الأربعاء في بيت آل سوميرز ولم يعد أحد من الجالية الأجنبية إلى دعوته ؛ صاروا يتجنبونه في الشارع ، ومن كانت لهم صفقات معه اعتبروها منتهية . ووصلت أخبار الخدعة إلى أصدقائه التشيليين الذين اقترحوا عليه خفية ، ولكن بحزم ، ألا يعود إلى التردد على نادي الاتحاد إذا ما كان راغباً في تجنب عار الطرد . ولم يعودوا يقبلونه في لعبة الكريكيت ولا في بار الفندق الإنكليزي ، وسرعان ما صار معزولاً ، حتى أن أصدقاءه الليبراليون أداروا له ظهرهم . ولم تعد أسرة دل بايي بكاملها تبادله التحية ، باستثناء باولينا التي حافظ تود على الاتصال معها من خلال رسائل متباعدة .

كانت باولينا قد أنجبت ابنها الأول في الشمال ، وكانت تكشف في رسائلها عن رضاها عن حياتها الزوجية . فزوجها فيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث الذي كان يزداد ثراء حسب قول الناس ، تكشف عن زوج غير عادي .

فقد كان مقتنعاً بأن الجرأة التي أظهرتها باولينا حين هربت من الدير ولوت ذراع أسرتها لتتزوج منه يجب ألا تذوب في الأعمال المنزلية ، وإنما يجب استغلالها من أجل فائدتهما معاً . ومع أن زوجته التي تربت كآنسة لم تكن تعرف إلا القليل من القراءة والحساب ، إلا أنها كانت قد طورت ولعاً حقيقياً بالصفقات التجارية . لقد استغرب فيليثيانو في البداية اهتمامها في التقصي عن تفاصيل عمليات استخراج ونقل الخامات المنجمية ، وكذلك عن تذبذبات البورصة التجارية ، ولكنه سرعان ما تعلم احترام حدس زوجته غير العادي . وبفضل نصائحها ، بعد ستة شهور من زواجهما ، حقق أرباحاً كبيرة في المضاربة بالسكر . فأهدى إليها كلفتة شكر ، طقم شاي فضي مشغول في البيرو ، وزنه تسعة عشر كيلو غراماً . ولكن باولينا التي كانت لا تكاد تستطيع التحرك بسبب كتلة ابنها الأول الضخمة في بطنها ، رفضت الهدية دون أن ترفع بصرها عن الخف الذي كانت تحيكه .

- أفضل أن تفتح حساباً باسمي في أحد بنوك لندن ، وأن تضع لي فيه من الآن فصاعداً عشرين بالمئة من الأرباح التي أحققها لك .

فسألها فيليثيانو غاضباً :

- لماذا ؟ ألستُ أعطيك كل ما تحتاجين إليه وأكثر ؟

فأوضحت وهي تلمس بطنها :

- الحياة طويلة ومليئة بالمفاجآت . ولست أريد أن أكون أرملة فقيرة ، خصوصاً وأنا أم لأولاد .

خرج فيليثيانو صافقاً الباب ، ولكن إحساسه بالعدالة كان أقوى من تعكر مزاجه كزوج مُتَحَدى . أضف إلى ذلك أن تلك العشرين بالمئة ستكون حافزاً كبيراً لباولينا . ففعل ما طلبته منه ، بالرغم من أنه لم يكن قد سمع عن امرأة متزوجة تملك أموالاً خاصة بها . فإذا كانت الزوجة غير قادرة على التنقل بمفردها ، وعلى توقيع وثائق قانونية ، أو اللجوء إلى العدالة ، أو بيع أو شراء

أي شيء دون تفويض من زوجها ، فإنه لا يمكنها بالتالي حيازة حساب مصرفي تتصرف به على هواها . وسيكون من الصعب تفسير الأمر للمصرف وللشركاء .

وعندما علمت باولينا في إحدى زياراتها القصيرة إلى بالبارايسو بالنكبة التي حلت بجاكوب تود ، اقترحت عليه :

- تعال معنا إلى الشمال ، فالمستقبل في المناجم ، وهناك يمكنك البدء من جديد .

فدمدم :

- وما الذي سأفعله هناك يا صديقتي ؟

- تبيع كتبك المقدسة - قالت باولينا مازحة ، ولكنها كبحت نفسها على الفور حيال حزنه العميق وعرضت عليه بيتها وصداقتها والعمل في شركة زوجها .

ولكن تود كان يائساً بسبب سوء حظه والخزي العلني الذي حاق به إلى حد أنه لم يجد القوة لبدء مغامرة جديدة في الشمال . فالفضول والقلق اللذان كانا يدفعانه من قبل ، حل محلهما الهوس باستعادة السمعة الطيبة التي فقدها .

- إنني مهزوم يا سيدتي ، ألا ترين ذلك ؟ فالرجل الذي بلا شرف هو رجل ميت .

فواسته باولينا :

- لقد تبدلت الأزمنة . فشرف المرأة المدنس لم يكن يغسله من قبل إلا الدم . ولكن ها أنت ترى يا مستر تود ، فقد غُسل الشرف في حالتي بإبريق من الشوكولاته . وشرف الرجال أشد مقاومة من شرفنا نحن النساء . فلا تيأس .

وفيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث الذي لم ينس تدخل تود

ومساعدته له في أزمنة غرامياته المحبطة مع باولينا ، أراد أن يقرضه نقوداً ليعيد أموال التبشير حتى آخر قرش منها ، ولكن تود قرر أنه في الاختيار بين أن يكون مديناً بالمال لصديق أو أن يكون مديناً للكاهن البروتستانتي ، فإنه يفضل الأخير ، خصوصاً وأن سمعته قد انهارت على أي حال . بعد وقت قصير من ذلك وجد نفسه مضطراً إلى أن يودع القطط والحلوى ، لأن الأرملة الإنكليزية صاحبة النزل طردته بضجة لا نهائية من التأنيب . فقد كانت المرأة الطيبة قد ضاعفت جهودها في المطبخ لكي تساهم في تمويل انتشار ديانتها في مناطق الشتاء الدائم تلك ، حيث الريح الشبحية تولول ليل نهار ، مثلما كان يقول جاكوب تود الثمل بالبلاغة . وعندما علمتْ بالمصير الذي آلت إليه مدخراتها على يدي المبشر المزيف ، انفجرت بالغضب العادل ، وطردته من بيتها . وبفضل مساعدة خواكين اندييتا الذي بحث له عن مسكن آخر ، تمكن تود من الانتقال إلى غرفة صغيرة ، ولكنها مطلة على البحر ، في أحد أحياء الميناء المتواضعة . وكان البيت ملك أسرة تشيلية ، وليس فيه التطلعات الأوربية التي للبيت السابق ، فهو بناء قديم ، مؤلف من دهليز عند المدخل ، وغرفة واسعة تكاد تخلو من الأثاث ، تستخدم كصالةٍ وغرفة طعام وغرفة نوم للأبوين ، وحجرة أخرى أضيق من الأولى ودون نوافذ ينام فيها جميع الأطفال ، إضافة إلى حجرة ثالثة في العمق يؤجرونها . كان صاحب البيت يعمل معلم مدرسة وتساهم زوجته بميزانية البيت بصناعة شموع حرفية كانت تصنعها في المطبخ . فكانت رائحة البيت تعبق بالشمع . وكان تود يشعر بتلك الرائحة الحلوة في كتبه ، في ملابسه ، في شعره ، بل وفي روحه أيضاً ؛ فقد توغلت الرائحة عميقاً تحت جلده إلى حد أنه ، بعد سنوات طويلة ، وفي الجانب الآخر من العالم ، بقي يعبق برائحة الشموع . كان يتردد على الأحياء الدنيا من الميناء فقط ، حيث لا أحد يهتم بطيب أو سوء سمعة غريب ذي شعر أحمر . وكان يأكل في حانات الفقراء ويقضي أياماً بطولها بين

الصيادين ، مهتماً بالشباك والزوارق . كان العمل الجسدي يريحه نفسياً ويتمكن لساعات من نسيان كبرياءه الجريحة . وبقي خواكين اندييتا هو الوحيد الذي يزوره . فكانا يحبسان نفسيهما ليتناقشا في السياسة ويتبادلان النصوص الفلسفية الفرنسية ، بينما أبناء المعلم يطوفون في الجانب الآخر من الباب ، وتطفو رائحة الشمع المصهور مثل خيط من الشمع . لم يشر خواكين اندييتا قط إلى نقود التبشير ، بالرغم من أنه لا يمكن له أن يكون غير عارف بها ، خصوصاً وأن تداول الفضيحة قد جرى علناً طوال أسابيع . وعندما أراد تود أن يوضح له بأنه لم يكن في نيته الاحتيال قط وأن كل شيء قد جرى بسبب عدم قدره دماغه على التعامل مع الأرقام ، وفوضاه التي يضرب بها المثل وسوء حظه ، رفع خواكين اندييتا إصبعه إلى فمه بإشارة الصمت العالمية . وفي نوبة خجل وحنان عانقه جاكوب تود ببلادة ، واحتضنه الآخر للحظة ، ولكنه انفصل عنه بجفاء ، وقد احمر وجهه حتى أذنيه . وتراجع الاثنان في وقت واحد ، مذهولين ، دون أن يفهما كيف خرقا قاعدة السلوك الأولية التي تحظر تلامس الرجال جسدياً ، اللهم إلا في المعارك أو في الرياضات الهمجية . وبدأ الإنكليزي يفقد الاتجاه في الشهور التالية ، فأهمل مظهره واعتاد التسكع بذقن لا يحلقها لعدة أيام ، تفوح منه رائحة الشموع والكحول . وعندما يزيد العيار من الخمر ، يبدأ بالهذر كمخبول دون توقف لالتقاط أنفاسه ، ضد الحكومات والأسرة المالكة الإنكليزية ، وضد العسكريين والشرطة ، ونظام الامتيازات الطبقي الذي يقارنه بنظام السلالات في الهند ، وضد الدين عموماً والمسيحية خصوصاً .

- عليك أن تذهب من هنا يا مستر تود ، لأنك آخذ بالجنون - تجرأ خواكين أندييتا على القول له في أحد الأيام بعد أن أخرجه من إحدى الساحات حين كان الحراس على وشك اعتقاله .

وفي تلك الحال بالضبط ، حيث كان يخطب مثل معتوه في الشارع ، وجده

القبطان جون سوميرز الذي كان قد رسا بسفينته في الميناء منذ عدة أسابيع . إذ كانت السفينة قد تعرضت لأضرار شديدة أثناء اجتياز كابو دي هورنوس ، وكان لا بد من خضوعها لعمليات إصلاح طويلة . كان جون سوميرز قد أمضى شهراً كاملاً في بيت أخويه جيرمي ورروز . فدفعه ذلك إلى التصميم على البحث عن عمل في إحدى السفن البخارية الحديثة فور عودته إلى إنكلترا ، لأنه لم يكن مستعداً لتكرار تجربة الحبس في القفص الأسري . لقد كان يحب ذويه ، ولكنه يفضل البقاء بعيداً عنهم .

وكان قد عارض حتى ذلك الحين مجرد التفكير بالسفن البخارية ، لأنه لم يكن يتصور مغامرة البحر دون تحدي الأشرعة والمناخ التي تثبت طيب أصل القبطان ، ولكنه اضطر إلى الاقتناع أخيراً بأن المستقبل للسفن الجديدة ، الأكبر حجماً والأكثر أماناً وسرعة . وعندما لاحظ أنه بدأ يفقد شعره ، ألقى المسؤولية بالطبع على حياة القعود . وسرعان ما بدأ الكسل يثقل عليه كدرع حديدية ، وصار يهرب من البيت ليتمشى في الميناء ضجراً مثل وحش واقع في مصيدة . حين رأى جاكوب تود القبطان ، أنزل حافة قبعته وتظاهر بأنه لم يره لكي يوفر على نفسه مهانة صدود آخر ، ولكن البحار استوقفه فجأة وحياه بتربيتة ودودة على كتفه .

- هلم بنا لنشرب كأساً يا صديقي! - وجرّه إلى حانة قريبة .

وكانت الحانة واحداً من أركان الميناء المعروفة بين الزبائن بمشروباتها النزيهة ، وحيث يقدمون طبقاً وحيداً اكتسب شهرة عن جدارة : حنكليس بحري مقلي مع بطاطا وبصل نيء . وتود الذي كان ينسى تناول الطعام في تلك الأيام ويمضي على الدوام شبه مفلس ، أحس برائحة الطعام اللذيذة وظن أنه سيُغمى عليه . وضمخت عينيه موجة امتنان ومتعة . فأبعد جون سوميرز بصره عنه تأدباً بينما هو يلتهم آخر فتات الطبق .

- لم تبد لي مسألة التبشير بين الهنود بالفكرة الجيدة على الإطلاق - قال

ذلك عندما كان تود يتساءل إذا ما كان القبطان قد علم بالفضيحة المالية . ما الذي تفكر بعمله الآن ؟

ـ أعدتُ ما تبقى في الحساب المصرفي ، ولكنني ما زلت مديناً بمبلغ كبير .

ـ وليست لديك طريقة لتسديده ، أليس كذلك ؟

ـ في الوقت الراهن لا ، ولكن...

ـ ولكن لا شيء يا رجل . فقد قدمت لأولئك المسيحيين الطيبين حجة جيدة لكي يشعروا بأنهم أتقياء ، وقدمت لهم الآن فضيحة يتداولونها لوقت طويل . إنها متعة لم تكلفهم إلا مبلغاً زهيداً . وعندما سألتكُ عما تفكر بعمله ، كنتُ أعني مستقبلك ، وليس ديونك .

ـ لا مشاريع لدي .

ـ ارجع معي إلى إنكلترا . فلا مكان لك هنا . كم من الأجانب في هذا الميناء ؟ إنهم أربعة تافهين وكلهم يعرفون بعضهم بعضاً . صدقني أنهم لن يتركوك بسلام . أما في إنكلترا بالمقابل ، فيمكنك أن تضيع وسط الحشود .

بقي جاكوب تود ساهماً ينظر إلى قعر كأسه بملامح يائسة إلى حد دفع القبطان إلى إفلات إحدى قهقهاته .

ـ لا تقل لي إنك باق هنا من أجل أختي روز!

وكان ذلك صحيحاً . فانفضاض الجميع عنه كان سيبدو أقل وطأة بالنسبة إلى تود لو أن مس روز أظهرت حداً أدنى من الوفاء والتفهم ، ولكنها رفضت أن تستقبله وأعادت إليه الرسائل التي حاول فيها تنظيف اسمه دون أن تفتحها . ولكنه لم يعلم مطلقاً بأن رسائله لم تكن تصل إلى المرسل إليها ، لأن جيرمي سوميرز ، في خرق لاتفاق الاحترام المتبادل مع أخته ، قرر حمايتها من طيبة قلبها ومنعها من اقتراف حماقة جنونية أخرى لا يمكن إصلاحها . ولم يكن القبطان يعرف ذلك أيضاً ، ولكنه خمن احتياطات جيرمي وتوصل إلى أنه

كان سيفعل الشيء نفسه في مثل تلك الظروف . ففكرة رؤية بائع الكتب المقدسة المثير للشجون وقد تحول إلى طالب ليد أخته روز بدت له كارثية ؛ لقد كان متفقاً تماماً مع جيرمي في هذا الأمر .

ـ أكانت واضحة إلى هذا الحد محاولاتي مع مس روز ؟ ـ سأل جاكوب تود منزعجاً .

ـ لنقل إنها لم تكن سراً غامضاً يا صديقي .

ـ أخشى أنه لن يكون هناك أمل في أن تتقبلني يوماً...

ـ وأنا أخشى الشيء نفسه .

ـ ألا تقدم لي جميلاً عظيماً أيها القبطان بالتوسط لي ؟ لو أن مس روز تستقبلني مرة واحدة ، فإنني سأوضح لها...

ـ لا تعتمد علي في دور القواد يا تود . لو كانت روز تتجاوب مع مشاعرك لكنتَ عرفتَ ذلك . أختي ليست من النوع الخجول ، أؤكد لك . وأكرر لك يا رجل إن الشيء الوحيد الذي تبقى لك هو مغادرة هذا الميناء اللعين ، لأنك ستنتهي هنا إلى التحول إلى متسول . سفينتي ستغادر بعد ثلاثة أيام إلى هونغ كونغ ومن هناك إلى إنكلترا . الرحلة ستكون طويلة ، ولكنك لستَ مستعجلاً . الهواء النقي والشغل القاسي هما علاج مؤكد للخلاص من حماقات الحب . أقول لك هذا أنا الذي أحب في كل ميناء ولا أكاد أعود إلى البحر حتى أشفى .

ـ لا أملك نقوداً للرحلة .

ـ سيكون عليك أن تعمل كبحار وأن تلعب الورق معي في الأمسيات . وإذا لم تكن قد نسيت خدع الغش في اللعب التي كنتَ تعرفها عندما أحضرتك إلى تشيلي قبل ثلاث سنوات ، فإنك سوف تستنزفني خلال الرحلة .

بعد بضعة أيام أبحر جاكوب تود وهو في حالة أفقر بكثير مما كان عليه عند قدومه . والشخص الوحيد الذي رافقه إلى المرفأ هو خواكين اندييتا . فقد

طلب الشاب المحزون إذناً للتغيب عن عمله مدة ساعة . وودع جاكوب تود بالشدّ على يده .

ـ سنلتقي ثانية يا صديقي ـ قال الإنكليزي .

ورد عليه التشيلي الذي كان لديه إحساس أشد وضوحاً بالقدر :

ـ لا أظن ذلك .

الخاطبون

بعد سنتين من رحيل جاكوب تود حدث تبدل إلزا سوميرز الحاسم . فقد تحولت من حشرة الزوايا التي كانتها في طفولتها ، إلى صبية ذات هيئة رقيقة ووجه حساس . وأمضت سنوات البلوغ القاسية تحت رعاية مس روز وهي توازن كتاباً فوق رأسها وتتعلم العزف على البيانو ، وتزرع في الوقت نفسه الأعشاب المحلية الأصلية في بستان ماما فريسيا وتتعلم الوصفات القديمة لعلاج الأمراض المعروفة وأمراض أخرى ستُعرف فيما بعد ، بما في ذلك الخردل من أجل مقاومة الفتور في الحياة اليومية ، وأوراق الأورطنسيا من أجل إنضاج الدمامل واستعادة الضحك ، والبنفسج من أجل تحمل الوحدة ، وعشبة رعي الحمام التي تتبل بها حساء مس روز ، لأن هذه النبتة النبيلة تُشفي من تعكر المزاج . وعندما لم تستطع مس روز تقويض اهتمام محميتها بالمطبخ ، استسلمت أخيراً لرؤيتها تضيع ساعات ثمينة من وقتها ما بين قدور ماما فريسيا السوداء . فقد كانت ترى أن المعارف المطبخية ليست سوى زينة في تربية الفتاة ، لأنها تتيح لها إصدار الأوامر إلى الخدم ، مثلما تفعل هي نفسها ، وأن هناك فرقاً كبيراً بين عمل ذلك والتلوث بالقدور والمقالي ، لأنه لا يمكن لسيدة محترمة أن تسمح بأن تفوح منها رائحة الثوم والبصل ، ولكن إلزا كانت تفضل الممارسة العملية على النظرية وتلجأ إلى صديقاتها بحثاً عن

وصفات أطباق تستنسخها في دفترٍ ثم تُدخل عليها التعديلات بعد ذلك في المطبخ . كانت قادرة على قضاء أيام كاملة في طحن البهارات ومختلف أنواع الجوز من أجل المعجنات ، أو في طحن الذرة من أجل الحلويات الكريولية ، أو في تنظيف فراخ الحمام من أجل نقعها في الخل ، أو انتقاء الثمار من أجل المربى . وحين بلغت الرابعة عشرة من عمرها كانت قد تفوقت على مهارة مس روز في صنع حلوياتها المرتبكة وتعلمت كل قائمة أطباق ماما فريسيا .
وفي الخامسة عشرة من عمرها صارت تتولى مسؤولية إعداد المأكولات لسهرات أيام الأربعاء ، وعندما لم تعد الأطباق التشيلية تشكل تحدياً لها ، بدأت تهتم بالمطبخ الفرنسي المتفنن الذي علمتها إياه مدام كولبيت ، وببهارات الهند الغريبة التي اعتاد خالها جون إحضارها ، وكانت تتعرف عليها من رائحتها دون أن تعرف أسماءها . وصار الحوذي الذي يحمل رسائل الدعوات إلى أصدقاء آل سوميرز ، يقدم المغلف ومعه لقيمات حلوى خارجة للتو من يدي إلزا التي ارتقت بالعادة المحلية في تبادل الأطعمة والحلويات إلى مستوى الفن . وكان انكبابها على شؤون المطبخ كبيراً إلى حد وصل معه جيرمي سوميرز إلى الاعتقاد بأنه يمكن لها أن تكون صاحبة صالون شاي ، وهو المشروع الذي استبعدته مس روز دون أدنى تردد ، مثل غيره من مشاريع أخيها المتعلقة بالفتاة . فهي ترى أن المرأة التي تعمل لتكسب لقمة عيشها تنحدر من طبقتها الاجتماعية ، مهما كان العمل الذي تقوم به محترماً . وكانت تسعى بالمقابل إلى الحصول على عريس لائق لمحميتها ، وقد منحت نفسها مدة سنتين للعثور عليه في تشيلي ، وإلا فإنها ستأخذ إلزا إلى إنكلترا ، لأنها لا تستطيع المجازفة بتركها تبلغ العشرين دون خطيب وبقائها عازبة . ويجب أن يكون المرشح شخصاً قادراً على تجاهل أصلها الغامض والتحمس لمزاياها . وكانت تستبعد فكرة تزويجها لشخص تشيلي ، لأن زواج الأرستقراطيين منهم يبقى محصوراً بين أبناء العمومة ، ولأن الطبقة الوسطى

التشيلية لا تثير اهتمامها ، لأنها لا ترغب في رؤية إلزا تعاني العوز إلى المال . لقد كانت تلتقي بين حين وآخر مع رجال أعمال في التجارة أو المناجم ، ممن لهم علاقات عمل مع أخيها جيرمي ، ولكن هؤلاء كانوا يجرون وراء الألقاب الرنانة والأمجاد . ولم يكن ممكناً أن يهتم أحدهم بإلزا ، لأن مظهرها لا يمكنه أن يؤجج الكثير من العواطف : فهي قصيرة ونحيلة ، تخلو من ذلك الشحوب الحليبي أو من ضخامة الصدر والمؤخرة المرغوبة . ولا يمكن اكتشاف جمالها الخفي ورقة حركاتها وزخم إيحاءات عينيها إلا من النظرة الثانية ؛ كانت تبدو مثل دمية من الخزف أحضرها القبطان جون سوميرز من الصين . وكانت مس روز تبحث عن عريس قادر على تقدير وضوح بصيرة محميتها ، وصلابة طبعها ومهارتها في قلب الأوضاع لصالحها ، هذا الذي تسميه ماما فريسيا حظاً وتفضل هي أن تسميه ذكاء ؛ إنها تريد رجلاً ميسوراً اقتصادياً وطيب الطباع ، يوفر لها الأمان والاحترام ، ويمكن لإلزا في الوقت نفسه أن تسيره بسهولة . وكانت تفكر في أن تعلمها عندما يحين الوقت المناسب قواعد الملاطفات اليومية التي تغذي في الرجل عادة الحياة المنزلية ؛ ونظام المداعبات الجريئة لمكافأته والصمت الماكر لمعاقبته ؛ وأسرار السيطرة على إرادته التي لم تُتح لها هي نفسها فرصة ممارستها ، فضلاً عن تعليمها فنون الحب الجسدي العريقة . ومع أنها لم تتجرأ قط على التحدث معها حول هذا الموضوع ، إلا أنها كانت تعتمد في ذلك على عدة كتب مخبأة وراء قفل مزدوج في خزانتها ، ستعيرها إياها عندما يحين الوقت . فقد كانت نظريتها تقول بأنه يمكن قول كل شيء كتابة . ولم يكن هناك من يعرف أكثر منها في الشؤون النظرية . فبإمكان مس روز أن تملي محاضرات نظرية مطولة حول كل الأشكال الممكنة وغير الممكنة لممارسة الحب

وفي أحد الأيام طلبت من أخيها جيرمي :

- يجب عليك أن تتبنى إلزا بصورة قانونية لكي تتمكن من حمل كنيتنا .

ـ إنها تستخدمها منذ سنوات ، فما الذي تريدينه أكثر من ذلك يا روز .
ـ أن تتمكن من الزواج وهي مرفوعة الرأس .
ـ وممن ستتزوج ؟

لم تخبره مس روز في ذلك اليوم ، مع أنه كان هناك شخص في ذهنها . إنه مايكل ستيوارد ، وهو شاب في الثامنة والعشرين من العمر ، وضابط في الأسطول الإنكليزي المرابط في ميناء بالبارايسو . وكانت قد تحققت من خلال أخيها جون من أن البحار ينتمي إلى أسرة إنكليزية عريقة . وبما أن أسرته لن تنظر بعين الرضا إلى زواج ابنها الأكبر ووريثها الوحيد من فتاة مجهولة الأصل ودون ثروة ، قادمة من بلاد لم يسمعوا باسمها من قبل ؛ فلا بد لإلزا من امتلاك دوطة مغرية ومن أن يتبناها جيرمي ، فهكذا على الأقل لن تكون مسألة أصلها عائقاً .

كان مايكل ستيواد شاباً ذا مظهر رياضي ، ونظرة بريئة في عينيه الزرقاوين ، له سالفان وشارب شقر ، وأسنان منتظمة وأنف أرستقراطي . ولكن ذقنه النافرة تقلل من مهابته . وكانت مس روز تنتظر الوصول إلى علاقة ثقة معه لكي تقترح عليه أن يخفي ذلك العيب بإطلاق لحيته . وقد كان الشاب ، حسب قول القبطان سوميرز ، مثالاً في الأخلاق . ونصاعة صحيفة خدمته تضمن له مستقبلاً باهراً في البحرية . وواقع أنه سيقضي أوقاتاً طويلة في الإبحار كان يمثل في نظر مس روز مزية عظيمة لمن ستتزوج منه . وكلما فكرت أكثر في الأمر كانت قناعتها تزداد بأنها قد اكتشفت الرجل المثالي ، ولكنها أدركت أن طبيعة إلزا لن تسمح لها بقبول الزواج منه لمجرد المصلحة وحسب ، وإنما لا بد لها من أن تحبه . وقد كان ثمة أمل في ذلك : فالرجل يبدو وسيماً بزيه الرسمي ، ولم يكن هناك من رآه دون ذلك الزي حتى ذلك الحين .

وقد قال لها القبطان جون سوميرز مبدياً رأيه عندما أخبرته بمخططاتها :

ـ ستيوارد ليس سوى أحمق مهذب الأساليب . وإلزا ستموت ضجراً إذا ما تزوجت منه .

ـ كل الأزواج مملون يا جون . فليس هناك امرأة لديها قدر إصبعين من العقل تتزوج لكي تجد من يمتعها ، وإنما لكي تجد من يعيلها .

●

ما زالت إلزا تبدو طفلة صغيرة ، ولكنها أنهت تعليمها وستصبح عما قريب في سن مناسبة للزواج . لقد بقي أمامها بعض الوقت ، هذا ما فكرت فيه مس روز ، ولكن عليها أن تتصرف بحزم ، لتحول دون أن تقوم فتاة أكثر يقظة منها بخطف العريس المرشح . وما إن اتخذت القرار حتى انكبت على مهمة اجتذاب الضابط مستخدمة كل الذرائع التي أمكن لها تخيلها . عدلت السهرات الموسيقية لكي تتوافق مع المناسبات التي ينزل فيها مايكل ستيوارد إلى البر ، دون أي اعتبار للمشاركين الآخرين الذين خصصوا أيام الأربعاء منذ سنوات لذلك النشاط الاجتماعي المقدس ، فانزعج بعضهم وتوقفوا عن المجيء . وهذا هو بالضبط ما كانت تريده ، إذ أنها تمكنت بذلك من تحويل السهرات الموسيقية الهادئة إلى حفلات رقص واستبدال قائمة المدعوين بشبان عازبين وآنسات في سن الزواج من الجالية الأجنبية بدلاً من آل ايبلنغ وسكوت وابيلغران المملين الذين كانوا يتحولون إلى مستحاثات . وتحول إلقاء الشعر والأناشيد إلى ألعاب صالونات ورقصات غير منتظمة ومنافسات في الذكاء والأحاجي . كانتْ تنظِّم حفلات غداء معقدة ونزهات إلى الشاطئ . فينطلق المدعوون في عربات ، تسبقهم منذ الفجر عربات ثقيلة ذات أرضيات من الجلد وسقف من القش ، تحمل الخدم الذين يتولون ترتيب سلال الطعام الكثيرة تحت خيم ومظلات . وكانت تمتد أمام النظر وديان خصبة مزروعة بأشجار مثمرة ، وكروم عنب ، ومرابع قمح وذرة ، وشواطئ وعرة حيث يتفجر المحيط الهادي في سحب من زبد ، ويظهر للعيون في البعيد شبح سلسلة

الجبال المحبب المغطاة بالثلوج . وكانت مس روز تتدبر الأمر بطريقة أو بأخرى لكي تذهب إلزا في العربة نفسها مع ستيوارد ، ولكي يجلسا متجاورين وليكونا رفيقين طبيعيين في ألعاب الكرة والتمثيل الإيمائي ، ولكنها تعمل على الفصل بينهما في ألعاب الورق والدومينو ، لأن إلزا كانت ترفض بحزم أن تتهاون وتترك نفسها تخسر .

وقد أوضحت لها مس روز بصبر :

- يجب أن تتوصلي إلى جعل الرجل يشعر بالتفوق .

فردت عليها إلزا دون تأثر :

- هذا يكلف جهداً كبيراً .

لم يستطع جيرمي سوميرز منع موجة نفقات أخته . فكانت مس روز تشتري أقمشة بالجملة وتستبقي فتاتين من فتيات الخدمة ليخطن طوال النهار فساتين منقولة عن المجلات . وكانت تستدين أكثر مما هو معقول من بحارة التهريبِ حتى لا تنقصها العطور وأحمر الشفاه القاني التركي ، والكحل لسحر العيون ، وكريم اللآلئ الحية من أجل بياض البشرة . وللمرة الأولى لم يعد لديها متسع من الوقت للكتابة ، فقد كانت منهمكة في الاهتمام بالضابط الإنكليزي ، بما في ذلك صنع البسكويت والمأكولات المحفوظة ليحملها معه إلى أعالي البحار ، وتحضير كل ما يُصنع في البيت ويعبأ في مرطبانات بديعة .

- إلزا أعدت لك هذا ، ولكنها خجولة جداً ولا تستطيع تقديمه إليك مباشرة - كانت تقول له ذلك ، دون أن توضح أن إلزا تطهو ما يطلبونه منها دون أن تسأل لمن سيُقدم . ولهذا السبب أيضاً كانت إلزا تفاجأ عندما يأتي ليشكرها .

لم يبدِ مايكل ستيوارد عدمِ مبالاته بحملة الإغواء . ولكن عجزه عن الكلام كان يدفعه إلى التعبير عن شكره في رسائل قصيرة ورسمية يكتبها على أوراق تحمل ترويسة البحرية ، أو بالحضور حاملاً باقات أزهار عندما يكون

على اليابسة . كان قد تعلم لغة الزهور ، ولكن لفتاته الرقيقة تلك كانت تذهب هباء ، لأن مس روز وكل من يعيشون في تلك الأنحاء البعيدة جداً عن إنكلترا ، لم يكونوا قد سمعوا بالفروق بين وردة وقرنفلة ، فما بالك بالفرق في لون الشريط . وكانت جهود ستيوارد من أجل العثور على أزهار تتزايد باطراد متدرج ، ابتداء من اللون الوردي الشاحب ، مروراً بكل تنويعات الأحمر وحتى الأحمر الأشد توهجاً ، كإشارة إلى تنامي عاطفته ، ولكن كل تلك الجهود ضاعت هباء . ومع مرور الوقت تمكن الضابط من تجاوز خجله ، وانتقل من الصمت المُحزن الذي كان يميزه في البدء إلى ثرثرة مزعجة للسامعين . فكان يعرض بحماس آراءه الأخلاقية حول أمور تافهة وصار من عادته الإسهاب في شروح غير مجدية حول التيارات البحرية وخرائط المِلاحة . أما المجال الذي كان يلمع فيه حقاً فهو الرياضات الخشنة التي تُظهر جسارته وتناسق عضلاته . وكانت مس روز تستحثه ليقدم عروضاً أكروباتية وهو معلق بغصن في الحديقة ، بل إنها توصلت ، بشيء من الإلحاح ، إلى جعله يمتعهم برقصة أوكرانية يؤديها بضربات من قدميه على الأرض وانحناءات وقفزات قاتلة تعلمها من بحار آخر . وكانت مس روز تصفق بحماسة مبالغ فيها لكل ما يفعله ، بينما إلزا تراقب بصمت وجدية دون أن تبدي رأيها . وهكذا انقضت أسابيع ، كان مايكل ستيوارد يروز خلالها ويتأمل في نتائج الخطوة التي يرغب في الإقدام عليها ويبعث برسائل إلى أبيه ليعرض عليه خططه . وقد طال قلقه عدة شهور بسبب تأخر البريد الذي لا يمكن تجنبه . فالموضوع هو أخطر قرار في حياته وهو يحتاج في مواجهته إلى شجاعة أكبر بكثير من تلك التي يحتاج إليها لمقاومة القوى المعادية للإمبراطورية البريطانية في الباسفيك . وأخيراً ، في إحدى السهرات الموسيقية ، وبعد مئة تدريب أمام المرآة ، تمكن من استجماع الشجاعة التي كانت تتفكك خيوطاً وأن يتحكم بصوته الذي كان يرتعش من الخوف ، لكي يوقف مس روز في الممر ويدمدم هامساً :

ـ إنني بحاجة إلى التحدث معك على انفراد .

قادته إلى حجرة الخياطة . وفوجئت بانفعالها بالرغم من أنها كانت تحدس ما ستسمعه منه . أحست بخديها يشتعلان وبقلبها يقفز . أعادت ترتيب خصلة أفلتتِ من شعرها ومسحت برصانة تعرق جبهتها . وفكر مايكل ستيوارد بأنه لم يرها مطلقاً من قبل أجمل مما هي عليه .

ـ أظن أنكِ قد خمنتِ ما سأقوله لك يا مس روز .

ـ التكهن خطير يا مستر سيتوارد . إنني أصغي إليك...

ـ الأمر متعلق بمشاعري . ولا شك في أنك تعرفين ما أعنيه . أرغب في أن أوضح لك بأن نواياي جدية تماماً .

ـ لست انتظر سوى ذلك من شخص مثلك . وهل تعتقد بأنك تُقابل بمشاعر مماثلة ؟

فتلعثم الضابط الشاب :

ـ أنت وحدك من يستطيع الإجابة على هذا السؤال .

بقيا يتبادلان النظر ، هي بحاجبين مرفوعين في إيماءة انتظار وترقب وهو في خشية من أن ينهار السقف على رأسه . وقرر التصرف قبل أن يتحول سحر اللحظة إلى رماد ، فأمسكها العاشق من كتفها وانحنى ليقبلها . تجمدت مس روز من المفاجأة ولم تستطع التحرك . أحست بشفتيه الرطبتين وشاربه الناعم في فمها ، دون أن تفهم أي شياطين سببت ذلك الخطأ ، وعندما استطاعت أخيراً الإتيان برد فعل ، دفعته جانباً بعنف ، وصرخت وهي تمسح فمها بظاهر يدها :

ـ ما الذي تفعله! ألا ترى أنني أكبرك بسنوات كثيرة!

ـ وما أهمية السن ؟ ـ تلعثم الضابط مرتبكاً ، لأنه كان قد قدر أن عمر مس روز لا يزيد على سبع وعشرين سنة .

ـ كيف تتجرأ! هل فقدت عقلك ؟

فدمدم الرجل المسكين مذهولاً من الخجل :

- ولكن حضرتك... حضرتك أوحيت إلي... لا يمكن أن أكون مخطئاً إلى هذا الحد!...

فهتفت مس روز مذعورة :

- إنني أريدك من أجل إلزا ، وليس لي!

وخرجت راكضة لتحبس نفسها في غرفتها ، بينما كان العاشق الفاشل يطلب عباءته وقبعته ويغادر دون أن يودع أحداً ، ودون أن يفكر بالعودة مطلقاً إلى ذلك البيت .

ومن أحد أركان الممر كانت إلزا قد سمعت كل شيء من خلال باب حجرة الخياطة الموارب . وكانت هي نفسها قد أخطأت التفكير كذلك في الاهتمام المبالغ فيه بالضابط . فقد كانت مس روز تبدي على الدوام عدم مبالاة بالمغرمين بها إلى حد اعتادت الفتاة معه على اعتبارها عجوزاً . ولكنها خلال الأشهر الأخيرة فقط ، حين رأتها تنغمس جسداً وروحاً في لعبة الإغواء ، انتبهت إلى تقاطيعها الرائعة وبشرتها اللامعة . وظنت أنها متيمة بحب مايكل ستيوارد ولم يدر في خلدها بأن حفلات الغداء الريفية الشاعرية تحت المظلات اليابانية ، وبسكويت الزبدة لتخفيف منغصات الإبحار ، ليست سوى خطة استراتيجية تقوم بها مس روز لاصطياد الضابط وتقديمه إليها على طبق . كانت الفكرة مثل طعنة في الصدر سببت لها الاختناق ، لأن آخر ما كانت ترغب فيه في هذا العالم هو زواج مرتب من وراء ظهرها . خصوصاً أنها كانت قد علقت لتوها في زوبعة حبها الأول ، وأقسمت بيقين لا رجعة فيه ، بأنها لن تتزوج من شخص آخر .

●

رأت إلزا سوميرز خواكين اندييتا أول مرة في يوم جمعة من شهر أيار ١٨٤٨ ، عندما جاء إلى البيت بعربة تجرها عدة بغال ، محملة حتى السقف

بحزم بضائع للشركة البريطانية للاستيراد والتصدير . كانت البضاعة تتضمن سجاجيد فارسية ، وثريات كريستال ومجموعة من المنحوتات العاجية ، أوصى عليها فيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث من أجل تأثيث المنـزل الذي شيده في الشمال ، إنها واحدة من تلك الشحنات الثمينة التي تكون عرضة للخطر في الميناء ومن الأفضل تخزينها في بيت آل سوميرز ريثما يتم إرسالها إلى وجهتها النهائية . ولو كانت بقية الرحلة ستتم براً ، لتعاقد جيرمي مع حراس مسلحين لحمايتها ، ولكن البضاعة سترسل إلى وجهتها النهائية في سفينة تشيلية ستغادر الميناء خلال أسبوع . كان اندييتا يرتدي بدلته الوحيدة ، وهي بدلة مضت موضتها ، قاتمة ومهترئة ، وقد أتى دون قبعة ودون مظلة . وكان شحوبه الجنائزي يتناقض مع بريق عينيه المشعتين ، وشعره الأسود يلمع برطوبة أحد أول أمطار الخريف . خرجت مس روز لاستقباله ، وقادته ماما فريسيا التي كانت تحمل دوماً مفاتيح البيت معلقة بحلقة معدنية على خصرها إلى أقصى الفناء ، حيث المستودع . نظم الشاب الحمالين في صف وراحوا ينقلون الأمتعة من يد إلى يد عبر الأرض الوعرة والأدراج الملتوية والشرفات المتراكبة والعرائش العبثية . وبينما هو يعدّ الصناديق ويضع عليها العلامات ويسجلها في دفتره ، استغلت إلزا قدرتها على الاختفاء وراحت تراقبه على هواها . كانت قد أكملت منذ أسبوعين ستة عشر عاماً من العمر ، وصارت جاهزة للحب . عندما رأت يدي خواكين اندييتا بأصابعهما الطويلة الملوثة بالحبر وسمعت صوته العميق ، إنما الواضح والطازج كخرير النهر ، وهو يُصدر الأوامر الصارمة للعمال ، أحست بالتأثر حتى العظم ودفعتها الرغبة الرهيبة في الاقتراب منه وشمه إلى الخروج من مخبئها وراء نخلات رف الأصص . لم تنتبه ماما فريسيا إلى شيء مما يحدث لأنها كانت مشغولة بالمفاتيح وغاضبة بعد ان لوثت بغال العربة مدخل البيت ، أما مس روز فاستطاعت أن تلمح بطرف عينها حياء الفتاة . لم تول الأمر اهتماماً ، فقد بدا

لها موظف أخيها مجرد شاب بائس لا قيمة له ، وأنه ليس أكثر من شبح آخر بين أشباح هذا اليوم الغائم . اختفت إلزا باتجاه المطبخ ورجعت بعد قليل تحمل كؤوساً وإبريق عصير برتقال محلى بالعسل . وللمرة الأولى في حياتها كانت ، هي التي أمضت سنوات توازن كتاباً على رأسها دون أن تفكر بما تفعله ، تحسب بوعي خطواتها ، وانثناءات ردفيها ، واهتزاز جسدها ، وزاوية ذراعيها ، والمسافة ما بين كتفيها وذقنها . أرادت أن تكون جميلة جداً مثل مس روز حين كانت شابة باهرة أنقذتها من مهدها المرتجل في صندوق صابون مرسيليا ؛ أرادت أن تغني بصوت عندليب مثل الصوت الذي تغني به الآنسة ابيلغرين أغنيات البالاد الاسكتلندية ؛ أرادت أن ترقص بالرشاقة المستحيلة التي ترقص بها معلمة الرقص وأرادت أن تموت هناك بالذات ، مهزومة بإحساس قاطع وجامح مثل سيف ، يملأ فمها بدم ساخن ، يضغط عليها بالثقل الرهيب للحب المتخيل قبل أن تتمكن من صياغته . بعد سنوات طويلة من ذلك ، وأمام رأس بشري محفوظ في إناء مليء بالجن ، ستتذكر إلزا هذا اللقاء الأول مع خواكين اندييتا وستعود إلى الإحساس بالقلق الذي لا يطاق نفسه لقد تساءلت ألف مرة على امتداد الطريق عما إذا كانت لديها فرصة للهروب من هذه العاطفة الساحقة التي ستغير مسار حياتها ، وهل كان بإمكانها في تلك اللحظات القصيرة أن تدور على عقبيها وتنجو ، ولكنها كلما صاغت ذلك السؤال انتهت إلى القناعة بأن قدرها كان مرسوماً منذ بدء الأزمنة . وعندما أدخلها الحكيم تاو تشين في إمكانية التقمص الشاعرية ، اقتنعت بأن المأساة نفسها ستتكرر في كل واحدة من حيواتها : فلو أنها ولدت ألف مرة من قبل وكان عليها أن تولد ألف مرة أخرى في المستقبل ، فإنها ستأتي إلى الدنيا على الدوام بمهمة عشق هذا الرجل بالطريقة نفسها . لم يكن ثمة مهرب لها . وعلمها تاو تشين عندئذ الصيغ السحرية لحل عقد الكارما والتحرر من تكرار القلق الغرامي المُثقِل في كل تجسد .

في ذلك اليوم من أيار ، وضعت إلزا الصينية فوق مقعد وقدمت الشراب المرطب إلى العمال أولاً ، لكي تكسب وقتاً ريثما تتماسك ركبتاها وتسيطر على تصلب البغلة الماكرة الذي شل صدرها ، مانعاً مرور الهواء ، ثم قدمت العصير إلى خواكين اندييتا الذي بقي مستغرقاً في عمله ولم يكد يرفع بصره عندما قدمت له الكأس . وحين فعلتْ إلزا ذلك ، وقفت أقرب ما يكون منه ، مقدرة اتجاه النسيم لكي يحمل إليها رائحة الرجل الذي ، كما هو مقدر ، كان لها . وبعينين مغمضتين شمت رائحته... رائحة ملابس رطبة ، وصابون عادي وعرق طازج . وجابها من الداخل نهر حمم ، فخارت عظامها وظنت في لحظة رعب بأنها تموت حقاً . وبلغت تلك اللحظات من الزخم حداً أفلت معه الدفتر من يدي خواكين اندييتا وكأن قوة قاهرة قد انتزعته ، عندما وصل إليه حر المحرقة ، وأحرقه بانعكاساته . نظر إلى إلزا دون أن يراها ، وكان وجه الفتاة مرآة شاحبة خيل إليه أنه يرى فيها صورته نفسها . ولم يكد يتوصل إلا إلى تكوين فكرة غامضة عن حجم جسدها وهالة شعرها القاتمة ، ولكنه لم يغرق في عينيها السوداوين وفي ملاحة حركاتها السيالة إلا في اللقاء الثاني ، بعد عدة أيام من ذلك . انحنيا معاً وفي الوقت نفسه لالتقاط الدفتر عن الأرض ، فاصطدم كتفاهما ، وانسكبت محتويات الكأس على فستانها .

- انتبهي إلى ما تفعلين يا إلزا! - صاحت بذلك مس روز مذعورة ، لأن صدمة هذا الحب المفاجئ قد أصابتها هي أيضاً . ثم أضافت بجفاء :

- هيا اذهبي لاستبدال ثوبك ، وانقعي هذا الفستان في ماء بارد ، فقد تزول البقعة عنه .

ولكن إلزا لم تتحرك ، وبقيت معلقة بعيني خواكين اندييتا ، مرتعشة ، وقد اتسعت فتحتا أنفها ، متشممة إياه دون مواربة ، إلى أن أمسكتها مس روز من ذراعها واقتادتها إلى البيت .

وقد ذكّرتها العجوز الهندية في تلك الليلة ،

ـ لقد قلت لك أيتها الصغيرة : يمكن لأي رجل مهما كان بائساً أن يفعل بك ما يشاء .

فردت إلزا :

ـ لست أدري عم تتكلمين يا ماما فريسيا .

●

عندما تعرفتْ إلزا على خواكين اندييتا في صباح ذلك اليوم الخريفي في فناء بيتها، ظنت أنها قد وجدت قدرها : ستكون عبدته إلى الأبد . لم تكن قد عاشت ما يكفي لفهم ما حدث ، أو لتعبر بالكلمات عن الجلبة التي تخنقها أو لترسم خطة لما ستفعله ، ولكنها لم تخطئ حدس ما لا بد منه . فقد انتبهت بطريقة غامضة ، إنما مؤلمة ، إلى أنها قد وقعت وأصابها رد فعل جسدي أشبه بالوباء . إذ بدأت تعاني خلال أسبوع كامل ، إلى أن عادت لرؤيته ، من آلام مغص تشنجي ولم تنفعها في شيء أعشاب ماما فريسيا السحرية ولا مساحيق الزرنيخ المذابة في ليكور الكرز التي يحضّرها الصيدلي الألماني . انخفض وزنها ورقت عظامها مثل عظام يمامة أمام فزع ماما فريسيا التي راحت تغلق النوافذ لتحول دون أن تحمل الريح البحرية الفتاة وتطوح بها في الأفق . قدمت لها الهندية عدة خلائط وتمائم من قائمة معالجاتها الطويلة ، وعندما أدركت أن كل ذلك لن يأتي بنتائج ، لجأت إلى المقدسات الكاثوليكية . فأخرجت من قاع صندوقها بعض مدخراتها البائسة ، واشترت اثنتي عشرة شمعة ومضت لتساوم الخوري . وبعد أن باركها في القداس الكبير يوم الأحد ، أشعلت واحدة منها أمام كل قديس في المصلى الجانبي للكنيسة ، وهم ثمانية قديسون بمجموعهم ، ثم وضعت ثلاث شموع أمام تمثال القديس أنطونيو ، شفيع الفتيات العازبات اللواتي بلا أمل ، والمتزوجات التعيسات وقضايا خاسرة أخرى . أما الشمعة الأخيرة المتبقية فأخذتها ، مع خصلة من شعر إلزا وقميصها إلى الماتشي الأوسع شهرة في المنطقة ، وهي هندية مابوتشية عجوز وعمياء

منذ ولادتها ، مشعوذة سحر أبيض ، مشهورة بتنبؤاتها غير القابلة للاستئناف وبقدرتها على شفاء أمراض الجسد وهموم الروح . كانت ماما فريسيا قد أمضت سنوات صباها في خدمة تلك المرأة كمتعلمة وخادمة ، ولكنها لم تستطع اقتفاء خطواتها ، مثلما كانت ترغب بقوة ، لأنها لم تكن تملك الموهبة . ولم يكن بالإمكان عمل شيء : فالمرء يولد مزوداً بالموهبة أو دون موهبة . لقد أرادت في إحدى المرات أن تشرح ذلك لإلزا وكان الشيء الوحيد الذي خطر لها هو أن الموهبة هي القدرة على رؤية ما هو وراء المرايا . وبسبب افتقارها إلى تلك الموهبة الغامضة ، كان على ماما فريسيا أن تتخلى عن تطلعاتها كمداوية وأن تعمل في خدمة الإنكليز .

كانت الماتشي تعيش وحدها في بطن صدع ما بين جبلين ، في كوخ من الطين له سقف من القش ، يبدو وكأنه على وشك الانهيار . وفيما حول ذلك المسكن كانت هناك فوضى من رجوم الصخور ، والأحطاب ، ونباتات في علب صفيحية ، وكلاب بارزة العظام وطيور سوداء تنبش التراب دون جدوى باحثة عن شيء تأكله . وفي الطريق إليها ترتفع غابة صغيرة من أشجار النذور والتمائم زرعها زبائن راضون ليشيروا إلى الفضائل التي تلقوها . كانت المرأة تعبق بخليط كل الأشربة التي حضرتها على امتداد حياتها ، وترتدي عباءة لها لون أرض المنظر الجافة نفسها ، وتمضي حافية ومغطاة بالقذارة ، ولكنها مزينة بفيض عقود فضية من نوعية رخيصة . كان وجهها قناعاً قاتماً من تجاعيد ، بسنين اثنين وحيدين في فمها وعينين منطفئتين . استقبلت المداوية تلميذتها القديمة دون أن تبدي ما يشير إلى أنها قد تعرفت عليها ، وتقبلت هدايا الطعام وزجاجة ليكور اليانسون التي قدمتها إليها ، وأومأت إليها لتجلس قبالتها وبقيت صامتة تنتظر . كانت تشتعل بعض الجمرات المتذبذبة في وسط الكوخ والدخان ينسل من كوة في السقف . وعلى الجدران المسودة بالدخان تُعلق أوان فخارية وصفيحية ، ونباتات ومجموعة من الضواري المحنطة . العبق

القوي الذي تبعثه الأعشاب الجافة وقشور الأشجار الطبية يختلط بنتن الحيوانات الميتة . تبادلتا الحديث بلغة المابوتشي . وأصغت الساحرة طويلاً لقصة إلزا ، منذ مجيئها في صندوق صابون مرسيليا ، حتى الأزمة الأخيرة ، ثم تناولت الشمعة ، وخصلة الشعر والقميص وصرفت زائرتها بعد أن طلبت منها أن ترجع حين تكون قد أكملت سحرها وطقوس عرافتها .

ـ من المعروف أنه لا علاج لهذا الأمر ـ أعلنت فور أن ظهرت ماما فريسيا عند عتبة مسكنها بعد يومين من ذلك .

ـ وهل ستموت صغيرتي ؟

ـ هذا أمر غير مؤكد ، ولكنها ستعاني كثيراً ، ليس لدي شك في ذلك .

ـ ما الذي أصابها ؟

ـ عنت الحب . إنه داء شديد الوطأة . لا بد أنها تركت النافذة مفتوحة في ليلة مقمرة فدخل الداء جسدها وهي نائمة . لا وجود لرقية تنفع مع هذا الداء .

رجعت ماما فريسيا إلى البيت مستسلمة : فإذا كانت فنون هذه الماتشي الحكيمة جداً غير قادرة على تبديل مصير إلزا ، فلن تنفع بأي حال معارفها الضنيلة أو شموعها إلى القديسين .

مس روز

كانت مس روز تراقب إلزا بنظرات فيها من الفضول أكثر مما فيها من الشفقة ، لأنها كانت تعرف الأعراض جيداً وتعرف من تجربتها أن الزمن والمعارضات كفيلان بإطفاء أسوأ حرائق الحب . فهي نفسها لم تكن قد أكملت السابعة عشرة من عمرها عندما أحبت بعاطفة جنونية مغني تينور فيني . كانت تعيش آنذاك في إنكلترا وتحلم بأن تصير مغنية أوبرا ، على الرغم من المعارضة العنيدة التي كانت تبديها أمها وأخوها جيرمي ، زعيم الأسرة منذ موت الأب . إذ لم يكن أي منهما يعتبر الغناء الأوبرالي عملاً يليق بآنسة ، أولاً لأنه يُمارس في المسارح ، ثم لأنه يمارس ليلاً وبملابس مفتوحة . ولم يكن بإمكانها الاعتماد كذلك على دعم أخيها جون الذي كان قد انضم إلى البحرية التجارية ولم يعد يأتي إلى البيت أكثر من مرتين في السنة ، ويكون دوماً على عجلة من أمره . كان يأتي متدفقاً ، محمصاً بشمس مناطق أخرى ، مزيناً بوشم جديد أو ندبة جرح ، ليقلب روتين الأسرة الصغيرة . يوزع عليهم الهدايا ، ويدهشهم بحكاياته الغريبة ثم يختفي فجأة باتجاه أحياء العاهرات ، ويبقى هناك إلى أن يحين موعد إبحاره من جديد . لقد كان آل سوميرز أناساً ريفيين وقورين ودون طموحات ، امتلكوا الأرض لأجيال عديدة ، ولكن الأب الذي سئم الأغنام الغبية والمواسم الشحيحة ، فضّل البحث

عن حظه في لندن ، وكان يحب الكتب إلى حد لا يتورع معه عن حرمان الأسرة من الخبز والاستدانة من أجل الحصول على نسخ من طبعات الكتب الأولى موقعة بيد كتابه المفضلين ، ولكنه كان يخلو من جشع جامعي الكتب المحترفين . وبعد محاولات عديدة غير مجدية في التجارة قرر أن يجاري ميوله الحقيقية وانتهى به الأمر إلى فتح دكان لبيع الكتب المستعملة وبعض الكتب الأخرى التي كان يطبعها بنفسه . وأقام في القسم الخلفي من المكتبة مطبعة صغيرة كان يديرها بمساعدة اثنين من المعاونين ، وكان عمله في تجارة الكتب النادرة يزدهر بخطوات سلحفاة ، ومن بين أبنائه الثلاثة ، كانت روز هي الوحيدة التي أبدت اهتماماً بمهنته ، فقد ترعرعت مولعة بالموسيقى والمطالعة ، فإذا لم تكن جالسة إلى البيانو أو منهمكة في تدريباتها على الغناء ، يمكن لها أن تكون منزوية في أحد الأركان تقرأ . وكان الأب يتحسر لأنها هي وحدها من يحب الكتب وليس جيرمي أو جون اللذان يمكن لهما وراثة تجارته . ولدى موته صفى الأخوان الذكران المطبعة والمكتبة ، ومضى جون للعمل في البحر بينما تولى جيرمي مسؤولية أمه الأرملة وأخته معتمداً على راتبه المتواضع كموظف في الشركة البريطانية للاستيراد والتصدير ودخلٍ إضافي ضئيل خلفه أبوه ، إضافة إلى المساهمات المتباعدة التي يقدمها أخوه جون . ولم تكن تلك المساهمات تأتي دوماً على شكل نقود رنانة ، وإنما على شكل بضائع مهربة . فكان جيرمي يستنكر ذلك ويخبئ تلك الصناديق التي قد تسبب الضياعِ في غرفة المهملات دون أن يفتحها إلى أن يحين موعد الزيارة التالية لأخيه الذي كان يتولى بيع محتوياتها بنفسه . ثم انتقلت الأسرة فيما بعد إلى شقة صغيرة وغالية بالنسبة إلى ميزانيتها ، ولكنها في موقع جيد في قلب لندن ، لأنهم اعتبروا تلك الشقة استثماراً . وكان لا بد لهم من أن يؤمنوا لروز زواجاً لائقاً .

كان جمال الفتاة قد أخذ في التفتح منذ بلوغها السابعة عشرة ، وكان

هناك الكثير من المتقدمين الذين هم في وضع جيد والمستعدين للموت حباً ، ولكن بينما كانت صديقاتها ينهمكن في البحث عن عريس ، كانت هي تبحث عن أستاذ في الغناء . وهكذا تعرفت على كارل بريتزنر ، وهو مغني تينور فيينّيَ وصل إلى لندن للمشاركة في تقديم عدد من أعمال موزرت ، تتوج بحفلةِ ذروة يقدم فيها زواج فيجارو ، بحضور الأسرة المالكة . لم يكن مظهر المغني يكشف بأي حالٍ عن موهبته : فقد كان يبدو أشبه بجزار . جسده عريض في البطن ومتراخ من الركبتين إلى أسفل يخلو من التناسق ، ووجهه الدموي المتوج بشعر أجعد باهت اللون كان يوحي بالابتذال ، ولكنه عندما يفتح فمه لكي يمتع العالم بسيل صوته ، يتحول إلى كائن آخر ، فتنمو قامته ، ويختفي كرشه في اتساع صدره ، ويمتلئ وجهه المحمر بنور باهر . هكذا على الأقل كانت تراه روز سوميرز التي كانت تتدبر أمورها لتحصل على بطاقة لكل حفلة . كانت تأتي إلى المسرح قبل أن يفتحوا الأبواب بوقت طويل ، وتقف متحدية نظرات المارة العابرين غير المعتادين على رؤية فتاة في مثل وضعها وحيدة . وتنتظر عند باب الممثلين لساعات لكي ترى المعلم وهو ينزل من السيارة . وفي ليلة الأحد انتبه المغني إلى الجميلة الواقفة في الشارع واقترب ليتكلم معها . فردت على أسئلته باضطراب واعترفت بإعجابها به وبرغبتها في اقتفاء أثره على طريق الغناء الجميل الشاق إنما الإلهي ، على حد تعبيرها .

ـ تعالي بعد انتهاء العرض إلى حجرتي وسنرى ما الذي يمكننا أن نفعله من أجلك ـ قال لها ذلك بصوته البديع وبلكنة نمساوية قوية .

وهذا ما فعلته وقد أحست بالارتقاء إلى المجد . فعندما انتهى تصفيق الجمهور ، قادها حاجب أرسله كارل بريتزنر إلى ما وراء الكواليس . لم تكن قد رأت أحشاء مسرح من قبل ، ولكنها لم تضع الوقت بإبداء دهشتها بالآلات العجيبة التي تصنع العواصف ولا بالمشاهد المرسومة على قطع كبيرة من القماش ، فقد كان هدفها الوحيد هو التعرف على معبودها . وجدته متدثراً

بعباءة من القطيفة الزرقاء الموشاة بخيوط الذهب ، ووجهه ما يزال مغطى بأصبغة المكياج وعلى رأسه باروكة ذات تجعيدات بيضاء متقنة . تركهما الحاجب وحيدين وأغلق الباب . كانت الحجرة مملوءة بالمرايا والأثاث والستائر ، تعبق برائحة التبغ وأصبغة الزينة والعفونة . وكان هناك في أحد الأركان حاجز باراباان مزين بمشاهد نساء مربوعات في حريم تركي وتتدلى على الجدران ألبسة الأوبرا معلقة على مشاجب . حين رأت روز معبودها عن قرب ، فتر حماسها للحظات . ولكن المغني استعاد على الفور موقعه الذي خسره . فقد أمسك بكلتا يديها بين يديه ، ورفعهما إلى فمه وقبلهما طويلاً ، ثم أطلق بعد ذلك صوت دو من صدره جعل باراباان الجواري التركيات يهتز . فانهارت آخر تمنعات روز مثل أسوار أريحا مع سحابة غبار خرجت من الباروكة عندما نزعها الفنان بحركة مؤثرة ورجولية ، وألقى بها على أحد المقاعد حيث بقيت ساكنة مثل أرنب ميت . كان شعره ملبداً تحت شبكة مشدودة تضفي عليه مع المكياج مظهر مومس بلاط هرمة .

وعلى المقعد نفسه الذي سقطت عليه الباروكة ، قدمت له روز عذريتها بعد يومين من ذلك ، في الساعة الثالثة والربع بالضبط . فقد تواعد مغني التينور الفييني معها بحجة أنه سيريها المسرح في يوم الثلاثاء ذاك ، لأنه لن يكون ثمة عرض في ذلك اليوم . التقيا سراً في محل حلويات حيث تذوق بتأنق خمس قطع من حلوى الكريما وفنجانين من الشوكولاته ، بينما بقيت هي تحرك شايها دون أن تتمكن من شربه من الرعب والهواجس المسبقة . ذهبا بعد ذلك مباشرة إلى المسرح . ولم يكن هناك في تلك الساعة سوى امرأتين تنظفان الصالة وعامل إضاءة يجهز مصابيح الزيت والمشاعل والشموع من أجل اليوم التالي . أخرج كارل بريتزنر ، الضليع في شؤون الحب ، زجاجة شمبانيا وسكب كأساً لكل منهما ، شرباه دفعة واحدة على شرف موزارت وروسيني . ثم أجلس الفتاة بعد ذلك مباشرة في المقصورة ذات المخمل

الإمبراطوري ، حيث لا يجلس سوى الملك ، والمزينة من أعلى إلى أسفل بملائكة حب ممتلئي الخدود وزهور من الجص ، بينما اتجه هو نحو المنصة . وقف فوق قطعة عمود من كرتون ملون ، تضيئه المشاعل التي أشعلت للتو ، وغنى لها وحدها لحناً من حلاق اشبيلية ، ثم أبرز كل مهاراته الحلقية وهذيان صوته العذب في مقطوعات كثيرة . وعندما خمد اللحن الأخير في تكريمه لها ، سمع بكاء روز سوميرز البعيد ، فركض نحوها برشاقة غير متوقعة ، اجتاز القاعة ، وتسلق المقصورة في قفزتين وخر على ركبتيه عند قدميها . وضع رأسه الضخم فوق تنورة الفتاة وهو منقطع الأنفاس ، وأغرق وجهه بين طيات تنورتها الحريرية التي بلون الطحلب . كان يبكي معها ، لأنه وقع في الحب دون أن يخطط لذلك ؛ فما بدأ على أنه مغامرة عابرة أخرى تحول خلال ساعات قليلة إلى عاطفة متأججة .

نهضت روز وكارل يستند كل منهما على الآخر ، متعثرين ومرتعبين حيال ما لا مفر منه ، وتقدما دون أن يعرفا كيف عبر ممر طويل معتم ، وصعدا درجاً قصيراً ووصلا إلى حجرات الممثلين . ظهر اسم مغني التينور مكتوباً بحروف مائلة على أحد الأبواب . دخلا إلى الحجرة المزدحمة بأثاث وأقمشة فاخرة ، معفرة بالغبار والعرق ، حيث التقيا أول مرة على انفراد قبل يومين . لم يكن للغرفة نوافذ وغرقا للحظة في ملاذ الظلمة ، حيث استعادا الأنفاس التي فقداها في الانتحاب والتنهدات المسبقة ، بينما هو يشعل عود ثقاب أولاً ثم خمس الشموع التي في الشمعدان . وعلى ضوء اللهب الأصفر المرتعش دُهشا ، في اضطرابهما وارتباكهما ، بسيل الانفعالات الجديرة بالتعبير عنها ، ولكنهما لم يتمكنا من النطق بكلمة واحدة . لم تتحمل روز النظرات التي كانت تخترقها وخبأت وجهها بين يديها ، ولكنه أبعدهما بالرقة نفسها التي قطّع بها من قبل حلوى الكريما . بدأا بتبادل قبلات باكية في الوجه مثل نقرات الحمائم ، ما لبثت أن تحولت بالطبع إلى قبلات جدية . كانت روز قد عرفت لقاءات رقيقة

من قبل ، ولكنها كانت لقاءات مترددة وسريعة عابرة ، مع بعض المتقدمين إليها ، وقد وصل الأمر مع اثنين منهم إلى ملامسة وجهها بشفاههم ، ولكنها لم تكن تتصور مطلقاً أنه يمكن الوصول إلى مثل ذلك الحد من الحميمية ، وأنه يمكن للسان شخص آخر أن يلتف على لسانها مثل أفعى خبيثة وأن يبللها لعاب آخر من الخارج ويغزوها من الداخل ، وسرعان ما تراجع القرف الأولي أمام شبابها المندفع وحماسها الغنائي . فلم تكتف بمقابلة المداعبات بزخم مماثل ، بل أخذت زمام المبادرة في التخلص من قبعتها ومن عباءة فرو الاستراخان الرمادية التي كانت تغطي كتفيها . وما جرى مذ ذاك إلى أن سمحت بفك أزرار السترة ثم البلوزة ، لم يكن سوى تدابير بسيطة . لقد عرفت الشابة أن تتابع رقصة التناكح خطوة خطوة تقودها الغريزة والقراءات الحامية المحظورة التي كانت تُخرجها فيما مضى خلسة من خزائن كتب أبيها . كان ذلك هو اليوم الأكثر تاريخية في حياتها وستتذكره حتى في أتفه تفاصيله التي ستتزين في مخيلتها وتتضخم في السنوات التالية . وستكون تلك هي مصدر خبرتها ومعرفتها الوحيد ، ومبعث الإلهام الوحيد لتغذية مخيلتها وإبداع الفن الذي سيجعلها بعد سنوات مشهورة في بعض الأوساط شديدة السرية . فذلك اليوم الرائع لا يمكن مقارنة زخمة إلا بذلك اليوم الآخر من شهر آذار في بالبارايسو ، بعد سنتين من ذلك ، عندما سقطت فجأة بين ذراعيها إلزا حديثة الولادة ، كعزاء عن الأبناء الذين لن تنجبهم ، وعن الرجال الذين لا يمكنها أن تحبهم وعن المنزل الذي لن تشكله أبداً .

●

تكشف المغني الفييني عن عاشق خبير . فهو يحب النساء ويعرفهن بعمق ، ولكنه كان قادراً على محو غراميات الماضي المبعثرة من ذاكرته ، وإحباطات وداعات كثيرة ، وغيرات ، ومصائب وخدع علاقات أخرى ، لكي يسلم نفسه ببراءة كاملة إلى هواه القصير بروز سوميرز . لم تأت خبرته من

معانقات حميمة مع عاهرات ضامرات ؛ ذلك أن بريتزنر كان يتباهى بأنه لم يدفع يوماً مقابل الملذات . لأن نساء من مختلف المستويات ، ابتداء من جرسونات بانسات وحتى كونتيسات متعجرفات ، كن يستسلمن له دون شرط لدى سماعه يغني . لقد تعلم فنون الحب في الوقت نفسه الذي كان يتعلم فيه فنون الغناء . كان عمره عشر سنوات عندما أغرمت به من ستكون معلمته ودليله . وهي فرنسية لها عينا نمرة ونهدان من الرخام الصافي ، ولها من العمر ما يكفي لأن تكون أماً له . وكانت هي بدورها قد بدأت حياتها الغرامية في فرنسا وهي في الثالثة عشرة من عمرها على يد دوناتا ألفونس فرانسوا دو ساد . فقد كانت ابنة سجان في الباستيل ، وهناك تعرفت على المركيز الشهير في زنزانة قذرة ، حيث كان يكتب قصصه الفاحشة على ضوء شمعة . وكانت تذهب لتراقبه من خلال القضبان الحديدية بدافع فضولها الطفولي ، دون أن تعرف أن أباها قد باعها إلى السجين مقابل ساعة ذهبية ، هي آخر ممتلكات ذلك النبيل المفتقر . وفي صباح أحد الأيام ، بينما هي تنظر من خلال كوة الباب ، نزع أبوها حزمة المفاتيح الكبيرة من خصره ، وفتح الباب ودفع بالصغيرة إلى الزنزانة ، مثل من يقدم الطعام للأسود . أما ما حدث بعد ذلك فلا يمكنها أن تتذكره ، ويكفي أن نعرف أنها بقيت إلى جانب المركيز دو ساد... تبعته من السجن إلى بؤس أسوأ الحريات وتعلمت كل ما يمكن أن يعلمها إياه . وعندما أُدخل المركيز في عام ١٨٠٢ إلى مستشفى المجانين في شارنتون ، بقيت هي في الشارع وليس معها قرش واحد ، ولكنها كانت تملك خبرة واسعة في شؤون الغرام أفادتها في الحصول على زوج ثري جداً يكبرها باثنتين وخمسين سنة . وقد توفي الرجل بعد وقت قصير ، مستنزفاً بمتطلبات امرأته الشابة ، فصارت هي أخيراً حرة ولديها من المال ما يتيح لها أن تفعل ما يحلو لها . كان عمرها أربعاً وثلاثين سنة ، وكانت قد بقيت على قيد الحياة بعد تجربة تعلمها الوحشية مع المركيز ، وبعد بؤس كسرة الخبز في شبابها ، وفوضى الثورة الفرنسية ، ورعب الحروب

النابوليونية ، وصار عليها الآن أن تتحمل قمع الإمبراطورية الدكتاتوري . كانت ضجرة وروحها تطلب الراحة . فقررت البحث عن مكان آمن تمضي فيه بقية حياتها بسلام ، واختارت فيينا . في تلك المرحلة من حياتها تعرفت على كارل بريتزنر ، ابن جيرانها ، عندما كان هذا طفلاً لا يكاد يتجاوز العاشرة ، ولكنه كان يغني في ذلك الحين مثل بلبل في كورال الكتدرائية . وبفضلها هي ، وقد تحولت إلى صديقة حميمة لآل بريتزنر ، لم يجر خصي الطفل في تلك السنة لحفظ صوته الملائكي ، مثلما اقترح مدير الكورال .

- لا تلمسوه ، وخلال وقت قصير سيكون أغلى مغني تينور في أوربا - تنبأت الجميلة بذلك ، ولم تكن على خطأ .

على الرغم من ضخامة فارق السن ، نمت بينها وبين الصغير كارل علاقة خارقة . كانت تقدر نقاء مشاعر الطفل وشغفه بالموسيقى ؛ ووجد هو فيها ربة الإلهام التي لم تنقذ فحولته وحسب ، بل علمته كيف يستخدمها كذلك . وفي الفترة التي تبدل فيها صوته نهائياً وبدأ بحلاقة ذقنه ، كان قد طور مهارات خصيان يضرب فيها المثل من أجل إرضاء امرأة بأساليب غير مسبوقة بالطبيعة أو العادة ، ولكنه لم يجازف بتعريض نفسه للخطر مع روز سوميرز . فهو لم يحاول مهاجمتها بحمية في فوضى المداعبات الجريئة ، لأن الأمر لم يكن يتعلق بصدمها بحيل بيوت الحريم . وأدرك ، دون أن يراوده الشك بأن تلميذته ستتفوق عليه في المبادرة بعد أقل من ثلاثة دروس عملية . كان رجلاً دقيقاً في التفاصيل ويعرف السلطة المذهلة للنطق بالكلمات المناسبة في أثناء ممارسة الحب . فك بيده اليسرى أزرار اللؤلؤ الصغيرة واحداً بعد آخر بينما كان ينزع بيده اليمنى دبابيس شعرها ، دون أن يفقد إيقاع القبلات المتداخلة مع تراتيل الملاطفة . حدثها عن رشاقة قامتها ، وعن بياض بشرتها الأصلي ، وعن استدارة عنقها وكتفيها الكلاسيكية التي تشعل فيه حريقاً واستثارة لا يمكن كبحها .

وكان يتمتم مرة بعد أخرى .

ـ إنك تصيبينني بالجنون... لا أعرف ما الذي أصابني ، لم أحب ولن أحب أحداً مثلما أحبك . هذا لقاء دبرته الآلهة ، فنحن مكرسان ليحب أحدنا الآخر .

رتل عليها قائمة أغنياته كاملة ، ولكنه فعل ذلك دون خبث ، مقتنعاً قناعة عميقة بنزاهته ومفتوناً بروز . حل أربطة حمالة الصدر وراح يجردها من التنانير إلى أن أبقاها بسروالها الداخلي القطني الطويل وقميص داخلي شفاف يكشف حبتي فريز حلمتيها . لم يخلع حذاءها المصنوع من فرو الماعز ذا الكعب المائل ولا جوربيها الأبيضين المثبتين عند ركبتيها برباطين مطرزين . وعند هذا الحد توقف ، متحشرجاً ، بجلبة أرضية في صدره ، مقتنعاً بأن روز سوميرز هي أجمل امرأة في الكون... بأنها ملاك ، وبأن القلب سينفجر كالمفرقعات إذا لم يهدأ . رفعها بين ذراعية دون مشقة ، اجتاز الغرفة وأوقفها في مواجهة مرآة كبيرة ذات إطار مذهب . ضوء الشموع المتذبذب والملابس المسرحية المعلقة على الجدران ، في فوضى بروكار وريش ومخمل ودنتلا حائلة الألوان ، أضفت على المشهد جواً من اللاواقعية .

نظرت روز العزلاء والثملة بالانفعالات ، في المرآة ولم تتعرف على تلك المرأة التي بالملابس الداخلية ، ذات الشعر المشعث والوجنتين المتأججتين ، والتي كان رجل مجهول كذلك يقبلها من عنقها ويداعب نهديها بملء راحتيه . هذه الوقفة المتلهفة منحت المغني وقتاً ليستعيد أنفاسه وشيئاً من بصيرته التي فقدها في الاحتدامات الأولى . بدأ بخلع ملابسه أمام المرآة ، دون حياء ، ولا بد من الاعتراف بأنه كان يبدو وهو عار أفضل بكثير مما هو عليه بالملابس . إنه بحاجة إلى خياط جيد ، هكذا فكرت روز التي لم تكن قد رأت رجلاً عارياً قط ، حتى ولا أخويها في الطفولة ، ومعلوماتها آتية من الوصف المبالغ به في الكتب الإباحية وبعض البطاقات البريدية اليابانية التي اكتشفتها بين أمتعة أخيها جون ، حيث للأعضاء الجنسية الذكرية حجم يمكن القول بصراحة إنه

متفائل . الخدروف الوردي والمتصلب الذي ظهر أمام عينيها لم يرعبها ، مثلما تخوف كارل بريتزنير ، بل أثار فيها قهقهة منفلته وسعيدة . وهذا منح ما جاء فيما بعد إيقاعه . فبدلاً من الوقار والإحساس الأقرب إلى الألم الذي تتميز به طقوس فض البكارة في العادة ، تلذذا في قفزات متلاعبة ، ولاحق أحدهما الآخر في الحجرة قافزين كصبيين فوق الأثاث... شربا ما تبقى من الشمبانيا وفتحا زجاجة أخرى ليسكباها على جسديهما في دفق رغوي... تلفظا ببذاءات ما بين الضحكات والهمس بعهود الحب... تبادلا العض واللحس والتقلب دون اعتدال في بحيرة الحب الجديد التي بلا قرار . بقيا طوال فترة بعد الظهر وحتى وقت متقدم من الليل ، دون أن يتذكرا الساعة أو بقية العالم . فلا وجود إلا لهما . اقتاد المغني الفييني روز إلى ذرى ملحمية وتبعته هي ، التلميذة النجيبة ، دون تردد . وعندما صارت في القمة انطلقت تطير وحدها بموهبة طبيعية مفاجئة ، مسترشدة بعلامات مميزة ، وسائلة عما لا تستطيع تكهنه ، ومذهلة المعلم ومتغلبة عليه في آخر المطاف بمهارتها المرتجلة وبهداية حبها المُفحِم . وعندما تمكنا من الانفصال وحطا على أرض الواقع ، كانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلاً . كان المسرح خاوياً ، والظلام يخيم في الخارج ، ومما زاد الوضع سوءاً أن ضباباً كثيفاً مثل حلوى البيض والسكر كان قد انتشر .

بدأ بين العاشقين تبادل محموم للرسائل ، والأزهار ، والأشعار المنسوخة وهدايا غرامية صغيرة أخرى طوال بقية الموسم الغنائي في لندن . كانا يلتقيان حيث يستطيعان ، وجعلتهما العاطفة يتخليان عن أي نوع من الحذر . فمن أجل كسب الوقت كانا يذهبان إلى غرف فنادق قريبة من المسرح ، دون أن يهتما بإمكانية أن يتعرف عليهما أحد . صارت روز تهرب من البيت بأعذار مضحكة ، ولم تكن أمها المرتعبة تخبر أخاها جيرمي بشيء من شكوكها ، متضرعة إلى الله أن يكون انفلات ابنتها عابراً وأن ينقضي دون أن يخلف أثراً .

وصار كارل بريتزنر يصل متأخراً إلى البروفات ، ولكثرة ما كان يتعرى في كل وقت أصيب بزكام ولم يستطع الغناء في حفلتين ، ولكن بدلاً من التأسف ، استغل الوقت لممارسة الحب متهيجاً بارتعاشات الحمى . كان يأتي إلى الغرفة المستأجرة حاملاً زهوراً لروز ، وشمبانيا ليشرباها ويستحما بها ، وحلوى الكريما ، وقصائد مكتوبة بسرعة ليقرأها في السرير ، وزيوتاً عطرية للتدليك بها في أماكن كانت مختومة حتى ذلك الحين ، وكتباً إيروتيكية ليتصفحاها بحثاً عن مشاهد أكثر إلهاماً ، وريش نعام للدغدغة والمداعبة ، وأدوات أخرى لا حصر لها لاستخدامها في ألعابهما . أحست الفتاة بأنها تتفتح مثل زهرة مفترسة ، تبعث روائح ضياع تجتذب الرجل مثل حشرة ، فتسحقه ، وتبتلعه ، وتهضمه ثم تبصق أخيراً عظامه وقد تحولت إلى شظايا مفتتة . سيطر عليها نشاط لا يصدق ، فكانت تشعر بأنها تختنق ، ولا تستطيع البقاء هادئة ولو لحظة واحدة ، تنهشها اللهفة . وفي أثناء ذلك كان كارل بريتزنر يتقلب في الفوضى ، متهيجاً حيناً حتى الهذيان وخامداً في حين آخر ، محاولاً القيام بواجباته الموسيقية ، ولكنه كان يتردى بصورة ظاهرية للعيان ، وقال النقاد ، الذين لا تشوبهم شائبة ، بأن موزارت يتململ دون ريب في قبره وهو يسمع المغني الفييني يُجهز[1] ـ حرفياً ـ على مؤلفاته .

•

كان العاشقان يريان بهلع اقتراب موعد الفراق ، ودخلا في مرحلة الحب المعاكس . فكرا بالهرب إلى البرازيل أو بالانتحار معاً ، ولكنهما لم يأتيا مطلقاً على ذكر إمكانية الزواج . ولكن الرغبة في الحياة أخيراً كانت أقوى من وسواس التراجيديا . وبعد الحفلة الأخيرة ركبا عربة وذهبا في إجازة إلى نزل ريفي في شمال إنكلترا . لقد قررا الاستمتاع بتلك الأيام بسرية ، قبل أن

---

(١) هناك تلاعب في الألفاظ في قولها هذا ، ففعل ejecutar الذي تستخدمه ، يمكن له أن يكون بمعنى يؤدي المقطوعات الموسيقية أو يجهز عليها .

يسافر كارل بريتزنر إلى إيطاليا . حيث عليه إنجاز عقد آخر ، على أن تلتقي به روز في فيينا عندما يحصل على مسكن مناسب . سيرتب أموره ويرسل إليها نقوداً من أجل الرحلة .

كانا يتناولان الفطور تحت مظلة على شرفة النزل ، وقد غطيا أرجلهما بدثار صوفي ، لأن هواء الساحل كان باتراً وبارداً ، عندما قاطعهما جيرمي سوميرز ، ساخطا ووقوراً مثل نبي . كانت روز قد تركت أثاراً جعلت من السهل على أخيها الكبير تحديد مكان وجودها اللحاق بها إلى ذلك المنتجع البعيد . وعندما رأته أطلقت صرخة مفاجأة أكثر مما هي صرخة رعب ، لأنها كانت متماسكة بصخب الحب . وفي تلك اللحظة فكرت لأول مرة بما اقترفته وبحجم النتائج التي تكشفت لها بكل أبعادها . نهضت واقفة مستعدة للدفاع عن حقها في العيش على هواها ، ولكن أخاها لم يمنحها فرصة للكلام وتوجه مباشرة إلى المغني مباغتاً مغوي الفتاة بالقول :

- إنك مدين بتفسير لأختي . أعتقد بأنك لم تخبرها بأنك متزوج ولك ابنان .

كان ذلك هو الأمر الوحيد الذي لم يقله كارل بيرتزنر لروز . كانا قد تكلما حتى التخمة ، وروى لها أكثر تفاصيل غرامياته السابقة حميمية ، دون أن ينسى شذوذات المركيز دو ساد التي روتها له عشيقته ، الفرنسية ذات عيني النمرة ، لأنها كانت تبدي فضولاً مرضياً لمعرفة متى ومع من مارس الحب ، وكيف مارسه بصورة خاصة منذ العاشرة من عمره حتى اليوم السابق لتعرفه عليها . وقد قال كل شيء دون حرج حين أدرك كم يروقها سماع ذلك وكيف تضمه إلى نظريتها وممارستها الخاصة . أما عن الزوجة والابنين فلم يذكر لها أي شيء بسبب الإشفاق على هذه العذراء الرائعة التي قدمت نفسها إليه دون شروط . لم يكن يرغب في تحطيم سحر ذلك اللقاء ، فروز سوميرز تستحق الاستمتاع بحبها الأول بكل أبعاده .

ـ أنت مدين لي بإصلاح ضرر ـ تحداه جيرمي سوميرز وهو يصفعه بقفازه .

كان كارل بيرتزنر رجل دنيا ولن يقترف بربرية الدخول في مبارزة . فأدرك أنه قد حان وقت انصرافه وتحسر لأنه لن تتاح له بضع لحظات على انفراد يحاول فيها تفسير الأمور لروز . لم يكن راغباً في تركها وقلبها محطم وهي تفكر بأنه قد أغواها بخبث لكي يهجرها فيما بعد . كان بحاجة لأن يقول لها مرة أخرى كم يحبها حقاً وكم يتأسف لكونه غير حر لتحقيق أحلامهما ، ولكنه قرأ في وجه جيرمي سوميرز أنه لن يسمح له بذلك . أمسك جيرمي بذراع أخته التي بدت ذاهلة ، واقتادها بتصميم إلى العربة ، دون أن يتيح لها فرصة وداع العشيق أو التقاط أمتعتها القليلة . أخذها إلى بيت خالة لهما في اسكتلندا ، حيث عليها أن تبقى إلى أن تنكشف حالتها . فإذا ما وقعت الكارثة الكبرى ، مثلما سمى جيرمي الحمل ، فإن حياتها وشرف العائلة سيقوضان إلى الأبد .

ـ لا تنطقي بكلمة عن كل هذا لأحد ، حتى ولا لأمك أو لجون ، هل تفهمين ؟ ـ كان هذا هو الشيء الوحيد الذي قاله خلال الرحلة .

أمضت روز بضعة أسابيع من القلق إلى أن تأكدت من أنها غير حبلى . وقد جاءها الخبر بنسمة راحة ، كما لو أن السماء قد برأتها . أمضت ثلاثة شهور أخرى من العقوبة تنسج للفقراء ، وتقرأ وتكتب خفية ، دون أن تذرف دمعة واحدة . وخلال ذلك الوقت تأملت حول مصيرها وحدث تحول في دخيلتها ، وعندما انتهى حبسها في بيت خالتها كانت قد تحولت إلى شخصية أخرى . وكانت هي وحدها التي تنبهت إلى التغيير . عادت للظهور في لندن مثلما كانت عندما غادرتها ، باسمة ، هادئة ، مهتمة بالغناء والقراءة ، دون أي كلمة حقد ضد جيرمي الذي انتزعها من ذراعي العشيق أو كلمة حنين إلى الرجل الذي خدعها ، وكانت أولمبية في موقفها بتجاهل تقولات الآخرين ووجوه

الحداد التي أبدتها أسرتها . كانت تبدو في الظاهر الفتاة نفسها التي كانتها في السابق ، ولم تستطع حتى أمها أن تجد ثغرة في سلوكها الكامل تتيح لها توجيه تأنيب أو نصيحة إليها . ومن جهة أخرى ، لم تكن الأرملة في وضع يمكنها من مساعدة ابنتها أو حمايتها ؛ فقد كان مرض السرطان يلتهمها بسرعة . التبدل الوحيد في سلوك روز هو تلك النزوة بقضاء ساعات في الكتابة وهي محبوسة في غرفتها . كانت تملأ عشرات الدفاتر بخط صغير ، تخبئها وراء مفتاح . وبما أنها لم تحاول بعث رسالة ، فإن جيرمي سوميرز الذي لم يكن يخشى شيئاً مثل خشيته من التعرض للسخرية ، تخلى عن القلق من إدمانها الكتابة وافترض أن أخته قد امتلكت العقل السليم بنسيان مغني النحس الفييني . أما هي فإنها لم تتوقف عند حد عدم نسيانه وحسب ، بل كانت تتذكر بوضوح النهار كل تفصيل مما حدث وكل كلمة قالاها أو همسا بها . الشيء الوحيد الذي محته من ذهنها هو خيبة الأمل من التغرير بها . فقد اختفت زوجة كارل بيرتزنر وابناه ببساطة ، لأنه لم يكن لهم أي وجود في فسيفساء ذكريات حبها الفسيحة .

العزلة في بيت الخالة في اسكتلندا لم تحل دون الفضيحة ، ولكن بما أنه لم يكن بالإمكان إثبات الشائعات ، فإن أحداً لم يجرؤ على التعرض بصورة مكشوفة للأسرة . وبدأ المتقدمون للزواج الذين كانوا يحاصرون روز بالرجوع إليها واحداً بعد الآخر ، ولكنها صدتهم بحجة مرض أمها . وكان جيرمي سوميرز يؤكد : ما يُسكت عنه يكون كما لو أنه لم يحدث ، وكان مستعداً لأن يقتل بالصمت كل أثر لتلك الواقعة . هروب روز المخجل بقي معلقاً في ليمبو الأشياء التي بلا تسمية ، مع أن الأخوان كانا يقومان أحياناً بإشارات تُبقي الحقد طازجاً ، ولكنها توحدهما كذلك في السر المشترك . بعد سنوات من ذلك ، وعندما لم يعد الأمر يثير اهتمام أحد ، تجرأت روز على رواية الواقعة لأخيها جون ، الذي كانت تقوم أمامه على الدوام بدور الطفلة المدللة

البرينة . وبعد وقت قصير من موت الأم ، عُرض على جيرمي أن يتولى مسؤولية مكتب الشركة البريطانية للاستيراد والتصدير في تشيلي . فغادر مع أخته روز ، حاملين السر معهما إلى الجانب الآخر من العالم .

وصلا في أواخر شتاء عام ١٨٣٠ ، عندما كانت بالبارايسو ما تزال مجرد قرية ، إنما كانت فيها منذ ذلك الحين شركات وعائلات أوربية . فأعتبرت روز أن تشيلي هي كفارتها وتقبلتها بإذعان ، مستسلمة لدفع ثمن خطيئتها بالنفي الذي لا مفر منه ، دون أن تتيح لأحد ، وخصوصا لأخيها جيرمي ، بأن يشك بيأسها . كان انضباطها في عدم الشكوى وعدم التكلم ولو في الحلم عن العشيق الضائع هو سندها عندما تثقل عليها النكبات . واستقرت في الفندق على أحسن وجه تستطيعه ، مستعدة للعناية بنفسها من الرياح العاصفة والرطوبة ، فإذ ما انفلتت جائحة دفتيريا ، كان الحلاقون المحليون يعالجونها بعمليات جراحية قاسية وغير مجدية يمارسونها بضربات من أمواس الحلاقة . ولكن الربيع ثم الصيف بعده خففا بعض الشيء من انطباعها السيئ عن البلاد . فقررت نسيان لندن والإفادة من وضعها الجديد ، على الرغم من الأجواء الريفية والرياح البحرية التي تنخر عظامها حتى في الظهيرات المشمسة . أقنعت أخاها ، وأقنع بدوره المكتب ، بضرورة امتلاك بيت لائق باسم الشركة وإحضار أثاث من إنكلترا . طرحت ذلك كمسألة سلطة وسمعة : من غير الممكن أن يستقر ممثل مثل تلك الشركة الهامة جداً في فندق بائس . بعد ثمانية عشر شهراً ، عندما دخلت الصغيرة إلزا في حياتيهما ، كان الأخوان يعيشان في بيت كبير في ثيرو أليغري ، وكانت مس روز قد أسلمت العشيق القديم إلى حجرة مختومة في الذاكرة ، وكرست نفسها بالكامل لاحتلال موقع مرموق في المجتمع الذي تعيش فيه . في السنوات التالية توسعت بالبارايسو وتطورت بالسرعة نفسها التي تركت هي بها ماضيها وراءها وتحولت إلى المرأة متدفقة الحيوية وذات المظهر السعيد التي ستغزو بعد إحدى عشرة سنة

قلب جاكوب تود . ولم يكن المبشر المزيف هو أول رجل تصده ، ولكنها لم تكن مهتمة بالزواج . فقد اكتشفت معادلة استثنائية للبقاء في غرام مثالي مع كارل بريتزنر ، باستعادتها كل لحظة من عاطفتها الملتهبة وهذيانات أخرى اختلقتها في صمت لياليها كعازبة .

الحُبّ

لا يمكن لأحد أن يعرف خيراً من مس روز ما الذي كان يدور في روح إلزا المصابة بداء الحب . لقد حزرت على الفور هوية الرجل ، لأنه لا يمكن إلا لأعمى ألا يلمح العلاقة ما بين هذيانات الفتاة وزيارة موظف أخيها مع صناديق مشتريات فيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث . كان رد فعلها الأول هو استبعاد الشاب بضربة مذبة لأنه تافه ومعدم ، ولكنها سرعان ما أدركت أنها هي نفسها قد أحست أيضاً بجاذبيته الخطرة ولم تستطع إخراجه من رأسها . صحيح أنها دققت أولاً في ثيابه المرقعة وشحوبه الكئيب ، ولكن نظرة ثانية منها كانت كافية لكي تقدر هالته المأساوية كشاعر رجيم . وبينما هي تطرز بنزق في غرفة الخياطة ، كانت تقلّب ألف احتمال لضربة سوء الحظ تلك التي تقلب رأساً على عقب كل خططها في الحصول على عريس لطيف وثري لإلزا . راحت أفكارها تنسج الأحابيل لإحباط ذلك الحب قبل أن يبدأ ، ابتداء من إرسال إلزا إلى مدرسة آنسات داخلية في إنكلترا أو في اسكتلندا حيث تعيش خالتها المسنة ، وحتى إخبار أخيها بالحقيقة لكي يتخلص من موظفه . ومع ذلك ، فقد كانت تنمو في أعماق قلبها ، على الرغم منها ، الرغبة السرية في أن تعيش إلزا حبها حتى الإنهاك ، وكأنها تريد التعويض عن الفراغ الرهيب الذي خلفه مغني التينور في حياتها قبل ثمانية عشر عاماً .

في أثناء ذلك كانت الساعات تمضي بالنسبة إلى إلزا ببطء رهيب وسط زوبعة من المشاعر المشوشة . لم تكن تعرف إذا ما كان الوقت نهاراً أم ليلاً ، وإذا ما كان اليوم ثلاثاء أم جمعة ، وإذا ما كانت قد مضت بضع ساعات أم عدة سنين مذ تعرفت على ذلك الشاب . كانت تشعر فجأة بأن دمها يتحول إلى رغوة وبأن جلدها يمتلىء بكدمات وآثار ضرب ما تلبث أن تتلاشى بغتة وبطريقة لا يمكن تفسيرها مثلما ظهرت . وكانت ترى الحبيب في كل مكان : في ظلال الأركان ، في أشكال الغيوم ، في فنجان القهوة... وخصوصاً في الأحلام . لم تكن تعرف اسمه ولم تكن لتتجرأ على سؤال جيرمي سوميرز خوفاً من أن تُفلتَ موجةً من الشكوك ، ولكنها كانت تلهي نفسها لساعات في تصور اسم مناسب له . لقد كانت تشعر بحاجة ملحة لأن تتكلم مع أحد عن حبها ، وأن تدرس كل تفصيل في زيارة الشاب القصيرة ، وتتأمل فيما صمتا عنه ، وفيما كان عليهما أن يقولاه ، وفيما تبادلاه بالنظرات... وفي خجلهما ونواياهما ، ولكنها لم تكن تجد من تثق به . كانت تتلهف لمجيء القبطان جون سوميرز ، هذا الخال ذي الميول القرصانية الذي كان الشخصية الأكثر إلهاماً في طفولتها ، والوحيد القادر على فهمها ومساعدتها في مثل تلك الضائقة . لم يكن يراودها أي شك في أن معرفة جيرمي سوميرز بالأمر ، ستدفعه إلى إعلان حرب لا هوادة فيها ضد الموظف المتواضع في شركته ، ولا يمكنها أن تتصور الموقف الذي ستتخذه مس روز . وقررت أنه كلما أخفت الأمر عن أهل بيتها ، كلما ازدادت حرية حركتها هي وخطيبها المستقبلي . ولم تتصور مطلقاً بأنه يمكن لها ألا تُقابل من حبيبها بالمشاعر المندفعة نفسها ، لأنه من المستحيل لحب بهذا الحجم أن يُفقدها صوابها هي وحدها . فأبسط قوانين المنطق والعدالة تشير إلى أن ذلك الشاب يقبع في مكان ما من المدينة معانياً من العذاب نفسه .

كانت إلزا تختبئ لتلمس جسدها في مواضع سرية لم ترتادها من قبل

قط . تغمض عينيها فتكون يده عندئذ هي التي تداعبها برقة عصفور، وتكون شفتاه هما اللتان تقبلهما في المرآة ، وخصره هو الذي تحتضنه في الوسادة ، وهمسات حبه هي ما تحمله إليها الريح . وحتى أحلامها لم تفلت من تسلط خواكين اندييتا عليها . فقد كانت تراه مثل خيال هائل يرتمي عليها ليلتهمها بألف طريقة هذيانية ومقلقة . لم تكن تعرف إذا ما كان عاشقاً أم شيطاناً أم ملاكاً . ولم تكن ترغب في الاستيقاظ ، وكانت تمارس بإصرار متعصب المهارة التي تعلمتها من ماما فريسيا لتدخل وتخرج من الأحلام وفق مشيئتها ، وتوصلت إلى التمكن من هذا الفن إلى حد جعل حبيبها الوهمي يظهر مجسداً ، فتتمكن من لمسه ، وشمه وسماع صوته واضحاً وقريباً تماماً . وكانت تفكر : إذا ما كان بمقدورها البقاء نائمة على الدوام فلن تحتاج لما هو أكثر من ذلك : إذ يمكنها مواصلة حبها له من سريرها إلى الأبد . وكان يمكن لها أن تذوي في هذيان ذلك الهوى لو لم يحضر خواكين اندييتا بعد أسبوع من ذلك إلى البيت ليُخرج صناديق البضاعة ليرسلها إلى الزبون في الشمال .

علمت في الليلة السابقة بأنه سيأتي ، ولكن ليس بالغريزة أو التنبؤ ، مثلما ستقول بعد سنوات ، حين ستروي الأمر إلى تاو تشين ، وإنما لأنها سمعت جيرمي سوميرز في أثناء العشاء يعطي التعليمات لأخته ولماما فريسيا .

- سيأتي الموظف نفسه الذي أحضر الحمولة ليأخذها - أضاف قول ذلك بصورة عابرة ، دون أن يلحظ إعصار الانفعالات الذي أثارته كلماته ، لأسباب مختلفة ، في النساء الثلاث .

أمضت الفتاة فترة الصباح على الشرفة ترقب الطريق الصاعد عبر الرابية إلى البيت . وعند منتصف النهار تقريباً رأت مجيء العربة التي تجرها ستة بغال يتبعها عمال مسلحون على خيول . أحست براحة جليدية ، وكأنها قد ماتت ،

دون أن تنتبه إلى أن مس روز وماما فريسيا تراقبانها من البيت . وقد تلعثمت مس روز من بين أسنانها :

- مع كل الجهد المبذول لتربيتها تقع في حب أول منحط يعترض طريقها!

كانت قد صممت على فعل المستحيل لمنع وقوع الكارثة ، ولكن دون قناعة كبيرة ، لأنها كانت تعرف جيداً مدى تغلغل الحب الأول . فقالت آمرة :

- أنا سأتولى تسليم البضاعة . قولي لإلزا أن تدخل إلى البيت ولا تسمحي لها بالخروج لأي سبب .

فسألتها ماما فريسيا بضيق :

- وكيف تريدينني أن أفعل ذلك ؟

- بحبسها إذا اقتضى الأمر .

فردت عليها وهي تخرج مجرجرة خفيها :

- احبسيها أنت إذا كنتِ تستطيعين ذلك . ولا تُدخلني في هذا الأمر .

كان من المستحيل منع الفتاة من الاقتراب من خواكين اندييتا وتسليمه رسالة . لقد فعلت ذلك دون مواربة ، وهي تنظر إلى عينيه بتصميم قاس ، بحيث لم تجد مس روز الشجاعة على اعتراض طريقها ولم تستطع ماما فريسيا الوقوف في وجهها . وعندئذ أدركت المرأتان أن السحر أقوى مما يمكن تصوره وأنه لا توجد أبواب وأقفال ولا شموع مباركة تكفي لدرء ذلك . كان الشاب قد أمضى ذلك الأسبوع أيضاً وهو يهجس بذكرى الفتاة التي كان يظنها ابنة رب عمله جيرمي سوميرز ، وهي بالتالي بعيدة المنال بالمطلق . لم يكن يخطر له التأثير الذي أحدثه فيها ولم يخطر لذهنه بأنها حين قدمت إليه كأس الشراب التاريخي ذاك ، إنما كانت تعلن له حبها ، ولهذا احتفظ بخوفه الكبير عندما سلمته مغلفَ رسالةٍ مغلقاً . وضع المغلف في جيبه باضطراب وواصل مراقبة عملية تحميل الصناديق في العربة ، بينما كانت أذناه تتوقدان ، وثيابه تتبلل بالعرق وتجوب ظهره حمى راعشة . كانت إلزا في أثناء ذلك تقف

صامتة ، وتراقبه بثبات على بعد خطوات قليلة دون أن تبدي اهتماماً بملامح غضب مس روز وإشفاق ماما فريسيا . وعندما تم تحزيم الصندوق الأخير في العربة ودارت البغال نصف دورة لتبدأ النزول من الرابية ، اعتذر خواكين انديتا أمام مس روز عن الإزعاج ، وحيا إلزا بانحناءة خفيفة من رأسه ومضى متعجلاً قدر المستطاع .

كانت رسالة إلزا تتألف من سطرين اثنين فقط تشير عليه فيهما أين وكيف سيلتقيان . وكانت الحيلة من البساطة والجرأة بحيث يمكن لأي شخص أن يظنها خبيرة في المجون : فعلى خواكين أن يحضر بعد ثلاثة أيام ، في الساعة التاسعة ليلاً ، إلى صومعة عذراء الغوث الدائم ، وهي مصلى ينتصب في رابية ثيرو أليغري حماية للسائرين ، على مسافة قريبة من بيت آل سوميرز ، وقد اختارت إلزا المكان لقربه واختارت الزمان لأنه يوم الأربعاء . فمس روز وماما فريسيا والخدم سيكونون مشغولين بالعشاء والمدعوين ولن ينتبه أحد إذا ما هي خرجت وغابت لوقت قصير . كانت مبررات حفلات الرقص قد انتفت منذ اليوم الذي غادر فيه مايكل ستيوارد البيت ، كما أن الشتاء المبكر لم يكن يشجع على إقامة الحفلات ، ولكن مس روز حافظت على العادة لكي تضع حداً للتقولات التي راحت تدور حولها وحول ضابط البحرية . فإلغاء الحفلات الموسيقية بعد غياب ستيوارد يعادل الاعتراف بأنه كان سبب إقامة تلك الحفلات .

•

منذ الساعة السابعة كان خواكين انديتا رابضاً ينتظر على أحر من الجمر . رأى من بعيد ألق أنوار البيت المضاء ، وموكب عربات المدعوين وفوانيس الحوذيين المضاءة وهم ينتظرون في الطريق . وقد اضطر إلى الاختباء مرتين لدى مرور الحراس لتفقد مصابيح الصومعة التي تطفئها الريح . والصومعة هي بناء صغير مربع من الطين يعلوه صليب خشبي مطلي ، لا تكاد

تزيد في حجمها إلا قليلاً عن حجرة اعتراف ، تضم تمثالاً من الجبس للسيدة العذراء . وكانت هناك صينية فيها صف من شموع نذور مطفأة وجرة أنفورا فيها زهور ميتة . كانت ليلة كاملة القمر ، ولكن غيوماً كثيفة كانت تملأ السماء ، وتغطي أحياناً ضوء القمر بالكامل . في الساعة التاسعة أحس بحضور الفتاة وتخيل هيئتها الملتفة من رأسها حتى قدميها بمعطف قاتم .

ـ لقد كنتُ بانتظارك يا آنسة ـ كان هذا هو الشيء الوحيد الذي خطر له أن يتلعثم به ، وقد أحس بأنه أشبه بأبله .

فردت عليه هي دون أدنى تردد :

ـ أنا انتظرتك دوماً

خلعت المعطف ورأى خواكين أنها ترتدي ملابس حفلة ، وأنها تشمر تنورتها وتنتعل خفاً بيتياً . وكانت تحمل في يدها جوربيها الأبيضين وحذاءها المصنوع من جلد الغزال كيلا تلوثه بوحل الطريق . أما شعرها الأسود ، المفروق من منتصفه ، فكان مجموعاً على جانبي الرأس في جديلتين مزينتين بشرائط من الأطلس . جلسا صامتين في عمق الصومعة ، فوق المعطف الذي وضعته على الأرض ، مختبئين وراء التمثال ، متقاربين جداً ولكن دون تلامس . لم يتجرأا مطولاً على تبادل النظر في العتمة العذبة ، مشوشين بسبب التقارب المتبادل ، متنفسين الهواء نفسه ومتأججين على الرغم من هبات الهواء التي تتوعدهما بالبقاء في الظلام .

وأخيراً قالت هي :

ـ اسمي إلزا سوميرز .

فرد عليها :

ـ وأنا أدعى خواكين اندييتا .

ـ خُيّل إلي أن اسمك سيباستيان .

ـ لماذا ؟

. لأنك تشبه القديس سيباستيان الشهيد . أنا لا أذهب إلى الكنيسة البابوية ، إنني بروتستانتية ، ولكن ماما فريسيا أخذتني معها بضع مرات لتدفع نذورها .

وهنا انتهت المحادثة لأنهما لم يعرفا ما يمكن لهما أن يقولاه أكثر ؛ فراحا يتبادلان نظرات مواربة ويحمر كلاهما خجلاً في الوقت نفسه . كانت إلزا تشم رائحته التي تعبق بالصابون والعرق ، ولكنها لم تتجرأ على الاقتراب بأنفها منه مثلما كانت ترغب . الأصوات الوحيدة التي كانت تُسمع في الصومعة هي وشوشة الريح وأنفاسهما المضطربة . وبعد دقائق قليلة قالت إنه عليها العودة إلى بيتها قبل أن ينتبهوا إلى غيابها ، وتصافحا مودعين . وهكذا صارا يلتقيان في أيام الأربعاء التالية ، في مواعيد مختلفة ولكن لوقت قصير . وفي كل واحد من تلك اللقاءات المشوشة كانا يتقدمان بخطوات مارد في هذيانات وعذابات الحب . تبادلا بتعجل الحديث فيما لا بد منه ، لأن الكلام كان يبدو إضاعة للوقت ، وسرعان ما أمسك كل منهما بيدي الآخر وواصلا الكلام ، وكان جسداهما يتقاربان في كل مرة أكثر فأكثر بمقدار تقارب روحيهما ، إلى أن تبادلا القبلات من الفم في ليلة لقاء الأربعاء الخامس . وقد فعلا ذلك لمساً خفيفاً في أول الأمر ، ثم استكشافاً قبل أن يطلقا العنان لحرارة النار التي تستنزفهما . وكانا قد تبادلا حتى ذلك الحين موجزاً مكثفاً لسنوات إلزا الستة عشرة وسنوات خواكين الواحدة والعشرين . تجادلا حول عدم معقولية قصة السلة ذات الملاءات القطنية ودثار فرو النمس المسكي ، وكذلك قصة علبة صابون مرسيليا ، وقد أحس اندييتا بالطمأنينة لأنها ليست ابنة أي واحد من الأخوة سوميرز ، ولأن أصلها غير معروف ، مثلما هو أصله ، على الرغم من أن هوة اجتماعية واقتصادية تفصل بينهما . وعلمت إلزا بأن خواكين هو ثمرة حب عابر ، تلاشى أبوه مثل سحابة دخان بعد أن غرس بذرته وترعرع الطفل دون أن يعرف اسمه ، حاملاً كنية أمه وموسوماً بشرطه كابن

زنى ، مما كان يحد من كل خطوة يخطوها في طريقه . فأسرة أمه طردت الابنة التي لوثت شرفها وتجاهلت الطفل غير الشرعي . كان الجدان والأخوال ، وهم تجار وموظفون من طبقة متوسطة غارقة في الأحكام المسبقة ، يعيشون في المدينة نفسها ، على بعد كوادرات قليلة ، ولكنهم لم يكونوا يتقابلون مطلقاً . يذهبون في أيام الآحاد إلى الكنيسة نفسها ، ولكن في أوقات مختلفة ، لأن الفقراء لا يأتون إلى صلاة منتصف النهار . ولأن خواكين كان موصوماً بالعار ، فإنه لم يكن يلعب في الحدائق نفسها التي يلعب فيها أبناء أخواله ولم يتعلم في المدرسة التي يتعلمون فيها ، ولكنه استخدم ملابسهم وألعابهم التي تخلوا عنها ، إذ كانت ترسلها خالة مشفقة عبر دروب ملتوية إلى الأخت المنبوذة . لقد كانت أم خواكين اند يتا أقل حظاً من مس روز ، ودفعت ثمن ضعفها أغلى بكثير . كانت المرأتان كلتاهما في السن نفسها تقريباً ، ولكن في الوقت الذي كانت الإنكليزية تبدو شابة نضرة ، كانت الأخرى مستنزفة من البؤس والضنى وعملها المحزن في تطريز ملابس العرائس على ضوء شمعة . ولكن سوء الحظ لم يقلل من إحساسها بالكرامة ، فربت ابنها على مبادئ النزاهة القويمة . وتعلم خواكين منذ طفولته المبكرة أن يرفع رأسه عالياً ، متحدياً أي لفتة من السخرية أو الشفقة .

وقد تعهد خواكين في همسات الصومعة :

- في يوم ما سأتمكن من إخراج أمي من هذا البيت المشترك البائس . سأوفر لها حياة محترمة ، مثل تلك التي كانت تعيشها قبل أن تفقد كل شيء .

فردت إلزا :

- إنها لم تخسر كل شيء . فلديها ابن .

- أنا كنت سبب نكبتها .

فحددت هي :

- النكبة هي وقوعها في حب رجل خبيث . أما أنت فإنك خلاصها .

كانت مواعيد الشابين قصيرة جداً . ولأنها لم تكن تتم في الساعة نفسها ، فإن مس روز لم تستطع فرض رقابتها ليلاً ونهاراً . كانت تعرف أن ثمة ما يجري من وراء ظهرها ، ولكن التشدد لم يوصلها إلى حد حبس إلزا وراء قفل أو إرسالها إلى الريف ، مثلما كان يستدعي الواجب . وامتنعت عن ذكر شكوكها أمام أخيها جيرمي . كانت تفترض أن إلزا وعشيقها يتبادلان رسائل ، ولكنها لم تتمكن من ضبط أي واحدة منها على الرغم من أنها استنفرت كل الخدم . وقد كانت الرسائل موجودة بالفعل ، وكانت من الكثافة بحيث لو قيض لمس روز أن تطلع عليها لعقدت الدهشة لسانها . ولم يكن خواكين يرسل تلك الرسائل ، وإنما كان يسلمها لإلزا في كل لقاء من لقاءاتهما . وكان يقول فيها بعبارات ملتهبة كل ما لم يكن يجرؤ على قوله وجهاً لوجه ، سواء بسبب الكبرياء أو الخجل . وكانت الفتاة تخبئ الرسائل في علبة ، على عمق ثلاثين سنتمتراً تحت التراب في حديقة البيت الصغيرة ، حيث كانت تتظاهر كل يوم بالعناية بنباتات ماما فريسيا الطبية . تلك الصفحات التي قرأتها وأعادت قراءتها ألف مرة في لحظات مختلسة ، كانت تشكل الغذاء الأساسي لعاطفتها ، فهي تكشف عن مظهر لخواكين اندييتا لا يتبدى حين يكونان معاً ، فتبدو وكأن كاتبها شخص آخر . فالشاب المتكبر ، والمتأهب للصدام دوماً ، والكئيب والمعذب الذي كان يعانقها بجنون ولا يلبث أن يدفعها عنه فجأة وكأن ملمسها يحرقه ، كان يفتح أبواب روحه ويصف مشاعره كشاعر حين يكتب . فيما بعد ، وعندما لاحقت إلزا آثار خواكين اندييتا المطموسة ، ستكون هذه الرسائل هي حجتها الوحيدة على الحقيقة ، والدليل الذي لا يمكن دحضه على أن ذلك الحب المنفلت من عقاله لم يكن مسخاً من تخيلات مراهقتها ، وإنما وُجد فعلاً مثل مباركة قصيرة وزفرة طويلة .

●

بعد يوم الأربعاء الأول في الصومعة توقفت نوبات المغص التي كانت تصيب إلزا دون أن تخلف أثراً ، ولم يكن هناك أي شيء في سلوكها أو في مظهرها يكشف سرها ، اللهم إلا بريق عينيها المخبول واستخدامها المتزايد بعض الشيء لموهبتها في جعل نفسها غير مرئية . فهي تثير الانطباع أحياناً بأنها موجودة في عدة أماكن في الوقت نفسه ، مسببة البلبلة للجميع ؛ أو أن أحداً لا يستطيع أن يتذكر أين ومتى رآها ، وحين يبدؤون بمناداتها بالضبط ، تتجسد بمظهر من تجهل أنهم كانوا يبحثون عنها . وفي مناسبات أخرى تكون في غرفة الخياطة مع مس روز أو في المطبخ تحضّر طبقاً من الطعام مع ماما فريسيا ، ولكنها تصير صامتة وشفافة إلى حد لا تشعر معه المرأتان بأنهما تريانها . لقد كان حضورها رقيقاً ، لا يكاد يُلمح ، وعندما تغيب لا يشعر أحد بغيابها إلا بعد عدة ساعات .

فكانت مس روز تقول لها آمرة عدة مرات :

- إنك تبدين مثل شبح! لقد سئمت البحث عنك . لا أريدك أن تخرجي من البيت ولا أن تبتعدي عن ناظري .

فترد إلزا بهدوء وهي تظهر بخفة في أحد الأركان وبين يديها كتاب أو قطعة تطريز :

- لم أتحرك من هنا طوال المساء .

وتحتج ماما فريسيا بدورها :

- أحدثي صوتاً أيتها الصغيرة ، بالله عليك! كيف سأراك إذا كنتِ أكثر سكوناً من أرنب ؟

فتقول لهما حاضر ثم تفعل بعد ذلك ما يحلو لها ، ولكنها كانت ترتب الأمور لتبدو مطيعة وتنال الرضا . وقد اكتسبت خلال أيام قليلة مهارة مذهلة في تشويش الواقع ، وكأنها قد تمرست طوال حياتها في فنون الحواة والسحرة . وحيال استحالة ضبطها في حالة تناقض أو في كذبة مؤكدة ،

اختارت مس روز السعي إلى كسب ثقتها والتطرق إلى موضوع الحب في كل لحظة . وكان هناك فائض من الذرائع لفتح الموضوع ؛ أقاويل حول الصديقات ، القراءات الرومنسية التي تتشاطرانها أو أغنيات أعمال الأوبرا الإيطالية الجديدة التي كانتا تحفظانها عن ظهر قلب ، ولكن إلزا لم تكن تتفوه بكلمة تشي بعواطفها . عندئذ بحثت مس روز في البيت دون جدوى عن علامات واشية ، ففتشت ملابس الفتاة وغرفتها ، وقلبت مجموعة دماها وعلب الموسيقى والكتب والدفاتر رأساً على عقب ، ولكنها لم تعثر على دفتر مذكراتها . ولو أنها عثرت عليه لأصيبت بخيبة أمل ، إذ لم يكن في تلك الصفحات أي ذكر لخواكين اندييتا . لأن إلزا كانت تكتب لتتذكر فقط . وكانت مذكراتها تتضمن كل شيء ، ابتداء من الأحلام اللجوجة وحتى قائمة وصفات الطعام الطويلة والنصائح المنزلية ، مثل طريقة تسمين دجاجة أو إزالة بقعة دهن . وكانت هناك أيضاً هواجس حول ميلادها ، وحول السلة الفاخرة وصندوق صابون مرسيليا . ولكن لم تكن توجد كلمة واحدة عن خواكين اندييتا . فهي ليست بحاجة إلى يوميات لكي تتذكره . ولن تبدأ في رواية غرامياتها في أيام الأربعاء في تلك الصفحات إلا بعد عدة سنوات من ذلك .

في إحدى الليالي لم يلتق الشابان في الصومعة ، وإنما في منزل آل سوميرز . ومن أجل الوصول إلى تلك اللحظة مرت إلزا بعذاب الشكوك غير المتناهية ، لأنها أدركت أنها ستكون خطوة حاسمة . فمجرد اللقاء سراً دون رقيب يعني فقدان الشرف ، وهو أثمن كنوز البنت ، وبدونه لا مجال لأي مستقبل . فقد كانوا يلحون عليها دوماً : « امرأة بلا فضيلة لا تساوي شيئاً ، ولا يمكنها أن تصبح زوجة وأماً على الإطلاق ، وسيكون من الأفضل لها أن تربط حجراً بعنقها وتلقي بنفسها في البحر » . وفكرت بأنه ليس لها من مبرر يخفف من الخطأ الذي سترتكبه ، فهي ستقدم عليه بسبق إصرار وتصميم . في الثانية فجراً ، عندما لم تعد هناك روح مستيقظة في المدينة ، ولم يبق سوى الحراس

الليليين يتجولون مراقبين في الظلام . تدبر خواكين اندييتا الأمر ليدخل مثل لص عبر شرفة المكتبة ، حيث كانت تنتظره إلزا بقميص النوم وحافية القدمين ، وهي ترتجف من البرد واللهفة . أمسكت بيده وقادته عبر البيت في الظلمة حتى بلغا حجرة خلفية ، حيث كانوا يحفظون في خزائن كبيرة ملابس الأسرة وفي صناديق كبيرة زينات الملابس والقبعات التي استخدمتها مس روز وأعادت استخدامها على امتداد السنوات . وكانوا يحتفظون بستائر الصالة وغرفة الطعام مبسوطة على الأرض ومغطاة بقطع من الكتان ، بانتظار حلول الفصل التالي . بدا لإلزا أنه المكان الأكثر أمناً ، بعيداً عن غرف البيت الأخرى . ومع ذلك فقد وضعت حشيشة الفاليريانا في كأس اليانسون الذي تشربه مس روز قبل أن تنام ، وفي كأس البراندي الذي يرشفه جيرمي بينما هو يدخن سيجاره الكوبي بعد العشاء . كانت تعرف كل سنتمتر من البيت ، وتعرف بالضبط أين يئن خشب الأرضية وكيف تفتح الأبواب دون أن تصدر صريراً ، ويمكنها أن تقود خواكين في الظلام دون أي نور سوى نور ذاكرتها ، وقد تبعها هو وديعاً وشاحباً من الخوف ، متجاهلاً صوت الضمير المختلط بصوت أمه يذكره دون توقف بقواعد الشرف التي يتوجب على كل رجل محترم أن يلتزم بها . لن أفعل بإلزا أبداً مثلما فعل أبي بأمي ، كان يقول ذلك وهو يتقدم في الظلام تقوده يد الفتاة ، عارفاً أن كل الاعتبارات لم تعد مجدية ، ذلك أنه كان مهزوماً بتلك الرغبة المندفعة التي لم تعد تتركه بسلام منذ المرة الأولى التي رآها فيها . وفي أثناء ذلك كانت إلزا تصارع بين الأصوات المحذرة التي تدوي في رأسها وبين اندفاع الغريزة بوسائلها العجيبة . لم تكن لديها فكرة واضحة عما يمكن أن يحدث في غرفة الخزائن ، ولكنها كانت تمضي مستسلمة سلفاً .

بيت آل سوميرز المعلق في الهواء مثل عنكبوت في مهب الريح ، كان من المستحيل إبقاؤه دافئاً على الرغم من مدافئ الفحم التي تبقيها الخادمات مشتعلة طوال سبعة شهور في السنة . فالملاءات تبقى رطبة دوماً بسبب هواء

البحر المتواصل ، وينام ساكنوه وهم يضعون قوارير مياه ساخنة عند أقدامهم . المكان الوحيد الذي يبقى دافئاً على الدوام هو المطبخ ، حيث موقد الحطب ، وهو جهاز ضخم متعدد الاستخدامات ، لا ينطفئ مطلقاً . في الشتاء تئن الأخشاب ، وتتباعد ألواح الخشب فيبدو هيكل البيت وكأنه على وشك الإبحار مثل سفينة شراعية قديمة . لم تعتد مس روز مطلقاً على عواصف الباسفيكي ، مثلما لم تعتد على الهزات الأرضية . فقد كانت الزلازل الحقيقية ، تلك التي تقلب الدنيا رأساً على عقب ، تحدث مرة كل ست سنوات تقريباً ، وفي كل مرة كانت مس روز تبدي برود أعصاب مفاجئ ، أما الهزات الأرضية اليومية التي تقلقل الحياة وحسب ، فكانت تسبب لها تعكر المزاج . ولم تكن تقبل وضع الأواني الخزفية والكؤوس على رفوف قريبة من الأرض ، مثلما يفعل التشيليون ، وكلما اهتزت خزائن حجرة الطعام وسقطت أطباقها مفتتة ، تلعن هذه البلاد بأعلى صوتها . في الطابق السفلي توجد غرفة المخزن التي مارست فيها إلزا الحب مع خواكين فوق كدسة من ستائر الكريتون المطبع بأزهار ، التي تحل في الصيف محل ستائر القطيفة السميكة الخضراء في الصالون . مارسا الحب محاطين بخزائن وقورة ، وعلب قبعات وصرر تضم ملابس مس روز الربيعية . لم يضايقهما البرد ولا رائحة النفتالين لأنهما كانا قد تجاوزا الازعاجات العملية ، وتجاوزا الخوف من النتائج وتجاوزا خراقتهما كجروين . ما كانا يعرفان كيف يفعلان ذلك ، ولكنهما راحا يبتكران في أثناء الممارسة ، بذهول واضطراب ، وبصمت مطبق ، ويقتاد كل منهما الآخر دون أية مهارة . فقد كان وهو في الحادية والعشرين لا يقل عنها عذرية . وكان قد اختار التحول إلى راهب وهو في الرابعة عشرة من عمره إرضاء لأمه ، ولكنه بدأ قراءاته الليبرالية وهو في السادسة عشرة ، وأعلن عداءه للكهنة ، ولكن ليس للدين ، وقرر الحفاظ على عفته إلى أن يُخرج أمه من البيت المشترك . وكان يرى في ذلك مكافأة ضئيلة يقدمها إليها بالمقارنة مع تضحيات أمه الكثيرة . وعلى الرغم

من عذريتهما وخوفهما الشديد من أن يفاجئهما أحد ، تمكن الشابان من العثور في الظلام عما يبحثان عنه . فكا أزراراً ، وحلا أحزمة ، وتجردا من الحياء ووجدا نفسيهما عاريين يرشف كل منهما أنفاس ولعاب الآخر . استنشقا روائح مبالغاً فيها ، ووضعا بصورة محمومة هذا هنا وذاك هناك في سعيهما النزيه لحل الألغاز ، ووصول كل منهما إلى أعماق الآخر وضياعهما معاً في الهوة نفسها . وتلوثت الستائر الصيفية ببقع من العرق الدافئ والدم العذري والمني ، ولكن أياً منهما لم ينتبه إلى علامات الحب تلك . وكان كل منهما لا يكاد يستطيع في الظلام تحديد أبعاد جسد الآخر وتقدير المجال المتاح لهما حتى لا يوقعا أكداس الصناديق ومشاجب الملابس في جلبة عناقهما . وقد باركا الريح والمطر المتساقط على السطح ، لأنه كان يطغى على أنين أخشاب الأرضية ، ولكن دوي قلبيهما كان راعداً ولهاثهما وتنهداتهما محتدمة إلى حد لم يفهما معه كيف لم يستيقظ البيت بأسره .

خرج خواكين اندييتا عند الفجر من نافذة المكتبة نفسها ورجعت إلزا منهوكة القوى إلى فراشها . وبينما كانت تنام متدثرة بعدة بطانيات ، أمضى هو ساعتين في المشي نزولاً من الرابية تحت العاصفة . واجتاز المدينة بصمت دون أن يلفت انتباه الحراس لكي يصل إلى بيته في الوقت الذي بدأت تدوي فيه أجراس الكنائس داعية إلى الصلاة الأولى . خطط للدخول خفية ، والاغتسال قليلاً ، واستبدال ياقة قميصه والانطلاق إلى العمل ببدلته المبللة ، لأنه لا يملك بدلة أخرى ، ولكن أمه كانت تنتظره مستيقظة وقد سخنت الماء من أجل المتة ، وأعدت الخبز المحمص مثلما تفعل كل صباح . سألته بحزن شديد :

ـ أين كنت يا بني ؟

فلم يستطع خداعها ، ورد عليها وهو يعانقها مشماً :

ـ كنت أكتشف الحب يا أماه .

●

كان خواكين انديتا يعيش معذباً برومنسية سياسية لا تجد لها صدى في بلاد الناس العمليين والحذرين تلك . فقد تحول إلى متعصب لنظريات لامينز التي قرأها في ترجمات ركيكة وغير متقنة عن الفرنسية ، مثلما قرأ الموسوعيين . وكان مثل أستاذه ، يؤيد في السياسة الليبرالية الكاثوليكية وفصل الدين عن الدولة . ويعلن أنه مسيحي بدائي ، مثل الحواريين والشهداء ، ولكنه معادٍ للخوارنة ، خونة يسوع ومذهبه الحقيقي ، على حد قوله ، ويتارنهم بعلق يتغذى على سذاجة المؤمنين . ولكنه كان يتوخى الحذر مع ذلك من التمادي في تلك الأفكار أمام أمه التي يمكن للكدر أن يقتلها . وكان يعتبر نفسه كذلك عدواً للأوليغارشية ، لأنها غير مجدية ومنحطة ، وللحكومة لأنها لا تمثل مصالح الشعب ، وإنما مصالح الأغنياء ، مثلما يمكن لجلسائه في اجتماعات مكتبة سانتوس تورنيرو أن يؤكدوا بأمثلة لا تحصى ، ومثلما كان هو نفسه يشرح بصبر لإلزا ، مع أنها لم تكن تكاد تسمعه ، إذ أنها كانت تهتم بشمه أكثر من اهتمامها بخطاباته . كان الشاب مستعداً للمقامرة بحياته في سبيل المجد غير المجدي لومضة بطولة ، ولكنه كان يشعر بخوف في أحشائه من النظر في عيني إلزا والتحدث عن مشاعره . أقرا روتين ممارسة الحب مرة واحدة على الأقل في كل أسبوع في حجرة الخزائن نفسها التي تحولت إلى عشهما . ولم تكن تتاح لهما إلا لحظات قصيرة وثمينة يقضيانها معاً ، فكانت ترى أنه من الحماقة إضاعتها في التفلسف ؛ وإذا كان لا بد من الكلام ، فإنها تفضل أن تسمعه يتحدث عن ذوقه ، وعن ماضيه ، وعن أمه وعن خططه للزواج منها في أحد الأيام . وكانت مستعدة لأن تدفع أي شيء مقابل أن يقول لها مثلاً إن قياس طوية الريح أو صبر أمواج الشاطئ أسهل من قياس زخم حبه ؛ وإنه ليست هناك ليلة شتائية قادرة على تبريد موقد عاطفته المتأجج ؛ وإنه يقضي النهار حالماً والليالي مؤرقاً ، معذباً دون راحة بجنون الذكريات ومحصياً ، بجزع محكوم بالإعدام ، الساعات المتبقية ليحتضنها من

جديد . ؛ «أنت ملاكي وضياعي ، بحضورك أبلغ ذروة النشوة الإلهية وبغيابك أنحدر إلى الجحيم ، ما هو جوهر هذا التسلط الذي تمارسينه علي يا إلزا ؟ لا تحدثيني عن الغد ولا عن الأمس ، فأنا أعيش فقط من أجل هذه اللحظة التي أعود فيها لأغرق في ليل عينيك القاتمتين غير المتناهي » . كانت الفتاة تتغذى بروايات مس روز وبالشعراء الرومنسيين الذين كانت تحفظ أشعارهم عن ظهر قلب ، فتتيه في نشوة التسمم بالإحساس بأنها معبودة مثل إلهة ولا تلمح عدم التناسب ما بين هذه التصريحات الملتهبة وشخصية خواكين اندييتا الواقعية . لقد كان يتحول في الرسائل إلى العاشق الكامل ، القادر على وصف عواطفه بنفسٍ ملائكي ، حيث يختفي الإحساس بالذنب والخوف ليفسحا مجالاً لهياج الحواس المطلق . لم يعشق أحد بهذه الطريقة من قبل ، وقد اختيرا من بين جميع الفانين من أجل حب لا مثيل له ، كان خواكين يقول ذلك في رسائله وكانت هي تصدقه . ومع ذلك ، كان يمارس الحب بتعجل ونهم ، دون أن يتذوقه ، مثل من يتهالك مهزوماً ومعذباً بالذنب حيال نقيصة . لم يكن يمنح نفسه الوقت للتعرف على جسدها ولا لكشف جسده ؛ كان يهزمه تسرع الرغبة والسر . وكان يبدو له أنهما لن يجدا الوقت الكافي ، على الرغم من أن إلزا كانت تطمئنه موضحة له أن أحداً لا يأتي إلى هذه الغرفة ليلاً ، وأن الأخوين سوميرز ينامان مخدرين ، وماما فريسيا تنام في كوخها في أقصى الفناء ، وأن غرف الخادمات الأخريات في الطابق الأخير من البيت . وكانت الغريزة تستفز جرأة الفتاة وتدفعها لاكتشاف مختلف احتمالات اللذة ، ولكنها سرعان ما تعلمت كبح نفسها . فمبادراتها في لعبة الحب كانت تضع خواكين في وضع دفاعي ، فيشعر بأنه ملام ، أو مجروح أو مطعون في رجولته . وكانت تعذبه أسوأ الشكوك ، لأنه لم يكن قادراً على تصور كل تلك الحسية الطبيعية في طفلة في السادسة عشرة ، أفقها الوحيد هو جدران بيتها . وكان الخوف من حدوث حبل يزيد الوضع سوءاً ، لأن أياً منهما لم يكن يعرف كيفية تجنب

ذلك . فخواكين يدرك بصورة غامضة آلية التلاقح ويفترض بأنهما سيكونان في منجى إذا ما تراجع عنها في الوقت المناسب ، ولكنه لم يكن يتمكن من ذلك على الدوام . كان يلاحظ إحباط إلزا ، ولكنه لم يكن يعرف كيف يواسيها ، وبدل أن يحاول ذلك كان يلتجئ على الفور إلى لعب دور الناصح الفكري والمثقف ، حيث يشعر بالثقة . وبينما هي تتلهف لتلقي مداعباته أو الاسترخاء على الأقل على كتف حبيبها ، كان هو يبتعد ، ويرتدي ملابسه بسرعة ، ويهدر الوقت الثمين المتبقي لهما في خلط حجج جديدة للأفكار السياسية نفسها التي كررها مئة مرة . تلك المعانقات كانت تُبقي إلزا في حالة تأجج ، ولكنها لم تكن تتجرأ على الاعتراف بذلك حتى في أعمق أعماق وعيها ، لأن ذلك يعني المجادلة في جودة الحب . وعندئذ تقع في فخ الإشفاق على الحبيب والبحث عن أعذار له ، مفكرة بأنه لو أتيح لهما مزيد من الوقت ومكان أكثر أمناً ، فإنهما سيمارسان الحب بصورة أفضل . ولكن ما هو أفضل بكثير من تقلباتهما المشتركة تلك ، كانت الساعات التي تليها حيث كانت تخترع ما لم يحدث والليالي التي تحلم فيها بما قد يحدث في المرة القادمة في حجرة الخزائن .

وبالجدية نفسها التي تضفيها على كل أعمالها ، انهمكت إلزا في مهمة إضفاء المثالية على حبيبها إلى أن حولته إلى هاجس متسلط على عقلها . لم تعد ترغب إلا في خدمته دون شروط وطوال ما تبقى من حياتها ، وأن تضحي وتتألم لتختبر تفانيها وإنكارها للذات ، وأن تموت من أجله إذا اقتضى الأمر . وفي انبهارها بفتنة هذا الحب الأول ، لم تلحظ أنها لا تلقى استجابة بالزخم نفسه . فعشيقها لم يكن حاضراً على الدوام . وحتى في أشد المعانقات حدة فوق كومة الستائر ، كانت روحه تهيم في مكان آخر ، مستعدة للمغادرة أو أنها غائبة أصلاً . ولم يكن يكشف نفسه إلا وسطياً فقط ، وبصورة عابرة ، في لعبة خيال ظل حانقة ، ولكنه لدى الوداع ، وعندما تكون هي على وشك

الانفجار بالبكاء جوعاً إلى الحب ، يسلمها واحدة من رسائله العجيبة . وعندئذ يتحول الكون بأسره لدى إلزا إلى بلورٍ هدفه الوحيد يتلخص في عكس مشاعرها . وفي خضوعها لمهمة الحب المطلق الشاقة ، لم تكن تشك في قدرتها على الاستسلامِ دون تحفظ ولا تعترف في الوقت نفسه بغموض خواكين . لقد ابتدعت حبيباً كاملاً وكانت تغذي هذا الوهم بإصرار لا يُهزم . فقد كانت مخيلتها تعوض عن معانقات حبيبها غير المرضية التي كانت تتركها تائهة في الليمبو المظلم للرغبات غير المشبعة .

القسم الثاني

١٨٤٨ ـ ١٨٤٩

الخبر

في ٢١ أيلول ، يوم ابتداء الربيع حسب تقويم مس روز ، قاموا بتهوية غرف البيت ، وشمسوا الفراش والبطانيات ، وطلوا الأثاث الخشبي بالشمع ، وبدلوا ستائر الصالة . غسلت ماما فريسيا ستائر الكريتون المزينة برسوم أزهار دون أن تعلق بشيء ، مقتنعة بأن البقع الجافة ما هي إلا بول فأر . أعدت في الفناء عدة براميل غسيل مملوءة بالماء الساخن ولحاء الكيياي[1] ، ونقعت الستائر طوال يوم بكامله ، ثم نشتها بماء الرز ونشفتها تحت الشمس ؛ وبعد ذلك قامت امرأتان بكيها ، وعندما عادت جديدة علقوها لاستقبال الفصل الجديد . وفي أثناء ذلك كانت إلزا وخواكين ، غير العابئين باضطرابات ربيع مس روز ، يتقلبان على ستائر القطيفة الخضراء ، والوثيرة أكثر من ستائر الكريتون . كان موسم البرد قد انتهى وصارت الليالي صافية . وكانا قد أمضيا ثلاثة شهور من الحب ، وتحولت رسائل خواكين اندييتا ، الملطخة بعبارات شاعرية واعترافات ملتهبة ، إلى الإسهاب بصورة ملحوظة . كانت إلزا تشعر بحبيبها غائباً ، وبأنها تعانق في بعض الأحيان شبحاً . وعلى الرغم من كرب الرغبة غير المشبعة ومن شحنة الأسرار الموهنة ، فقد استعادت الفتاة سكينتها الظاهرية . كانت تمضي ساعات النهار في الأعمال التي اعتادت أن تمارسها

(١) كيياي : quillay جنس أشجار تنمو في تشيلي والأرجنتين ، وتسمى أيضاً شجر الصابون .

من قبل ، فتبقى مشغولة بكتبها وتمارينها على البيانو أو منهمكة في المطبخ وحجرة الخياطة ، دون أن تبدي أدنى اهتمام بالخروج من البيت ، أما إذا طلبت منها مس روز ذلك ، فإنها ترافقها بمزاج طيب مثل من ليس لديه شيء أفضل يفعله . كانت تنام وتنهض باكراً ، كعادتها ؛ وكانت شهيتها مفتوحة وتبدو معافاة ، ولكن أعراض هذه الحال الطبيعية تماماً أثارت شكوكاً رهيبة لدى مس روز وماما فريسيا . لم تكونا ترفعان بصرهما عنها . وكانتا ترتابان بأن تكون نشوة حبها قد تبخرت فجأة ، ولكن بما أن عدة أسابيع قد مضت ولم تبدُ على إلزا علامات القلق ، فقد راحت رقابتهما تفتر شيئاً فشيئاً . وكانت الهندية تفكر : ربما أفادت شموع القديس أنطونيو ، وفكرت مس روز دون قناعة كبيرة بأنه ربما لم يكن حباً في نهاية المطاف .

وصل خبر اكتشاف الذهب في كاليفورنيا إلى تشيلي في شهر آب . وكان أول الأمر مجرد إشاعة غائمة على أفواه البحارة السكارى في مواخير حي ألمندرال ، ولكن قبطان السفينة آديلايدا أعلن بعد أيام أن نصف بحارته قد انشقوا في سان فرانسيسكو . وروى وهو يختنق بالحماس :

ـ هناك ذهب في كل الأنحاء ، يمكن جمعه بالرفوش ، وقد شوهدت كتل تبر بحجم حبات البرتقال! يمكن لأي شخص بشيء من المهارة أن يصبح مليونيراً!

في شهر كانون الثاني من تلك السنة ، وعلى مقربة من طاحونة مُزارعٍ سويسري على ضفاف النهر الأمريكي ، عثر شخص كنيته مارشال على حرشفة ذهب في الماء . تلك الحبيبة الصفراء التي أطلقت موجة الجنون ، اكتشفت بعد تسعة أيام من انتهاء الحرب بين المكسيك والولايات المتحدة بتوقيع معاهدة غوادالوبي هيدالغو . وعندما ذاع الخبر ، كانت كاليفورنيا قد خرجت من ملكية المكسيك . فقبل أن يُعرف بأن تلك الأراضي تقبع على كنز لا ينضب ، لم يكن هناك من يوليها كبير اهتمام : فهي في نظر الأمريكيين منطقة هنود ، والرواد

يفضلون ارتياد اوريغون ، حيث يرون أن الزراعة تغل أفضل . أما المكسيك فكانت تعتبر تلك المنطقة مجرد وكر لصوص ولم تتنازل بإرسال قواتها للدفاع عنها خلال الحرب . وفيما بعد راح سام برانان ، وهو ناشر جريدة وواعظ مُرموني أُرسل لنشر عقيدته ، يجوب شوارع سان فرانسيسكو معلناً عن الخبر الجديد . ربما لم يصدقه الناس ، إذ كانت سمعته قلقة بعض الشيء . فقد أشيع عنه أنه أساء التصرف بأموال الرب وعندما طالبته الكنيسة المُرمونية بإعادتها ، رد بأنه سيفعل ذلك... ولكن بموجب إيصال استلام موقع من الرب . ولكنه كان يدعم كلامه عن الذهب بزجاجة صغيرة مليئة بحبيبات التبر ، راحت تنتقل من يد إلى يد ملهبة حماس الناس . وعلى صرخة : الذهب! الذهب! هجر ثلاثة من كل أربعة رجال كل شيء وانطلقوا إلى الترسبات الرملية التي تحتوي المعدن الثمين . وكان لا بد من إغلاق المدرسة الوحيدة لأنه لم يبق هناك أحد بمن في ذلك الأطفال . وقد كان للخبر الوقع نفسه في تشيلي . كان متوسط الأجر اليومي عشرين سنتافو ، وكانت الصحف تتحدث عن أنه قد تم أخيراً اكتشاف « إلدورادو » ، المدينة التي حلم بها الغزاة الإسبان ، حيث الشوارع مرصوفة بالمعدن الثمين : « غنى المناجم أشبه بحكايات السندباد أو مصباح علاء الدين ؛ ويُقدر الربح اليومي دون خوف من المبالغة بأونصة من الذهب الصافي » ، هذا ما كانت تنشره الصحف وتضيف بأن هناك ما يكفي لثراء آلاف الرجال لعشرات السنين . اشتعل حريق الجشع على الفور بين التشيليين الذين لهم أرواح أطفال قاصرين ، وبدأ النزوح الجماعي إلى كاليفورنيا ابتداء من الشهر التالي . أضف إلى ذلك أنهم كانوا في منتصف الطريق بالنسبة لأي مغامر آخر يبحر من المحيط الأطلسي . فالرحلة من أوربا إلى بالبارايسو تستغرق ثلاثة شهور ، ثم يلي ذلك شهران آخران للوصول إلى كاليفورنيا . لم تكن المسافة بين بالبارايسو وسان فرانسيسكو تتجاوز السبعة آلاف ميل ، بينما المسافة بين السواحل الشرقية لأمريكا الشمالية ، مروراً برأس هورنوس ، تصل إلى عشرين

ألف ميل تقريباً . وهذا الأمر ، مثلما قدر خواكين انديتا ، يمثل سبقاً معتبراً للتشيليين ، ذلك أن أول الواصلين سيحصلون على أفضل مناطق الترسبات .

لقد توصل فيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث إلى النتيجة نفسها وقرر الإبحار فوراً مع خمسة من أفضل عمال منجمه وأشدهم إخلاصاً ، واعداً إياهم بمكافأة تعويضية كحافز لكي يتركوا أسرهم وينطلقوا في تلك المغامرة المحفوفة بالمخاطر . استغرق ثلاثة أسابيع في إعداد أمتعته من أجل إقامة تستمر عدة شهور في أراضي شمال القارة تلك التي كان يتصورها مقفرة ومتوحشة . وكان لديه ما يميزه عن معظم المتهورين الذين انطلقوا دون تبصر بيد من أمام وأخرى من وراء ، مدفوعين بإغراء الحصول على ثروة سهلة ، ولكن دون أن تكون لديهم أي فكرة عن المخاطر والجهود التي تتطلبها الرحلة . فهو لم يكن ذاهباً ليقصم ظهره في العمل كأجير ، بل سيذهب مزوداً بمؤونة جيدة ومع خدم موثوقين ، هكذا أوضح لزوجته التي كانت تنتظر مولودها الثاني ، ولكنها أصرت مع ذلك على مرافقته . وفكرت باولينا بالذهاب مع مربيتين ، وطاهيها ، إضافة إلى بقرة وبضع دجاجات حية لتأمين الحليب والبيض للطفلين خلال الرحلة البحرية ، ولكن زوجها اتخذ لأول مرة موقفاً متصلباً في رفضه . ففكرة الانطلاق في مثل تلك الأوديسة مع الأسرة على كاهله هي فكرة تصل حتماً إلى مستوى الجنون . لقد فقدت زوجته عقلها .

- ما اسم ذلك القبطان صديق مستر تود ؟ - قاطعته باولينا في منتصف كلامه المطول وهي توازن فنجاناً من الشوكولاته فوق بطنها الضخم ، وتقضم في الوقت نفسه قطعة حلوى عجينية بالحليب ، تعلمت طريقة صنعها من الراهبات الكلاريسيات .

- ربما تعنين جون سوميرز ؟

- إنني أعني ذاك الذي كان ضجراً من الإبحار في السفن الشراعية ويتكلم عن السفن البخارية .

- إنه هو نفسه .

استغرقت باولينا في التفكير لحظة وهي تلقي بقطع الحلوى إلى فمها ودون أن تولي أدنى اهتمام بقائمة المخاطر التي يعددها زوجها . كانت قد سمنت كثيراً ولم يبق فيها إلا القليل من الفتاة النحيلة التي هربت يوماً من الدير برأس حليق .

وسألته أخيراً :

- كم صار حسابي المصرفي في لندن ؟

- خمسون ألف جنيه . أنت سيدة ثرية جداً .

- هذا غير كافٍ . هل يمكنك أن تقرضني ضعف هذا المبلغ بفائدة عشرة بالمئة تُدفع خلال ثلاث سنوات ؟

- بالله عليك يا امرأة! يا للأمور التي تخطر لك! ومن أجل أي شياطين تريدين كل هذا المال ؟

- من أجل شراء سفينة بخارية . فالصفقة الكبرى ليست في البحث عن الذهب يا فيليشيانو ، فهو ليس سوى براز أصفر في نهاية المطاف . الصفقة الكبرى هي في عمال المناجم . إنهم يحتاجون إلى كل شيء في كاليفورنيا وسيدفعون نقداً . يقال إن السفن البخارية تبحر مباشرة ولا حاجة بها إلى أهواء الرياح ، وهي أضخم وأسرع . لقد صارت السفن الشراعية من الماضي .

واصل فيليشيانو التقدم بمخططاته ، ولكن التجربة كانت قد علمته ألا يستخف برؤى زوجته المالية . لم يستطع النوم عدة ليال . كان يمشي مؤرقاً في صالونات بيته الفاخرة ، وسط أكياس مؤن ، وصناديق عدّة ، وبراميل بارود وأكداس أسلحة من أجل الرحلة ، متأملاً ومفكراً بكلمات باولينا . وكلما فكر أكثر ، بدت له فكرة الاستثمار في النقل أكثر صواباً ، ولكنه قبل أن يتخذ أي قرار استشار أخاه ، وهو شريكه في كل أعماله وصفقاته . استمع الآخر بدهشة ، وعندما انتهى فيليشيانو من شرح الأمر ، ضرب جبهته براحته :

ـ يا للعجب يا أخي! كيف لم يخطر لنا ذلك من قبل ؟

في تلك الأثناء كان خواكين اندييتا يحلم ، مثل آلاف التشيليين الآخرين ممن هم في مثل سنه ومن مختلف الأوساط ، بأكياس مملوءة بتبر الذهب منثورة على الأرض . وكان عدد من معارفه قد سافر ، بمن فيهم أحد زملائه في مكتبة سانتوس تورنيرو ، وهو شاب ليبرالي كان لا يتوقف عن الهذر ضد الأغنياء ، وأول من شهّر بإفساد المال ، ولكنه لم يستطع مقاومة النداء ومضى دون أن يودع أحداً . كانت كاليفورنيا تمثل بالنسبة إلى خواكين الفرصة الوحيدة للخروج من البؤس ، وإخراج أمه من البيت المشترك البائس والبحث عن علاج لرئتيها المريضتين ، ومواجهة جيرمي سوميرز برأس مرفوع وجيوب متخمة ليطلب منه يد إلزا . الذهب... الذهب في متناول يده... يمكنه رؤية أكياس تبر المعدن ، وسلال حبيبات الذهب الكبيرة ، والأوراق النقدية في جيوبه ، والقصر الذي سيشيده ويكون أمتن من نادي الاتحاد وأكثر منه رخاماً ، لكي يغلق أفواه الأقارب الذين أهانوا أمه . وكان يرى نفسه كذلك خارجاً من كنيسة ماتريث متأبطاً ذراع إلزا سوميرز ، أسعد عريسين في الدنيا . المسألة هي في امتلاك الجرأة . ما هو المستقبل الذي تعده به تشيلي ؟ إنه سيهرم في أحسن الحالات وهو يحصي المنتجات والبضائع التي تمر من مكتب الشركة البريطانية للاستيراد والتصدير . لن يخسر شيئاً ، لأنه لا يملك شيئاً على أي حال . لقد غيّرته حمى الذهب ، ففقد شهيته ولم يعد يستطيع النوم ، كان يمضي كالجمر ويرقب البحر بعيني مجنون . صديقه صاحب المكتبة أعاره خرائط وكتباً حول كاليفورنيا وكراساً حول طريقة غسل المعدن ، قرأه بنهم بينما هو يجري حسابات يائسة لكيفية تمويل رحلته . وما كان يمكن لأخبار الجرائد أن تكون أشد إغراء : « في موقع من المناجم يدعى دري ديجنز لا حاجة لأية أدوات أكثر من ملعقة عادية لانتزاع المعدن من الصخور . وهو في أماكن أخرى مفصول عنها ولا تستخدم إلا آلية بسيطة تتألف

من صينية عادية من الخشب ذات قعر مدور طوله عشرة أقدام وعرضه قدمان في القسم العلوي . وبما أنه لا حاجة لرأس مال ، فإن المنافسة شديدة في العمل ، وهناك رجال كانوا لا يكادون يحصلون من عملهم على ما هو ضروري للعيش شهراً ، صاروا يملكون الآن آلاف البيزوات من المعدن الثمين . »

عندما تحدث انديتا عن إمكانية الإبحار إلى الشمال ، كان رد فعل أمه سيئاً مثل رد فعل إلزا . وقد قالت المرأتان الكلام نفسه دون أن تكونا قد التقتا معاً من قبل قط : إذا ما ذهبت يا خواكين ، فسوف أموت . وحاولت كلتاهما أن تبينا له الأخطار الكثيرة من مثل تلك الرحلة ، وأقسمتا له بأنهما تفضلان ألف مرة الفقر المدقع إلى جانبه على الثروة الوهمية مع خطر فقدانه إلى الأبد . وقالت له أمه إنها لن تغادر البيت المشترك حتى ولو صارت مليونيرة ، لأن أصدقاءها هناك وليس لديها مكان آخر تذهب إليه في هذا العالم . وأما بالنسبة إلى رنتيها ، فليس هناك ما يمكن عمله حسب قولها ، سوى انتظار أن تتفتتا . وعرضت عليه إلزا من جهتها فكرة الهرب معاً إذا ما رفض ذووها السماح لهما بالزواج ؛ ولكنه لم يصغ إليها ، تائهاً في هذياناته ، وواثقاً من أنه لن تتاح له فرصة أخرى مثل هذه ، وأن تخليه عنها هو جبن لا يغتفر . وضع في خدمة نزوته الجديدة الزخم نفسه الذي كان يضعه من قبل في نشر الأفكار الليبرالية ، ولكنه كان يفتقر إلى الوسائل لتحقيق مخططاته . لم يكن بإمكانه تحقيق مصيره دون امتلاك مبلغ من المال من أجل بطاقة السفر ومن أجل التزود بما لا بد منه . تقدم إلى المصرف طالباً قرضاً صغيراً ، ولكن لم تكن لديه طريقة يكفل بها التسديد ، ولدى رؤية مظهره البائس رفضوا منحه القرض ببرود . وفكر للمرة الأولى باللجوء إلى أقرباء أمه الذين لم يكن قد تبادل معهم حتى ذلك الحين كلمة واحدة ، ولكن اعتداده بنفسه لم يترك له مجالاً للسكينة ، وصار يقوم بمهام وظيفته بمشقة ، فساعات العمل الطويلة في المكتب تحولت إلى عقوبة . كان يبقى ساهماً وهو يحمل ريشة الكتابة دون

أن يرى الورقة البيضاء أمامه ، بينما هو يكرر في ذاكرته أسماء السفن التي يمكن لها أن تنقله إلى الشمال . كانت الليالي تمر عليه في إغفاءات عاصفة ونوبات أرق هائجة ، ويطلع عليه الصباح وجسده منهوك ومخيلته تغلي وتفور . صار يقترف أخطاء مبتدئين ، بينما الحماس فيما حوله يبلغ حدود الهستيريا . الجميع يريدون الذهاب ، ومن لا يستطيعون الذهاب بأنفسهم ، يعدون مؤسسات ، يستثمرون في شركات أقيمت على عجل أو يرسلون ممثليهم الموثوقين مكانهم مع اتفاق بأن يتقاسموا المكاسب . كان العازبون هم أول المبحرين ؛ وسرعان ما هجر المتزوجون أبناءهم وأبحروا دون أن ينظروا إلى الخلف ، على الرغم من القصص القاسية عن أمراض مجهولة ، وحوادث كارثية وجرائم وحشية . أشد الرجال مسالمة كانوا مستعدين لمواجهة مخاطر المسدسات واللكمات ، وأكثرهم حذراً كانوا يتخلون عن الأمان الذي حققوه خلال سنوات من الجهد ويُلقون بأنفسهم في المغامرة بمتاعهم من الهذيان . البعض ينفقون مدخراتهم في شراء تذاكر السفر ، وآخرون يغطون نفقات الرحلة بالعمل كبحارة أو برهن عملهم المستقبلي ، ولكن المتقدمين كانوا كثراً ، بحيث لم يجد خواكين اندييتا مكاناً على أي سفينة ، على الرغم من أنه كان يستقصي يوماً إثر يوم في المرفأ .

وفي شهر كانون الأول لم يعد قادراً على تحمل المزيد . وبينما هو يستنسخ تفاصيل شحنة وصلت إلى الميناء ، مثلما يفعل بدقة كل يوم ، بدّل الأرقام في السجل ، ثم مزق وثائق إنزال الشحنة الأصلية . وهكذا غيّب ، بقدرة وهم الحسابات ،عدة صناديق مسدسات ورصاص قادمة من نيويورك . وتمكن خلال ثلاث ليال متوالية من مغافلة الحراس ، وانتهاك الأقفال والدخول إلى مستودعات الشركة البريطانية للاستيراد والتصدير ليسرق محتويات تلك الصناديق . كان عليه القيام بذلك في عدة سفرات ، لأن الشحنة كانت ثقيلة . أخرج في أول الأمر الأسلحة في جيوبه وربط بعضها إلى ساقيه وذراعيه

تحت الملابس ؛ ثم أخرج الرصاص في جيوبه . وفي عدة مرات كان على وشك أن يراه الحراس الذين يطوفون ليلاً ، ولكن الحظ حالفه في كل مرة وتمكن من تجنبهم في الوقت المناسب . كان يعرف أن لديه حوالى أسبوعين قبل أن يطالب أحد بالصناديق وتُكتشف السرقة ؛ وكان يعرف كذلك أنه سيكون من السهل متابعة خيط الوثائق الغائبة والأرقام المستبدلة للوصول إلى المذنب ، ولكنه كان يأمل أن يكون قد صار في عرض البحر آنذاك . وعندما يحصل على ثروته سيعيد آخر سنت مع الفوائد ، ذلك أن السبب الوحيد الذي دفعه إلى ارتكاب الاساءة ، كما كرر لنفسه ألف مرة ، هو اليأس . إنها مسألة حياة أو موت : فالحياة ، مثلما يفهمها ، هي في كاليفورنيا ؛ أما البقاء محاصراً في تشيلي فيعني الموت البطيء . باع قسماً من غنيمته بسعر بخس في الأحياء السفلى من الميناء والقسم الآخر لأصدقائه في مكتبة سانتوس تورنيرو ، بعد أن جعلهم يقسمون بأنهم سيحفظون السر . فأولئك المثاليون المتأججون لم يكونوا قد امتلكوا سلاحاً في أيديهم من قبل ، ولكنهم كانوا قد أمضوا سنوات يعدون أنفسهم بالكلمة من أجل ثورة يوتوبية ضد الحكومة المحافظة . وعدم شرائهم المسدسات من السوق السوداء سيكون خيانة لأهدافهم ، وخصوصاً إذا أخذوا بعين الاعتبار السعر البخس المعروض عليهم . احتفظ خواكين أنديتا لنفسه بمسدسين ، مصمماً على استخدامهما لشق طريقه ، ولكنه لم يقل لرفاقه شيئاً عن خططه في السفر . وقد رفع في تلك الليلة يده اليمنى مثلهم إلى قلبه ليقسم باسم الوطن بأنه سيقدم حياته في سبيل الديمقراطية والعدالة . وفي صباح اليوم التالي اشترى تذكرة سفر في الدرجة الثالثة على أول سفينة شراعية مغادرة في تلك الأيام ، وبضعة أكياس من الدقيق المحمص ، والفاصولياء ، والرز ، والسكر ، ولحم الحصان المقدد ، وشرائح شحم خنزير ، يمكن لها إذا ما قننها بتقتير أن تكفيه خلال الرحلة . أما النقود القليلة التي تبقت معه ، فثبتها إلى خصره في حزام مشدود جيداً .

وفي ليلة ٢٢ كانون الأول ودع إلزا وأمه ، وغادر في اليوم التالي متوجهاً إلى تشيلي .

●

اكتشفت ماما فريسيا رسائل الحب بالمصادفة ، حين كانت تقلع بصلاً من بستانها الصغير في فناء البيت وعلق رفشها المشعب بالعلبة الصفيحية . لم تكن تعرف القراءة ، ولكن نظرة واحدة منها كانت كافية لتدرك موضوع تلك الرسائل . فكرت بتسليمها إلى مس روز ، لأن مجرد لمسها جعلها تشعر بالتهديد ، وكان يمكن لها أن تقسم بأن الحزمة المربوطة بشريط قماشي كانت تنبض مثل قلب حي ، ولكن عطفها على إلزا كان أقوى من حذرها ، وبدلاً من اللجوء إلى سيدتها ، أعادت الرسائل إلى علبة البسكويت الصفيحية وخبأتها تحت تنورتها السوداء الفضفاضة ومضت إلى حجرة الفتاة متنهدة . وجدت إلزا جالسة على كرسي منتصبة الظهر ويداها فوق تنورتها وكأنها في صلاة ، تنظر إلى البحر من خلال النافذة ، ومتضايقة إلى حد يمكن معه الإحساس بكثافة الهواء المحيط بها وامتلائه بالنذر . وضعت العلبة فوق ركبتي الفتاة وبقيت تنتظر تفسيراً دون طائل . وأخيراً قالت لها :

ـ هذا الرجل شيطان . لن يجلب لك إلا النكبات .

ـ لقد بدأت النكبات . فقد سافر منذ ستة أسابيع إلى كاليفورنيا ، وأنا لم يأتني الحيض .

جلست ماما فريسيا على الأرض متقاطعة الساقين ، مثلما تفعل عندما لا تعود تشعر بعظامها ، وبدأت تنوس بجذعها إلى الأمام والخلف وتندب بصوت خافت .

فتوسلت إليها إلزا :

ـ اصمتي يا مامتي ، فقد تسمعنا مس روز .

وواصلت المرأة التحسر :

- إنه ابن بالوعة! إنه ابن زنى! ما الذي سنفعله الآن يا صغيرتي ؟ ما الذي سنفعله ؟

- سأتزوج منه .

- وكيف ستتزوجين إذا كان الرجل قد رحل ؟

- عليَّ أن أذهب للبحث عنه .

- آه ، أيها الطفل يسوع المقدس! هل أصابك الجنون ؟ أنا سأعالجك وخلال أيام قليلة ستكونين على ما يرام .

أعدت المرأة نقيعاً من أوراق لسان الثور ، ومغلى ذرق الدجاج مع جعة سوداء ، جعلت إلزا تشرب منه ثلاث جرعات في اليوم ، وصارت تُجري لها مغاطس ماء ممزوج بالكبريت وتضع على بطنها كمادات من الخردل . وكانت النتيجة إصابتها بالشحوب والاصفرار . وصارت تمضي مبللة بعرق لزج يعبق برائحة أزهار ياسمين متعفنة . ولكن دون أن تظهر أي أعراض للإجهاض بعد مرور أسبوع . وقررت ماما فريسيا بان الجنين ذكر وأنه كائن رجيم دون شك ، ولهذا فإنه يتشبث هكذا بأحشاء أمه . وهذه الحالة تفوق قدراتها ، لأنها من شؤون الشيطان ، ولا يمكن إلا لمعلمتها الماتشي أن تنتصر على مثل هذا الحظ العاثر . وفي مساء ذلك اليوم بالذات طلبت من سيدتها الإذن بالخروج وقطعت الطريق الشاق مرة أخرى سيراً على الأقدام نحو الفج الجبلي لتمثل مطأطئة الرأس أمام الساحرة العجوز العمياء . وحملت إليها هدية هي قالبان من حلوى السفرجل وفرخ بط مطبوخ مع الطرخون .

استمعت الماتشي إلى الوقائع الأخيرة وهي تهز رأسها بغضب ، وكأنها تعرف مسبقاً ما جرى .

- لقد قلت من قبل إن العنت داء شديد الوطأة : إنه يمسك بالدماغ ويحطم القلب . وهناك أشكال كثيرة من العنت . ولكن عنت الحب هو أسوأها .

- أيمكنك عمل شيء لصغيرتي كي تلفظ ابن الزنى ؟

ـ بالنسبة للإمكان ، يمكنني . ولكن ذلك لن يشفيها . يجب عليها أن تلحق برجلها وحسب .

ـ لقد ذهب بعيداً للبحث عن الذهب .

وأصدرت الماتشي حكمها :

ـ عنت الذهب هو الأخطر بعد عنت الحب .

أدركت ماما فريسيا أنه سيكون من المستحيل الخروج بإلزا وإحضارها إلى مغارة الماتشي ، وإجهاضها والعودة بها إلى البيت دون أن تعلم مس روز شيئاً . كان عمر الساحرة مئة سنة ، ولم تكن قد غادرت مسكنها البائس منذ خمسين سنة ، ولهذا لا يمكنها الذهاب إلى بيت آل سوميرز لتعالج الفتاة هناك . فلم يبق لها من مخرج سوى أن تقوم هي نفسها بذلك . أعطتها الماتشي عود كوليغوي[1] رفيعاً ومرهماً قاتماً ونتناً ، ثم شرحت لها بالتفصيل كيف تطلي القصبة بهذا المرهم وتُولجها في إلزا . وعلمتها على الفور الكلمات السحرية التي ستخرج نسل الشيطان وتحفظ في الوقت نفسه حياة الأم . ونبهتها إلى أنه يجب القيام بهذه العملية ليلة الجمعة ، وهو اليوم الوحيد من أيام الأسبوع الذي يمكن فيه عمل ذلك . رجعت ماما فريسيا متأخرة ومنهوكة ، حاملة عود الكوليغوي والمرهم تحت معطفها .

ـ صلي يا صغيرتي ، لأنني سأشفيك بعد ليلتين ـ أخبرت إلزا بذلك عندما حملت إليها شوكولاته الفطور في سريرها .

●

حضر القبطان جون سوميرز إلى بالبارايسو في اليوم الذي حددته الماتشي . وكان ذلك في يوم الخميس الثاني من شهر شباط في صيف وافر . كان الميناء يعج بنشاط نصف دزينة من السفن الراسية وبعدد مماثل ينتظر في عرض البحر ليدنو من اليابسة . وكالعادة ، خرج جيرمي ورز وإلزا

---

(١) كوليغوي coligue: نبات شوكي ينمو في تشيلي .

لاستقبال ذلك الخال المعتبر الذي يأتي محملاً بالأخبار الجديدة والهدايا . كان البرجوازيون يلتقون في المرفأ لزيارة السفن وشراء بضائع مهربة ، وكانوا يختلطون مع رجال بحر ، ومسافرين وحمالين وموظفي جمارك ، بينما المومسات على مقربة ، يجرين حساباتهن . ففي الشهور الأخيرة ، منذ أن استفز خبر الذهب جشع الرجال على كل شواطئ العالم ، صارت السفن تدخل وتخرج بإيقاع جنوني ولم تعد المواخير ترتاح . ولكن أكثر النساء جرأة لم يعدن يرضين بازدهار تجارتهن في بالباريسو ورحن يحسبن كم ستزداد أرباحهن في كاليفورنيا ، حيث يوجد مئتا رجل لكل امرأة ، حسب ما سمعن . كان الناس يصطدمون في المرفأ بالعربات ، والبهائم ، وحزم الأمتعة ؛ وتدور الأحاديث بلغات عديدة ، وتدوي صافرات السفن وصفير الحراس . وكانت مس روز تضع منديلاً معطراً بالفانيلا على أنفها وتمعن النظر في المسافرين في القوارب باحثة عن أخيها المفضل ، بينما إلزا تعب الهواء بأنفاس سريعة ، محاولة فصل الروائح وتحديدها . فعفونة السمك في سلال ضخمة تحت الشمس كانت تختلط برائحة براز بهائم الجرّ ورائحة العرق البشري . وقد كانت هي أول من رأى القبطان سوميرز وأحست براحة عظيمة أوشكت معها على البكاء . لقد انتظرت طوال عدة شهور ، واثقة من أنه هو وحده القادر على تفهم كرب حبها المعاكس . لم تكن قد تلفظت بكلمة واحدة عن خواكين اندييتا لمس روز ، وأقل من ذلك لجيرمي سوميرز ، ولكنها كانت موقنة من أن خالها البحار الذي لا يمكن لشيء أن يفاجئه أو يرعبه ، سيساعدها .

ما إن وطأت قدما القبطان اليابسة حتى تعلقت به إلزا ومس روز بصخب ؛ فأمسكهما معاً من خاصرتيهما بذراعيه القرصانيتين المتينتين ، ورفعهما في الوقت نفسه وبدأ يدور بهما كخذروف وسط صرخات بهجة مس روز واعتراض إلزا التي كانت على وشك التقيؤ . صافحه جيرمي سوميرز بالضغط على يده

متسائلاً كيف أمكن لأخيه ألا يتغير خلال العشرين سنة الأخيرة ، ويبقى الرجل الطائش نفسه .

: ماذا جرى لك أيتها الصغيرة ؟ وجهك معتل جداً . قال القبطان ذلك وهو يتفحص إلزا .

فأوضحت وهي تستند إليه كيلا تقع من الدوار :

- لقد أكلت ثماراً فجة أيها الخال .

- أعرف أنكما لم تحضرا إلى المرفأ لاستقبالي . فما تريدانه هو شراء العطور ، أليس كذلك ؟ سأخبركما من يملك أفضلها ، مجلوبة من قلب باريس .

في تلك اللحظة مرّ غريب بجانبه وصدمه عرضاً بحقيبة يحملها على كتفه . فالتفت جون سوميرز ساخطاً ، ولكنه حين تعرف عليه أطلق إحدى لعناته التقليدية بنبرة مازحة ، وأوقفه من ذراعه مستدعياً إياه بمودة :

- تعال لأقدم لك أسرتي أيها الصيني .

تأملته إلزا دون مواربة ، لأنها لم تكن قد رأت آسيوياً عن قرب ، وها هي تجد أمام عينيها أخيراً أحد سكان الصين ، تلك البلاد الخرافية التي ترد في الكثير من حكايات خالها . كان الرجل في سن محيرة وأقرب إلى طول القامة ، إذا ما قورن بالتشيليين ، وإن كان يبدو طفلاً إلى جانب القبطان الإنكليزي الضخم . كان يمشي دون رشاقة ، بوجه أمرد ، وجسد نحيل كصبي وملامح قديمة في عينيه الضيقتين . وقد ناقض رصانته الحكيمة بضحكة طفولية انطلقت من أعماق صدره عندما توجه إليه سوميرز . كان يرتدي بنطالاً يصل إلى مستوى قصبتي ساقيه ، وقميصاً مفتوحاً من نسيج سميك وحزاماً على الخصر تتدلى منه سكين كبيرة ؛ وكان ينتعل خفاً صغيراً ، ويعتمر قبعة من القش وتتدلى على ظهره ضفيرة طويلة . حيا بعدة انحناءات من رأسه ، دون أن يفلت الحقيبة ودون أن ينظر إلى وجه أحد مباشرة . مس روز وجيرمي سوميرز

المذهولان من الألفة التي يتعامل بها أخاهما مع شخص يبدو بوضوح أنه ينتمي إلى طبقة دنيا ، لم يعرفا كيف يتصرفان وردا بإيماءة مقتضبة وفاترة . وأمام رعب ميس روز ، مدت إلزا يدها لتصافحه ولكن الرجل تظاهر بأنه لم يرها .

قال القبطان مازحاً :

- هذا هو تاو تشين ، أسوأ طاهٍ عمل لدي على الإطلاق . ولكنه يتقن معالجة كل الأمراض تقريباً ، ولهذا السبب لم ألق به حتى الآن من فوق حافة السفينة .

كرر تاو تشين سلسلة أخرى من الانحناءات ، وأطلق ضحكة أخرى دون سبب ظاهر ، وابتعد على الفور وهو يمشي القهقرى . سألت إلزا عما إذا كان يفهم الإنكليزية . ومن وراء ظهر المرأتين ، همس جون سوميرز لأخيه بأنه يمكن للصيني أن يبيع إليه أفيوناً من أفخر الأصناف ومسحوق قرن الخرتيت لمقاومة العجز ، إذا ما قرر يوماً التخلص من عادة العزوبية السيئة . وقد تنصتت إلزا إلى ما قاله خفية وهي تختبئ وراء مروحتها اليدوية .

في مساء ذلك اليوم ، في موعد تناول الشاي ، وزع القبطان الهدايا التي أحضرها : معجون حلاقة إنكليزي ، وطقم مقصات طليطلية وعلبة سيجار هافاني لأخيه ، أمشاط من قوقعة سلحفاة وشرشف من مانيلا لروز ، وحلية لجهاز إلزا كالعادة . وكانت الحلية هذه المرة عقداً من اللؤلؤ ، شكرته الفتاة بتأثر ووضعته في علبة مجوهراتها ، إلى جانب الحلي الأخرى التي كانت قد تلقتها . فبفضل إلحاح مس روز وسخاء هذا الخال ، كان صندوق جهاز العروس يمتلئ بالكنوز

ابتسم القبطان :

- تبدو لي عادة تجهيز العروس حمقاء ، وخصوصاً عندما لا يكون ثمة عريس في متناول اليد . أم أن هناك واحداً في الأفق ؟

تبادلت الفتاة نظرة رعب مع ماما فريسيا التي كانت قد دخلت في تلك

اللحظة حاملة صينية الشاي . لم يقل القبطان شيئاً ، لكنه تساءل كيف لم تلاحظ أخته روز التبدلات التي طرأت على إلزا . إن الحدس الانثوي ضئيل الجدوى على ما يبدو .

انقضت بقية المساء في سماع قصص القبطان العجيبة عن كاليفورنيا ، على الرغم من أنه لم يكن قد ذهب إلى تلك الأنحاء بعد الاكتشاف العجيب ولا يمكنه أن يقول عن سان فرانسيسكو سوى أنها كانت مجرد دسكرة أقرب إلى البؤس ، ولكنها تقع على أجمل خليج في العالم . كانت فورة الذهب هي الموضوع الوحيد في أوربا والولايات المتحدة ، وكان الخبر قد وصل حتى إلى شواطئ آسيا القصية . فقد أتت سفينة مزدحمة بمسافرين متوجهين إلى كاليفورنيا ، معظمهم يجهلون أدنى المعلومات الأولية عن المناجم ، وكثيرون منهم لم يكونوا قد رأوا الذهب حتى على سن . وأوضح القبطان بأنه ليس هناك من طريقة مريحة أو سريعة للوصول إلى سان فرانسيسكو ، فالإبحار يستمر شهوراً في أشد الظروف اضطراباً . أما على اليابسة عبر القارة الأمريكية ، وبتحد لاتساع المشهد وعدوانية الهنود الحمر ، كانت الرحلة تطول لزمن أكبر وكانت احتمالات نجاة المسافرين أحياء أقل . ومن يغامرون بالسفر في السفن حتى بنما ، يجتازون البرزخ بين المحيطين في نعوش عبر أنهار مترعة بالضواري ، وعلى بغال عبر الغابات ، ولدى الوصول إلى الساحل الباسفيكي يركبون سفينة أخرى نحو الشمال . عليهم أن يتحملوا حرارة شيطانية ، ودويبات سامة ، وبعوضاً ، ووباء الكوليرا والحمى الصفراء ، فضلاً عن الخبث البشري الذي لا يُضاهى . والمسافرون الذين ينجون من الانزلاق عن البهائم في المهاوي ومن أخطار المستنقعات ، يجدون أنفسهم في الجانب الآخر ضحايا لقطاع الطرق الذين يجردونهم من ممتلكاتهم ، أو المرتزقة الذين يتقاضون منهم مبالغ هائلة مقابل إيصالهم إلى سان فرانسيسكو ، محشورين كالمواشي في سفن مخلعة .

وسألته إلزا محاولة ألا يشي صوتها بجزع قلبها :

- وهل كاليفورنيا كبيرة جداً ؟

- أحضري الخريطة لأريك إياها . إنها عالم أكبر من تشيلي .

- وكيف يتم الوصول إلى الذهب ؟

- يقولون إنه موجود في كل مكان...

- ولكن إذا أراد شخص ، نقول مثلاً ، أن يجد شخصاً آخر في كاليفورنيا...

فرد القبطان وهو يدرس ملامح إلزا بفضول :

- سيكون ذلك صعباً جداً .

- وهل ستذهب إلى هناك في رحلتك القادمة أيها الخال ؟

- لدي عرض مغر وأظن أنني سأوافق عليه . بعض المستثمرين التشيليين يريدون تشغيل رحلات شحن وركاب منتظمة إلى كاليفورنيا . وهم بحاجة إلى قبطان لسفينة بخارية .

فهتفت روز :

- سنراك إذن في أوقات متقاربة أكثر .

وعلق جيرمي :

- أنت لا تملك خبرة في السفن البخارية .

- لا ، ولكنني أعرف البحر خيراً من الجميع .

في ليلة الجمعة الموعودة ، انتظرت إلزا أن يخيم الصمت على البيت لتذهب إلى الحجرة التي في أقصى الفناء لتلتقي مع ماما فريسيا . تركت سريرها ونزلت حافية ، لا ترتدي سوى قميص نوم قطني . لم تكن لديها أية فكرة عن العلاج الذي ستتلقاه ، ولكنها كانت واثقة من أنها ستمر بلحظة عصيبة ؛ فقد كانت تعرف من خلال تجربتها أن جميع الأدوية كريهة ، وأن أدوية مربيتها الهندية مقرفة فوق ذلك . وكانت المرأة قد قالت لها : «لا تقلقي يا صغيرتي ، سأعطيك كثيراً من الخمر وعندما تستيقظين من السكرة

لن تتذكري الألم . ولكننا سنحتاج كثيراً من الخرق القماشية لوقف الدم » .
كثيراً ما كانت إلزا تقطع هذه الطريق نفسها في الظلام عبر البيت لكي تلتقي بعشيقها ولم تكن بحاجة إلى اتخاذ احتياطات ، ولكنها كانت تتقدم ببطء شديد في تلك الليلة ، متأخرة ، متمنية أن يقع أحد تلك الزلازل التشيلية القادرة على تقويض كل شيء لكي يكون لديها حجة مناسبة للتخلف عن موعدها مع ماما فريسيا . أحست بالتجمد في قدميها وجابت ظهرها رعشة قشعريرة . لم تدر إذا ما كان ذلك برداً ، أم خوفاً مما سيحدث أم أنه التحذير الأخير من وعيها . منذ ملاحظتها الأولى للحبل ، أحست بالصوت يناديها . كان صوت الطفل في أعماق بطنها ، مطالباً بحقه في الحياة ، إنها متأكدة من ذلك . كانت تحاول عدم سماعه وعدم التفكير ، كانت متورطة ولا تكاد تنتبه لوضعها ، إذ لم يكن لها من أمل ولا غفران . لن يستطيع أحد تفهم خطئها ؛ ولم تكن ثمة طريقة لاسترداد الشرف الضائع . وحتى صلوات ماما فريسيا وشموعها لن تتمكن من منع النكبة ؛ وعشيقها لن يدور على عقبيه في منتصف الطريق ليرجع فجأة ويتزوج منها قبل أن يصبح الحمل واضحاً . لقد صار الوقت متأخراً لكل هذا . وكانت ترعبها فكرة أن تنتهي مثل أم خواكين ، موسومة بوصمة شائنة : مطرودة من أسرتها وتعيش في الفقر والعزلة مع ابن غير شرعي ؛ لا يمكنها أن تتحمل القطيعة ، وتفضل الموت دفعة واحدة . وقد تموت في هذه الليلة بالذات على يدي المرأة الطيبة التي ربتها والتي تحبها أكثر من أي شخص في هذا العالم .

كانت الأسرة قد انسحبت باكراً ، ولكن القبطان ومس روز بقيا على انفراد في غرفة الخياطة يتهامسان لساعات . في كل رحلة كان جون سوميرز يُحضر كتباً لأخته ، وعندما يغادر يحمل معه صناديق غامضة ، تظن إلزا أنها تتضمن كتابات مس روز . لقد رأتها تلف دفاترها بحذر واهتمام ، وهي الدفاتر نفسها التي تملؤها بخطها الدقيق في أمسيات فراغها . ولم يكن أحد يأتي على

ذكر تلك الدفاتر ، إما احتراماً أو بسبب نوع غريب من الحياء ، مثلما لم يكن هناك من يعلق على رسومها المائية الشاحبة . فالكتابة والرسم كان يُنظر إليهما كانحرافات صغرى... كشيء لا يدعو إلى الخجل في الواقع ، ولكنه لا يدعو إلى المفاخرة في الوقت نفسه . وقد كانت الفنون التي تبرع بها إلزا تقابل بعدم المبالاة نفسها من قبل آل سوميرز الذين كانوا يتلذذون بأطباقها بصمت ويغيرون موضوع الحديث إذا ما علّق الزائرون عليها ، ولكنهم كانوا يصفقون لها بالمقابل دون استحقاق على عزفها الاضطراري على البيانو ، بالرغم من أنه كان لا يكاد ينفع في مرافقة متعثرة لغناء الآخرين . لقد كانت إلزا طوال حياتها ترى حاميتها تكتب دون أن تسألها قط عما تكتبه ، كما أنها لم تسمع جيرمي أو جون يسألان عن ذلك . وكانت تشعر بالفضول لمعرفة سبب حمل عمها المتكتم لدفاتر مس روز ، ولكنها كانت تعرف دون أن يخبرها ، بأن ذلك هو أحد الأسرار الأساسية التي يستند إليها توازن الأسرة ، ويمكن لخرقه أن يقوض بنفخة واحدة قلعة أوراق اللعب التي تعيش فيها .

منذ وقت لا بأس به كان جيرمي وروز ينامان في غرفتيهما ، وهي تفترض بأن خالها جون قد خرج على حصان بعد العشاء . ولأن الفتاة كانت تعرف عادات القبطان ، فقد تصورته يحتفل مع بعض صديقاته الطائشات ، ممن يحيينه في الشارع عندما لا تكون مس روز معهما . كانت تعرف أنهن يرقصن ويشربن ، ولم تكن تخطر لها أفكار أكثر بذاءة لأنها لم تكن قد سمعت إلا بعض الهمسات المتفرقة عن العاهِرات . وكان تفكيرها لا يصل إلى وجود من يفعلن مقابل المال أو للتسلية ما فعلته هي مع خواكين اندييتا بدافع الحب . ولم يكن خالها ليعود ،حسب تقديراتها ، قبل ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ، ولهذا أحست بذعر عظيم عندما وصلت إلى الطابق السفلي وأمسكها أحدهم من ذراعها في الظلام . شعرت بدفء جسد ضخم إلى جوار جسدها ، وبأنفاس تعبق بالخمر والتبغ في وجهها وتعرفت على الفور على خالها . حاولت

الإفلات منه بينما هي تتلعثم بسرعة بتفسير لوجودها هناك بقميص النوم في تلك الساعة ، ولكن القبطان اقتادها بحزم إلى المكتبة المضاءة بخفوت ببعض أضواء القمر المتسربة من النافذة . أجبرها على الجلوس على مقعد الجلد الإنكليزي الخاص بجيرمي ، بينما راح يبحث عن ثقاب لإشعال المصباح . ثم أمرها بنبرة لم يستخدمها معها من قبل :

- حسن يا إلزا ، ستخبرينني الآن أية شياطين أصابتك .

وفي ومضة صحو عرفت إلزا أن القبطان لن يكون حليفها ، مثلما توقعت . فالتسامح الذي يتبجح به لن ينفع في هذه الحالة : فإذا ما كان الأمر يتعلق بسمعة الأسرة ، فإن ولاءه سيكون لأخويه . اعتصمت الفتاة بالصمت وهي تحدق فيه بتحدٍ .

- تقول روز إنك مغرمة بأبله ذي حذاء ممزق ، هل هذا صحيح ؟

- رأيته مرتين أيها الخال جون . وقد مضى على ذلك شهور . حتى أنني لا أعرف اسمه .

- ولكنك لم تنسه . أليس كذلك ؟ الحب الأول مثل الحصبة ، يترك آثاراً لا تمحى . هل قابلته على انفراد ؟

- لا .

- لا أصدقك . أوتظنينني أحمق ؟ يمكن لأي شخص أن يلاحظ كيف تغيرتِ يا إلزا .

- إنني مريضة يا خالي . أكلتُ ثماراً فجة وأشعر بمغص ، هذا هو كل ما في الأمر . وقد كنت ذاهبة الآن بالذات إلى المرحاض .

- لك عينا كلبة شبقة!

- لماذا تشتمني يا خالي!

- اعذريني يا صغيرتي . ألا ترين أنني أحبك كثيراً وأشعر بالقلق عليك ؟ لا يمكنني السماح لك بتدمير حياتك . لدي أنا وروز خطة رائعة من أجلك... هل

تحبين الذهاب إلى انكلترا ؟ يمكنني أن أرتب الأمور لكي تبحرا معاً خلال شهر ، وهذا سيتيح لكما الوقت لشراء ما تحتاجان إليه للرحلة .

- إلى إنكلترا ؟

- ستسافران في الدرجة الأولى ، كملكتين ، وستقيمان في لندن في نزل رائع على مقربة من قصر بكنغهام .

أدركت إلزا أن الأخوين قد حسما مصيرها . وكان آخر ما تتمناه هو السفر باتجاه معاكس لاتجاه خواكين ، واضعة محيطين من البعاد بينهما . ولكنها قالت بأقصى ما استطاعت افتعاله من عذوبة :

- شكراً أيها الخال . يفتنني التعرف على إنكلترا .

سكب القبطان كؤوساً من البراندي واحداً بعد آخر ، وأشعل غليونه وأمضى الساعتين التاليتين في تعداد فوائد الحياة في لندن ، حيث يمكن لآنسة مثلها أن تتردد على أرقى المجتمعات ، وأن تذهب إلى الرقص ، وإلى المسرح وإلى الحفلات الموسيقية ، وأن تشتري أجمل الثياب وأن تتوصل إلى زواج لائق . خصوصاً وأنها أصبحت في السن المناسبة للزواج . ثم ألا يروقها أن تذهب كذلك إلى باريس أو إلى إيطاليا ؟ لا يمكن لأحد أن يموت قبل أن يرى فينسيا وفلورنسا . وسيتولى هو نفسه إرضاء رغباتها . أولم يفعل ذلك دوماً ؟ العالم ملئ بالرجال الجميلين والمثيرين والأثرياء ؛ ويمكنها أن تتأكد من ذلك بنفسها ما ان تخرج من الحفرة التي هي غارقة فيها في هذا الميناء المنسي . فبالبارايسو ليست بالمكان المناسب لفتاة جميلة وراقية التربية مثلها . ولم يكن ذنبها أنها وقعت في حب أول من اعترض سبيلها ، لأنها تعيش حبيسة . أما بالنسبة لذلك الشاب... ما هو اسمه ؟... إنه موظف لدى جيرمي ، أليس كذلك؟ فستنساه بسرعة . وقال مؤكداً : الحب يموت باحتراقه الذاتي أو أنه يُستأصل ويقتلع من جذوره بالبعاد . ولا يمكن لأحد أن يقدم لها النصائح خيراً منه ، فهو في أسوأ الحالات خبير في شؤون الفراق والغراميات التي تتحول إلى رماد .

- لست أدري عم تحدثني أيها الخال . لقد اختلقت مس روز رواية رومنسية من كأس عصير برتقال . جاء شخص ليترك بعض الصناديق ، وقدمتُ إليه شراباً مرطباً ، فشربه ثم انصرف بعد ذلك ، هذا هو كل شيء . لم يحدث أي شيء ولم أره ثانية .

- إذا كان الأمر مثلما تقولين فأنت محظوظة : لا يتوجب عليك اقتلاع هذا الخيال من رأسك .

وأصل جون سوميرز التدخين والكلام حتى الفجر ، بينما إلزا المتكورة على المقعد الجلدي تمضي في الحلم مفكرة بأن توسلاتها قد سُمعت في السماء ، على الرغم من كل شيء . فما أنقذها من علاج ماما فريسيا الرهيب لم يكن زلزالاً مواتياً ، وإنما خالها . أما في كوخ الفناء ، فقد بقيت الهندية العجوز تنتظر طوال الليل .

الوداع

في مساء يوم السبت دعا جون سوميرز أخته روز لزيارة سفينة آل رودريغيث دي سانتا كروث . فإذا ما سار كل شيء على ما يرام في مفاوضات تلك الأيام ، فإنه سيتولى قيادة السفينة ، ويحقق أخيراً حلمه بالإبحار في سفينة بخارية . استقبلتهما بعد ذلك باولينا في صالون الفندق الإنكليزي ، حيث كانت تنزل . فقد جاءت من الشمال لكي تشرف بنفسها على انطلاق مشروعها ، بينما كان زوجها قد ذهب إلى كاليفورنيا منذ عدة شهور . وكانا يستغلان رحلات السفن المتواصلة جيئة وذهاباً ليتواصلا في مراسلات قوية تختلط فيها مطارحات الحب الزوجي بالمشاريع التجارية . اختارت باولينا جون سوميرز لتضمه إلى مشروعها بالحدس وحده . فقد كانت تتذكر بصورة غائمة أنه شقيق جيرمي وروز سوميرز ، الأجنبيان اللذان دعاهما أبوها إلى مزرعته في مناسبتين ، ولكنها كانت قد رأته مرة واحدة ولم تتبادل معه سوى بضع كلمات مجاملة . وكانت مرجعيتها الوحيدة هي صداقتهما المشتركة لجاكوب تود ، ولكنها قامت خلال الأسابيع الأخيرة ببعض التقصي ، وكانت راضية بما سمعته عنه . فالقبطان يتمتع بسمعة راسخة بين رجال البحر وفي المكاتب التجارية . ويمكن الثقة بخبرته وبكلمته أكثر مما هو شائع في أيام الجنون الجماعي تلك ، حين كان يمكن لأي شخص أن يستأجر سفينة ، ويؤسس شركة من

بعض المغامرين ويبحر . لقد كانوا على العموم من المدعين وكانت السفن شبة مخربة ، ولكن ذلك لم يكن له كبير الأهمية ، لأنهم ما ان يصلوا إلى كاليفورنيا حتى تتلاشى الشركات ، وتُهجر السفن وينطلق الجميع إلى مكامن الذهب . أما رؤيتها فكانت بعيدة الأجل . فهي لم تكن مضطرة أولاً وقبل كل شيء ، إلى الامتثال لمطالب الغرباء ، لأن شريكيها الوحيدين هما زوجها وصهرها ، ثم إن القسط الأكبر من رأس المال هو من ممتلكاتها ، بحيث يمكنها اتخاذ القرارات بمنتهى الحرية . وبالرغم من أن باخرتها التي عمدتها باسم فورتونا كانت صغيرة تجوب البحر منذ عدة سنوات ، إلا أنها كانت في حالة جيدة . وكانت باولينا مستعدة لأن تدفع أجوراً جيدة للطاقم كيلا ينشق البحارة في فوضى الذهب ، ولكنها ترى في الوقت نفسه بأنه لا يمكن لأي أجور أن تحافظ على الانضباط على متن الباخرة ما لم تكن هناك قبضة قبطان حديدية . كانت فكرة زوجها وصهرها تتلخص في تصدير معدات عمل للمناجم ، وأخشاب للمنازل ، وملابس عمل ، وأدوات منزلية ، ولحوم مجففة ، وحبوب ، وفاصولياء ، ومنتجات أخرى لا تتلف ، ولكنها ما ان وصلت إلى بالبارايسو حتى أدركت أن كثيرين قد خطرت لهم الفكرة نفسها وأن المنافسة ستكون ضارية . ألقت نظرة فيما حولها ورأت فضيحة خضار وفواكه ذلك الصيف السخي . لقد كانت هناك كميات كبيرة لا يمكن بيعها . فالخضار تنمو في باحات البيوت والأشجار تتكسر تحت ثقل الثمار ، وقلة هم المستعدون لدفع ثمن ما يمكنهم الحصول عليه مجاناً . فكرت في مزرعة أبيها ، حيث المنتجات تتعفن على الأرض لأن أحداً لا يهتم بجني المحصول ، وقررت : إذا ما تمكنت من نقلها إلى كاليفورنيا ، فإنها ستكون أثمن من الذهب نفسه . منتجات طازجة ، نبيذ تشيلي ، أدوية ، بيض ، ملابس فاخرة ، آلات موسيقية ، ولم لا ؟ استعراضات مسرحية ، أوبرات ، تمثيليات . وفكرت : سان فرانسيسكو تستقبل مئات المهاجرين يومياً . والمهاجرون

الآن هم من المغامرين والأفاقين ، ولكن لا بد أن يأتي مستوطنون من جهات أخرى من الولايات المتحدة : مزارعون شرفاء ، ومحامون ، وأطباء ، وأساتذة وكل أصناف الناس المحترمين المستعدين للإقامة مع أسرهم . وحيث توجد نساء توجد حضارة ، وما أن تبدأ الحضارة في سان فرانسيسكو حتى تكون سفينتي هناك مع كل ما هو ضروري .

استقبلت باولينا القبطان جون سوميرز وأخته روز في ساعة تناول الشاي ، عندما كان حرّ الظهيرة قد انخفض بعض الشيء وبدأت تهب نسمات بحرية باردة . كانت ترتدي ملابس فاخرة بمبالغة بالنسبة لمجتمع المدينة القانع ، فقد كانت مغطاة من رأسها إلى قدميها بالموسلين والدنتلا التي بلون القشدة ، مع تاج مموج فوق أذنيها ومجوهرات أكثر مما هو مقبول في مثل تلك الساعة من النهار . وكان ابنها ذو السنتين يرفس بقدميه وهو بين ذراعي مربية ترتدي زي الخدم ، بينما كلب كثيف الفرو يقبع عند قدميها ويتلقى منها قطع حلوى تقدمها إليه في فمه . مضت نصف الساعة الأولى في التعارف وفي شرب الشاي وتذكر جاكوب تود :

- ما الذي جرى لذلك الصديق الطيب ؟ - أرادت باولينا أن تعرف ، وهي لن تنسى مطلقاً تدخل ذلك الإنكليزي غريب الأطوار في غرامياتها مع فيليشيانو .

فقال لها القبطان :

- لم أعرف أي شيء عنه منذ زمن . لقد سافر معي إلى إنكلترا منذ سنتين . وكان مغموماً جداً ، ولكن هواء البحر جعله يسمن ، وحين وصل كان قد استعاد طيب مزاجه . وآخر ما علمته منه أنه يفكر في تكوين جماعة يوتوبية .

فهتفت باولينا ومس روز في وقت واحد :

- يكوّن ماذا ؟

- جماعة تعيش خارج المجتمع ، تكون لها قوانينها وحكومتها الخاصة ،

وتقودها مبادئ المساواة والحب الحر والعمل الجماعي على ما أعتقد . هذا ما شرحه لي على الأقل ألف مرة خلال الرحلة .

وعلقت مس روز بشيء من الأسى على عاشقها الوفي :

ـ إنه مخبول أكثر مما كنا نتصوره .

فقالت باولينا معبرة عن رأيها :

ـ الناس ذوو الأفكار الأصيلة ينتهي بهم الأمر دائماً إلى اكتساب سمعة الجنون . فأنا ، كي لا نذهب بعيداً ، لدي فكرة أرغب في مناقشتها معك أيها القبطان سوميرز . أنت تعرف السفينة فورتونا الآن . كم تظن أنها تحتاج للسفر بأقصى سرعة من بالبارايسو إلى خليج الأحزان ؟

ـ خليج الأحزان ؟ هذا في جنوب الجنوب!

ـ صحيح . إنه أبعد من ميناء ايسين .

ـ وما الذي سأفعله هناك ؟ لا يوجد هناك سوى جزر وغابة وأمطار يا سيدتي .

ـ أتعرف تلك الأماكن ؟

ـ أجل ، ولكنني كنت أفكر بأن الرحلة ستكون إلى سان فرانسيسكو...

ـ تذوق هذه الحلوى ذات الرقائق ، إنها لذيذة جداً ـ عرضت عليه ذلك وهي تداعب الكلب .

●

بينما كان جون وروز سوميرز يتحدثان مع باولينا في صالون الفندق الإنكليزي ، كانت إلزا تجوب شوارع حي الميندرادو مع ماما فريسيا . في ذلك الوقت كان الطلاب والمدعوون إلى حلقات الرقص في الاكاديمية قد بدؤوا بالتوافد ، وكانت مس روز قد سمحت لها بالخروج بصورة استثنائية لمدة ساعتين مع مامتها . فهي لم تكن تسمح لها عادة بالذهاب إلى الأكاديمية إلا إذا كانت معها ، ولكن معلم الرقص لم يكن يقدم مشروبات كحولية إلى ما بعد

غياب الشمس ، فكان ذلك يبقي الشبان المشاغبين بعيدين خلال ساعات المساء الأولى . وكانت إلزا مصممة على استغلال تلك الفرصة الوحيدة بالخروج إلى الشارع دون مرافقة مس روز لها ، فأقنعت مربيتها الهندية بمساعدتها في خططها . لقد قالت لها :

- امنحيني مباركتك يا ماميتا . يجب علي أن أذهب إلى كاليفورنيا للبحث عن خواكين .

فهتفت المرأة برعب :

- وكيف ستذهبين وحيدة وحبلى!

- إذا لم تساعديني ، فسأفعل ذلك بمفردي .

- سأخبر مس روز بكل شيء!

فردت الفتاة بتصميم ضار :

- إذا ما أخبرتها فسأقتل نفسي . وأقسم لك بأنني سآتي بعد ذلك لأعذبك طوال ما تبقى من لياليك .

كانت قد رأت في اليوم السابق جماعة من النساء في الميناء يجادلن من أجل الإبحار . وبسبب مظهرهن المختلف كثيراً عمن تراهن عادة في الشوارع متدثرات في الصيف والشتاء بمعاطف سوداء ، افترضت أنهن مومسات الأرصفة أنفسهن اللواتي يلهو معهن الخال جون . وكانت ماما فريسيا قد أوضحت لها في إحدى المناسبات : « إنهن فاجرات ، يضاجعن الرجال من أجل المال ، وسيذهبن مباشرة إلى الجحيم » . كما كانت قد التقطت كذلك بعض عبارات القبطان وهو يخبر جيرمي سوميرز عن التشيليات والبيرويات اللواتي يذهبن إلى كاليفورنيا وفي أذهانهن الاستحواذ على الذهب الذي يستخرجه رجال المناجم ، ولكنها لم تستطع أن تتصور كيف سيفعلن ذلك . وقررت : إذا كانت هاتيك النسوة قادرات على القيام بالرحلة بمفردهن والعيش دون مساعدة ، فإنها ستكون قادرة على ذلك أيضاً . كانت تمشي مسرعة ، بقلب

هائج ، وهي تخفي نصف وجهها بمروحتها اليدوية ، وتتعرق في حر كانون الأول . وكانت تحمل مجوهرات جهازها في جراب صغير من المخمل ، بينما يسبب لها حذاؤها الجديد ألماً حقيقياً ويضغط المشد بإزعاج على خصرها . وكانت نتانة المجاري المكشوفة حيث تجري مياه المدينة الآسنة تزيد من غثيانها ، ولكنها كانت تمضي منتصبة تماماً مثلما تعلمت في السنوات التي كانت توازن فيها كتاباً فوق رأسها وتعزف البيانو بقضيب حديدي مثبت إلى ظهرها . كانت ماما فريسيا تنن وتتمتم ترتيلات بلغتها ، ولا تكاد تلحق بها بسبب داء الدوالي وسمنتها . إلى أين نحن ذاهبتان يا صغيرتي ، بالله عليك ، ولكن إلزا لا تستطيع الإجابة لأنها لا تعرف الجواب في الواقع . إلا أنها كانت متأكدة من أمر واحد : فالمسألة ليست في رهن مجوهراتها وشراء تذكرة سفر إلى كاليفورنيا ، لأنه لا يمكنها عمل ذلك دون أن يعلم به الخال جون . فعلى الرغم من أن عشرات السفن تصل في كل يوم ، إلا أن بالبارايسو مدينة صغيرة وجميع من في الميناء يعرفون القبطان جون سوميرز . إضافة إلى أنها لا تملك وثائق شخصية ، ناهيك عن جواز السفر ، ومن المستحيل عليها الحصول على أية وثائق لأن مفوضية الولايات المتحدة في تشيلي كانت مغلقة بسبب قضية غراميات غير مواتية للدبلوماسي الأمريكي مع سيدة تشيلية . وقررت إلزا بأن الطريقة الوحيدة للحاق بخواكين اندييتا إلى كاليفورنيا هي في الإبحار متخفية . وكان خالها جون قد أخبرها بأن بعض المسافرين السريين كانوا يتسللون إلى السفينة بمساعدة أحد أفراد الطاقم . وقد يتمكن بعضهم من البقاء مختفياً طوال الرحلة ، بينما يموت آخرون ويتم إلقاء جثثهم في البحر دون أن يعلم هو نفسه بذلك ، ولكنه إذا ما توصل إلى اكتشافهم ، فإنه يعاقب المتسلل ومن ساعدوه على السواء . وهذه كما قال هي إحدى الحالات التي يمارس فيها بصرامة سلطاته المتعارف عليها كقبطان : ففي عرض البحر لا وجود لقانون أو عدالة إلا قانونه وعدالته .

معظم الصفقات غير الشرعية في الميناء ، حسب قول خالها ، تعقد في الحانات . ولم تكن إلزا قد وطأت تلك الأماكن من قبل ، ولكنها رأت شبحاً أنثوياً يتجه إلى محل قريب وعرفت فيها واحدة من النساء اللواتي كن في اليوم السابق في المرفأ يبحثن عن طريقة للإبحار . كانت شابة مربوعة لها جديلتان سوداوان تتدليان على ظهرها ، وترتدي تنورة قطنية ، وبلوزة مطرزة وتضع شالاً على كتفيها . لحقت بها إلزا دون أن تفكر في الأمر مرتين ، بينما بقيت ماما فريسيا في الشارع ترتل التحذيرات : « لا تدخل هناك إلا المومسات يا صغيرتي ، إنها خطيئة قاتلة . » دفعت الباب واحتاجت لعدة ثوان كي تعتاد على الظلمة ورائحة التبغ والبيرة الزنخة التي تعبق في الهواء . كان المكان مزدحماً بالرجال ، والتفتت كل العيون لتنظر إلى المرأتين . خيم صمت الترقب برهة ثم بدأ كورال من السخريات والتعليقات البذيئة . تقدمت المرأة الأخرى بخطوة مجربة نحو طاولة في عمق المحل ، وكانت توجه ضربات بيديها ذات اليمين وذات الشمال كلما حاول أحدهم لمسها ، أما إلزا فتقهقرت متراجعة في العماء وهي مرعوبة ، ودون أن تفهم جيداً ما الذي يحدث أو لماذا يصرخ بها أولئك الرجال . ولدى وصولها إلى الباب اصطدمت بزبون يدخل . أطلق الرجل صرخة بلغة أخرى وتمكن من الإمساك بها حين كانت على وشك السقوط أرضاً . وحين رآها وقف مشدوهاً : فقد كانت إلزا بثوبها العذري ومروحتها اليدوية غريبة تماماً عن أجواء ذلك المكان . نظرت إليه بدورها وتعرفت فيه فوراً على الطاهي الصيني الذي حياه الخال في اليوم السابق .

سألته وهي تحمد قوة ذاكرتها :

- ألستَ تاو تشين ؟

حياها الرجل بضم راحتيه أمام وجهه والانحناء عدة مرات ، بينما كانت السخرية تتواصل في الحانة . نهض بحاران واقتربا مترنحين . فأشار تاو تشين

لإلزا إلى الباب وخرجا معاً . ثم قال لها مستفسراً عندما صارا في الخارج :

ـ ألستِ الآنسة سوميرز ؟

أومأت إلزا بالايجاب ، ولكنها لم تتمكن من قول شيء لأن البحارين اللذين خرجا من البار قاطعاهما وهما مخموران تماما ويسعيان إلى الشجار ، وقالا متوعدين :

ـ كيف تتجرأ على إزعاج هذه الآنسة الرائعة أيها الصيني القذر ؟

أحنى تاو تشين رأسه ، ودار على عقبيه ليبتعد ، ولكن أحد الرجلين أوقفه بإمساك جديلته وشده منها ، بينما الآخر يتلعثم بمغازلات وهو يطلق أنفاساً تعبق برائحة النبيذ في وجه إلزا . التفت الصيني بسرعة هرٍ وواجه المعتدي . كان يشهر سكينه الكبيرة في يده ونصلها يلمع مثل مرآه تحت شمس الصيف . أطلقت ماما فريسيا صرخة ودفعت البحار القريب منها دون أن تفكر في الأمر ، ثم أمسكت بذراع إلزا وراحت تجري متمايلة في الشارع برشاقة لا يمكن تصورها من امرأة بمثل وزنها . ركضتا عدة كوادرات مبتعدتين عن المنطقة الحمراء ، ولم تتوقفا إلى أن وصلتا إلى ساحة سان أغوسطين الصغيرة ، حيث تهاوت ماما فريسيا على أول مقعد وصلت إليه .

ـ آه يا صغيرتي! إذا ما عرف السادة بهذا الذي جرى فسوف يقتلونني! فلنذهب إلى البيت فوراً...

ـ لم أنجز بعد ما جئت لعمله يا ماميتا . يجب علي أن ارجع إلى تلك الحانة .

قاطعت ماما فريسيا ذراعيها رافضة التحرك من هناك ، بينما راحت إلزا تتمشى بخطوات واسعة ، محاولة تنظيم خطة وسط اضطرابها . لم يكن لديها كثير من الوقت . فقد كانت تعليمات مس روز واضحة جداً : في الساعة السادسة تماماً ستكون العربة أمام أكاديمية الرقص لتعيدهما إلى البيت . وقررت بأنه يجب عليها أن تتصرف بسرعة ، إذ لن تتاح لها فرصة أخرى .

وكانتا على تلك الحال عندما رأتا الصيني يتقدم نحوهما هادئاً ، بخطواته المتمايلة وابتسامته الصافية . كرر الانحناءات المعتادة كتحية ثم توجه إلى إلزا بإنكليزية جيدة ليستفسر منها إذا ما كانت ابنة القبطان جون سوميرز الموقرة بحاجة إلى مساعدة . فأوضحت بأنها ليست ابنته وإنما ابنة أخته ، وفي نوبة ثقة أو يأس مفاجئة اعترفت له بأنها تحتاج في الحقيقة إلى مساعدته ، ولكن الأمر خاص جداً .

- أهو أمر لا يمكن للقبطان أن يعرفه ؟

- لا يمكن لأحد أن يعرفه .

اعتذر تاو تشين . وقال إن القبطان رجل طيب ؛ صحيح أنه كان قد اختطفه بطريقة خبيثة ليُصعده إلى سفينته ، ولكن سلوكه معه بعد ذلك كان طيباً وهو لا يفكر في خيانته . إنهارت إلزا مكروبة على المقعد وهي تضع وجهها بين راحتيها ، بينما ماما فريسيا تراقبهما دون أن تفهم كلمة إنكليزية ، ولكنها كانت تخمن النوايا . ثم اقتربت أخيراً من إلزا وشدت عدة مرات جراب القطيفة الذي يضم مجوهرات جهاز عرسها قائلة لها :

- هل تظنين أن هناك من يفعل شيئاً بالمجان يا صغيرتي ؟

فهمت إلزا على الفور . فمسحت دموعها وأشارت إلى المقعد بجانبها داعية الرجل للجلوس . دست يدها في الجراب ، وأخرجت منه عقد اللؤلؤ الذي أهداه إليها الخال جون في اليوم السابق ، ووضعته فوق ركبتي تاو تشين موضحة :

- هل يمكنك أن تخبئني في سفينة ؟

- لماذا ؟ إنه ليس بالمكان المناسب للنساء ، وإنما للأفاقين فقط .

- إنني ذاهبة للبحث عن شيء .

- أهو الذهب ؟

- بل هو أثمن من الذهب .

سيطر الذهول على الرجل ، فهو لم ير قط امرأة يمكنها الوصول إلى مثل

تلك الحدود القصوى في الحياة الواقعية ، وإنما هذا يحدث في الروايات الكلاسيكية وحدها ، حيث تموت البطلات في النهاية على الدوام .

- لا تحتاجين إلى السفر مختبئة... فهذا العقد يتيح لك شراء التذكرة .. أشار عليها تاو تشين الذي لم يكن يفكر في تعقيد حياته بخرقه القانون .

- لن يأخذني أي قبطان في سفينته قبل أن يبلغ أسرتي .

مفاجأة تاو تشين الأولية تحولت إلى ذهول : ما تفكر فيه هذه المرأة ليس أقل من تلطيخ شرف أسرتها ، وهي تأمل منه أن يساعدها! لا بد أن شيطاناً قد تلبس جسدها... لا ريب في ذلك . دست إلزا يدها من جديد في الجراب وأخرجت بروشاً ذهبياً مرصعاً بالفيروز ووضعته على ركبة الرجل إلى جانب العقد ، وقالت :

- هل أحببتَ أحداً في أحد الأيام أكثر من حبك لحياتك نفسها ؟

نظر تاو تشين إلى عينيها مباشرة لأول مرة منذ تعارفا ، ثم أعاد إليها البروش . نهض واقفاً ، شد بنطاله القطني وسكين الجزار المثبتة على حزامه ، ثم انحنى من جديد باحتفالية .

- لم أعد أعمل عند القبطان سوميرز منذ الآن . غداً ستغادر السفينة إميليا إلى كاليفورنيا . تعالي هذه الليلة في الساعة العاشرة وسأتدبر أمر صعودك إلى السفينة .

- كيف ؟

- لا أدري . سنرى ذلك .

انحنى تاو تشين انحناءة أخرى للوداع ومضى بخفة وسرعة بدا معهما وكأنه قد تلاشى فجأة . رجعت إلزا وماما فريسيا إلى أكاديمية الرقص في الوقت المحدد تماماً للقاء الحوذي الذي كان ينتظرهما منذ نحو نصف ساعة وهو يشرب الخمر من زمزميته .

●

السفينة إميليا كانت فرنسية في الأصل ، وقد كانت أنيقة وسريعة في يوم من الأيام ، ولكنها مخرت بحاراً كثيرة وفقدت منذ قرون اندفاعة شبابها . كانت تقطعها ندوب بحرية قديمة ، وتلتصق بمؤخرتها الضخمة حراشف من الطحالب المتراكمة ، بينما مفاصلها المنهوكة تئن تحت ضربات الأمواج ، وتبدو أشرعتها الملطخة والمرقعة ألف مرة وكأنها المسخ الأخير لتنورة قديمة . أبحرت السفينة من ميناء بالبارايسو في الصباح المشرق ليوم الثامن عشر من شباط ١٨٤٨ ، حاملة سبعة وثمانين مسافراً من الذكور ، وخمس نساء ، وست بقرات ، وثمانية خنازير ، وثلاث قطط ، وثمانية عشر بحاراً ، وقبطاناً هولندياً ، ومرشداً تشيلياً ، وطاهياً صينياً . وكانت إلزا على متن السفينة أيضاً ، ولكن الشخص الوحيد الذي كان يعلم بوجودها هو تاو تشين .

كان ركاب المقصورة الأولى يتكومون على جسر مقدمة السفينة دون أن يكون لديهم متسع كبير ، ولكنهم في وضع مريح أكثر من الآخرين المستقرين في مقصورات صغيرة كل واحدة منها مقسمة إلى أربع قمرات ، أو على أرضية السطح ، بعد أن ضربوا قرعة حول أين سيضعون حزم أمتعتهم . خُصصت مقصورة تحت خط الطفو للتشيليات الخمس الذاهبات في محاولة لجمع ثروة في كاليفورنيا . وفي ميناء كاياو صعدت امرأتان بيروتيان ، انضمتا إليهن دون كبير تكلف ، كل اثنتين منهن في سرير واحد . وأصدر القبطان فينسنت كاتز تعليماته إلى البحارة والمسافرين بوجوب عدم إقامة أي علاقة اجتماعية مع السيدات ، فهو لا يمكنه أن يتسامح بتجارة غير محتشمة في سفينته ، وكانت عيناه تريان بوضوح أن أولئك المسافرات لسن من الفاضلات تماماً ، ولكن أوامره خُرقت مرة بعد أخرى خلال الرحلة بالطبع . فالرجال كانوا يتشوقون إلى الرفقة الأنثوية ، بينما لم يكن هناك بيزو واحد في جيوب أولئك المومسات البائسات المنطلقات إلى المغامرة . أما الأبقار والخنازير المقيدة جيداً في زرائب صغيرة في الجسر الثاني ، فكان عليها أن تؤمن الحليب الطازج واللحم

للمبحرين الذين كانت وجباتهم تتألف أساساً من الفاصولياء والبسكويت الأسود اليابس ، واللحم المقدد المالح وما يمكنهم اصطياده من البحر . وللتعويض عن تلك الندرة ، كان المسافرون ذوي الإمكانيات يحملون مؤونتهم الشخصية ، وخصوصاً النبيذ والسجائر ، ولكن الأغلبية كانوا يصبرون على الجوع . وكان هران يمضيان طليقين لكي يحدا من انتشار الفئران ، وإلا فإنها ستتكاثر دون ضابط خلال الشهرين اللذين تدومهما الرحلة . أما القط الثالث فكان مع إلزا .

كانت تتكدس في كرش السفينة إميليا أمتعة المسافرين المتنوعة والحمولة المخصصة للتجارة في كاليفورنيا ، مرتبة بحيث يمكن الاستفادة القصوى من المجال الضيق . ولم يكن مسموحاً مس أي شيء من الأشياء الموجودة هناك قبل الوصول إلى الوجهة النهائية ، ولا يمكن لأحد الدخول باستثناء الطاهي ، وهو الشخص الوحيد المخول بالاقتراب من الأغذية المجففة ، المقننة بصرامة كان تاو تشين يحتفظ بالمفاتيح معلقة بحزامه ويُطلع القبطان شخصياً على محتويات المستودعات . وهناك ، في أعمق أعماق قاع السفينة وأشدها ظلمة ، كانت تقبع إلزا في فسحة طولها متران وعرضها متران . وكانت جدران وسقف حظيرتها تلك مكونة من صناديق وعلب البضائع ، وأما فراشها فهو كيس ، ولم يكن ثمة ضوء سوى نور عقب شمعة . وكان لديها قصعة للطعام وإبريق ماء ومبولة . وكان بإمكانها أن تخطو خطوتين وأن تتمطى ما بين حزم الأمتعة ، وأن تبكي وتصرخ مثلما يحلو لها ، لأن ارتطام الأمواج بالسفينة يطغى على صوتها . أما صلتها الوحيدة بالعالم الخارجي فهي من خلال تاو تشين الذي ينزل بذرائع مختلفة عندما يستطيع ذلك ليقدم لها الطعام ويفرغ المبولة . ولم تكن لها من رفقة سوى قط محبوس في مستودع السفينة لمراقبة الفئران ، ولكن الحيوان التعيس أصيب بالجنون خلال أسابيع الإبحار الرهيبة ، فأشفق عليه تاو تشين أخيراً وقطع رأسه بسكينه .

صعدت إلزا إلى السفينة في كيس محمول على كتف أحد الحمالين الكثيرين الذين نقلوا الحمولة والأمتعة إلى السفينة في بالبارايسو . لم تعرف مطلقاً كيف تدبر تاو تشين الأمر ليتوصل إلى التواطؤ مع الحمال ويغافل مراقبة القبطان والمرشد اللذين كانا يدونان في سجل كل ما يدخل . وكانت إلزا قد هربت من البيت قبل ساعات من ذلك بحيلة معقدة ، حتى أنها زيفت دعوة خطية من أسرة دل بايي لزيارة مزرعتهم لعدة أيام . ولم تكن الفكرة دون أساس . ففي مناسبتين سابقتين كانت بنات أغوسطين دل بايي قد دعونها إلى الريف وسمحت لها مس روز بالذهاب ، طالما أنها ترافقها ماما فريسيا . ودعت جيرمي ومس روز وخالها جون بخفة متكلفة ، بينما كانت تحس في صدرها بثقل صخرة . رأتهم جالسين إلى مائدة الفطور يقرؤون صحفاً إنكليزية ، غافلين تماماً عن خططها ، وكاد تردد مؤلم أن يدفعها إلى التراجع . لقد كانوا أسرتها الوحيدة ، يمثلون الأمان والرفاه ، ولكنها كانت قد تجاوزت خط الوقار ولم يكن ثمة سبيل للتراجع . لقد رباها آل سوميرز على قواعد السلوك الحميدة الصارمة ويمكن لمثل خطيئتها الخطيرة أن تلوث سمعة الجميع . صحيح أن سمعة الأسرة ستتلوث بهربها ، ولكن سيبقى هناك مجال للشك على الأقل : إذ يمكنهم القول إنها قد ماتت . ومهما كان التفسير الذي سيقدمونه إلى الناس ، فإنها لن تكون هناك لرؤيتهم وهم يعانون من العار . وكان يبدو لها أن أوديسة الخروج للبحث عن حبيبها هي الطريق الوحيد الممكن ، ولكن حزناً شديداً داهمها في لحظة الوداع الصامت تلك ، حتى أوشكت على الانفجار بالبكاء والاعتراف بكل شيء . سوّت بعض خصلات شعرها المفلتة ، ووضعت قبعة القش الإيطالية وخرجت وهي تقول وداعاً بتلويحة من يدها .

كانت تحمل الحقيبة التي أعدتها لها مس روز وفيها أفضل ملابسها الصيفية ، وبعض النقود التي أخذتها من غرفة جيرمي سوميرز ومجوهرات جهاز عرسها . راودتها نفسها بالاستيلاء كذلك على مجوهرات مس روز ، ولكنها

تراجعت في نهاية الأمر احتراماً للمرأة التي كانت بمثابة أم لها . تركت في علبة المجوهرات الفارغة في غرفتها ملاحظة مقتضبة تشكر فيها الأسرة على الكثير الذي قدمته إليها ، وتؤكد على مدى حبها لهم . وأضافت إلى ذلك اعترافاً بما حملته معها ، لكي تحمي الخدم من أن تحوم حولهم أية شبهات . وكانت ماما فريسيا قد وضعت لها في الحقيبة جزمتها المتينة ، وكذلك دفاترها وحزمة رسائل خواكين اندييتا الغرامية . وقد حملت معها كذلك بطانية سميكة من الصوف القشتالي ، أهداها إليها الخال جون . خرجتا دون أن تثيرا شكوكاً . فأوصلتهما العربة إلى شارع بيت آل دل بايي واختفت عن الأنظار دون أن تنتظر إلى أن يفتحوا لهما الباب . توجهت ماما فريسيا وإلزا نحو الميناء للقاء مع تاو تشين في المكان والموعد المحددين .

كان الرجل ينتظرهما . أخذ الحقيبة من يد ماما فريسيا وأشار إلى إلزا بأن تتبعه . تعانقت الفتاة ومربيتها طويلاً . كانتا موقنتين من أنهما لن تلتقيا ثانية ، ولكن أياً منهما لم تذرف الدموع .

ـ ماذا ستقولين لمس روز يا ماميتا ؟

ـ لا شيء . سأذهب الآن مباشرة إلى معشري في الجنوب ، حيث لن يجدني أحد بعد الآن .

ـ شكراً لك يا ماميتا . سأتذكرك دائماً...

ـ وأنا سأصلي لكي تمضي أمورك على ما يرام يا صغيرتي .. كان ذلك هو آخر ما سمعته إلزا من شفتي ماما فريسيا قبل أن تدخل إلى كوخ صيادين في أثر الطاهي الصيني .

وفي ظلمة الحجرة الخشبية التي بلا نوافذ ، العابقة برائحة شباك صيد رطبة ، والتي تأتيها التهوية الوحيدة من الباب ، قدم تاو تشين إلى إلزا بنطالاً ضيقاً وقميصاً مهترئاً ، مشيراً إليها بأن تلبسهما . لم يبد ما يشير إلى أنه سيخرج أو سيستدير من قبيل الرصانة . ترددت إلزا ، فهي لم تخلع ملابسها

من قبل أمام رجل ، باستثناء خواكين انديتا ، ولكن تاو تشين لم ينتبه إلى ترددها ، إذ لم يكن لديه إحساس بالخصوصية ؛ فالجسد ووظائفه في نظره هي أشياء طبيعية ، وينظر إلى الحياء على أنه عائق أكثر مما هو فضيلة . وأدركت هي أن الوقت غير مناسب للوساوس ، فالسفينة ستبحر في الصباح والقوارب تحمل إليها الأمتعة المتأخرة . خلعت القبعة القشية ، وفكت رباط جزمتها التي من جلد الماعز وأزرار بلوزتها ، وأفلتت أحزمة تنورتها ، ثم أشارت إلى الصيني وهي تموت خجلاً ، لكي يساعدها في فك الصدرية . وبينما كانت ملابسها كطفلة إنكليزية تتراكم على الأرض ، راحت تفقد شيئاً فشيئاً صلتها بالواقع المعروف ، وتدخل في الوهم الغريب الذي ستكون عليه حياتها في السنوات التالية . وأحست بوضوح ببدء قصة جديدة ستكون فيها البطلة والراوية في الوقت نفسه .

الابن الرابع

لم يكن هذا هو اسم تاو تشين دائماً . والحقيقة أنه بقي دون اسم حتى بلوغه الحادية عشرة ، فقد كان أبواه فقيرين إلى حد لا يمكنهما معه الاهتمام بمثل هذه التفاصيل ؛ فكان يدعى ببساطة الابن الرابع . وكان قد ولد قبل ميلاد إلزا بتسع سنوات ، في قرية من قرى مقاطعة كوانغتونغ ، على مسيرة يوم ونصف من مدينة كانتون . وكان ينحدر من أسرة مداوين شعبيين . فلأجيال لا حصر لها ، تناقل رجال أسرته ، من الآباء إلى الأبناء ، معارف حول النباتات الطبية ، وفن سَحْبِ تعكر المزاج ، وسحر إبعاد الشياطين ومهارات تنظيم الطاقة ، « الكي » . في السنة التي ولد فيها الابن الرابع كانت الأسرة في أشد حالاتها بؤساً ، إذ راحت تفقد أرضها على أيدي المرابين والمقامرين المحتالين . فقد كان ضباط الإمبراطورية يجبون الضرائب ، ويختلسون المال ثم يفرضون أتاوات جديدة لتغطية سرقاتهم ، إضافة إلى جباية عمولات ورشاوى غير شرعية . ولم تكن أسرة الابن الرابع ، مثل معظم أسر الفلاحين ، قادرة على دفع كل ذلك . فإذا ما استطاعوا إنقاذ بعض النقد من دخلهم الهزيل من أيدي الموظفين الإمبراطوريين ، فإنهم يضيعونها على الفور في القمار ، وهو إحدى المتع القليلة المتاحة للفقراء . كان بالإمكان المراهنة في مسابقات ضفادع وجنادب ، وفي مصارعات صراصير أو في لعبة « فان تان » ، فضلاً عن ألعاب شعبية كثيرة أخرى .

كان الابن الرابع صبياً مرحاً ، يضحك دون سبب ، ولكنه كان يتمتع كذلك بقدرة هائلة على الاهتمام والفضول وحب التعلم . ففي السابعة من عمره كان يعرف أن موهبة المداوي الجيد تتركز في حفظ توازن الين واليانغ ، وصار يعرف وهو في التاسعة خصائص نباتات المنطقة ويتمكن من مساعدة أبيه وأخوته الكبار في عمليات التحضير المجهد للصفات ، والمراهم ، والمقويات ، والبلاسم ، والأشربة ، والمساحيق ، وأقراص العقاقير الصيدلية الريفية . وكان أبوه يسافر مع الابن الأول مشياً على الأقدام من قرية إلى قرية عارضين أدوية وعقاقير ، بينما الابنان الثاني والثالث يقومان بزراعة قطعة أرض بائسة ، هي رأس مال الأسرة الوحيد . وكانت مهمة الابن الرابع تتمثل في جمع النباتات ، وكان يحب عمل ذلك ، لأنه يتيح له التشرد في محيط القرية دون رقيب ، فيبتدع ألعاباً ويقلد أصوات الطيور . وفي بعض الأحيان كانت ترافقه أمه ، إذا ما تبقى لديها قوة بعد إنجاز مهمات البيت الكثيرة ، التي لا يمكنها بسبب كونها امرأة أن تعمل في الأرض دون أن تجلب لنفسها سخرية الجيران . وقد بقي أفراد الأسرة على قيد الحياة بمشقة ، وراحوا يغرقون في الديون أكثر فأكثر ، إلى أن حلت سنة ١٨٣٤ المشؤومة تلك ، حين انهالت أسوأ الشياطين على الأسرة . ففي أول الأمر انقلبت قدر ماء يغلي على الأخت الصغرى ، وكان عمرها لا يكاد يبلغ السنتين ، فسلقتها من رأسها حتى قدميها . وضعوا لها زلال البيض على الحروق وعالجوها بالأعشاب المناسبة لمثل تلك الحالات ، ولكن الطفلة استُنفدت من الألم وماتت بعد أقل من ثلاثة أيام . لم تستعد الأم راحة البال منذ ذلك الحين . صحيح أنها كانت قد فقدت أبناء آخرين في طفولتهم وخلّف كل واحد منهم جرحاً في روحها ، ولكن حادثة الصغيرة كانت مثل حبة الرز الأخيرة التي جعلت الطاس يطفح . فبدأت تتردى بصورة ظاهرة للعيان ، كل يوم أشد نحولاً ، البشرة تميل إلى الخضرة والعظام تزداد هشاشة ، دون أن تتمكن عقاقير زوجها من وقف تقدم مرضها الغريب ، إلى

أن وجدوها في صباح أحد الأيام متيبسة ، على شفتيها ابتسامة وفي عينيها السلام ، لأنها ستلتقي أخيراً بأبنائها الميتين . وكانت طقوس الجنازة بسيطة جداً ، لأن الميتة امرأة . لم يستطيعوا إحضار كاهن ولم يكن لديهم أرز ليقدموه إلى الأقارب والجيران خلال الطقوس ، ولكنهم تأكدوا على الأقل من أن روحها لن تلتجئ إلى السقف أو البئر أو إلى جحور الفئران ، حيث يمكنها الخروج فيما بعد لتسبب المعاناة لهم . وبفقدان الأم التي كانت بجهودها وصبرها تبقي الأسرة موحدة ، صار من المستحيل وقف النكبات . وكانت تلك السنة سنة أعاصير ، ومواسم شحيحة ومجاعة ، وغصت أراضي الصين الشاسعة بالمتسولين وقطاع الطرق . والطفلة ذات السبعة أعوام التي بقيت في الأسرة بيعت إلى وكيل ولم يعودوا يعرفون شيئاً عنها . والابن الأكبر المهيأ للحلول محل الأب في مهنته كطبيب جوال ، تعرض لعضة كلب مريض ومات بعد وقت قصير بجسد متصلب ومشدود مثل قوس وهو يطلق الزبد من فمه . وكان الابنان الثاني والثالث في سن العمل ووقعت عليهما مهمة رعاية الأب بقية حياته ، وإنجاز الطقوس الجنائزية عند موته ، وتوقير ذكراه وذكرى الأسلاف الذكور الآخرين لخمسة أجيال . أما الابن الرابع ، فلم تكن له فائدة خاصة ، ولم يكن إطعامه ممكناً كذلك ، ولهذا باعه أبوه كخادم لعشر سنوات لبعض التجار الذين كانوا يمرون في قوافل على مقربة من الضيعة . وكان عمر الطفل آنذاك إحدى عشرة سنة .

وبفضل واحد من تلك الأحداث المفاجئة التي كثيراً ما بدلت مسار حياته ، فإن فترة العبودية تلك التي كان يمكن لها أن تكون جحيماً بالنسبة للفتى ، كانت في الواقع أفضل بكثير من السنوات التي أمضاها تحت السقف الأبوي . كانت هناك بغلتان تجران العربة التي تحمل أثقل أحمال القافلة . وأنين واهن يرافق كل دورة للعجلات التي لا تُشحم عمداً من أجل إبعاد الشياطين . ولكي يحول التجار دون فرار الابن الرابع الذي كان يبكي منذ

انفصاله عن أبيه وأخوته ، فقد قيدوه بحبل إلى إحدى البهيمتين . كان حافياً وظمآناً ، يحمل على ظهره كيس أمتعته القليلة وهو يرى اختفاء أسطح القرية والمشهد المألوف . لقد كانت الحياة في ذلك الكوخ هي الشيء الوحيد الذي يعرفه ، ولم تكن بالحياة السيئة ، فقد كان أبواه يعاملانه برقة ، وكانت أمه تروي له القصص ، وكان يمكن لأي شيء أن يدفعهم إلى الضحك والمرح ، حتى في أقسى أزمنة الفقر . كان يمشي وراء البغلة موقناً بأن كل خطوة تولجه أكثر فأكثر في عالم الأرواح الخبيثة ، وخشي أن لا يكون صرير العجلات والجلاجل الصغيرة المعلقة على العربة كافياً لحمايته . وكان لا يكاد يفهم لهجة المسافرين ، ولكن الكلمات القليلة التي التقطها سريعاً ، أدخلت الخوف المريع إلى عظامه . فقد كانوا يتكلمون عن العفاريت الكثيرة الساخطة التي تجوب تلك الأنحاء ، وعن الأرواح التائهة للميتين الذين لم تجر لهم جنازة لائقة . وكانت المجاعة ، والتيفوس والكوليرا قد زرعت المنطقة بالجثث ولم يبق من الأحياء ما يكفي لتكريم كل أولئك الميتين . ومن حسن الحظ أن المسوخ والشياطين كانوا مشهورين بالغباء ؛ فهم لا يستطيعون الانحراف عند منعطف ويمكن إلهاءهم بسهولة بقرابين من الطعام أو هدايا ورقية . ومع ذلك ، لم يكن بإمكان شيء في بعض الأحيان أن يبعدهم ، ويمكن لهم أن يتجسدوا مستعدين لنيل حريتهم بقتل الغرباء أو بالدخول إلى أجسادهم وإجبارهم على اقتراف شرور لا تخطر على بال . كانت القافلة قد أمضت ساعات من المسير ؛ وكان حر الصيف والعطش شديدي الوطأة ، بينما الصغير يتعثر في كل خطوة وأسياده الجدد المتعجلون يحثونه ، ولكن دون خبث حقيقي ، بضربات عصي يوجهونها إلى ساقيه . وعند غياب الشمس قرروا التوقف والتخييم . خففوا عن البهائم أحمالها ، وأضرموا ناراً ، وأعدّوا شاياً وانقسموا إلى جماعات صغيرة لكي يلعبوا فان تان و ماه جونغ . وأخيراً تذكر أحدهم الابن الرابع وقدم إليه قصعة رز وكأس

شاي ، انقض عليهما بشراهة متراكمة منذ شهور وشهور من الجوع . وفي أثناء ذلك فاجأتهم جلبة صراخ ورأوا أنفسهم محاطين بزوبعة من الغبار . وتعالت صرخات المسافرين إلى جانب صراخ المهاجمين ، فزحف الصبي المذعور تحت العربة بقدر ما يسمح له الحبل المربوط به . لم يكن المهاجمون من عفاريت الجحيم ، كما عُرف على الفور ، وإنما عصابة قطاع طرق من العصابات الكثيرة التي كانت تغافل جنود الإمبراطورية غير الأكفاء ، وتداهم الطرق في أزمنة اليأس الشديد تلك . وما إن استعاد التجار رشدهم بعد الصدمة الأولية ، حتى تناولوا أسلحتهم وواجهوا اللصوص في معمعة من الصراخ والتوعد وإطلاق النار لم تدم إلا دقائق فقط . وما أن ركد الغبار حتى تبين أن أحد اللصوص قد هرب وأن الاثنين الآخران يقبعان على الأرض مصابين بجراح بليغة . نزعوا الأقنعة التي تغطي وجهيهما وتبينوا أنهما مراهقان يرتديان الأسمال مسلحين بطبنجات وحراب بدائية . فبادروا عند إذن إلى قطع رأسيهما بسرعة ، لكي يعانيا مذلة مغادرة هذا العالم أشلاء وليس كاملين مثلما جاءا إليه ، وعلقوا الرأسين على خازوقين على جانبي الطريق . وعندما هدأت المشاعر ، انتبهوا إلى أن أحد أفراد القافلة كان يتقلب على الأرض مصاباً بجرح كبير في فخذه . الابن الرابع الذي كان مختبئاً من الرعب تحت العربة ، خرج زاحفاً من مخبئه وطلب الإذن باحترام من التجار الموقرين لمعالجة الجريح ، وبما أنه لم يكن ثمة خيار آخر ، سمحوا له بالتصرف . طلب شاياً ليغسل الدم ، ثم فتح كيسه وأخرج منه علبة مرهم باي ياو . وضع من تلك العجينة البيضاء على الجرح ، ثم ربط الفخذ بشدة وأعلن دون أدنى تردد بأن الجرح سيلتئم خلال أقل من ثلاثة أيام . وكان ذلك ما حدث . هذا الحادث أنقذه من قضاء السنوات العشر التالية في العمل كعبد ومن أن يعامل أسوأ من معاملة كلب ، فبفضل مهارته باعه التجار في كانتون إلى طبيب تقليدي مشهور ومعلم وخز بالإبر - أي :

جونغ يي ـ كان بحاجة إلى متدرب . ومع ذلك العالم اكتسب الابن الرابع المعارف التي ما كان بمقدوره الحصول عليها مع أبيه الريفي .

●

كان المعلم العجوز رجلاً هادئاً ، له وجه أملس كالقمر ، وصوت بطيء ، ويدان معروقتان وحساستان هما أفضل أدواته . وكان أول ما فعله مع خادمه هو منحه اسماً . استشار كتباً فلكية وتنجيمية ليتحرى الاسم المناسب للفتى : تاو . وهي كلمة متعددة المعاني ، مثل : سبيل ، توجه ، اتجاه ، وانسجام . ولكنها تمثل قبل كل شيء رحلة الحياة . ومنحه المعلم كنيته نفسها .

ـ سأسميك تاو تشين . وهذا الاسم سيكون بدايتك على طريق الطب . وسيكون قدرك تخفيف آلام الآخرين وبلوغ الحكمة . ستكون جونغ يي ، مثلي .

تاو تشين... تلقى المتدرب الفتى اسمه شاكراً . قبّل يدي سيده وابتسم لأول مرة منذ خروجه من بيته . فدافع السعادة الذي كان يجعله يرقص راضياً دون سبب معين ، عاد يخفق في صدره ولم تُمح الابتسامة عن شفتيه لأسابيع . كان يمضي في البيت متقافزاً ، يتذوق اسمه بتلذذ ، مثل قطعة سكاكر في فمه ، مردداً إياه بصوت عالٍ ، وحالما به ، إلى أن تطابق معه تماماً . أما معلمه الذي كان من أتباع كونفوشيوس في الشؤون العملية ومن أتباع بوذا في مسائل الفكر ، فقد تولى تعليمه بقبضة حديدية ، ولكن مع رقة كبيرة ، الانضباط لذي سيجعل منه طبيباً جيداً . وقد قال له :

ـ إذا ما تمكنت من تعليمك كل ما أريده ، فستصبح في أحد الأيام رجلاً مشهوراً .

وكان يؤكد أن الطقوس والشعائر ضرورية ولا تقل أهمية عن قواعد التربية الحميدة واحترام المراتبية . ويقول إنه لا فائدة ترجى من المعارف دون الحكمة ، وإنه ليست هناك حكمة دون روحانية وإن الروحانية الحقيقية تتضمن

على الدوام خدمة الآخرين . كما أوضح له مرات ومرات بأن جوهر الطبيب الجيد يتمثل في القدرة على الرحمة وعلى فهم مغزى الأخلاق ، ومن دون ذلك ينحدر فن الإشفاء المقدس إلى مجرد شعوذات . وكان يحب ابتسامة تلميذه السهلة ، ويؤكد له :

ـ لقد قطعت جزءاً لا بأس به من الطريق إلى الحكمة يا تاو . فالحكيم سعيد على الدوام .

طوال تلك السنة بكاملها كان تاو تشين يستيقظ في الفجر ، مثل أي تلميذ ، لكي ينجز ساعة من التأمل والترتيل والصلاة . وكان لديه يوم راحة وحيد للاحتفال بمطلع السنة الجديدة ، فالعمل والدراسة هما شغله الشاغل الوحيد . فعليه قبل كل شيء أن يتقن اللغة الصينية المكتوبة ، وهي وسيلة التواصل الرسمية في تلك الأراضي الشاسعة التي تضم مئات الشعوب واللغات . وكان أستاذه متشدداً جداً في ما يتعلق بجمال الخط ودقته ، لأنه يميز بين الإنسان المثقف والجاهل . كما كان يصر على أن ينمي في تاو تشين الحساسية الفنية التي تميز ، حسب رأيه ، الكائن السامي . ومثل أي صيني متحضر ، كان يشعر بازدراء جارف للحرب ، ويميل بالمقابل إلى فنون الموسيقى والرسم والأدب . وتعلم تاو تشين إلى جانبه كيف يقدر نسيج العنكبوت الدقيق المتلألئ بقطرات الطل على ضوء الفجر ، وكيف يعبر عن تلذذه بالقصائد الملهمة المكتوبة بخط أنيق . وكان المعلم يرى أن الشيء الوحيد الذي يفوق في السوء عدم نظم الشعر ، هو نظم شعر سيئ . وفي ذلك البيت حضر الفتى اجتماعات كثيرة حيث كان المدعوون يرتجلون الأشعار من وحي اللحظة ويتغنون بالحديقة ، بينما هو يقوم بتقديم الشاي ويستمع مبهوراً . وكان المعلم الذي كتب شعراً يقول : بالإمكان التوصل إلى الخلود بكتابة كتاب واحد ، وخصوصاً في الشعر . وفضلاً عن المعارف العملية البدائية التي كان تاو تشين قد اكتسبها من رؤية أبيه يعمل ، أضاف إليها الحجم

النظري المذهل للطب الصيني العريق . فقد تعلم الفتى أن الجسد البشري يتألف من خمسة عناصر : الخشب ، والنار ، والتراب ، والمعدن ، والماء ، وهي مرتبطة بخمسة كواكب ، وبخمسة شروط مناخية ، وخمسة ألوان وخمس نغمات . ومن خلال الاستخدام المناسب للنباتات الطبية ، والوخز بالإبر والمحاجم ، يمكن للطبيب الجيد أن يعرف أمراضاً متعددة ويشفيها ، وأن يتحكم بالطاقة الذكرية الفعالة والخفيفة ، وبالطاقة الأنثوية السلبية والقاتمة - اليين واليانغ - . ولكن هدف هذا العلم مع ذلك ليس القضاء على الأمراض بقدر ما هو الحفاظ على الانسجام ، وكان المعلم ينصحه : «عليك أن تنتقي غذاءك ، وأن تدير فراشك ، وتوجه تأملاتك حسب فصول السنة واتجاه الرياح . وبهذا تبقى في تناغم مع الكون على الدوام» .

كان الجونغ يي راضياً بقدره ، على الرغم من أن حرمانه من الذرية كان يُثقل مثل ظل قاتم على سكون روحه . لم يكن قد أنجب أبناء ، على الرغم من الأعشاب العجيبة التي تناولها بانتظام طوال حياته من أجل تنقية دمه وتقوية عضوه ، وبالرغم من الأدوية والتعاويذ التي طبقها على زوجتيه اللتين ماتتا شابتين ، وكذلك على المحظيات الكثيرات اللواتي جنن بعدهما . وكان عليه أن يتقبل بمذلة أخيراً بأن الذنب لم يكن ذنب أولئك النساء المتفانيات ، وإنما بسبب تلف رحيق رجولته . لم يفده في شيء أي دواء من أدوية الخصوبة التي كانت تنفع في مساعدة الآخرين ، فاستسلم أخيراً إلى الواقع الذي لا يمكن إنكاره بأن كليتيه جافتان . توقف عن تعذيب نسائه بمطالب غير مجدية واستمتع بهن إلى أقصى الحدود ، بمقتضى تعاليم مجموعته من كتب الوسادة . ولكن العجوز كان قد نأى عن تلك المتع منذ زمن طويل ، وصار أكثر اهتماماً في اكتساب معارف جديدة واكتشاف درب الحكمة الضيق ، وكان قد تخلص من المحظيات واحدة بعد أخرى ، لأن وجودهن يلهيه عن اهتماماته الفكرية . ولم يعد بحاجة إلى وجود فتاة أمام عينيه ليصفها في قصائد

سامية ، فالذاكرة تكفيه . وتخلى عن فكرة إنجاب الأبناء ، ولكنه كان مضطراً إلى التفكير بالمستقبل . فمن سيساعده في المرحلة الأخيرة وحين تحين ساعة الموت ؟ من سيتولى تنظيف قبره وتكريم ذكراه ؟ كان قد درب تلاميذ عديدين قبل ذلك ، وغذى مع كل واحد منهم لهفته إلى تبنيه ، ولكن أياً منهم لم يكن جديراً بمثل ذلك الشرف . لم يكن تاو تشين لماحاً أو أشد ذكاء من الآخرين ، ولكنه كان يحمل في داخله هوساً بالتعلم انتبه إليه المعلم على الفور ، لأنه مطابق لهوسه . ثم إنه كان فتى عذباً ومرحاً ، يسهل التعاطف معه . وقد مال إليه وأحبه خلال سنوات تعايشهما معاً إلى حد أنه كثيراً ما كان يتساءل كيف يمكن له ألا يكون ابناً من صلبه . ولكن تقديره لتلميذه لم يُعمِ بصيرته ، فهو يعرف من تجربته بأن تبدلات المراهقة تكون عميقة جداً في العادة ، ولا يمكنه أن يتنبأ أي نوع من الرجال سيكون هذا الفتى . ومثلما يقول المثل الصيني : « إذا كنت لامعاً في فتوتك ، فهذا لا يعني أنك ستكون ذا فائدة في الكبر . » كان يخشى أن يخطئ من جديد ، مثلما حدث له من قبل ، وفضل الانتظار بصبر إلى أن تتكشف الطبيعة الحقيقية للصبي . وفي أثناء ذلك سيقوده ، مثلما يفعل بالأشجار الفتية في حديقته ، ليساعده على النمو مستوياً . إنه يتعلم بسرعة على الأقل ، هكذا كان يفكر الطبيب العجوز ، مقدراً كم من السنوات بقيت له في الحياة . فوفقاً للعلامات الفلكية والملاحظة الدقيقة لجسده ، لن يتاح له الوقت لتدريب متعلم آخر .

سرعان ما تعلم تاو تشين انتقاء المواد من السوق ومن دكاكين الأعشاب - مساوماً على السعر مثلما يجب - واستطاع أن يحضر الأدوية دون مساعدة . ففي مراقبته للطبيب وهو يعمل توصل إلى معرفة اليات الجسم البشري المعقدة ، وإجراءات تبريد المحمومين وذوي المزاج الناري ، وتدفئة من يعانون برودة ما قبل الموت ، وتنشيط عصارة العاقرين وتنشيف أولئك المستنزفين بالسيلان . وكان يقوم برحلات طويلة إلى الحقول باحثاً عن

أفضل النباتات في لحظة فعاليتها القصوى ، ثم ينقلها بعد ذلك ملفوفة في أقمشة رطبة لتبقى غضة خلال طريق العودة إلى المدينة . وعندما أكمل الرابعة عشرة من عمره اعتبره معلمه ناضجاً للممارسة العملية ، وصار يبعث به بانتظام لفحص المومسات ، مزوداً إياه بتعليمات صارمة بالامتناع عن المتاجرة معهن ، لأنهن يحملن الموت مثلما يمكنه أن يتأكد بنفسه . وكان المعلم يحذره ويقدم له الوعود :

ـ أمراض المواخير تقتل أناساً أكثر من الأفيون والتيفوس . ولكن إذا ما أنجزت واجباتك وتعلمت بإيقاع جيد ، فسوف أشتري لك في الوقت المناسب فتاة عذراء .

كان تاو تشين قد عرف الجوع في طفولته ، ولكن جسده تمدد حتى زاد طول قامته عن قامة أي فرد من أفراد اسرته . ولم يكن يشعر وهو في الرابعة عشرة من عمره بانجذاب نحو الفتيات المأجورات ، وإنما بالفضول العلمي وحسب . كن مختلفات جداً عنه ، يعشن في عالم ناءٍ وسري جداً ، إلى حد لا يمكنه معه في الواقع أن يعتبرهن بشراً . فيما بعد ، عندما أخرجه هجوم طبيعته المفاجئ عن طوره ، وصار يمضي مثل مخمور يتعثر بظله ، فأسف مؤدبه لتخلصه من المحظيات . إذ ليس هناك ما يلهي الدارس الجيد عن واجباته مثل انفجار القوى الذكرية . ويمكن للمرأة أن تهدئه ، وأن تقدم له في الوقت نفسه معارف عملية ، ولكن بما أن فكرة شراء واحدة له بدت متعبة ـ وكان مرتاحاً في عالمه المقصور على الذكور ـ فقد راح يجبر تاو تشين على شرب منقوعات تهدئ تأججاته . لم يكن الجونغ يي يتذكر أعاصير العواطف الجسدية فكان يقدم إلى تلميذه بكل طيب نية كتب الوسادة التي في مكتبته ليقرأها كجزء من تربيته ، دون أن يقدر التأثير المهيج الذي تُحدثه في الفتى . وكان يجبره على أن يحفظ عن ظهر قلب كل واحدة من المئتين واثنتين وعشرين وضعية للجماع مع أسمائها الشاعرية ، ويفرض عليه أن يحددها في الرسوم التوضيحية

الجميلة في الكتب ، فكان ذلك يساهم بصورة ملحوظة في شرود الفتى .

تآلف تاو تشين مع كانتون على أحسن حال مثلما عرف من قبل قريته الصغيرة . لقد أعجبته تلك المدينة القديمة المسورة ، بفوضى شوارعها الملتوية وقنواتها ، حيث تتداخل القصور والأكواخ في اختلاط شامل وحيث يوجد أناس يعيشون ويموتون في قوارب في النهر ، دون أن تطأ أقدامهم اليابسة مطلقاً . اعتاد على المناخ الرطب والحار في الصيف الطويل الذي يضربه إعصار تيفون ، إنما اللطيف في الشتاء ، منذ تشرين الأول حتى آذار . كانت كانتون مغلقة على الغرباء ، وإن كان بعض القراصنة ينقضون عليها فجأة وهم يرفعون رايات أمم أخرى . وكانت هناك بعض المراكز التجارية ، حيث يمكن للأجانب أن يتبادلوا البضائع منذ شهر تشرين الثاني وحتى أيار فقط ، ولكن الضرائب والأنظمة والعوائق كانت كبيرة إلى حد يفضل معه التجار الأجانب أن يستقروا في ماكاو . في ساعات الصباح الباكر ، حين كان تاو تشين يخرج إلى السوق ، يجد عادة طفلات حديثات الولادة ملقيات على قارعة الطريق أو طافيات في القنوات ، وغالباً ما يكن ممزقات بأنياب الكلاب أو الجرذان . لم يكن هناك من يرغب فيهن ، لأنهن نفايات منبوذة . فما مبرر تغذية ابنة لا تفيد في شيء ومصيرها هو خدمة أسرة زوجها في نهاية المطاف ؟ وكان المثل الشعبي يؤكد : «ابن مشوه خير من عشر بنات لهن حكمة بوذا» . وقد كان هناك على أي حال الكثير من الأطفال الذين تتواصل ولادتهم مثل الفئران . وكانت المواخير ومحلات تدخين الأفيون تنتشر في كل مكان . لقد كانت كانتون مدينة مزدحمة ، غنية وفرحة ، تغص بالمعابد ، والمطاعم ، وبيوت اللعب ، حيث يحتفلون بصخب بأعياد التقويم . بل إن العقوبات وتنفيذ أحكام الإعدام تتحول إلى مبرر للاحتفال . فقد كانت كانت الحشود تجتمع لتهلل للجلادين بوزراتهم الملطخة بالدم ومجموعة سكاكينهم المشحوذة جيداً ، وهم يقطعون رؤوساً بضربة واحدة صائبة . كانت العدالة تطبق بسرعة

وبساطة ، دون أي إمكانية للاستئناف ودون أي قسوة غير مبررة ، اللهم إلا في حالات خيانة الإمبراطور ، وهي أسوأ جريمة ممكنة ، يعاقب عليها بالموت البطيء ونفي كل الأقارب ، بعد تحويلهم إلى عبيد . أما الخطايا الصغرى فيُعاقب عليها بالجلد أو بمنصة خشبية تثبت بإحكام حول عنق المذنبين لعدة أيام ، فلا يتمكنون بذلك من الراحة أو الوصول بأيديهم إلى رؤوسهم ليأكلوا أو ليحكوها . وكان يرتاد الساحات والأسواق رواة القصص الذين يطوفون في أرجاء البلاد مثل الرهبان المتسولين محافظين على ذلك التراث الشفوي العريق . وكان لاعبو الخفة والبهلوانات وسحرة الأفاعي والحواة والموسيقيون الجوالون ، والسحرة ومؤدو الحركات الالتوائية يجتمعون في الشوارع ، بينما تعج من حولهم تجارة الحرير ، والشاي ، واليشب ، والتوابل ، والذهب ، وقواقع السلاحف ، والخزف ، والعاج ، والأحجار الكريمة . وكانت الخضروات والثمار تعرض في اختلاطات فوضوية ؛ كرنب وبراعم بامبو غضة إلى جانب أقفاص القطط والكلاب ودببة الراكون التي يقتلها اللحام ويسلخها بحركة واحدة بناء على طلب الزبائن . كانت هناك أزقة طويلة لا تبيع إلا العصافير ، إذ لا يمكن أن يخلو أي بيت من الطيور ، بدءاً من أبسط البيوت وحتى تلك المشيدة من أخشاب فاخرة مرصعة بالفضة والصدف . وكانت جهات أخرى من السوق مخصصة للأسماك الغريبة التي تجلب حسن الطالع . وكان تاو تشين الفضولي على الدوام يتسلى بالتفرج وعقد الصداقات ثم يهرع راكضاً بعد ذلك لإنجاز مهمته في القطاع الذي تباع فيه مواد مهنته . وكان بمقدوره التعرف على المكان وهو مغمض العينين بفضل الروائح النفاذة للبهارات والنباتات والقشور الطبية . كانت الحيّات المجففة تتكدس ملفوفة مثل شلل خيوط معفرة ؛ وكانت هناك ضفادع وسمندرات وحيوانات بحرية غريبة تتدلى مسلوكة في خيوط ، مثل العقود ؛ وجداجد وخنافس كبيرة ذات دروع قاسية فوسفورية تتراخى موهنة في صناديق ؛ وقرود من كل الأصناف تنتظر دورها

لتموت ؛ قوائم دببة وأورانغوتان ، وقرون ظباء وخراتيت ، عيون نمور ، وزعانف أسماك قرش ، ومخالب طيور ليلية غامضة تباع بالميزان .

السنوات الأولى التي أمضاها تاو تشين في كانتون كانت سنوات دراسة وعمل وخدمة لمعلمه العجوز الذي توصل إلى توقيره كما لو كان جده . لقد كانت سنوات سعيدة . فاضمحلت ذكرى أسرته ونسي وجوه أبيه وأخوته ، ولكنه لم ينس وجه أمه ، لأنها كانت تظهر له بكثرة . وسرعان ما لم تعد الدراسة واجباً وتحولت إلى هوى . وكلما تعلم شيئاً جديداً كان يطير إلى حيث معلمه ليروي له باندفاع . فيضحك الشيخ : « كلما تعلمت أكثر ستدرك بسرعة أكبر كم هو قليل ما تعرفه » . وقرر تاو تشين بمبادرته الذاتية أن يتعلم لغة المندرين والكانتونية ، لأن لهجة قريته بدت له محدودة جداً . وكان يمتص معارف معلمه بسرعة كبيرة اعتاد العجوز معها على اتهامه مازحاً بالسطو حتى على أحلامه ، ولكن شغفه بالعلم كان يجعله كريماً معه . فتقاسم مع الفتى كل ما كان هذا الأخير يستفسر عنه ، ليس في موضوع الطب وحسب ، وإنما كذلك في مظاهر أخرى من احتياطي معارفه الواسعة وثقافته الراقية . لقد كان كريماً بطبعه ، ولكنه صارم مع ذلك في النقد والمطالبة ببذل الجهد ، لأنه كان يقول : « لم يبق لي وقت طويل ولا يمكنني أخذ ما أعرفه إلى العالم الآخر ، فلا بد لأحد من استخدامه بعد موتي » . ومع ذلك ، كان يحذره أيضاً من النهم إلى المعرفة لأنه قد يقيد الإنسان مثل الشراهة إلى الطعام وشدة الشبق . ويؤكد : « الحكيم لا يرغب في شيء ، ولا يبت في الأحكام ، ولا يضع خططاً ، ويُبقي ذهنه منفتحاً وقلبه في سلام » . وكان يؤنبه بحزن شديد حين يخطئ إلى حد يفضل معه تاو تشين لو أنه يجلده ، ولكن ممارسة ذلك كانت تبعث الضيق في نفس الجونغ يي الذي لم يكن يسمح أبداً للغضب بأن يتحكم بأفعاله . والمرات الوحيدة التي ضربه فيها باحتفالية بقضيب من البامبو ، دون غضب ولكن بيد تعليمية حازمة ، كانت عندما استطاع أن يثبت دون أدنى شك أن

تلميذه قد انقاد لنزوة لعب القمار أو أنه دفع نقوداً لامرأة . كان تاو تشين يخلط حسابات السوق لكي يقوم بالمراهنة في بيوت القمار التي يرى أنه من المستحيل مقاومة إغوائها ، أو من أجل تعزية قصيرة مع الحسم الخاص بالطلاب بين ذراعي إحدى مريضاته في المواخير . ولم يكن سيده يتأخر في اكتشافه ، لأنه إذا ما خسر في اللعب فلن يستطيع أن يفسر أين ذهبت بقية النقود ، وإذا ربح لا يستطيع إخفاء غبطته . أما بالنسبة إلى النساء فكان يشم رائحتهن على بشرة الفتى .

- اخلع قميصك ، فعلي أن أضربك بضع عصي لأرى إذا ما كنت ستفهم أخيراً يا بني . كم مرة قلت لك إن أسوأ علل الصين هي القمار والماخور ؟ في الأول يفقد الرجال نتاج عملهم وفي الثاني يفقدون صحتهم وحياتهم . وبمثل هذه الرذائل لا يمكن لك أن تصير طبيباً جيداً ولا شاعراً جيداً .

●

كان تاو تشين في السادسة عشرة من عمره عام ١٨٣٩ ، عندما اندلعت حرب الأفيون بين الصين وبريطانيا العظمى . وكانت جموع المتسولين قد غزت البلاد آنذاك . حشود بشرية كانت تهجر الحقول وتظهر بأسمالها وبثورها في المدن ، حيث كان يجري صدهم بالقوة ، وإجبارهم على الهيام على وجوههم مثل قطعان كلاب جائعة على دروب الإمبراطورية . عصابات لصوص ومتمردين تتصارع مع قوات الحكومة في حرب كمائن لا تنتهي . كان زمن الدمار والسلب . فالجيوش الإمبراطورية التي أصابها الوهن ، تحت أمرة جنرالات فاسدين يتلقون من بكين أوامر متناقضة ، لم تستطع مواجهة الأسطول الإنكليزي القوي والمنضبط . لم تكن تلك الجيوش تتلقى دعماً شعبياً ، لأن الفلاحين كانوا متعبين من رؤية مزروعاتهم تُدمر ، وقراهم تحترق وبناتهم يغتصبن على يد الجنود . وبعد قرابة أربع سنوات من القتال ، اضطرت الصين إلى قبول الهزيمة المذلة وأن تدفع ما يساوي واحداً وعشرين مليون دولار

للمنتصرين ، وأن تسلمهم هونغ كونغ وتمنحهم حق إقامة «امتيازات» ، وهي أحياء سكنية تحميها القوانين الخارجية . وهناك كان يعيش الأجانب مع شرطتهم ، وخدماتهم ، وحكومتهم وقوانينهم ، تحميهم قواتهم العسكرية الخاصة ؛ لقد كانت «الامتيازات» دولاً أجنبية حقيقية ضمن الأراضي الصينية ، ومنها كان الأوربيون يتحكمون بالتجارة ، وعلى رأسها تجارة الأفيون . لم يدخلوا إلى كانتون إلا بعد خمس سنوات من ذلك ، ولكن معلم الوخز بالإبر الذي أدرك الهزيمة المذلة لإمبراطوريته الموقرة ورأى اقتصاد وأخلاق بلاده تنهار ، قرر أنه لم يعد ثمة مبرر لمواصلة الحياة .

لقد اختلت روح جونغ يي العجوز خلال سنوات الحرب ، وفقد السكينة التي توصل إليها بمشقة على امتداد حياته . وصار انفصاله وسهوه عن الشؤون المادية حاداً إلى حد توجب معه على تاو تشين أن يضع له الطعام في فمه حين يمضي عدة أيام دون تغذية . اختلطت عليه الحسابات وبدأ الدائنون يطرقون بابه ، لكنه ازدراهم دون أي اعتبار . فكل ما يتعلق بالنقود يبدو له عبثاً شائناً ، ولكن الحكماء متحررون منه بالطبع . وفي اضطراب شيخوخته في تلك السنوات الأخيرة نسي نواياه الطيبة بتبني تلميذه والحصول له على زوجة ؛ والحقيقة أنه كان مشوش الذهن لدرجة أنه كثيراً ما كان يتفحص تاو تشين بنظرات حائرة ، ويعجز عن تذكر اسمه أو عن التعرف عليه في متاهة الوجوه والأحداث التي تداهم ذهنه دون انتظام أو انسجام . ولكنه وجد الحماس الكافي ليحدد تفاصيل دفنه ، لأن أهم حدث في حياة صيني مشهور هو جنازته بالذات . كانت فكرة وضع حد ليأسه بميتة أنيقة تخامر ذهنه منذ بعض الوقت ، ولكنه انتظر انتهاء الحرب معتصماً بالأمل السري وغير العقلاني برؤية انتصار جيوش الإمبراطورية السماوية . كانت عجرفة الأجانب تبدو له أمراً لا يطاق ، وكان يشعر بازدراء كبير نحو الفان ـ غووي الأفظاظ ، لأن أولئك الأشباح البيض الذين لا يغتسلون ، ويشربون الحليب والكحول ، هم جاهلون

تماماً بالقواعد الأولية للتربية الحميدة وغير قادرين على تكريم أسلافهم كما يجب . وكان يرى أن الاتفاقات التجارية هي منة يمنحها الإمبراطور لأولئك البرابرة الجاحدين الذين يطالبون بالمزيد بدل أن ينحنوا احتراماً وامتناناً . وكان توقيع معاهدة نانكينغ هو الضربة القاصمة لذلك الجونغ يي . فالإمبراطور وكل صيني ، حتى أدناهم مكانة ، فقدوا الشرف . كيف يمكن استرداد الكرامة بعد تلك الإهانة ؟

سمم الحكيم العجوز نفسه بابتلاع الذهب . ولدى العودة من إحدى رحلاته إلى الأرياف بحثاً عن نباتات ، وجده تلميذه في الحديقة متكئاً على وسائد حريرية ومرتدياً الأبيض ، كإشارة إلى حداده على نفسه . وإلى جانبه كان الشاي ما يزال دافئاً وحبر الريشة لما يجف . وعلى طاولته الصغيرة كان هناك بيت شعر غير مكتمل ويعسوب يدوم على نعومة الرق الجلدي . قبّل تاو تشين يدي الرجل الذي منحه الكثير ، ثم توقف لحظة ليتأمل بتقدير شكل جناحي الحشرة الشفافين على ضوء الغروب ، مثلما كان يرغب المعلم .

جاء إلى مأتم الحكيم حشد هائل ، لأنه كان قد ساعد خلال حياته الطويلة آلاف الأشخاص ليعيشوا أصحاء ويموتوا دون غم . مر ضباط الحكومة وأعيانها بمنتهى الوقار ، وألقى رجال الأدب أفضل قصائدهم ، وحضرت المومسات متزينات بالحرير . وحدد عرافٌ اليوم المناسب للدفن ، وزار فنان متخصص بشؤون الموت بيت المتوفى ليستنسخ أوضاعه . فذرع البيت ببطء دون يأخذ قياسات أو ملاحظات ، ولكنه تحت كميه الضخمين كان يضع علامات بظفره على لوح صغير من الشمع ؛ ثم صنع بعد ذلك مجسماً من الورق للبيت ، بغرفه وأثاثه ، إضافة إلى أشياء المتوفى المفضلة ، لكي يُحرق مع رزم نقود من الورق أيضاً . إذ يجب ألا يفتقد في العالم الآخر ما كان يتمتع به في هذا العالم .

اجتاز التابوت الضخم والمزين مثل عربة إمبراطورية شوارع المدينة بين

صفين من الجند بملابس المراسم ، يتقدمه خيالة مزينون بألوان لامعة وفرقة موسيقيين مزودين بالصنوج والطبول والنايات والأجراس والمثلثات المعدنية ومجموعة من الآلات الوترية .كانت الضجة لاتطاق ، مثلما يليق بالمتوفي البارز . وضعوا في القبر أزهاراً وملابس وأطعمة ، وأشعلوا شموعاً وبخوراً ثم أحرقوا النقود والأشياء الورقية الكثيرة . ووُضع لوح الأسلاف الخشبي الملبس بالذهب الذي حفر عليه اسم المعلم فوق القبر من أجل تلقي الروح ، بينما يرجع الجسد إلى الأرض . وكان الواجب يقتضي أن يتولى الابن الأكبر مسؤولية اللوح ويضعه في مكان الشرف في بيته إلى جانب ألواح أسلافه الذكور الآخرين ، ولكن لم يكن للطبيب ابن ينجز هذا الواجب . وتاو تشين ليس إلا مجرد خادم ، وسيكون تقدمه لعمل ذلك أمراً غير لائق وينطوي على انعدام اللباقة . لقد كان متأثراً حقاً ، وكانت دموعه ونحيبه هي الوحيدة الصادرة عن حزن حقيقي بين الجموع ، ولكن لوح الأسلاف وضع بين يدي ابن عم بعيد ، وهو من سيترتب عليه الواجب الأخلاقي بتقديم القرابين والصلاة قبالة اللوح كل خمسة عشر يوماً وفي كل عيد سنوي .

بعد الانتهاء من الطقوس الجنائزية المهيبة ، انقض الدائنون مثل بنات آوى على ممتلكات المعلم ، فدنسوا النصوص المقدسة والمختبر ، وخلطوا الأعشاب ، وخربوا المستحضرات الطبية ، وأتلفوا القصائد المحفوظة بعناية ، وحملوا الأثاث والتحف الفنية ، وجاسوا في أنحاء الحديقة البديعة وأجهزوا على المنزل القديم . قبل ذلك بوقت قصير كان تاوتشين قد أنقذ إبر الوخز الذهبية ، وعلبة أدوات طبية وبعض الأدوية الأساسية ، وكذلك بعض النقود التي كان يختلسها شيئاً فشيئاً على امتداد السنوات الثلاث الأخيرة ، عندما بدأ سيده يضيع في وعورة خرف الشيخوخة . لم يكن ينوي سرقة الجونغ يي الموقر الذي يجله مثل جد له ، وإنما أراد استخدام تلك النقود لإطعامه ، بعد أن رأى تراكم الديون وصار يخاف من المستقبل . ولكن انتحار المعلم سارع

الأمور ووجد تاو تشين نفسه يملك أموالاً غير منتظرة . إن استيلاءه على تلك النقود قد يكلفه رأسه ، لأنه سيعتبر جريمة اقترفها شخص من طبقة دنيا ضد سيد ، ولكنه كان واثقاً من أن أحداً لا يعرف ذلك ، اللهم إلا روح سيده المتوفى الذي سيكون راضياً دون شك عن تصرفه . ألا يفضل أن يكافئ خادمه وتلميذه بدل أن يدفع واحداً من الديون الكثيرة لدائنيه الأفظاظ ؟ بذلك الكنز المتواضع وبعض الملابس النظيفة هرب تاو تشين من المدينة . خطرت لذهنه بصورة عابرة فكرة الرجوع إلى مسقط رأسه ، ولكنه استبعدها على الفور . فهو لن يكون في نظر أسرته سوى الابن الرابع إلى الأبد ، وسيتوجب عليه أن يعمل من أجلهم ، وأن يقبل الزوجة التي يختارونها له ، وأن يصبر على البؤس . لم يكن هناك ما يشده في ذلك الاتجاه ، حتى ولا واجبات الوفاء تجاه أبيه وأسلافه التي تقع على عاتق اخوته الكبار . كان بحاجة إلى الذهاب بعيداً ، حيث لا تصله ذراع العدالة الصينية الطويلة . كان عمره عشرين سنة ، وما زالت تنقصه سنة ليكمل سنوات العبودية العشر ، ويمكن لأي واحد من الدائنين أن يطالب بحق استخدامه كعبد خلال ذلك الوقت .

تاو تشين

ركب تاو تشين زورق سمبان متوجهاً إلى هونغ كونغ وفي نيته البدء بحياة جديدة . لقد صار الآن جونغ يي ، متدربٌ في الطب التقليدي الصيني على يد أفضل معلم في كانتون . إنه مدين بالشكر الأبدي لأرواح أسلافه الموقرين الذين صاغوا قَدَره بطريقة مجيدة . وقرر بأن أول ما عليه عمله هو الحصول على امرأة ، فقد كان في سن أكثر من مناسبة للزواج وكانت العزوبة تثقل عليه بشدة ، إضافة إلى أن عدم وجود زوجة هو سمة الفقر المدقع . كان يداعب الطمع بالحصول على شابة رقيقة ذات قدمين بديعتين . يجب ألا يزيد طول زنبقتيها الذهبيتين عن ثلاث أو أربع بوصات ، ويجب أن تكونا مكتنزتين ولدنتي الملمس ، مثل قدمي طفل عمره شهور قليلة . كانت تفتنه الطريقة التي تسير بها فتاة على قدمين دقيقتين ، بخطوات شديدة القصر والتردد ، وكأنها على وشك السقوط على الدوام ، الإليتان مدفوعتان إلى الوراء وهي تهتز متمايلة مثل تمايل الخيزران على ضفة البحيرة في حديقة معلمه . إنه يكره الأقدام الكبيرة ، العضلية والباردة ، مثل أقدام الفلاحات . كان قد رأى من بعيد في قريته بعض الفتيات المضمدات الأقدام بأربطة ، إنهن مصدر فخر لأسرهن التي ستتمكن دون شك من تزويجهن زيجات لائقة ، ولكنه عندما عاشر عاهرات كانتون فقط ، أمسك بين يديه زوجاً من تلك الزنابق الذهبية

واستطاع أن ينتشي بالأخفاف الصغيرة المطرزة التي تغطيها دوماً ، ذلك أن العظام المقيدة لسنوات وسنوات تفرز مادة كريهة الرائحة . وعندما لمسها أدرك أن رقتها هي ثمرة ألم دائم ، وهذا يجعلها أثمن . عندئذ قدر عالياً الكتب المكرسة للأقدام الأنثوية التي كان معلمه يجمعها ، حيث يعددون خمسة أصناف وثمانية عشر أسلوباً مختلفاً للزنابق الذهبية . يجب أن تكون زوجته أيضاً شابة جداً ، فالجمال سريع الزوال ، يبدأ في حوالى الثانية عشرة وينتهي بعد بلوغ العشرين بقليل . هذا ما أوضحه له معلمه . فلسبب ما تموت أشهر بطلات الأدب الصيني على الدوام وهن في ذروة فتنتهن بالضبط ؛ طوبى لأولئك اللواتي يختفين قبل أن يعيث بهن التقدم في السن خراباً ، ويستطعن البقاء في الذاكرة وهن في أوج نضارتهن . وقد كانت هناك أسباب أخرى لتفضيل زوجة فتية : فهي ستنجب له أبناء ذكوراً ، وسيكون من السهل ترويض طباعها لتكون خاضعة له حقاً . فليس هناك ما هو أكثر إزعاجاً من امرأة فظة صاخبة ، وكان قد رأى بعضهن يبصقن على أزواجهن وأبنائهن ويصفعنهم ، بل ويفعلن ذلك في الشارع على مرأى من الجيران . ومثل هذا التعرض ليدي امرأة هو أسوأ ما يمكن أن يصيب سمعة الرجل . في زورق السمبان الذي ينقله ببطء عبر التسعين ميلاً التي تفصل كانتون عن هونغ كونغ ، مبتعداً للحظات عن حياته الماضية ، كان تاو تشين يحلم بتلك الفتاة ، وبالمتعة والأبناء الذين ستمنحه إياهم . كان يحصي مرة بعد أخرى النقود التي في كيسه ، وكأن حساباته المجردة لها ستمكنه من مضاعفتها ، ولكنه كان يرى بجلاء أن المبلغ لن يكفي للحصول على امرأة من تلك النوعية . ومع ذلك ، ومهما كان تسرعه ، فإنه لم يكن ليرضى بما هو أقل من ذلك ولن يقبل أن يعيش بقية أيامه مع زوجة ذات قدمين كبيرتين وطبع عنيد .

ظهرت جزيرة هونغ كونغ فجأة لعينيه ، بمحيطها من الجبال والطبيعة الخضراء ، منبثقة مثل حورية من مياه بحر الصين ذات اللون الأزرق النيلي . وما

ان رسا المركب الخفيف الذي ينقله في الميناء ، حتى أحس تاو تشين بحضور الأجانب البغيض . لقد كان قد لمح بعضهم من بعيد من قبل ، ولكنهم الآن قريبون جداً إلى حد يمكنه معه ، لو تجرأ ، أن يلمسهم ليتأكد مما إذا كانت تلك الكائنات الكبيرة الخالية من أي ملاحة ، هي من البشر حقاً . وقد اكتشف بذهول أن كثيرين من أولئك الفان غووي لهم شعور حمراء أو صفراء ، وأن عيونهم باهتة اللون وبشرتهم حمراء مثل جراد البحر المسلوق . وبدت له النساء قبيحات جداً ، يضعن قبعات مزينة بالريش والأزهار ، ربما بهدف إخفاء شعورهن الشيطانية . وهم يرتدون بطريقة استثنائية ، ملابس متيبسة وضيقة على الجسد ، وأفترض أن ذلك هو السبب في أنهم يتحركون مثل بشر آليين ولا يحيّون بانحناءات مهذبة ، ويمرون متيبسين ، دون أن يروا أحداً ، معانين بصمت من حر الصيف تحت ملابسهم غير المريحة . كان هناك في الميناء حوالي عشر سفن أوربية ، وسط مئات المراكب الآسيوية من كل الأحجام والألوان . وفي الشوارع رأى بعض العربات ذات الخيول يقودها رجال يرتدون زياً خاصاً ، تائهة بين عربات النقل البشري ، والمحفات ، والحمالات ، والنقالات أو بكل بساطة الأشخاص الذين يحملون زبائنهم على ظهورهم . لطمت رائحة السمك وجهه مثل صفعة ، مذكرة إياه بجوعه . عليّه أن يجد قبل كل شيء محل أطعمة من تلك التي تدل على نفسها بأشرطة قماشية صفراء طويلة .

أكل تاو تشين مثل أمير في مطعم مزدحم بأناس يتكلمون ويضحكون صارخين . وهو دليل مؤكد على السعادة والشهية الطيبة ، حيث تذوق الأطباق اللذيذة التي كانت قد انتقلت إلى عالم النسيان في بيت معلم الوخز بالإبر . فقد كان ذلك الجونغ يي شرهاً كبيراً خلال حياته يفاخر بأن أفضل طهاة كانتون قد عملوا في خدمته ، ولكنه في سنواته الأخيرة صار يتغذى على الشاي الأخضر والرز مع بعض براعم الخضار . وكان تاو تشين في الفترة التي هرب فيها من

عبوديته نحيلاً جداً مثل مرضى السل الكثيرين في هونغ كونغ . كانت تلك هي وجبته المعتبرة الأولى منذ زمن طويل ، وقد أوصله هجوم الطعوم والروائح والتراكيب إلى النشوة . وأنهى حفلته تلك بتدخين غليون أفيون بأقصى قدر من المتعة . خرج إلى الشارع طافياً وضاحكاً وحده ، مثل مجنون ، لم يكن قد أحس بمثل ذلك الحماس التام وحسن الطالع طوال حياته . استنشق الهواء المحيط به ، وكان مشابهاً تماماً لهواء كانتون ، وقرر بأنه سيكون من السهل عليه اقتحام هذه المدينة ، مثلما استطاع قبل تسع سنوات من أن يتمكن من تلك المدينة . سيبحث أولاً عن السوق وعن حي المداوين والعشابين ، حيث يمكنه العثور على مأوى وعرض خدماته المهنية . وبعد ذلك سيفكر بمسألة المرأة ذات القدمين الصغيرتين...

•

في مساء ذلك اليوم بالذات وجد تاو تشين مأوى له في علية بيت كبير مقسم إلى حجرات يأوي أسرة في كل حجرة... إنه وكر نمل حقيقي . وكانت حجرته عبارة عن نفق مظلم عرضه متر واحد وطوله ثلاثة أمتار ، بلا نافذة ، مظلم وحار ، يجتذب أبخرة مأكولات ومباول المستأجرين الآخرين مختلطة برائحة القذارة الكريهة التي لا يمكن إخطاؤها . إن تلك الحجرة بالمقارنة مع بيت معلمه الفاخر تساوي العيش في جحر فئران ، ولكنه تذكر أن كوخ والديه كان أشد بؤساً . وقرر أنه ليس بحاجة كعازب إلى مزيد من المساحة أو الترف ، إذ يكفيه ركن يمدّ فيه حصيرته ويخبئ ممتلكاته القليلة . وفيما بعد ، عندما سيتزوج ، سيبحث عن مسكن مناسب ، حيث يمكنه أن يحضر أدويته ويعتني بزبائنه ، وتخدمه امرأته بالطريقة اللائقة . أما في الوقت الراهن ، ريثما يتوصل إلى بعض العلاقات التي لا بد منها للعمل ، فإن ذلك المكان يوفر له على الأقل سقفاً وشيئاً من الخلوة . ترك أشياءه وخرج ليستحم ويحلق جبهته ويعيد جدل ضفيرته . وما ان صار مظهره لائقاً حتى مضى من فوره باحثاً عن

أحد بيوت اللعب ، مصمماً على مضاعفة رأس ماله في أقصر وقت ممكن ، وهكذا يمكنه الانطلاق على طريق النجاح .

وخلال أقل من ساعتين من المراهنة في لعبة فان ـ تان ، خسر تاو تشين نقوده كلها ، ولم يخسر معها أدواته الطبية إلا لأنه لم يحملها معه . كان الصراخ في صالة القمار راعداً إلى حد أن المراهنات كانت تتم بالاشارة من خلال دخان التبغ الكثيف . وقد كانت لعبة فان - تان بسيطة جداً ، تتمثل في حفنة من الأزرار موضوعة تحت فنجان . وكانت تتم المراهنات ، ثم يجري عدّ الأزرار أربعاً أربعاً ، ومن يكسب هو من يحزر كم بقي منها ؛ واحد أو اثنان أو ثلاثة أو لا شيء . وكان تاو تشين لا يكاد يستطيع أن يتابع بنظره يدي الرجل الذي يلقي الأزرار ويعدها . وقد بدا له أنه يغش ، ولكن اتهامه علناً بذلك سيُعتبر إهانة كبيرة ، يمكن لها أن تكلفه حياته إذا كان على خطأ . لقد كانوا يلتقطون كل يوم في كانتون جثث خاسرين متمادين فيما حول بيوتات اللعب ؛ ولا يمكن للأمر أن يكون مختلفاً في هونغ كونغ . رجع إلى نفق العلية وألقى بنفسه على حصيرته باكياً مثل طفل ، ومفكراً بالعصي التي كان يتلقاها على يد أستاذه معلم وخز الإبر العجوز . دام يأسه حتى اليوم التالي ، حين أدرك بوضوح مفاجئ تسرعه وعجرفته . فانفجر عندئذ في الضحك بسعادة للدرس الذي استخلصه ، موقناً من أن روح معلمه قد وضعته أمام تلك التجربة لكي يتعلم شيئاً جديداً . كان قد استيقظ وسط ظلمة شديدة يرافقها صخب البيت والشارع . كان الصباح قد تقدم كثيراً ، ولكن لم ينفذ إلى حجرته أي نور طبيعي . ارتدى ثيابه النظيفة الوحيدة مستعيناً باللمس . وكان ما يزال يضحك بمفرده ، ثم تناول حقيبة أدواته الطبية وانطلق إلى السوق . في المنطقة التي تصطف فيها حوانيت الوشامين المغطاة من أعلاها إلى أسفلها بقطع قماش وورق تعرض الرسوم ، حيث يمكن الاختيار بين آلاف التصميمات ، بدءاً بأزهار رصينة بحبر أزرق نيلي ، وحتى تنانين عجيبة بخمسة ألوان ، يمكن لها

أن تزين بالكامل ظهر رجل مربوع . أمضى نصف ساعة وهو يساوم ، وتوصل أخيراً إلى اتفاق مع فنان يرغب في أن يقايض وشماً متواضعاً مقابل شراب طبي ينظف الكبد . وفي أقل من عشر دقائق وشم له على ظاهر يده اليمنى ، وهي اليد التي تستخدم في المراهنات ، كلمة « لا » بخط بسيط وأنيق .

وطلب منه تاو تشين :

- إذا ما أفادك الشراب ، فانصح أصدقاءك بأن يستفيدوا من خدماتي .

ورد عليه الفنان :

- وإذا أفادك وشمي فافعل الشيء نفسه .

وقد أكد تاو تشين على الدوام بأن ذلك الوشم قد جلب له حسن الطالع . خرج من الحانوت إلى صخب السوق ، متقدماً بالدفع وبالمنكبين في الأزقة الضيقة المزدحمة بالبشر . لم يكن هناك أي أجنبي ، وبدا السوق مماثلاً لسوق كانتون . كان الضجيج أشبه بشلال ، فالبائعون ينادون على مزايا بضائعهم والزبائن يساومون صراخاً وسط ضجة الطيور المحبوسة في أقفاص ، وعويل الحيوانات التي تنتظر دورها تحت السكين . كانت تفوح عفونة زخمة من روائح عرق ، وحيوانات حية وميتة ، وبراز وقمامة ، وبهارات ، وأفيون ، وطهو أطعمة وكل أنواع منتجات ومخلوقات الأرض والفضاء والماء التي يمكن لمسها بالأصابع . رأى امرأة تعرض سرطانات . كانت تُخرج السرطانات حية من كيس ، وتسلقها بضع دقائق في حلة كبيرة لمائها قوام قاع البحر اللزج ، ثم تنتشلها بمغرفة ، وتغمسها في صلصة صويا وتقدمها للزبائن العابرين في قطعة من الورق . وكانت يداها ممتلئتين بالثآليل . فاوضها تاو تشين على تقديم وجبة غداء له طوال شهر كامل مقابل أن يعالج مرضها . فقالت :

- آي! أرى أنك تحب السرطانات كثيراً .

- إنني أمقتها ، ولكنني سآكلها كعقاب ، كيلا أنسى درساً يجب علي أن أتذكره على الدوام .

- وإذا أنت لم تشفني خلال شهر ، من سيعيد لي السرطانات التي ستأكلها ؟

فابتسم تاو :

- إذا ما بقيت ثآليلك بعد شهر ، فإنني سأخسر سمعتي . ومن سيشتري عندئذ أدويتي ؟

- حسن .

هكذا بدأت حياته كرجل حر في هونغ كونغ . بعد يومين أو ثلاثة أيام شفي الورم وظهر الوشم على يده مثل خطوط أوردة زرقاء . وخلال ذلك الشهر ، بينما هو يجوب محلات السوق عارضاً خدماته المهنية ، كان يأكل وجبة واحدة في اليوم فقط ، هي سرطانات مسلوقة على الدوام ، فانخفض وزنه إلى حد صار معه بإمكانه أن يثبت قطعة من العملة في الفجوة التي بين أضلاعه . وكان كل سرطان يدفعه إلى فمه متغلباً على القرف يجعله يبتسم مفكراً بمعلمه الذي لم يكن يحب السرطانات كذلك . اختفت ثآليل المرأة بعد ستة وعشرين يوماً ، فنشرت وهي ممتنة الخبر بين الجيران . وعرضت عليه شهراً ثانياً من السرطانات ليشفي عينها من الماء الأزرق ، ولكن تاو رأى أن عقوبته التي تلقاها كافية ، ويمكنه أن ينعم بترف عدم العودة إلى تذوق تلك الكائنات طوال ما تبقى من حياته . كان يرجع في الليل منهوكاً إلى حجرته ، فيعد قطع نقوده على ضوء الشمعة ، ويخبئها تحت ألواح الأرضية الخشبية ثم يغلي ماءً على موقد الفحم الصغير ليتغلب على الجوع بالشاي . وبين حين وآخر ، حين تبدأ ساقاه أو عزيمته بالتراخي ، يشتري قصعة رز ، أو شيئاً من السكر أو غليون أفيون ، يتذوقه ببطء ، ممتناً لأنه توجد في الدنيا مكافآت مذهلة إلى هذا الحد ، مثل عزاء الرز ، وحلاوة السكر ، وأحلام الأفيون المتقنة . ولم يكن ينفق إلا ليدفع مقابل الإيجار ، ودروس اللغة الإنكليزية ، وحلاقة جبهته ، ومقابل غسل ملابسه لأنه لا يمكنه أن يتجول مثل متسول .

لقد كان معلمه يلبس مثل مندرين ، وقد علمه بأن :«المظهر الجيد هو علامة تحضر ، ولا يمكن للجونغ يي أن يكون مثل المداوي الريفي ؛ وكلما كان المريض أشد فقراً ، يجب أن تكون ملابسك أكثر ثراءً ، فهذا هو الاحترام» . وشيئاً فشيئاً راحت سمعته تنتشر ، بين أناس السوق وأسرهم في أول الأمر ، ثم في حي الميناء ، حيث كان يعالج البحارة من جراح المشاجرات ، ومن داء الإسقربوط والبثور التناسلية والتسممات .

بعد مرور ستة أشهر صار لدى تاو تشين زبائن أوفياء وبدا عمله يزدهر . فانتقل إلى غرفة لها نافذة ، وأثثها بسرير كبير يمكن أن ينفعه عندما يتزوج ، ومقعد وطاولة كتابة إنكليزية . كما اقتنى بعض الملابس ، وكان يرغب منذ سنوات في أن يلبس بصورة لائقة . وكان قد قرر تعلم اللغة الإنكليزية ، لأنه أدرك سريعاً أين تكمن السلطة . فقد كانت حفنة من البريطانيين تتحكم بهونغ كونغ ، تضع القوانين وتطبقها ، وتوجه التجارة والسياسة . كان الفان - غووي يعيشون في أحياء مقصورة عليهم ولا يقيمون علاقة إلا مع الصينيين الأثرياء الذين يعقدون الصفقات معهم ، وباللغة الإنكليزية دائماً . وكانت الحشود الصينية الساحقة تتقاسم وإياهم الزمان والمكان ، ولكنها كانت كمن لاوجود له . لقد كانت تخرج من هونغ كونغ أفخر المنتجات لتُنقل مباشرة إلى صالونات أوربة المبهورة بتلك الثقافة العريقة المغرقة في القدم . وكانت «محلات الصينيات» رائجة . فالحرير يثير الشبق في الملابس ؛ ولا يمكن عدم وجود جسور ظريفة مزينة بمصابيح وأشجار صفصاف متهدلة تحاكي حدائق بكين السرية البديعة ، وكانت سقوف الباغودا تستخدم في عرائش الحدائق ، ورسوم التنانين وأزهار الكرز شائعة إلى حد الغثيان في زينات الديكور . ولم يكن هناك بيت إنكليزي إلا وفيه صالة شرقية تضم حاجز بارابان كورمانديل ، ومجموعة من الخزف والعاج ، ومراوح طرزتها أيد طفولية بالغرزة المحرمة وكناريات إمبراطورية في أقفاص ذات نقوش محفورة . ولم

تكن السفن التي تنقل تلك الكنوز إلى أوربة ترجع فارغة ، بل تحضر الأفيون من الهند ليباع بالتهريب ، وبضائع رخيصة أخرى قوضت الصناعات المحلية الصغيرة . كان على الصينيين أن يتنافسوا مع الإنكليز والهولنديين والفرنسيين والأمريكيين لكي يتاجروا في وطنهم نفسه . ولكن الأفيون كان النكبة الكبرى . لقد كان يستخدم في الصين منذ قرون كوسيلة تسلية ولأغراض طبية ، ولكنه تحول إلى شر لا يمكن التحكم به عندما أغرق الإنكليز السوق . فغزا كل قطاعات المجتمع ، فأضعفها وفتتها مثل خبز متعفن .

نظر الصينيون إلى الأجانب في أول مرة بازدراء وقرف ، وبتعال هائل ممن يشعرون بأنهم الكائنات المتحضرة الوحيدة في الكون ، ولكنهم تعلموا خلال سنوات قليلة أن يحترموهم ويخافوهم . وكان الأجانب من جهتهم يتصرفون وهم متشربون بمفهوم التفوق العرقي نفسه ، واثقين من أنهم نذر الحضارة في أرض أناس قذرين ، قبيحين ، ضعفاء ، صاخبين ، فاسدين ، ومتوحشين يأكلون القطط والأفاعي ويقتلون بناتهم عند ولادتهن . قليلون منهم كانوا يعرفون أن الصينيين قد استخدموا الكتابة قبلهم بألف سنة . وبينما كان التجار يفرضون ثقافة المخدر والعنف ، كان المبشرون يحاولون تنصيرهم . فالمسيحية يجب أن تنتشر بأي ثمن ، فهي الدين الحقيقي الوحيد ، وواقع أن كونفوشيوس عاش قبل المسيح بخمسمئة سنة لا يعني لهم شيئاً . كانوا يعتبرون الصينيين أشباه بشر ، ولكنهم يحاولون إنقاذ أرواحهم ويدفعون لهم رزاً مقابل تحولهم إلى ديانتهم . فكان أولئك المسيحيون الجدد يلتهمون وجبتهم من الرشوة الإلهية ويمضون إلى كنيسة أخرى ليتحولوا من جديد ، سعداء حيال نزوة أولئك الأجانب في الدعوة إلى معتقداتهم وكأنها المعتقدات الوحيدة . فالروحانية الأقرب إلى الفلسفة منها إلى الدين في نظرهم ، هم العمليون والمتسامحون ، هي مسألة أخلاق ، وليست دوغمائية على الإطلاق .

أخذ تاو تشين الدروس على يد أحد مواطنيه الذي كان يتكلم إنكليزية

هلامية وخالية من الحروف الصامتة ، ولكنه يكتبها بأقصى قدر من السلامة . فالأبجدية الأوربية بالمقارنة مع الرموز الصينية تبدو ذات بساطة فاتنة . وخلال خمسة أسابيع صار بإمكان تاو تشين أن يقرأ الصحف البريطانية دون أن يتلعثم بالحروف ، مع أنه كان يحتاج إلى اللجوء إلى المعجم كلما قرأ خمس كلمات . كان يقضي ساعات من الليل في الدراسة . ويحن إلى معلمه الموقر الذي وسمه إلى الأبد بالتعطش إلى المعرفة ، وهو تعطش لجوج لا يقل عن تعطش السكير إلى الشراب ، والطموح إلى السلطة . لم يعد بإمكانه الاعتماد على مكتبة العجوز ولا على ينبوع خبرته الثر الذي لا ينضب ، ولا يمكنه أن يلجأ إليه ليطلب النصح أو ليناقش معه أعراض مريض ، كان يفتقر إلى دليل ناصح ، ويشعر باليتم . ومنذ موت مؤدبه لم يعد يكتب أو يقرأ شعراً ، ولم يعد يجد وقتاً للإعجاب بالطبيعة ، ولا للتأمل ولا لمراقبة الطقوس والشعائر اليومية التي كانت تُغني حياته من قبل . كان يحس بامتلائه بالضجيج في داخله ، ويحن بلهفة إلى فراغ الصمت والوحدة الذي علمه معلمه أن يرعاه كأثمن الهبات . ومن خلال ممارسته لمهنته تعلم حول الطبيعة المعقدة للكائنات البشرية ، والفروق الانفعالية بين الرجال والنساء ، والأمراض التي يمكن معالجتها بالعقاقير وحدها ، وتلك التي تتطلب فوق ذلك الكلمة السحرية المناسبة ، ولكنه كان يفتقر إلى من يشاطره خبراته . وكان الحلم بشراء زوجة وتكوين أسرة حاضراً في ذهنه على الدوام ، ولكنه حلم غائم وباهت ، مثل منظر بديع مرسوم على الحرير . أما الرغبة في اقتناء كتب ، وفي الدراسة ، والوصول إلى معلمين آخرين مستعدين لمساعدته في طريق المعرفة ، فكانت تتحول بالمقابل إلى هوس متسلط على عقله .

كانت الأمور على هذا النحو عندما تعرف تاو تشين على الدكتور إيبانزر هوبز ، الأرستقراطي الإنكليزي الذي ليس فيه شيء من العجرفة ، ويهتم باللون المحلي للمدينة ، على خلاف غيره من الأوربيين . رآه للمرة الأولى في السوق

ينبش ما بين أعشاب وأشربة دكان للمداوين . كان الإنكليزي يعرف عشر كلمات فقط من لهجة المندرين ، ولكنه يرددها بصوت جهوري وقناعة حاسمة جعلت حشداً صغيراً يلتف حوله بين ساخر ومرتعب . كان من السهل رؤيته من بعيد ، لأن رأسه كان يبرز أعلى من الحشد الصيني . ولم يكن تاو تشين قد رأى أجنبياً من قبل في تلك الأنحاء ، بعيداً عن القطاع الذي يتجولون فيه عادة ، ودنا لينظر إليه عن قرب . كان رجلاً شاباً ، طويلاً ونحيلاً ، له تقاطيع نبيلة وعينان زرقاوان واسعتان . وتأكد تاو تشين وهو مفتون بأنه قادر على ترجمة الكلمات العشر التي يعرفها ذلك الأجنبي ، وبأنه هو نفسه يعرف مثلها على الأقل باللغة الإنكليزية ، وربما يمكن لهما بهذا أن يتواصلا . حياه بانحناءة ودية ورد الآخر بمحاكاة الانحناءات بحركة غير حاذقة . ابتسما معاً ثم انفجرا ضاحكين ، وانقاد لهما كورال المشاهدين بقهقهات مهذبة . بدأا حواراً متلهفاً بعشرين كلمة تُنطق بصورة سيئة من جانب هذا وذاك ، وبإيماءات بهلوانات مضحكة أمام بهجة الفضوليين المتزايدة . وسرعان ما تجمع حشد معتبر من الناس عرقل حركة المرور ، وكان الجميع يكادون يموتون من الضحك ، مما اجتذب شرطياً بريطانياً على جواد ، فأمر بفض التجمع على الفور . هكذا نشأ تحالف متين بين الرجلين .

كان إبانيزر هوبز مدركاً لمحدودية مهنته ، مثلما كان تاو تشين يدرك محدودية مهنته أيضاً . فكان الأول يرغب في تعلم أسرار الطب الشرقي التي لمحها في رحلاته إلى آسيا ، وخصوصاً التحكم بالألم بواسطة إبر تغرس في النهايات العصبية واستخدام خلائط من النباتات والأعشاب لمعالجة أمراض مختلفة تعتبر مميتة في أوربا . وكان الثاني يشعر بالافتتان بالطب الغربي وأساليبه العدوانية في العلاج . فقط كان طبه فناً متبصراً يقوم على التوازن والانسجام ، إنه مهمة بطيئة لتقويم الطاقة المنحرفة ، واستباق المرض والبحث عن أسباب الأعراض . لم يكن تاو تشين قد مارس الجراحة مطلقاً ، ومعارفه في

التشريح ، الدقيقة جداً فيما يتعلق بمختلف أماكن النبض ومواقع الوخز بالإبر ، كانت تقتصر على ما يمكن رؤيته ولمسه . لقد كان يعرف عن ظهر قلب الرسوم التشريحية التي تضمها مكتبة معلمه السابق ، إنما لم يخطر له مطلقاً أن يشق جثة ويفتحها . فهذه العادة لم تكن معروفة في الطب الصيني ؛ ومعلمه الحكيم الذي مارس فن الإشفاء طوال حياته ، نادراً ما رأى أجهزة الجسم الداخلية ، ولم يكن قادراً على التشخيص إذا ما واجهته أعراض لا تتفق مع قائمة الأمراض المعروفة . أما إيبانيزر هوبز بالمقابل ، فكان يفتح جثثاً ويبحث عن السبب ، وهكذا يتعلم . لقد فعل تاو تشين ذلك لأول مرة في قبو مستشفى الإنكليز ، في ليلة أعاصير عاتية ، كمساعد للدكتور هوبز الذي كان قد وضع في صباح ذلك اليوم إبر الوخز الأولى لتخفيف حالة صداع في العيادة التي يعالج فيها تاو تشين زبائنه . كان في هونغ كونغ بعض المبشرين المهتمين بعلاج الأجساد كاهتمامهم بتحويل أرواح رعيتهم ، وكان الدكتور هوبز يقيم معهم علاقات ممتازة . وكانوا أقرب إلى السكان المحليين من أطباء المستعمرة البريطانيين ويقدرون أساليب الطب الشرقي . وقد فتحوا أبواب مستشفياتهم الصغيرة للجونغ يي . وكان لا بد لحماس تاو تشين وإيبانيزر إلى الدراسة والتجريب من أن يقودهما حتماً إلى المودة والتعاطف . وكانا يجتمعان في السر تقريباً ، لأن شيوع أمر صداقتهما ، سيعرضهما للمجازفة بسمعتهما . فالمرضى الأوربيون والصينيون على السواء لا يتقبلون أن يكون لدى العرق الآخر ما يمكن أن يعلمهم إياه .

•

ما إن تحسنت أحوال تاو تشين المالية قليلاً حتى عادت اللهفة لشراء زوجة تسيطر على أحلامه . وعندما بلغ الثانية والعشرين من عمره أحصى مدخراته مرة أخرى ، مثلما يفعل بكثرة ، وتبين له وهو سعيد بأن ما لديه يكفي لامرأة ذات قدمين صغيرتين وطبع عذب . وبما أنه بلا أبوين يساعدانه

في الاجراءات ، مثلما تتطلب العادات ، فقد اضطر إلى اللجوء إلى الوكلاء . عرضوا عليه صوراً لعدة مرشحات ، ولكنه رآهن جميعهن متشابهات ؛ فقد كان من المستحيل عليه أن يتصور مظهر فتاة ـ وأقل من ذلك أن يعرف شخصيتها ـ انطلاقاً من تلك الرسوم المتواضعة بالحبر . لم يكن مسموح له رؤيتها بعينيه أو سماع صوتها ، مثلما كان يرغب ؛ ولم يكن ثمة أنثى من أسرته تفعل ذلك بالنيابة عنه . ولكنه كان يستطيع رؤية قدميها بالتطلع من تحت ستارة ، إنما قيل له إن ذلك غير مؤكد أيضاً ، لأن الوكلاء يلجؤون عادة إلى الخداع ويعرضون عليه الزنابق الذهبية لامرأة أخرى . لا بد له من أن يضع ثقته في القَدر . وكان على وشك أن يترك حسم القرار للنرد ، ولكن الوشم على يده اليمنى ذكره بعثراته السابقة في ألعاب الحظ ، وفضل إسناد المهمة إلى روح أمه وروح معلم وخز الإبر . وبعد أن جاب خمسة معابد مقدماً القرابين ، ضرب الحظ بعيدان الآي تشين ، حيث قرأ أن تلك هي اللحظة المناسبة ، وهكذا اختار العروس . ولم يخيب الأسلوب ظنه . فعندما رفع المنديل الحريري الأحمر عن رأس زوجته المتألقة ، بعد انتهاء الطقوس الدنيا ، لأنه لا يملك نقوداً لإقامة حفلة زفاف أكثر أبهة ، وجد نفسه أمام وجه متناسق ينظر بالحاح إلى الأرض . كرر اسمها ثلاث مرات قبل أن تتجرأ على النظر إليه بعينيها الممتلئتين بالدموع ، وهي ترتجف من الرعب .

فعاهدها وهو لا يقل عنها تأثراً :

ـ سأكون طيباً معك .

منذ اللحظة التي رفع فيها قطعة النسيج الحمراء تلك ، تدله تاو بحب تلك الشابة التي جعلها الحظ من نصيبه . وقد استولى عليه ذلك الحب بغتة : إذ لم يكن يتصور بأنه يمكن أن يكون ثمة وجود لتلك المشاعر بين رجل وامرأة . فهو لم يسمع تصريحاً عن مثل هذا النوع من الحب ، وكان قد قرأ فقط بعض الإشارات الغامضة في الأدب الكلاسيكي ، حيث العذارى ، مثل المناظر

الطبيعية أو القمر ، يشكلن موضوعاً لا بد منه للإلهام الشعري . ومع ذلك ، فقد كان يعتقد بأن النساء في العالم الواقعي لسن سوى مخلوقات للعمل والإنجاب ، مثلما هن الفلاحات اللواتي تربى بينهن ، أو أنهن أشياء زينة غالية . لم تكن لين تنتمي إلى أي من هذين الصنفين ، بل كانت شخصاً غامضاً ومعقداً ، قادرة على تجريده من أسلحته بتهكمها وتحديه بأسئلتها . كانت تُضحكه مثلما لم يضحكه أحد ، وتخترع له قصصاً مستحيلة ، وتستفزه بألعاب الكلمات . ففي حضور لين يبدو كل شيء مشرقاً مثل بريق لا يُقاوم . وقد كان اكتشاف العلاقة الحميمة العجيبة مع كائن بشري آخر هو التجربة الأشد عمقاً في حياته . لقد كانت له مع العاهرات لقاءات ديك متسرع ، ولكنه لم يجد قط ما يكفي من الوقت والحب ليتعرف على أي واحدة منهن بعمق . إن فتح عينيه في الصباح ورؤية لين نائمة بجانبه يدفعه إلى الضحك بسعادة ، ثم يرتعش غماً بعد لحظة من ذلك . وماذا إذا هي لم تستيقظ في صباح أحد الأيام ؟ رائحة عرقها العذبة في ليالي الحب ، خط حاجبيها الرفيع المتعالي في إيماءة مفاجأة أبدية ، رقة خصرها المستحيلة ، كل ما فيها يُثقل عليه بالحنان . آه! وضحكة الاثنين معاً . هذا ما هو أفضل من كل شيء... السعادة الظريفة لهذا الحب . إن « كتب الوسادة » لدى معلمه العجوز ، التي كثيراً ما سببت له تهيجات غير مجدية في مراهقته ، أثبتت أنها عظيمة الفائدة في ساعة اللذة . فمثلما هو متوقع من شابة عذراء حسنة التربية ، كانت لين متواضعة في سلوكها اليومي ، ولكنها ما إن تخلصت من الخوف من زوجها حتى برزت طبيعتها الأنثوية العفوية والعاطفية . ففي زمن قصير تعلمت هذه التلميذة النهمة المائتين واثنتين وعشرين طريقة لممارسة الحب وكانت مستعدة على الدوام لمجاراته في ذلك السباق الجنوني ، فاقترحت على زوجها ابتداع طرق أخرى . ولحسن حظ تاو تشين ، فإن المعارف المتفننة التي اكتسبها نظرياً في مكتبة مؤدبه كانت تتضمن طرقاً لا حصر لها لإرضاء امرأة ، وكان يعرف أن القوة في هذا

المجال أقل قيمة من الصبر . لقد كانت أصابعه مدربة من أجل جس مختلف نبضات الجسد وتحديد أكثر المواضع حساسية بعينين مغمضتين ؛ وقد تحولت يداه الدافئتان والثابتتان ، الخبيرتان في تسكين آلام مرضاه ، إلى أداتي متعة غير متناهية للين . كما أنه اكتشف شيئاً نسي معلمه الموقر أن يعلمه إياه : إن أفضل منشط هو الحب . فقد كان بإمكانهما أن يبلغا ذروة السعادة في الفراش ، وأن تمحي متاعب الحياة خلال الليل . ولكن تلك المتاعب كانت كثيرة ، مثلما بدا جلياً بعد وقت قصير .

الأرواح التي استدعاها تاو تشين لمساعدته في اتخاذ قرار الزواج أنجزت ما هو مطلوب على أكمل وجه : فقد كانت لين مضمدة القدمين وخجولة وعذبة مثل سنجاب . إنما لم يخطر لتاو تشين أن يطالب كذلك بأن تتمتع زوجته بالقوة والصحة . فالمرأة نفسها التي كانت تبدو ذات قدرات لا تنضب في الليل ، تتحول خلال النهار إلى مقعدة . فهي لا تكاد تستطيع المشي لمسافة كوادرتين بخطوات المعاقة اِلتي تخطوها . صحيح أنها حين تفعل ذلك تتحرك بظرافة وخفة عود قصب في مهب النسيم ، مثلما كان يمكن دون ريب لمعلم وخز الإبر العجوز أن يكتب في بعض قصائده ، ولكن لم يكن أقل صحة من ذلك أن مشواراً قصيراً إلى السوق لشراء كرنب من أجل العشاء يعني عذاباً لزنبقتيها الذهبيتين . لم تكن تشكو أبداً بصوت عالٍ ، ولكن كانت تكفي رؤيتها تتعرق وتعض شفتيها لإدارك الجهد الذي تتكلفه في كل حركة . كما أن رئتيها كانتا غير سليمتين . فهي تتنفس بصفير حاد كزقزقة الكناري ، وتمضي فصل الأمطار معانية من الزكام وفصل الجفاف مختنقة لأن الهواء الساخن كان يبقى عالقاً بين أسنانها . ولم تستطع أعشاب زوجها ولا أدوية صديقه الطبيب الإنكليزي أن تخفف عنها . وعندما حبلت ساءت أحوالها ، فهيكلها الهش كان لا يكاد يتحمل ثقل الجنين . ومنذ الشهر الرابع توقفت عن الخروج تماماً وجلست خامدة قبالة النافذة تنظر مرور الحياة في الشارع . تعاقد تاو تشين مع

خادمتين لتتوليا الأعمال المنزلية وترافقاها ، لأنه كان يخشى أن تموت لين في أثناء غيابه . ضاعف ساعات عمله وبدأ للمرة الأولى يضايق مرضاه ليقبض منهم ، وهو ما كان يملأه بالخجل . كان يشعر بنظرات معلمه المنتقدة تذكره بواجب تقديم الخدمة دون انتظار تعويض ، لأن «من يعرف أكثر ، عليه واجبات أكثر تجاه الإنسانية» . ولكنه لا يستطيع مع ذلك أن يعالج مجاناً أو مقابل بعض الخدمات ، مثلما كان يفعل من قبل ، فهو يحتاج لكل قرش لتوفير الراحة للين . كان في ذلك الحين يملك الطابق الثاني من بيت قديم ، حيث استقر بزوجته مع وسائل راحة لم يتمتع بها أي منهما من قبل ، ولكنه لم يكن راضياً . فقد استحوذت على ذهنه فكرة الحصول على مسكن مع حديقة ، فهكذا يكون لديها المنظر الجميل والهواء النقي . وقد أوضح له صديقه إيبانيزر هوبز - لأنه كان يرفض رؤية ما هو جلي - بأن داء السل كان متقدماً جداً ولا يمكن لأي حديقة أن تُشفي لين .

وقد نصحه هوبز :

- بدلاً من أن تعمل منذ مطلع الفجر وحتى منتصف الليل من أجل إرضائها بفساتين حريرية وأثاث مترف ، ابق معها أطول وقت ممكن يا دكتور تشين . يجب أن تمتعها ما دامت معك .

اتفق الطبيبان ، كل منهما انطلاقاً من منظور خبرته الخاصة ، بأن الولادة ستكون تجربة نارية بالنسبة إلى لين . لم يكن أي منهما يفهم في ذلك الاختصاص ، لأنه كان في أوربا وفي الصين على السواء بيد القابلات ، ولكنهما عزما على دراسته . لم يكونا يثقان بمهارة امرأة مسترجلة فظة في انتزاع الطفل من أمه بيديها القذرتين وشعوذاتها وأساليبها الهمجية ، وصمما على تخليص لين من مثل تلك التجربة المشؤومة . ولكن المرأة الشابة لم توافق مع ذلك على أن تضع مولودها أمام رجلين ، خصوصاً وأن أحدهما هو أجنبي ذو عينين باهتتين ، لا يتقن التكلم بلغة البشر . وتوسلت إلى زوجها بأن يلجأ إلى

قابلة الحي ، لأن أبسط قواعد الحشمة تمنعها من فتح ساقيها أمام شيطان أجنبي ، ولكن تاو تشين المستعد دوماً لإرضائها ، أبدى في تلك المرة صلابة لا تلين . واتفقا أخيراً على أن يتولى ذلك هو بنفسه ، بينما يبقى إيبانيزر هوبز في الغرفة المجاورة ليقدم له دعماً لفظياً إذا اقتضت الضرورة .

●

أول تباشير الولادة كانت نوبة ربو أوشكت أن تودي بحياة لين . فاختلطت الجهود التي تبذلها للتنفس مع جهود البطن لإخراج الوليد ، ووقف تاو تشين بكل حبه وعلمه ، وإيبانيزر هوبز بنصوصه الطبية ، عاجزين عن مساعدتها . وبعد عشر ساعات من ذلك ، عندما تراخت تأوهات الأم إلى حشرجات مخنوق متعثرة دون أن يبدي الوليد ما يشير إلى أنه سيخرج ، غادر تاو تشين مسرعاً لإحضار القابلة ، وقد جاء بها على الرغم من اشمئزازه منها بما يشبه الجرجرة عملياً . ومثلما كان تشين وهوبز يخشيان ، كانت المرأة عجوزاً كريهة الرائحة من المستحيل التحدث معها في أدنى المعارف الطبية ، لأن ما تقوم به لم يكن علماً ، وإنما خبرة طويلة وفطرة قديمة . بدأت بإبعاد الرجلين بالدفع ، محظرة عليهما أن يطلا من خلال الستارة التي تفصل بين الحجرتين . لم يعرف تاو تشين قط ما حدث وراء تلك الستارة ، ولكنه اطمأن عندما سمع لين تتنفس دون اختناق وتصرخ بقوة . وفي الساعات التالية ، بينما كان إيبانيزر هوبز يغفو مستنفداً على كرسي وتاو تشين يستشير بقنوط روح معلمه ، أخرجت لين إلى الدنيا طفلة منهكة . وبما أن المولودة أنثى فإن القابلة والأب على السواء لم يهتما بإنعاشها ، بل انهمكا كلاهما في مهمة إنقاذ الأم التي كانت تفقد قواها الضئيلة مع الدم الذي ينزف من بين ساقيها .

لم تتأسف لين كثيراً على موت الطفلة ، وكأنها كانت مدركة أن الحياة لن تمتد بها لتربيتها . استعادت قواها ببطء من عملية الولادة العسيرة ، وحاولت

لبعض الوقت أن تكون من جديد الرفيقة المرحة في الألعاب الليلية . وبالانضباط نفسه التي تستخدمه في مواراة آلام قدميها ، كانت تتصنع الحماس لمعانقة حارة مع زوجها . فقد كان يقول لها : «الجنس هو رحلة... إنه رحلة مقدسة» ، ولكنها لم تكن تجد القوة لمرافقته في تلك الرحلة . وكان تاو تشين راغباً في ذلك الحب إلى حد أنه كان يتدبر الأمر ليتجاهل العلامات الكاشفة واحدة بعد أخرى ، وليواصل الاعتقاد حتى النهاية بأن لين مازالت مثلما كانت في السابق . كان قد حلم لسنوات بإنجاب أبناء ذكور ، ولكنه لم يعد يسعى الآن إلا إلى حماية زوجته من حمل آخر . كانت مشاعره تجاه لين قد تحولت إلى احترام لا يمكنه الاعتراف به لسواها ؛ فقد كان يفكر بأنه ليس هناك من يستطيع أن يتفهم هذا الحب العارم لامرأة ، لأنه ليس هناك من يعرف لين مثله ، ولا من يعرف النور الذي تحمله إلى حياته . إنني سعيد ، إنني سعيد ، كان يكرر ذلك لكي يبعد النذر المشؤومة التي كانت تنقض عليه ما أن يسهو . ولكنها لم تكن كذلك . فهي لم تعد تضحك بالخفة السابقة ، وحين يكون معها لا يكاد يتمكن من إمتاعها ، اللهم إلا في لحظات اللذة الجنسية الكاملة ، لأنه كان يعيش وهو يراقبها قلقاً ، مشغولاً على الدوام بصحتها ، متيقظاً لوهنها ، وراصداً إيقاع أنفاسها . ووصل به الأمر إلى كراهية زنبقتيها الذهبيتين اللتين كان يقبلهما في بداية الزواج محمولاً على تهيج الشهوة . كان إيبانيزر هوبز يؤيد فكرة قيام لين بنزهات طويلة في الهواء الطلق لكي تقوي رئتيها وتفتح شهيتها ، ولكنها ما كانت تستطيع أن تخطو عشر خطوات دون أن تصاب بالاغماء . ولم يكن بإمكان تاو أن يبقى إلى جوار زوجته طوال الوقت ، مثلما كان ينصح هوبز ، إذ عليه أن يوفر المؤونة لكليهما . كل لحظة يقضيها بعيداً عنها تبدو له حياة مبددة في التعاسة ، زمناً مسروقاً من الحب . وضع في خدمة محبوبته كل مركباته الدوائية ومعارفه التي اكتسبها على امتداد سنوات طويلة من الممارسة الطبية ، ولكن لين تحولت بعد قليل من عملية الولادة إلى شبح

للفتاة السعيدة التي كانت عليها من قبل . وكان زوجها يحاول دفعها إلى الضحك ، ولكن الضحكة تخرج زائفة منهما معاً .

وفي أحد الأيام لم تعد لين قادرة على مغادرة الفراش . كانت تختنق ، وتفقد قواها وهي تسعل دماً وتحاول أن تستنشق هواءً . وكانت ترفض الأكل ، باستثناء بضع ملاعق من حساء هزيل ، لأن الجهد كان يستنفدها . وكانت تغفو مفزعة في اللحظات القصيرة التي يهدأ فيها السعال . قدر تاو تشين بأنها أمضت ست أسابيع وهي تتنفس بغرغرة شخير سائل ، كما لو أنها غاطسة في الماء . وعند حملها بين ذراعيه كان يلحظ تناقص وزنها فتمتلئ روحه بالرعب . لقد رآها تعاني الكثير إلى حد الإحساس بأن موتها سيكون راحة ، ولكنه في فجر اليوم المشؤوم الذي استيقظ فيه معانقاً جسد لين البارد ، ظن أنه قد مات هو أيضاً . انطلقت صرخة طويلة ورهيبة ، ولدت من أعماق الأرض بالذات ، مثل دوي بركان ، فهزت البيت وأيقظت الحي . جاء الجيران ، وفتحوا الباب بالركلات ووجدوه عارياً يعوي في منتصف الغرفة وامرأته بين ذراعيه . كان عليهم أن ينتزعوه بالقوة عن الجسد وأن يسيطروا عليه إلى أن حضر إيبانيزر هوبز وأجبره على ابتلاع كمية من اللودانون تكفي لطرح أسدٍ أرضاً .

غرق تاو تشين في الترمل بقنوط شامل . أقام مذبحاً عليه رسم لين وبعض حاجياتها وكان يقضي ساعات في تأملها بكآبة . تخلى عن رؤية مرضاه وعن مشاطرة إيبانيزر هوبز الدراسة والبحث ، وهما ركيزة صداقتهما . وصار يشمئز من نصائح الإنكليزي الذي يؤكد بأنه « يمكن لمسمار أن ينزع مسماراً آخر » وأن أفضل وسيلة للخلاص من الحداد هي في زيارة مواخير الميناء ، حيث يمكنه اختيار ما يشاء من النساء ذوات الأقدام المشوهة ، مثلما كان يسمي الزنابق الذهبية ، ولكن ذلك أغضبه . فكيف يمكن له أن يقترح عليه مثل هذا الضلال ؟ ليس هناك من يمكنها أن تحل محل لين ، ولن

يحب سواها مطلقاً ، وقد كان تاو تشين واثقاً من ذلك . لم يكن يتقبل من هوبز في ذلك الوقت سوى ما يقدمه إليه بسخاء من زجاجات الويسكي . أمضى أسابيع وهو غارق في سبات الكحول إلى أن نفدت نقوده واضطر شيئاً فشيئاً إلى بيع ممتلكاته أو رهنها ، إلا أنه لم يعد قادراً في أحد الأيام على دفع إيجار البيت واضطر إلى الانتقال للعيش في فندق من الدرجة الدنيا . عندئذ تذكر أنه كان جونغ يي وعاد إلى العمل ، بالرغم من أنه كان يقوم بذلك بمشقة ، بثياب متسخة وضفيرة مشعثة ودون حلاقة . وبما أنه كان ينعم بسمعة جيدة ، فقد تحمل المرضى مظهره الشبحي وأخطاء سكره بسلوك الفقراء الصابرين ، ولكنهم سرعان ما تخلوا عن استشارته . ولم يعد إيبانيزر هوبز يتصل به كذلك لمعالجة الحالات الصعبة ، لأنه فقد الثقة بآرائه . وقد كانا حتى ذلك الحين يتكاملان بنجاح : إذ صار بإمكان الإنكليزي للمرة الأولى أن يمارس الجراحة بجسارة ، بفضل العقاقير القوية والإبر الذهبية القادرة على تخفيف الألم ، وتقليص النزيف وتقصير زمن إلتئام الجروح ، بينما تعلم الصيني استخدام المبضع وغيره من وسائل العلم الأوربي . ولكن تاو تشين بيديه المرتعشتين وعينيه الزائغتين من التسمم الكحولي والدموع ، صار يمثل خطراً أكثر مما يقدم من مساعدة .

•

في ربيع عام ١٨٤٧ وقع تحول مفاجئ جديد في حياة تاو تشين ، مثلما كان قد جرى له في مناسبتين أخريين من حياته . فبقدر ما كان يفقد زبائنه المعهودين وتنتشر الإشاعات عن سوء سمعته كطبيب ، صار يضطر إلى تركيز عمله في أشد أحياء الميناء بأساً ، حيث لا يطالبه أحد بمؤهلاته . وكانت الإصابات هناك من النوع الروتيني : كدمات ، وجراح مُدى ، وثقوب رصاص . وفي إحدى الليالي استُدعي تاو تشين على عجل إلى إحدى الحانات لكي يخيط جراح بحار بعد مشاجرة هائلة . اقتادوه إلى جزء خلفي من المحل ، حيث كان

الرجل يرقد فاقداً الوعي ورأسه مشطور مثل بطيخة . أما خصمه فكان مارد نرويجي ، رفع طاولة خشبية ثقيلة واستخدمها كهراوة ليدافع عن نفسه ضد مهاجميه ، وهم جماعة من الصينيين مستعدين لتلقينه درساً لا يُنسى . انقضوا معاً على النرويجي وكانوا سيحولونه إلى « كفتة » لو لم يهرع لمساعدته عدد من بحارة شمال أوربا الذين كانوا يشربون في المحل نفسه ، وما بدأ كجدل بين مقامرين مخمورين ، تحول إلى معركة عرقية . عندما وصل تاو تشين كان من هم قادرون على المشي قد اختفوا منذ وقت طويل . أما النرويجي فقد التحق سليماً بسفينته يحرسه شرطيان إنكليزيان ولم يبق هناك سوى صاحب الحانة ، والضحية المحتضر ، والملاح المرشد في السفينة الذي تدبر أمر إبعاد رجال الشرطة . لو أن الجريح كان أوربياً لنقل بكل تأكيد إلى المستشفى البريطاني ، ولكن بما أنه آسيوي ، فإن سلطات الميناء لم تزعج نفسها كثيراً بأمره .

نظرة واحدة من تاو تشين كانت كافية لمعرفة أنه لا يمكن عمل شيء لعاثر الحظ ذاك بجمجمته المهشمة ودماغه المكشوف . وقد أوضح ذلك للمرشد ، وهو إنكليزي ملتح وفظ . فألح المرشد عليه :

- يا للصيني اللعين! ألا يمكنك مسح الدم وخياطة الرأس ؟

- إن جمجمته مشطورة ، فلماذا خياطتها ؟ إن له الحق بأن يموت بسلام .

- لا يمكنه أن يموت! سفينتي ستبحر في الفجر وأنا بحاجة إلى هذا الرجل على متن السفينة! إنه الطاهي!

- متأسف . . رد عليه تاو تشين بانحناءة احترام ، محاولاً إخفاء السخط الذي سببه له ذلك الأجنبي الوقح .

طلب المرشد زجاجة من الجن ودعا تاو تشين إلى الشرب معه قائلاً إنه إذا كان الطاهي قد تجاوز أي أمل في النجاة ، فبمقدورهما أن يشربا كأسا

باسمه ، حتى لا يأتي فيما بعد شبحه المزعج ، عليه اللعنة ، ليشد أقدامه في الليل . جلسا على بعد خطوات من المحتضر ليسكرا دون تعجل . وبين حين وآخر كان تاو تشين ينحني لكي يفحص نبضه ، مقدراً بأنه لن يعيش أكثر من بضع دقائق ، ولكن الرجل كان أشد مقاومة مما هو متوقع . ولم يول الجونغ يي اهتماماً للإنكليزي الذي يقدم له الخمر كأساً بعد أخرى ، بينما هو لا يكاد يشرب كأسه . وسرعان ما أصابه الدوار ولم يعد يتذكر سبب وجوده في ذلك المكان . وبعد ساعة من ذلك ، عندما اختلج الجريح اختلاجتين أخيرتين ومات ، لم يعلم تاو تشين بذلك ، لأنه كان قد تدحرج على الأرض فاقداً رشده .

استيقظ على ضوء ظهيرة ساطع ، فتح عينيه بصعوبة رهيبة ولم يكد يتمكن من الاعتدال إلا قليلاً ليرى نفسه محاطاً بالسماء والماء . إحتاج لبعض الوقت لكي يدرك أنه مستلق فوق لفافة ضخمة من الحبال على سطح سفينة . كان لطم الأمواج لخاصرتي المركب يتردد في رأسه مثل دوي نواقيس هائلة . ظن أنه يسمع أصواتاً وصراخاً ، ولكنه لم يكن واثقاً من شيء ، إذ يمكن له أيضاً أن يكون في الجحيم . تمكن من الاعتدال جالساً على ركبتيه والتقدم على أربع حوالى مترين عندما داهمه الغثيان وهوى على وجهه . بعد دقائق قليلة من ذلك أحس بخبطة دلو ماء بارد ترتطم برأسه وبصوت يتوجه إليه بلهجة كانتون . رفع بصره ووجد نفسه قبالة وجه أمرد ولطيف يحييه بابتسامة كبيرة تنقصها نصف الأسنان . وأتى دلو آخر من ماء البحر ليُخرجه من غيبوبته . الشاب الصيني الذي كان يبلله بهمة كبيرة انحنى إلى جانبه ضاحكاً بصخب وراح يربت على فخذيه ، وكأن وضعه المؤثر الذي هو فيه يثير سخرية لا تُقاوم .

تمكن تاو تشين من التلعثم :

- أين أنا ؟

- أهلاً بك على متن السفينة ليبرتي! إننا نمضي في اتجاه الغرب كما يبدو .

- ولكنني لا أريد الذهاب إلى أي مكان! يجب أن أنزل فوراً!

قوبلت نواياه بقهقهات جديدة . وعندما تمكن الرجل من كبح ضحكه أخيراً ، أوضح له بأنه قد تم «التعاقد » معه ، مثلما كان قد جرى له هو نفسه قبل شهور من ذلك . أحس تاو تشين بأنه سيغيب عن الوعي . لقد كان يعرف هذا الأسلوب . فإذا ما حدث نقص في رجال أطقم السفن ، يلجؤون إلى الحل السريع بإسكار أو تدويخ بعض الغافلين بضربة على الرأس لإلحاقهم بالعمل على السفينة رغم أنفهم . لقد كانت حياة البحر قاسية وسيئة الأجر ، فالحوادث ، وسوء التغذية والأمراض تعيث خراباً ، وفي كل رحلة يموت أكثر من بحار ويلقى بالجثث إلى قاع المحيط دون أن يعود أحد إلى تذكرها . إضافة إلى أن القباطنة هم طغاة في العادة ، لا تترتب عليهم أي محاسبة أمام أحد ، وهم يعاقبون أدنى خطأ بالجلد . وقد كان لا بد من الوصول إلى اتفاق جنتلمان في شنغهاي ما بين القباطنة لقصر عمليات الاختطاف على الرجال الذين بلا عمل وعدم تنازعهم في اختطاف بعضهم لبحارة البعض . فقبل ذلك الاتفاق ، كان كل ملاح ينزل إلى الميناء ليتناول بعض الكؤوس يعرض نفسه لخطر أن يطلِع عليه الصباح ويجد نفسه في سفينة أخرى . لقد قرر مرشد السفينة ليبرتي أن يأخذ تاو تشين بدل الطاهي الميت - فهو يرى أن جميع «الصفر» متشابهون ، ولا فرق لديه بين واحد وآخر - وبعد أن أسكره أمر بنقله إلى السفينة . وكان قد طبع بصمة إصبعه الإبهام على عقد عمل قبل أن يستيقظ ، مقيداً إياه في خدمته لمدة سنتين . وراحت صورة ما حدث تنجلي ببطء في دماغ تاو تشين المخدر . لم تخطر له فكرة التمرد ، لأنها تعني الانتحار ، ولكنه صمم على الهرب فور توقف السفينة في أي ميناء في العالم .

ساعده الشاب على النهوض والاغتسال ، ثم قاده إلى عنبر السفينة ،

حيث تصطف القمرات وأراجيح النوم . حدد له مكانه وصندوقاً ليحفظ فيه ممتلكاته . اعتقد تاو تشين أنه قد فقد كل شيء ، ولكنه رأى حقيبته التي تضم أدواته الطبية على الدكة الخشبية التي ستكون سريره . فقد خطرت للمرشد الفكرة الطيبة بإنقاذ الحقيبة . أما رسم لين ، فقد بقي على المذبح . وفكر مذعوراً بأنه ربما لن تتمكن روح امرأته من تحديد مكانه وسط المحيط . أمضى أيام الإبحار الأولى معذباً بالقلق ، تداهمه أحياناً فكرة إلقاء نفسه من حافة السفينة ووضع حد لآلامه إلى الأبد . وما أن صار قادراً على النهوض متماسكاً حتى أُرسل إلى المطبخ البدائي ، حيث أدوات الطهو معلقة ببعض الخطافات ، تتصادم مع كل اهتزاز في ضجة تبعث على الصمم . سرعان ما نفدت المؤن الطازجة المشتراة من هونغ كونغ ، ولم يبق سوى السمك واللحم المملح ، والفاصولياء ، والسكر ، والسمن ، والدقيق الذي ينغل بالدود ، وبسكويت معتق جداً إلى حد يتوجب معه تقطيعه بضربات مطرقة في معظم الأحيان . كل المأكولات كانت تضمخ بصلصة الصويا . وكان كل بحار يحصل على مكيال من الخمر يومياً لينسى همومه ويرطب فمه ، لأن إلتهاب اللثة كان واحدة من مشاكل الحياة في البحر . أما من أجل مائدة القبطان ، فكان لدى تاو تشين بيض ومربيات إنكليزية يتوجب عليه حمايتها بحياته كما قيل له . وكانت الوجبات محسوبة لكي تدوم طوال الرحلة إذا لم تبرز عوائق طبيعية ، مثل العواصف التي تحرف السفينة عن مسارها ، أو توقف الرياح الذي يشلها ، وتستكمل الوجبات بسمك طازج مما يقع بالشباك في الطريق . لم يكن عمل تاو تشين يتطلب موهبة في الطباخة ، فدوره يتلخص في مراقبة حصص الأغذية ، والمشروبات الروحية والماء العذب المخصصة لكل رجل ، ومكافحة التردي والفئران . وعليه في الوقت نفسه أن يشارك بأعمال التنظيف والإبحار مثل أي بحار آخر .

بعد أسبوع بدأ يستمتع بالهواء الطلق ، والعمل القاسي ومرافقة أولئك

الرجال القادمين من أربع جهات الأرض ، كل واحد له قصصه ، وحنينه ، ومهاراته . في لحظات الراحة كانوا يعزفون على آلة موسيقية ويرون قصصاً عن أشباح البحر وعن نساء مثيرات في موانئ نائية . كان البحارة ينتمون إلى بلدان كثيرة ، ولهم لغات وعادات مختلفة ، ولكنهم كانوا مرتبطين بما يشبه الصداقة . فالعزلة واليقين بأنهم يحتاجون إلى بعضهم البعض ، تحول رجالاً قد لا ينظر أحدهم إلى الآخر على اليابسة إلى رفاق . استعاد تاو تشين الضحك مثلما لم يفعل منذ ما قبل مرض لين . وفي صباح أحد الأيام استدعاه المرشد ليقدمه شخصياً إلى القبطان جون سوميرز الذي لم يكن قد رآه إلا من بعيد في حجرة القيادة . وجد نفسه أمام رجل طويل القامة ، مدبوغاً برياح امتدادات كثيرة ، له لحية قاتمة وعينان فولاذيتان . توجه القبطان بالحديث إليه من خلال المرشد الذي يتكلم شيئاً من لهجة كانتون ، ولكن تاو تشين رد بإنكليزيته التي تعلمها من الكتب مع النبرة الأرستقراطية الواضحة التي تعلمها من إيبانيزر هوبز .

- قال لي المستر أوليسبي إنك نوع من المداوي ؟

- بل أنا جونغ يي ، أي طبيب .

- طبيب ؟ وكيف تكون طبيباً ؟

فابتسم تاو تشين بعذوبة وهو يكرر بالضبط كلمات صديقة إيبانيزر هوبز :

- الطب الصيني أقدم بعدة قرون من الطب الإنكليزي أيها القبطان .

رفع القبطان سوميرز حاجبيه بإيماءة غضب حيال إهانة ذلك الرجل الصغير ، ولكن الحقيقة تركته أعزل . فانفجر ضاحكاً بطيب خاطر .

- هيا يا مستر أوليسبي ، قدم لنا ثلاثة أكواب من البراندي . سنشرب نخباً مع الدكتور . هذا ترف نادر . إنها المرة الأولى التي نحمل فيها طبيبنا الخاص على متن السفينة!

●

لم ينفذ تاو تشين نيته بالهرب في أول ميناء ترسو فيه السفينة ليبرتي ، لأنه لم يدر إلى أين يمكنه الذهاب . فالعودة إلى حياته اليائسة كأرمل في هونغ كونغ لن يكون له مغزى أكبر من مواصلته الإبحار . فالحال هنا وهناك سواء ، ولكنه يستطيع كبحار أن يسافر على الأقل ويتعلم أساليب العلاج المستخدمة في أماكن أخرى من العالم . الشيء الوحيد الذي كان يعذبه حقاً في هذا التشرد من موجة إلى موجة ، هو أن لا تستطيع لين تحديد مكانه ، مهما صرخ باسمها لكل الرياح . نزل في أول ميناء مثل البحارة الآخرين ، بإذن لقضاء ست ساعات على اليابسة ، ولكنه بدلاً من أن يستغل تلك الساعات في التردد على الحانات ، تاه في السوق باحثاً عن بهارات ونباتات طبية بتكليف من القبطان الذي كان قد قال : « بما أنه صار لدينا دكتور ، فإننا نحتاج كذلك إلى أدوية » . أعطاه كيساً فيه قطع نقد معدودة وحذره من أنه إذا ما فكر في الهرب أو خداعه ، فإنه سيبحث عنه حتى يجده وسيقطع عنقه بيديه ، إذ لم يولد بعد الرجل الذي يمكنه أن يخدعه ويمضي دون عقاب .

- هل هذا واضح أيها الصيني ؟

- إنه واضح أيها الإنكليزي .

- عليك أن تناديني بسيدي!

- أجل ، يا سيدي - رد عليه تاو تشين وهو يغض بصره ، لأنه تعلم عدم النظر مباشرة إلى وجوه البيض .

كانت مفاجأته الأولى هي اكتشافه أن الصين ليست مركز الكون المطلق . فهناك ثقافات أخرى ، صحيح أنها أشد بربرية ، ولكنها أوسع نفوذاً وقوة بكثير . لم يكن يتصور أن الإنكليز يتحكمون بجزء كبير من العالم ، مثلما لم يكن يخطر له بأن هناك فان غووي آخرون يسودون على مستعمرات فسيحة في أراض نائية موزعة في أربع قارات ، وهو ما تحمل القبطان جون سوميرز مسؤولية شرحه له يوم قلع له ضرساً منخوراً قبالة سواحل أفريقيا . لقد أنجز

تاو العملية يومذاك بإتقان ودون ألم تقريباً بفضل المواءمة ما بين إبره الذهبية المغروسة في الصدغين وعجينة من القرنفل والكاليبتوس وضعت على اللثة . وعندما انتهى ، وتمكن المريض المرتاح والشاكر من إنهاء زجاجة خمره ، تجرأ تاو تشين على سؤاله عن وجهتهم . فقد كان يقلقه السفر في العماء ، دون أي مرجعية أخرى سوى خط الأفق الممتد بين بحر وسماء غير متناهيين .

- إننا ذاهبون إلى أوربا ، ولكن ليس هناك أي تغيير بالنسبة إلينا . فنحن رجال بحر ، نبقى دائماً في الماء . هل تريد العودة إلى بيتك ؟

- لا يا سيدي .

- هل لديك أسرة في أي مكان ؟

- لا يا سيدي .

- سيان لديك إذن ذهابنا إلى الشمال أو الجنوب ، إلى الشرق أو الغرب ، أليس كذلك ؟

- أجل ، ولكنني أحب أن أعرف أين أنا .

- ولماذا ؟

- لأنني قد أسقط في الماء أو قد نغرق . وروحي بحاجة إلى تحديد موقعها لكي تتمكن من العودة إلى الصين ، وإلا فإنها ستبقى هائمة على غير هدى . فبوابة السماء موجودة في الصين .

ضحك القبطان :

- يا للأمور التي تخطر لك! أهذا يعني أنه من أجل الذهاب إلى الفردوس لا بد من الموت في الصين ؟ انظر إلى الخريطة يا رجل . صحيح أن بلادكم هي الأكبر ، ولكن هناك عالم كبير خارج الصين . هذه هي إنكلترا ، إنها مجرد جزيرة صغيرة ، ولكن إذا ما جمعت مستعمراتنا ، فسوف ترى أننا أسياد أكثر من نصف العالم .

- وكيف ذلك ؟

- مثلما فعلنا في هونغ كونغ : بالحرب والخداع . فلنقل إن ذلك هو مزيج من القوة البحرية والجشع والانضباط . لسنا متفوقين ، وإنما نحن أكثر قسوة وتصميماً . أنا لست فخوراً لكوني إنكليزياً ، وعندما ستسافر كثيراً مثلي ، لن تكون فخوراً أيضاً لكونك صينياً .

خلال السنتين التاليتين نزل تاو تشين إلى اليابسة ثلاث مرات ، واحدة منها كانت في إنكلترا . تاه بين الحشود الفظة في الميناء ومشى في شوارع لندن مراقباً المستجدات بعيني طفل مبهور . كان الفان غووي يغصون بالمفاجآت ، فهم عديمو التهذب ويتصرفون كمتوحشين من جهة ، ولكنهم قادرون من جهة أخرى على ابتكار العجائب . وتبين له أن الإنكليز يعانون في بلادهم من العجرفة نفسها وسوء التربية التي يُبدونها في هونغ كونغ : فهم يعاملونه دون احترام ، ولا يعرفون شيئاً عن آداب المجاملة والملاطفة . رغب في تناول شيء من البيرة ، ولكنهم طردوه من الحانة قائلين له : لا نقبل هنا كلاباً صُفراً . وسرعان ما اجتمع مع بحارة آسيويين ووجدوا محلاً يديره صيني عجوز حيث أمكن لهم أن يأكلوا ويشربوا ويدخنوا بسلام . وبينما هو يسمع قصص الرجال الآخرين ، قدر كم هو بحاجة إلى التعلم ، وقرر أن أول ما يجب أن يتعلمه هو استخدام قبضتيه واستعمال السكين . فالمعارف لا تفيد كثيراً ما لم يكن المرء قادراً على الدفاع عن نفسه ؛ لقد نسي معلم الوخز بالإبر الحكيم أن يعلمه ذلك المبدأ الأساسي أيضاً .

في شهر شباط ١٨٤٩ رست السفينة ليبرتي في بالبارايسو . وفي اليوم التالي استدعاه القبطان جون سوميرز إلى قمرته وسلمه رسالة .

- لقد أعطوني إياها في الميناء ، إنها مرسلة إليك من إنكلترا .

تناول تاو تشين المغلف ، احمّر وأضاءت وجهه ابتسامة هائلة .

قال القبطان ساخراً :

- لا تقل لي إنها رسالة حب!

- بل هي أفضل من ذلك - رد عليه وهو يخبئ الرسالة ما بين صدره والقميص . لا يمكن للرسالة إلا أن تكون من صديقه إيبانيزر هوبز ، وهي الرسالة الأولى التي تصله في السنتين اللتين أمضاهما في البحار .

- لقد قمت بعمل جيد يا تشين .

فابتسم تاو :

- ظننت أن طبخي لم يكن يعجبك يا سيدي .

- إنك كارثة كطاهٍ ، ولكنك تعرف في الطب . فخلال سنتين لم يمت ولو رجل واحد من رجالي ، ولم يُصب أحد بالاسقربوط . هل تعرف ما الذي يعنيه ذلك ؟

- حسن طالع .

- عقدُ عملك ينتهي اليوم . أعتقد بأنني أستطيع أن أُسكرك وأجعلك تبصم على التمديد من جديد . ربما أفعل ذلك مع آخرين . أما أنت فإنني مدين لك ببعض الخدمات ، وأنا أدفع ديوني . هل تريد البقاء معي ؟ سأزيد أجرك .

- إلى أين ؟

- إلى كاليفورنيا . ولكنني سأترك هذه السفينة ، فقد عرضت علي للتو سفينة بخارية ، وهذه فرصة انتظرتها لسنوات . أرغب في أن تأتي معي .

كان تاو تشين قد سمع عن السفن البخارية وكان يخافها . ففكرة وجود مراجل ضخمة مملوءة بماء يغلي لإنتاج البخار وتحريك آلة جهنمية ، لا يمكن أن تخطر إلا لأناس متعجلين . أليس من الأفضل السفر على إيقاع الرياح والتيارات ؟ ولماذا تحدي الطبيعة ؟ كانت تنتشر إشاعات عن مراجل تنفجر في أعالي البحار ، فتسلق البحارة وهم أحياء . وتنطلق قطع اللحم البشري المسلوقة مثل القريديس متطايرة في كل الأنحاء لتكون طعاماً للأسماك ، أما أرواح أولئك المنكودين ، المفتتين في وميض الانفجار ودوامات البخار ، فلا تستطيع اللقاء بأرواح أسلافهم إلى الأبد . ويتذكر تاو تشين بوضوح مظهر

أخته الصغرى بعد أن اندلقت عليها طنجرة الماء الساخن ، مثلما يتذكر تأوهات ألمها الرهيبة وتشنجات احتضارها . لم يكن مستعداً للتعرض إلى مثل ذلك الخطر .

أما ذهب كاليفورنيا الملقى على الأرض كما قيل على شكل صخور ، فلم يكن يغويه كثيراً . إنه غير مدين بشيء إلى القبطان جون سوميرز . لقد كان القبطان متسامحاً إلى حد ما أكثر من معظم الفان غووي ويعامل البحارة بشيء من التوازن والإنصاف ، ولكنه ليس صديقه ولن يكون كذلك على الإطلاق .

ـ لا ، أشكرك يا سيدي .

ـ ألا تريد التعرف على كاليفورنيا ؟ يمكنك أن تصبح ثرياً خلال وقت قصير وتعود إلى الصين متحولاً إلى واحد من الأعيان .

ـ أجل ، ولكن في سفينة شراعية .

ـ لماذا ؟ السفن البخارية حديثة جداً وسريعة .

لم يحاول تاو تشين أن يوضح مبرراته . بقي صامتاً ينظر إلى الأرض وهو يمسك قبعته بيده بينما كان القبطان ينهي تناول كأسه من الويسكي .

ـ لا أستطيع إجبارك ـ قال سوميرز أخيراً ـ . سأعطيك رسالة توصية لصديقي فينسنت كاتز ، في السفينة الشراعية إميليا التي ستنطلق إلى كاليفورنيا في الأيام القادمة أيضاً . إنه رجل هولندي متميز ، فهو متدين وصارم ، ولكنه رجل طيب وبحار جيد . ستكون رحلتك أبطأ من رحلتي ، ولكننا قد نلتقي ثانية في سان فرانسيسكو ، فإذا كنت نادماً على قرارك ، يمكنك أن تعود للعمل معي في أي وقت تشاء .

وتصافح القبطان جون سوميرز وتاو تشين لأول مرة .

الرحلة

بدأت إلزا تموت وهي متكورة على نفسها في جحرها في عنبر السفينة . ففضلاً عن الوحدة والإحساس بأنها مدفونة في الحياة ، كانت تضاف رائحة هي مزيج من محتويات الطرود والصناديق ، والسمك المملح في البراميل وقلح البحر المتغلغل في أخشاب السفينة العتيقة . وتحولت حاسة شمها التي تتيح لها اجتياز العالم وهي مغمضة العينين ، إلى أداة تعذيب لها . وكان رفيقها الوحيد هو قط غريب الشكل له ثلاثة ألوان ، مدفون مثلها في قاع السفينة لحمايتها من الفئران . أكد لها تاو تشين أنها ستعتاد على الرائحة والحبس ، لأن الجسم يعتاد على كل شيء تقريباً عند الضرورة ، وأضاف بأن الرحلة ستكون طويلة وأنه لن يكون بإمكانها أن تطل على الهواء الطلق أبداً ، ولهذا فإنه من الأفضل لها ألا تفكر في الأمر كي لا تصاب بالجنون . ووعدها بأنها ستحصل على الماء والطعام ، وأنه سيتكفل هو نفسه بذلك حين يستطيع النزول إلى العنبر دون أن يثير الشبهات . كانت السفينة الشراعية صغيرة ، ولكنها كانت مزدحمة بالناس ومن السهل التملص بذرائع مختلفة .

ـ أشكرك . عندما نصل إلى كاليفورنيا سأعطيك بروش الفيروز...

ـ احتفظي به ، فقد دفعتِ لي . ستحتاجين إليه . ولماذا تريدين الذهاب إلى كاليفورنيا ؟

ـ لأتزوج . خطيبي يدعى خواكين . أصابته حمى الذهب ومضى . قال إنه سيرجع ؛ ولكنني لا أستطيع انتظاره .

ما أن غادرت السفينة مرفأ بالبارايسو وخرجت إلى عرض البحر ، حتى بدأت إلزا بالهذيان . بقيت طوال ساعات ملقاة في الظلام مثل حيوان وسط قذارتها ، معتلة إلى حد لم تعد تتذكر معه أين هي ولا سبب وجودها هناك ، إلى أن فُتح باب المستودع أخيراً وظهر تاو تشين مضاءً بعقب شمعة ، وحاملاً لها طبق طعام . كانت تكفيه رؤيتها ليدرك أن الفتاة لن تستطيع إدخال شيء إلى فمها . قدم العشاء للقط ، ومضى بحثاً عن دلو ماء وعاد لينظفها . بدأ بإعطائها شراب قوي من مغلي الزنجبيل وبوخزها بنحو عشر من إبره الذهبية ، إلى أن هدأت معدتها . ولم تنتبه إلزا كثيراً عندما عراها تماماً ، وغسلها برفق بماء البحر ، ثم مسح جسدها بكأس من الماء العذب ودلكها من قدميها حتى رأسها بالمرهم البلسمي نفسه الذي يوصف لارتعاشات الملاريا . بعد دقائق من ذلك غرقت في النوم ، ملتفة ببطانيتها القشتالية والقط عند قدميها ، بينما كان تاو تشين على السطح يغمس ثيابها في البحر ، محاولاً عدم لفت الأنظار ، بالرغم من أن البحارة كانوا يستريحون في تلك الساعة . وكان المسافرون المبحرون لتوهم مصابين بالدوار مثل إلزا ، حيال عدم مبالاة أولئك المسافرين الآخرين الذين يبحرون منذ ثلاثة أشهر قادمين من أوربا ، وكانوا قد مروا بتلك التجربة من قبل .

في الأيام التالية ، وبينما كان المسافرون الجدد في السفينة إميليا يعتادون على لطم الأمواج ويقرون الروتين الضروري لبقية الرحلة ، كانت حال إلزا في عنبر السفينة تزداد سوءاً . وكان تاو تشين ينزل كلما أتيحت له الفرصة ليقدم لها ماء ويحاول أن يسكن غثيانها ، مستغرباً من استفحال المرض بدل تراجعه . حاول تهدئتها بالوسائل المعروفة لمثل تلك الحالات ووسائل أخرى دفعه اليأس إلى ارتجالها ، ولكنها لم تستطع الإبقاء على شيء

في معدتها وأصيبت بالجفاف . كان يعد لها ماء ممزوجاً بالملح والسكر ويقدمه إليها بالملعقة بصبر شديد ، ولكن أسبوعين انصرما دون أن يطرأ أي تحسن ملحوظ وجاء وقت صارت فيه بشرة الفتاة رخوة مثل رق الكتابة ولم تعد تستطيع النهوض لأداء التمارين التي فرضها عليها تاو . فكان يقول لها : « إذا أنت لم تتحركي سيتخدر جسدك وتزيغ أفكارك » . مرت السفينة الشراعية سريعاً على موانئ كوكيمبو ، وكالديرا ، وأنتوفاغستا ، وإكيكي ، وآريكا وفي كل مرة كان يحاول إقناعها بمغادرة السفينة والبحث عن طريقة للرجوع إلى البيت ، لأنه رأى أن قواها تخور أحياناً وأحس بالخوف .

كانوا قد خلّفوا وراءهم ميناء كاياو عندما اتخذت حالة إلزا مساراً مشؤوماً . كان تاو تشين قد تمكن من الحصول في سوق المدينة على مؤونة من أوراق الكوكا التي يعرف جيداً سمعتها الطبية ، وثلاث دجاجات حية فكر بإبقائها مخبئة ليذبحها واحدة بعد أخرى ، لأن المريضة تحتاج إلى شيء أكثر ماوية من وجبات السفينة الشحيحة . طبخ الدجاجة الأولى مع مرق مشبع بالزنجبيل الطازج ونزل مصمماً على إعطاء الحساء لإلزا حتى ولو اضطر إلى استخدام القوة . أشعل مصباحاً يعمل بشحم الحوت ، وشق طريقة ما بين حزم الأمتعة ودنا من حجيرة الفتاة التي كانت مغمضة العينين وبدت كأنها لم تنتبه لحضوره . وكانت تمتد تحت جسدها بقعة كبيرة من الدم . أطلق الجونغ يي صرخة وانحنى فوقها معتقداً أن عاثرة الحظ تلك قد تدبرت أمر انتحارها . وفكر بأنه لا يستطيع تجريمها ، لأنه كان سيفعل الشيء نفسه في مثل تلك الظروف . رفع قميصها ، ولكن لم يكن هناك أي جرح مرئي ، وعندما لمسها أدرك أنها ما تزال على قيد الحياة . فهزها إلى أن فتحت عينيها . وأخيراً اعترفت له بصوت خافت :

- إنني حبلى .

أمسك تاو تشين رأسه بكلتا يديه ، وتاه في ترتيلة من التحسر بلهجة

قرية مولده التي لم يتذكرها منذ خمس عشرة سنة : لو أنه عرف ذلك لما ساعدها قط ، كيف يخطر لها أن تسافر إلى كاليفورنيا وهي حامل ، إنها مجنونة ، هذا ما كان ينقصه ، حالة إجهاض ، وإذا ما ماتت فإنه سيضيع ، يا للورطة التي أوقعته فيها ، وكل هذا يحدث له بسبب حماقته ، كيف لم يخمن سبب تعجلها بالهرب من تشيلي . ثم اتبع ذلك بأيمان ولعنات بالإنكليزية ، ولكنها كانت قد غابت عن الوعي من جديد وصارت بمنأى عن أي تأنيب . حملها بين ذراعيه وراح يهزها مثل طفلة ، بينما كان غضبه ينزاح متحولاً إلى شفقة لا سبيل إلى كبحها . خطر له للحظة أن يلجأ إلى القبطان كاتز ويعترف له بكل القضية ، ولكنه لم يستطع تصور رد فعله . فذلك الهولندي اللوثري الذي يعامل النساء اللواتي على متن السفينة وكأنهن مصابات بوباء معدٍ ، سيستشيط غضباً دون ريب إن علم أن هناك واحدة أخرى مخبأة ، والأدهى من ذلك أنها حبلى ومحتضرة . وما هو العقاب الذي سيخصه به ؟ لا ، لا يمكنه أن يخبر أحداً بذلك . الخيار الوحيد هو أن ينتظر إلى أن تموت إلزا ، إذا ما كان ذلك هو قدرها ، ثم يلقي بجسدها إلى البحر مع أكياس فضلات المطبخ . وأقصى ما يستطيع تقديمه إليها ، إذا ما رآها تتألم كثيراً ، هو مساعدتها على الموت بكرامة .

كان يمضي خارجاً عندما أحس على جلده حضوراً غريباً . رفع الفانوس بذعر ورأى بوضوح كامل في دائرة الضوء المرتعش معبودته لين تتفحصه عن مسافة قريبة وملامح السخرية ظاهرة على وجهها المتألق الذي يشكل أكبر مفاتنها . كانت ترتدي فستانها الحريري الأخضر المطرز بخيوط مذهبة ، وهو الفستان نفسه الذي كانت ترتديه في المناسبات الكبرى ، وكان شعرها مجموعاً في كعكة بسيطة مثبتة بعيدان من العاج وثمرتي فاوانيا طازجتين على أذنيها . هكذا رآها آخر مرة ، عندما ألبستها نساء الحي قبل الطقوس المأتمية . كانت رؤيا زوجته في عنبر السفينة واقعية إلى حد أحس معه

بالهلع : فالأرواح مهما كانت طيبة في الحياة ، تتصرف عادة بقسوة مع بني البشر . حاول الهرب باتجاه الباب ، ولكنها سدت عليه السبيل . خر تاو تشين على ركبتيه مرتجفاً ، دون أن يفلت الفانوس ، وهو رابطه الوحيد بالواقع . حاول أن يرتل دعاء لإبعاد الشياطين ، إذا ما كانوا قد اتخذوا صورة لين لبلبلته ، ولكنه لم يستطع تذكر الكلمات ، وإنما خرجت من بين شفتيه آهة حب طويلة إليها وحنين إلى الماضي . عندئذ انحنت لين فوقه برقتها التي لا تُنسى ، وصارت قريبة منه إلى حد يمكنه معه أن يقبلها لو كانت لديه الجرأة ، وهمست بأنها لم تأتِ من بعيد جداً لتخيفه ، وإنما لتذكره بواجبات الطبيب النزيه المحترم . فهي نفسها كانت على وشك الموت نزفاً مثل هذه الفتاة بعد أن وضعت ابنتها ، وقد تمكن هو في تلك المناسبة من إنقاذها . فلماذا لا يفعل الشيء نفسه من أجل الفتاة ؟ ما الذي جرى لزوجها تاو ؟ أتراه فقد طيبة قلبه وتحول إلى صرصار ؟ وأكدت له أن هذه الميتة المبكرة ليست كارما (قدر) إلزا . فإذا كانت المرأة مستعدة لاجتياز العالم مدفونة في جحر كوابيس لكي تلتقي برجلها ، فلأنها تملك الكثير من الكي (الطاقة) .

ثم قالت له لين محذرة قبل أن تتلاشى :

- عليك أن تساعدها يا تاو ، إذا ما ماتت دون أن ترى حبيبها فلن تجدَ الراحة مطلقاً وسيلاحقك شبحها إلى الأبد .

- انتظري! - توسل الرجل وهو يمد يده ليستبقيها ، ولكن أصابعه انطبقت في الفراغ .

بقي تاو تشين منكباً على الأرض لوقت طويل ، محاولاً فهم ما جرى ، إلى أن هدأ قلبه المختل من هيجانه وتبدد شذى لين في العنبر . لا تذهبي ، لا تذهبي ، كرر ذلك ألف مرة وقد هزمه الحب . وأخيراً تمكن من النهوض ومن فتح الباب ، والخروج إلى الهواء الطلق .

كانت ليلة دافئة . وكان المحيط الهادي يتلألأ كالفضة تحت انعكاسات

ضوء القمر ، ونسيم خفيف يملأ قلوع « إميليا » القديمة . وكان مسافرون كثيرون قد انسحبوا للنوم أو للعب الورق في قمراتهم ، وعلق آخرون أراجيح نومهم لكي يقضوا الليل وسط فوضى من الآلات وأسرجة الخيل والصناديق التي تملأ سطح السفينة ، وكان بعضهم يتسلون في المؤخرة بمراقبة الدلافين اللعوبة في الزبد الذي تخلفه السفينة وراءها . رفع تاو تشين عينيه إلى قبة السماء الفسيحة شاكراً . فها هي لين تزوره دون حياء للمرة الأولى منذ موتها . لقد أحس بها قريبة منه في عدة مناسبات قبل أن يبدأ حياته كبحار ، وخصوصاً عندما كان يغرق في تأمل عميق ، إنما كان من السهل في ذلك الحين الخلط ما بين حضور روحها الخفيف وأشواقه كأرمل . لقد اعتادت لين أن تمر بجانبه وتلمسه بأطراف أصابعها الرقيقة ، ولكنه كان يبقى متشككاً فيما إذا كانت هي فعلاً أم مجرد اختلاق من روحه المعذبة . أما قبل لحظات في عنبر السفينة ، فلم تكن ثمة شكوك : لقد تبدى له وجه لين مشرقاً وجلياً مثلما يبدو هذا القمر فوق الماء . أحس بأنه مُرَافَق وسعيد ، مثلما كان في تلك الليالي البعيدة حين كانت تنام متكورة بين ذراعيه بعد ممارسة الحب .

توجه تاو تشين إلى عنبر نوم البحارة ، حيث خُصص له سرير خشبي ضيق ، بعيداً عن التهوية الوحيدة التي تنفذ من الباب . كان النوم مستحيلاً في ذلك الهواء المخلخل وسط رائحة الرجال النتنة ، ولكنه لم يكن مضطراً إلى النوم هناك مذ غادر بالبارايسو ، لأن الصيف يتيح له أن يستلقي على الأرض فوق سطح السفينة . بحث عن صندوقه المسمر إلى الأرضية لحمايته من تلاطم الأمواج ، ثم نزع المفتاح من عنقه ، وفتح القفل وأخرج حقيبته وقارورة لودانوم . ثم أخرج خفية حصة مزدوجة من الماء العذب وبحث عن بعض الخرق القماشية من المطبخ ، فهي تنفعه في ظل عدم وجود ما هو أفضل منها .

كان في طريق عودته إلى العنبر عندما جذبته يد من ذراعه . التفت متفاجئاً ورأى واحدة من النساء التشيليات ، خرجت لإغواء زبائن ، متحدية

أوامر القبطان الصارمة بانحباسهن منذ غروب الشمس . تعرف عليها في الحال . فقد كانت أثوثينا بلاثيرس هي الأكثر لطفاً وجاذبية بين النساء اللواتي في السفينة . فهي الوحيدة التي أبدت استعداداً في الأيام الأولى لمساعدة المسافرين المصابين بالدوار ، كما تولت العناية بتفان ببحار شاب سقط عن الصاري وكسر إحدى ذراعيه . وقد كسبت بذلك احترام الجميع ، بمن فيهم القبطان كاتز الصارم الذي بدأ يغض النظر منذ ذلك الحين عن تمردها وعدم انصياعها للأوامر . كانت أثوثينا تقدم خدماتها التمريضية مجاناً ، أما من يتجرأ على مد يده إلى لحمها المكتنز فعليه أن يدفع عداً ونقداً ، لأنه يجب عدم الخلط ، على حد قولها ، بين طيبة القلب والبلاهة . ثم توضح وهي تربت بمرح على إليتيها : هذا هو رأس مالي الوحيد ، فإذا أنا لم أعتن به فسوف أضيع . توجهت إليه أثوثينا بلاثيرس بأربع كلمات مفهومة في كل اللغات : شوكولاته ، قهوة ، تبغ ، براندي . ومثلما تفعل كلما التقت به ، أوضحت له بإيماءات جذابة رغبتها في مقايضة أي شيء من مواد الترف تلك مقابل خدماتها ، ولكن الجونغ يي تخلص منها بدفعها جانباً وواصل طريقه .

●

أمضى تاو تشين شطراً لا بأس به من الليل إلى جانب إلزا المحمومة . وعمل فوق ذلك الجسد المستنفد بالوسائل المحدودة التي في حقيبته ، وبخبرته الطويلة ورقته المترددة ، إلى أن لفظت إلزا كتلة رخوية دامية . فتفحصها تاو تشين على ضوء الفانوس واستطاع أن يحدد دون مجال للشك بأنه جنين عمره عدة أسابيع ، وأنه كامل . ولكي ينظف أعماق الأحشاء غرس إبره في ذراعي وساقي الفتاة ، مسبباً تشنجات قوية . وتنهد بارتياح عندما تأكد من النتائج : لم يبق أمامه سوى الطلب من لين بأن تتدخل لتفادي حدوث إلتهاب . لقد كانت إلزا تمثل في نظره حتى تلك الليلة مجرد اتفاق تجاري ، وكان عقد اللؤلؤ في قاع صندوقه دليلاً على ذلك . فقد كانت مجرد فتاة

مجهولة لا يشعر حيالها ، حسب ظنه ، بأي اهتمام خاص . إنها فان غووي ذات قدمين كبيرتين ومزاج مجرب ، تكلفت كثيراً لتحصل على زوج ، وإن كان لا يبدو عليها أنها تتمتع بأي قابلية لإسعاد رجل أو خدمته ، وهذا ما يمكن رؤيته بوضوح . أما الآن ، وبعد أن أتلفتها عملية الإجهاض ، فلن تتمكن من الزواج مطلقاً . وحتى العشيق الذي هجرها مرة ، لن يرضى بها زوجة له ، هذا إذا حدث ما هو غير ممكن وعثرت عليه يوماً . إنه يوافق على أن إلزا ، كأجنبية ، ليست قبيحة بالكامل ، فهناك على الأقل لمسة شرقية في عينيها الضيقتين ، ولها شعر طويل وأسود ولامع ، مثل ذيل حصان إمبراطوري متكبر . ولو كان لها شعر شيطاني أصفر أو أحمر ، مثل شعور كثيرة رآها منذ مغادرته الصين ، فلربما كان امتنع عن الاقتراب منها ؛ ولكن لن ينفعها مظهرها ولا صلابة طبعها في شيء ، فسوء طالعها قد تحدد ، وليس ثمة أمل بالنسبة إليها ؛ سينتهي بها المطاف إلى التعهر في كاليفورنيا . لقد تردد على نساء كثيرات من هذا النوع في كانتون وهونغ كونغ . وهو مدين بجزء كبير من معارفه الطبية لسنوات ممارسته المهنة على أجساد أولئك العاثرات التالفة من الضرب أو الأمراض أو المخدرات . لقد فكر عدة مرات خلال تلك الليلة الطويلة بما إذا لم يكن من النبل أن يتركها تموت ، على الرغم من تعليمات لين ، وينقذها بذلك من المصير الرهيب الذي ينتظرها . ثم يقول لنفسه إنها قد دفعت له مقدماً وعليه أن ينجز الجزء الخاص به من الاتفاق . وينتهي إلى التفكير بأن لا ، لم يكن ذاك هو دافعه الوحيد . فقد تساءل بينه وبين نفسه عن دوافعه ومبرراته لحمل تلك الفتاة خفية إلى السفينة . لقد كانت المجازفة كبيرة ، وهو غير متأكد من أنه قد أقدم على تلك الرعونة الكبيرة مقابل ما تساويه اللآلئ فقط . ثمة شيء في تصميم إلزا الشجاع قد أثر فيه ، وكان هناك شيء في هشاشة جسدها وفي الحب الباسل الذي تكنه لحبيبها يذكره بزوجته لين...

عند الفجر توقف نزيف إلزا أخيراً . كانت تهيم في الحمى وترتجف على الرغم من حرّ العنبر الذي لا يطاق ، ولكن نبضها كان أفضل ، وكانت تتنفس في نومها بهدوء . إلا أنها لم تكن قد خرجت من الخطر مع ذلك . وكان تاو تشين راغباً في البقاء هناك لمراقبتها ، ولكنه قدر بأنه لم يبق إلا القليل لبزوغ الفجر ، وأن الجرس سيُقرع عما قريب لاستدعائه إلى ورديته في العمل . تجرجر مستنفداً إلى السطح ، وتهاوى على وجهه فوق ألواح الأرضية الخشبية ونام مثل طفل إلى أن جاءته ركلة ودية وجهها إليه بحار آخر أيقظه ليذكره بواجباته . غطّس رأسه في دلو مملوء بماء البحر لكي يغتسل ، واتجه نحو المطبخ وهو ما يزال فاقداً الوعي ليغلي عصيدة الشوفان التي تشكل الفطور في السفينة . الجميع كانوا يأكلونها دون تعليق ، بمن فيهم القبطان كاتز القنوع ، اللهم إلا التشيليين الذين كانوا يحتجون معاً في كورال ، بالرغم من أنهم الأفضل تموناً ، لأنهم آخر من صعد إلى السفينة . أما الآخرون فكانوا قد بددوا مؤونتهم من التبغ والكحول والحلويات خلال شهور الإبحار التي تحملوها قبل الوصول إلى بالبارايسو . وشاع بين المسافرين بأن بعض التشيليين أرستقراطيون ، لأنهم لا يعرفون كيف يغسلون سراويلهم الداخلية أو كيف يغلون الماء لصنع الشاي . وكان مسافرو المقصورة الأولى قد أحضروا معهم الخدم الذين سيستخدمونهم في مناجم الذهب ، لأن فكرة توسيخ أيديهم شخصياً لم تكن تخطر لأذهانهم . وكان آخرون يفضلون أن يدفعوا للبحارة لكي يخدموهم ، ذلك أن النساء رفضن بالإجماع ؛ فهن لسن بحاجة إلى قضاء ساعتين في غسل الملابس ما دام بإمكانهن أن يكسبن أكثر من عشرة أضعاف بمجرد استقبال أولئك الرجال لعشر دقائق على انفراد في قمرتهن . وكان البحارة وبقية المسافرين يسخرون من أولئك السادة المدللين ، ولكنهم لا يفعلون ذلك مواجهة على الإطلاق . كان التشيليون يتصفون بالكياسة ، ويبدون خجولين ويقومون بمفاخرات في المجاملة والشهامة ، ولكن يمكن

لأدنى شرارة أن تكون كافية لإشعال خيلاءهم . وكان تاو تشين يحاول عدم الاختلاط بهم . فأولئك الرجال لا يوارون ازدراءهم له ولمسافرين زنجيين التحقا بالسفينة في البرازيل ودفعا ثمن تذكرتي سفرهما كاملاً ، ولكنهما الوحيدان اللذان ليس لهما قمرة ومن غير المسموح لهما بالجلوس إلى المائدة مع الآخرين . لقد كان تاو يفضل النساء التشيليات الخمس البائسات بحسهن العملي المتماسك ، ومزاجهن الرائق على الدوام ، والميل الأمومي الذي يتدفق منهن تلقائياً في لحظات الطوارئ .

أكمل وردية عمله مثل من يتحرك وهو نائم ، وتفكيره منصب على إلزا ، ولكنه لم يجد لحظة فراغ ليراها إلا في الليل . فعند الضحى تمكن البحارة من اصطياد سمكة قرش ضخمة . احتضرت طويلاً على ظهر السفينة وهي تضرب بذيلها ضربات رهيبة ، فلم يجرؤ أحد على الاقتراب منها ليجهز عليها بضربات هراوة . وكان على تاو تشين ، باعتباره الطاهي ، أن يشرف على مهمة سلخها وتقطيعها ، وطهو قسم من لحمها وتمليح الباقي ، بينما كان البحارة ينظفون السطح من الدم بفراشٍ كبيرة ، والمسافرون يحتفلون بالمشهد المريع بفتح آخر زجاجات الشمبانيا ، مستبقين وليمة العشاء الفخمة . خبأ تاو القلب ليصنع منه حساء لإلزا ، والزعانف ليجففها ، لأنها تساوي ثروة في سوق المنشطات الجنسية . وكلما مضت الساعات وهو مشغول بسمكة القرش ، كان تاو تشين يتخيل إلزا ميتة في عنبر السفينة . أحس بسعادة عارمة حين استطاع النزول وتأكد من أنها ما تزال على قيد الحياة وتبدو أحسن حالاً . كان النزيف قد توقف ، وكان إبريق الماء فارغاً وكل شيء يشير إلى أنها مرت بلحظات صحو خلال ذلك النهار الطويل . شكر لين باقتضاب على مساعدتها . فتحت الفتاة عينيها بصعوبة ، وكانت شفتاها جافتين ووجهها متورداً من الحمى . ساعدها على النهوض وقدم لها نقيعاً قوياً من التانكوي لتعويض الدم الذي نزفته . وعندما تأكد من أن الشراب قد استقر في معدتها ، قدم لها بضع

رشفات من حليب بارد شربتها بنهم . وما أن انتعشت حتى أعلنت أنها جائعة وطلبت مزيداً من الحليب . كانت الأبقار التي في السفينة ، غير المعتادة على الإبحار ، لا تدر إلا قليلاً من الحليب ، وصارت على العظم وبدأ الحديث يدور حول ذبحها . كانت فكرة شرب الحليب تبدو لتاو تشين مقرفة ، ولكن صديقه أيباليزر هوبز نبهه إلى فوائدها في تعويض الدم المفقود . وقرر أنه إذا كان هوبز يستخدمه في وجبات المصابين بجراح خطيرة ، فسوف يكون له المفعول نفسه في هذه الحالة .

- هل سأموت يا تاو ؟

فابتسم وهو يداعب رأسها :

- ليس بعد .

- كم بقي للوصول إلى كاليفورنيا ؟

- الكثير . لا تفكري في ذلك . عليك الآن أن تتبولي .

فاتخذت موقفاً دفاعياً :

- لا ، ارجوك .

- ماذا تعنين بلا ؟ يجب أن تفعلي ذلك!

- أمامك ؟

- أنا جونغ يي . لا يمكنك أن تخجلي مني . ثم إنني رأيت كل ما يمكن رؤيته من جسدك .

أجهشت إلزا وهي تستند إليه لكي تجلس على المبولة :

- لا أستطيع التحرك ، لن أتمكن من تحمل الرحلة يا تاو ، إنني أفضل الموت...

- تشجعي أيتها الصغيرة! تقول لين إن لديك الكثير من الكي وإنك لم تصلي بعيداً بعد لتموتي في منتصف الطريق .

- من التي قالت ؟

ـ ليس مهماً .

في تلك الليلة أدرك تاو تشين أنه لن يستطيع العناية بها وحده ، إنه بحاجة إلى مساعدة . وفي اليوم التالي ، وما إن خرجت النساء من قمرتهن وجلسن في مؤخرة السفينة ، مثلما يفعلن عادة ليغسلن الثياب ، ويضفرن شعورهن ويثبتن الرياش والخرز على ملابس مهنتهن ، حتى أومأ لأثوثينا بلاثيرس ليكلمها . لم تكن أي واحدة منهن قد استخدمت خلال الرحلة ملابس عملهن كمومسات ، بل كن يرتدين تنانير قاتمة ثقيلة وبلوزات دون زخارف أو زينات ، وينتعلن أخفافاً ، ويلتحفن في المساء بمعاطفهن ، ويسرحن شعورهن في ضفيرتين على الظهر ولا يستخدمن أصبغة تجميل . كن يبدون كجماعة فلاحات بسيطات منهمكات في أعمالهن المنزلية . غمزت التشيلية زميلاتها بتواطؤ مرح وتبعته إلى المطبخ . قدم إليها تاو تشين قطعة كبيرة من الشوكولاته ، سرقها من احتياطي مائدة القبطان ، وحاول أن يشرح لها مشكلته ، ولكنها لم تكن تفهم الإنكليزية وبدأ هو بفقدان صبره . تشممت أثوثينا بلاثيرس الشوكولاته وأضاءت ابتسامة طفولية وجهها الهندي المدور . أمسكت يد الطاهي ووضعتها فوق أحد نهديها وهي تشير إلى قمرة النساء الخاوية في تلك الساعة ، ولكنه سحب يده ، وأمسك بيدها واقتادها نحو الباب السري للدخول إلى العنبر . قاومت أثوثينا بلاثيروس بوهن وهي ما بين الاستغراب والفضول ، ولكنه لم يتح لها فرصة للرفض ، بل فتح الباب السري ودفعها على السلم الضيق وهو يبتسم طوال الوقت ليطمئنها . بقيا بضع لحظات في الظلام ، إلى أن وجد الفانوس المعلق على إحدى العوارض وتمكن من إشعاله . كانت أثوثينا تضحك : لقد فهم هذا الصيني الغريب أخيراً حدي الصفقة . لم تكن قد مارست ذلك مع آسيوي قط ، وكان يراودها فضول كبير لمعرفة إذا ما كانت عدته مثلما هي لدى الرجال الآخرين ، ولكن الطاهي لم يبد ما يشير إلى أنه سيستفيد من الخلوة ، بل راح يسحبها من ذراعها شاقاً طريقة

وسط تلك المتاهة من حزم الأمتعة . خشيت أن يكون الرجل مختلاً وبدأت تشد نفسها لتتخلص منه ، ولكنه لم يفلتها ، مجبراً إياها على التقدم إلى أن أضاء الفانوس الجحر الذي ترقد فيه إلزا . وما إن رأتها أثوثينا حتى هتفت وهي ترسم إشارة الصليب :

- يا يسوع ومريم ويوسف!

فطلب تاو تشين من إلزا بالإنكليزية وهو يهزها لتنتعش :

- اطلبي منها أن تساعدنا .

تأخرت إلزا حوالي ربع ساعة وهي تترجم متلعثمة تعليمات تاو تشين المقتضبة ، والذي كان قد أخرج البروش الفيروزي من كيس المجوهرات ، ودلاه أمام عيني أثوثينا المرتعدة . وقال لها إن الصفقة تتلخص في نزولها مرتين كل يوم لتنظف إلزا وتقدم لها الطعام ، دون أن يعلم بذلك أحد . فإذا أنجزت ذلك سيكون البروش من نصيبها عند الوصول إلى سان فرانسيسكو ، أما إذا تفوهت بكلمة واحدة لأي شخص ، فإنه سيذبحها . وكان الرجل قد استل السكين عن خصره وراح يمرره أمام أنفها ، بينما يده الأخرى تحمل البروش ، بحيث صارت الرسالة واضحة تماماً .

- مفهوم ؟

- قولي لهذا الصيني التعس بأنني فهمت وليخبئ هذه السكين ، لأنه بقليل من السهو سيقتلني دون أن ينتبه .

●

غابت إلزا خلال زمن بدا لا نهائياً في هذيان الحمى ، وكان يعني بها تاو تشين في الليل وأثوثينا بلاثيروس في النهار . كانت المرأة تستغل أول ساعات الصباح وساعة القيلولة ، حين يغفو معظم المسافرين ، فتنسل بتكتم إلى المطبخ ، حيث يعطيها تاو المفتاح . وكانت تنزل في أول الأمر إلى المستودع وهي تكاد تموت خوفاً ، ولكن طيب فطرتها الطبيعية ورغبتها

بالبروش تغلبا على الخوف . بدأت بتدليك إلزا بخرقة مضمخة بالصابون إلى أن أزالت عنها عرق الاحتضار ، ثم أجبرتها على أكل عصيدة الحليب والشوفان ومرق الدجاج مع الرز مدعما بالتانكوي الذي كان يحضره تاو تشين ، وكانت تقنن لها الأعشاب وفق تعليماته ، وبمبادرة منها صارت تقدم إليها كل يوم فنجاناً من مغلى أوراق لسان الثور . فقد كانت تثق دون تحفظ بهذا الدواء من أجل تنظيف البطن من الحمل ؛ فلسان الثور وصورة لعذراء الكارمن هما أول ما وضعته هي ورفيقاتها في المغامرة في صناديق سفرهما ، فدون مثل تلك الحماية يمكن لدروب سان فرانسيسكو أن تكون صعبة الارتياد . مضت المريضة تائهة في فضاءات الموت حتى صباح اليوم الذي رست فيه السفينة في ميناء غواياكيل ، وهي مجرد دسكرة تلتهمها الخضرة الاستوائية الخصيبة ، حيث تتوقف سفن قليلة ، اللهم إلا إذا كانت تريد التفاوض على شراء ثمار استوائية أو بن ، ولكن القبطان كاتز كان قد وعد بتسليم بعض الرسائل إلى أسرة من المبشرين الهولنديين . وقد كانت تلك الرسائل في عهدته منذ أكثر من ستة شهور ولم يكن بالرجل القادر على التملص من وعد قطعه على نفسه . في الليلة السابقة ، ووسط حر خانق ، تعرقت إلزا حرارتها حتى القطرة الأخيرة ، فقد نامت وهي تحلم بأنها تتسلق حافية على السفح المتألق لبركان ثائر ، واستيقظت مبللة بالعرق ، ولكنها بدت متألقة وجبهتها باردة . في ذلك اليوم نزل جميع المسافرين ، بمن في ذلك النساء وعدد لا بأس به من الطاقم ، من السفينة لبضع ساعات لكي يحركوا أرجلهم ويستحموا في النهر ويتخموا بطونهم بالثمار الطازجة . ولكن تاو تشين بقي في السفينة لكي يعلم إلزا كيفية إشعال وتدخين الغليون الذي يحتفظ به في الصندوق . كان في شك من الطريقة التي يتوجب عليه معالجة الفتاة بها ، وقد كانت تلك هي إحدى المناسبات التي لا يتورع فيها عن تقديم أي شيء مقابل الحصول على نصائح معلمه الحكيم . لقد كان يدرك أهمية إبقاء الفتاة هادئة لمساعدتها على تمضية الوقت في سجن

العنبر ، ولكنها كانت قد فقدت الكثير من الدماء ، وخشي أن يتلف المخدر ما تبقى في عروقها . اتخذ القرار متردداً ، بعد أن توسل إلى لين بأن ترعى عن قرب أحلام إلزا .

- إنه أفيون . يجعلك تنامين ، وهكذا يمضي الوقت سريعاً .

- أفيون! هذا شيء يسبب الجنون!

فابتسم تاو :

- أنت مجنونة على أي حال ، ولن تخسري الكثير .

- أنت تريد أن تقتلني ، أليس كذلك ؟

- صحيح . لم يرقني عمل ذلك وأنت تنزفين ، وسأفعله الآن بالأفيون .

- آه يا تاو ، إن هذا يخيفني...

- الإكثار من الأفيون سيئ . ولكن القليل منه يفرّج الكروب ، وأنا سأعطيك قليلاً جداً .

لم تعرف الفتاة ما هو الكثير وما هو القليل . كان تاو تشين يقدم لها أشربة من عقاقيره - عظم تنين وصدفة محارة - وجرعة الأفيون ليمنحها بضع ساعات من النوم الرحيم ، دون أن يسمح لها بالضياع الكامل في فردوس لا رجعة منه . أمضت الأسابيع التالية محلقة في مجرات أخرى ، بعيداً عن الجحر الوخيم الذي يرقد فيه جسدها منهوكاً ، ولم تكن تستيقظ إلا عندما ينزلون لإطعامها ، وغسلها ، وإجبارها على السير بضع خطوات في متاهة المستودع الضيقة . لم تكن تشعر بإزعاج القمل والبراغيث ، ولا بالرائحة المقززة التي لم تستطع تحملها في البدء ، لأن المخدرات كانت تشوش حاسة شمها العجيبة . كانت تدخل إلى أحلامها وتخرج منها دون أي رقابة ، ولم تكن تستطيع تذكرها كذلك ، ولكن تاو تشين كان على صواب : فقد مضى الوقت مسرعاً . لم تكن أثوثينا بلاثيروس تفهم سبب سفر إلزا في مثل تلك الظروف . لأن أي واحدة منهن لم تدفع ثمن تذكرة السفر ، وقد أبحرن بعقد مع القبطان الذي

سيحصل على قيمة التذكرة عند الوصول إلى سان فرانسيسكو . وكانت تقول بإلحاح في اللحظات التي تنهض فيها إلزا :

- إذا كانت الإشاعات صحيحة ، فإنك ستتمكنين في يوم واحد من جني خمسمئة دولار . فالمنجميون يدفعون بالذهب الخالص . لقد أمضوا شهوراً دون رؤية نساء... إنهم متلهفون . تكلمي مع القبطان وادفعي إليه عندما تصلين .

فترد عليها إلزا الذاهلة في ضبابية المخدر العذبة :

- لستُ واحدة منكن .

أخيراً ، في إحدى لحظات الصحو ، توصلت أثوثينا إلى جعل إلزا تعترف لها بشطر من قصتها . فهيمنت على مخيلة المرأة على الفور فكرة مساعدة العاشقة الهاربة ، ومنذ ذلك الحين صارت تولي المريضة عناية أكبر . فلم تعد تكتفي بإنجاز الاتفاق بإطعامها وتغسيلها ، بل صارت تبقى إلى جانبها لمجرد الاستمتاع برؤيتها نائمة . وإذا ما استيقظت ، تروي لها عن حياتها وتعلمها صلاة المسبحة لأنها ، على حد قولها ، أفضل طريقة لتمضية الساعات دون تفكير ، وهي تضمن في الوقت نفسه الجنة دون بذل جهد كبير . وكانت توضح بأن هذه الصلاة بالنسبة إلى امرأة بمهنتها هي وسيلة لا يعلى عليها . وكانت توفر بصرامة جزءاً من دخلها لتشتري صكوك غفران من الكنيسة ، لتختصر بذلك الأيام التي ستقضيها في المطهر في الحياة الأخرى ، مع أن تلك الصكوك حسب تقديرها لن تكون كافية على الإطلاق لتغطية كل خطاياها . مضت أسابيع لم تعرف إلزا خلالها الليل من النهار . كان يراودها إحساس غامض في بعض الأحيان بحضور أنثوي إلى جوارها ، ولكنها تغفو بعد ذلك ثم تستيقظ مشوشة ، دون أن تدري إذا ما كانت قد حلمت بأثوثيتا بلاثيروس أم أنه توجد فعلاً امرأة لها جديلتان سوداوان وأنف أفطس ووجنتان عاليتان ، تبدو وكأنها نسخة شابة من ماما فريسيا .

●

بدأ الجو يبرد قليلاً بعد أن خلفوا وراءهم بنما ، حيث حظر القبطان النزول إلى البر خوفاً من العدوى بالحمى الصفراء ، واكتفى بإرسال ملاحين اثنين في زورق لإحضار ماء عذب ، فالماء القليل المتبقي تحول إلى ما يشبه المستنقع . ثم اجتازوا المكسيك ، وبينما كانت السفينة إميليا تبحر في مياه شمالي كاليفورنيا دخلوا في فصل الشتاء . وتحول اختناق القسم الأول من الرحلة إلى برد ورطوبة ؛ فخرجت من الحقائب طاقيات من الفرو ، وجزمات ، وقفازات وتنانير من الصوف . وبين حين وآخر كانت السفينة الشراعية تصادف سفناً أخرى فتتبادل معها التحية من بعيد ، دون تخفيف السرعة . وفي كل قداس ديني كان القبطان يحمد السماء على الرياح المواتية ، لأنه كان يعرف أن هناك سفناً انحرفت حتى شواطئ هاواي أو أبعد منها بحثاً عن رياح تدفع القلوع . وانضمت إلى الدلافين اللعوبة حيتان ضخمة وقورة كانت ترافقهم لمسافات طويلة . وعند الغروب ، حين يصطبغ الماء بحمرة مغيب الشمس ، تمارس الحيتان الهائلة الحب وسط صخب زبد ذهبي ، مستدعية بعضها بعضاً بجؤار تحت مائي عميق . وفي بعض الأحيان ، تدنو في صمت الليل من السفينة إلى حد يمكن معه سماع الحفيف الثقيل والغامض لحضورها بوضوح تام . كانت المؤن الطازجة قد استنفدت والوجبات الجافة قد شحت ، ولم تكن هناك من وسيلة للهو باستثناء لعب الورق أو صيد السمك . وكان المسافرون يقضون ساعات في مناقشة تفاصيل الجمعيات التي يؤلفونها لتلك المغامرة ، بعضها ذات أنظمة عسكرية صارمة ، مع زي خاص بها ، وأخرى أكثر تراخياً . وجميعها تتشكل أساساً من أجل التضامن لتمويل الحملة والمعدات والعمل في المناجم ونقل الذهب ثم اقتسام الأرباح بعد ذلك بالعدل . ما كانوا يعرفون شيئاً عن طبيعة الأرض أو أبعادها . وقد اشترطت إحدى تلك الجمعيات وجوب عودة أعضائها إلى السفينة كل ليلة ، وكانوا يفكرون بالإقامة فيها لشهور ، وإيداع الذهب الذي يجنونه كل يوم في صندوق خزنة . وقد أوضح لهم

القبطان كاتز بأن السفينة إميليا لا تؤجر كفندق ، لأنه يفكر في الرجوع إلى أوربا بأسرع ما يمكن ، وأن المناجم تقع على بعد مئات الأميال عن الميناء ، ولكنهم تجاهلوه . كان قد مضى عليهم اثنان وخمسون يوماً من الإبحار ، وكانت رتابة الماء غير المتناهي تثير الأعصاب فتقع المشاجرات لأتفه الأسباب . وعندما كاد مسافر تشيلي أن يفرغ طبنجته في بحار يانكي كانت أثوثينا تكثر من التغنج معه ، قام القبطان فينسنت كاتز بمصادرة الأسلحة ، بما في ذلك أمواس الحلاقة ، مع الوعد بإعادتها لأصحابها عندما تصبح سان فرانسيسكو على مرأى البصر . وكان الشخص الوحيد المخول باستخدام السكاكين هو الطاهي الذي توجب عليه تنفيذ المهمة البغيظة بذبح الحيوانات الداجنة واحداً بعد آخر . وعندما كانت البقرة الأخيرة على وشك الانتقال إلى القدور ، ارتجل تاو تشين طقساً متقناً لينال مغفرة الحيوانات التي ضحى بها ويطهر نفسه من الدم المراق ، ثم عقم سكينه بعد ذلك بتمريره عدة مرات من خلال لهب أحد المشاعل .

ما إن دخلت السفينة مياه كاليفورنيا حتى أوقف تاو تشين تدريجياً الأعشاب المهدئة والأفيون عن إلزا ، وانهمك في تغذيتها وأجبرها على ممارسة تمارين لكي تتمكن من الخروج من محبسها على قدميها . كانت أثوثينا بلاثيروس تنظفها بالصابون بصبر ، حتى أنها ابتكرت طريقة لتغسل لها شعرها بفناجين من الماء ، بينما هي تحدثها عن حياتها الكئيبة كمومس وعن أوهامها السعيدة بالثراء في كاليفورنيا والعودة إلى تشيلي وقد تحولت إلى سيدة محترمة تحمل معها ستة صناديق من الملابس الفاخرة التي كملابس الملكات ، وتضع سناً ذهبياً . كان تاو تشين حائراً بالطريقة التي سينزل بها إلزا من السفينة ، ولكنه إذا كان قد تمكن من إدخالها في كيس ، فسيتمكن بكل تأكيد من استخدام الأسلوب نفسه لإنزالها . وحين تصبح الفتاة على اليابسة ، تكون مسؤوليته قد انتهت .

وكانت فكرة التخلص منها تثير فيه مزيجاً من الراحة الرهيبة واللهفة غير المفهومة .

عندما لم تبق سوى فراسخ قليلة لتصل إميليا إلى وجهتها ، بدأت السفينة تدنو من ساحل كاليفورنيا الشمالي ، فكان ـ حسب قول أثوثينا بلاثيرس ـ شبيهاً جداً بساحل تشيلي ، وأنهم كانوا يتحركون دون شك في حركة دائرية مثل جراد البحر ، فعادوا ثانية إلى ساحل بالبارايسو . كانت آلاف ذناب البحر والفقمات تنتزع نفسها عن الصخور وتسقط بتثاقل في الماء ، وسط جلبة النوارس والبجع . ولم يكن يُلمح إنسي واحد على امتداد جروف الساحل ، ولا أي أثر لقرية ، ولا ظل للهنود الحمر الذين يقال إنهم كانوا يقطنون تلك المناطق المسحورة منذ قرون . ودنت السفينة أخيراً من الصخور الناتئة في الماء التي تشير إلى اقترابهم من بوابة الذهب ، أو غولدن غيت الشهيرة ، عتبة خليج سان فرانسيسكو . وعندئذ أحاط بالسفينة ضباب كثيف كأنه العباءة ، ولم تعد الرؤية ممكنة لمسافة نصف متر ، فأمر القبطان بوقف التقدم وإلقاء المرساة خوفاً من الارتطام بالصخور . كانوا قريبين جداً ، فتحول تلهف البحارة إلى هرج ومرج . كانوا جميعهم يتكلمون في وقت واحد ، مهيئين أنفسهم للنزول إلى اليابسة والانطلاق فوراً باتجاه المناجم بحثاً عن الكنز . معظم الجمعيات التي تشكلت لاستثمار المناجم انحلت في الأيام الأخيرة ، فقد ولّد ضجر الإبحار عداوات بين من كانوا شركاء ، وصار كل رجل لا يفكر إلا بنفسه ، غارقاً في فرضيات الثراء الهائل . ولم يُعدم وجود من أعلنوا عن حبهم للمومسات ، وأبدوا استعدادهم للطلب من القبطان أن يزوجهم قبل أن يغادروا السفينة ، لأنهم سمعوا أن النساء هن أكثر الأشياء ندرة في تلك الأراضي الهمجية . وقد وافقت إحدى البيرويات على عرض زواج من رجل فرنسي أمضى زمناً طويلاً في البحر لدرجة أنه لم يعد يتذكر حتى اسمه ، ولكن القبطان فينسنت كاتز رفض عقد قرانهما حين علم أن للرجل زوجة وأربعة أبناء في

افينيون . أما الأخريات فرفضن فوراً عروض المتقدمين لهن ، وقلن إنهن قمن بتلك الرحلة الشاقة ليحصلن على الحرية والثراء ، لا ليتحولن إلى خادمات دون أجر لأول فقير مدقع يعرض عليهن الزواج .

راح حماس الرجال يخمد مع مرور الساعات في التوقف دون حراك ، غارقين في لاواقعية الضباب الحليبي . ولكن السماء صفت أخيراً في اليوم التالي وتمكنوا من رفع المرساة والانطلاق بأشرعة مفتوحة إلى المرحلة الأخيرة من الرحلة الطويلة . صعد المسافرون والبحارة إلى السطح ليتأملوا بإعجاب فتحة الغولدن غيت الضيقة ، ستة أميال من الإبحار مدفوعين بريح نيسان ، تحت سماء صافية . كانت ترتفع على الجانبين هضاب شاطئية مكللة بغابات ، مقطوعة مثل جرح بفعل عمل الأمواج الأزلي . صار المحيط الهادي خلفهم بينما امتد أمام البصر الخليج البديع وكأنه بحيرة مياه فضية . انطلقت الهتافات الجماعية محيية انتهاء الرحلة البحرية الشاقة وبدء مغامرة الذهب بالنسبة لأولئك الرجال والنساء ، وكذلك بالنسبة للعشرين بحاراً الذين قرروا في تلك اللحظة بالذات هجر السفينة لمصيرها والانطلاق بدورهم إلى المناجم . وكان الشخصان الوحيدان اللذان لم يباليا بذلك هما : القبطان الهولندي فينسنت كاتز الذي بقي في موقعه إلى جانب دفة القيادة دون أن يبدي أدنى قدر من الانفعال لأن الذهب لم يكن يؤثر فيه ، وإنما هو يرغب فقط في العودة إلى أمستردام في الوقت المناسب لقضاء عيد الميلاد مع أسرته ، وإلزا سوميرز التي كانت في جوف السفينة الشراعية ، ولم تعلم بأنهم قد وصلوا إلا بعد ساعات طويلة من ذلك .

•

كان أول ما أذهل تاو تشين لدى الدخول إلى الخليج ، هو غابة الصواري التي إلى يمينه . فقد كان من المستحيل إحصاء عددها ، ولكنه قدر بأن هناك أكثر من مئة سفينة مهجورة فيما يشبه فوضى معركة . فأي عامل على اليابسة

كان يكسب في اليوم الواحد أكثر مما يحصل عليه ملاح في شهر من الإبحار ؛ ولم يكن الرجال يهربون من السفن من أجل الذهب وحسب ، وإنما كذلك رغبة في جمع المال من العمل في تحميل الأكياس أو صنع الخبز أو طرق حذوة الخيل . كانت بعض السفن المهجورة تؤجر كمستودعات أو كفنادق مرتجلة ، بينما ينخر التلف سفناً أخرى تغطيها الطحالب البحرية وأعشاش النوارس . وقد كشفت النظرة الثانية لعيني تاو تشين المدينة الممتدة مثل مروحة على سفوح الهضاب ، حيث تتراكم الخيام وأكواخ الخشب والكرتون ، وعدد من الأبنية البسيطة إنما المتقنة ، وهي أول أبنية تلك المدينة الوليدة . بعد إلقاء المرساة استقبلوا أول زورق ، ولم يكن زورق قيادة المرفأ مثلما توقعوا ، وإنما هو زورق شخص تشيلي متعجل للترحيب بمواطنيه واستلام البريد . وكان ذلك الشخص هو فيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث ، الذي استبدل اسمه إلى فيليكس كروز ، حتى يتمكن اليانكيون من النطق به . وبالرغم من أن عدداً من المسافرين كانوا من أصدقائه الشخصيين ، فإن أحداً لم يتعرف عليه ، إذ لم يبق شيء من ذلك المتأنق ذي السترة الطويلة والشارب المصمغ الذي رأوه آخر مرة في بالبارايسو ؛ بل ظهر أمامهم إنسان كهوف مشعث ، له بشرة هندي مدبوغة ، ويرتدي ملابس جبليين وجزمة روسية تصل إلى منتصف فخذيه ، ويتدلى من حزامه مسدسان ، ويرافقه زنجي له مثل مظهره المتوحش ، وهو مسلح أيضاً كقاطع طريق . لقد كان عبداً هارباً ما إن وطأت قدماه أرض كاليفورنيا حتى تحول إلى رجل حر ، ولكنه لم يستطع تحمل مشقة العمل المنجمي ، ففضل أن يكسب عيشه كقاتل مأجور . عندما عرّف فيليثيانو بنفسه استُقبل بصرخات الحماس وحُمل عملياً على الأكف إلى المقصورة الأولى ، حيث طلب منه المسافرون جماعياً أن يطلعهم على الأخبار . كان اهتمامهم الوحيد ينصب على معرفة إذا ما كان الذهب موجوداً بوفرة مثلما يشاع ، فرد على ذلك بالقول إن هناك أكثر مما يشاع بكثير ، وأخرج من

جرابه مادة صفراء لها شكل براز مسطح وأعلن أنها قطعة ذهب تزن نصف كيلوغرام ، وهو مستعد لمقايضتها بكل الخمور الموجودة على متن السفينة ، ولكن الصفقة لم تتم لأنه لم يكن قد تبقى سوى ثلاث زجاجات من الخمر ، أما البقية فاستُهلكت خلال الرحلة . وقال إن من عثر على قطعة الذهب تلك هم المنجميون التشيليون الشجعان ، وأنهم يعملون الآن لحسابه على ضفاف النهر الأمريكي . وبعد أن تبادلوا الأنخاب من احتياطيهم الأخير من الخمر ، وتسلم التشيلي الرسائل المرسلة من زوجته ، بدأ يخبرهم بكيفية البقاء أحياء في تلك المنطقة ، وقال موضحاً :

- لقد كان هناك ميثاق شرف يسود فيما بيننا إلى ما قبل شهور ، وحتى أسوأ الأوغاد كانوا يتصرفون بوقار . وكان بالإمكان ترك الذهب في خيمة دون حراسة ، فلا يمسه أحد ، ولكن كل شيء قد تبدل الآن . فشريعة الغاب هي السائدة ، والعقيدة الوحيدة هي الجشع . لا تبتعدوا عن أسلحتكم ، وليكن خروجكم كل شخصين معاً أو في جماعات ، فهذه بلاد قطاع طرق .

أحاطت بالسفينة عدة زوارق يقودها رجال يصرخون مقترحين عقد صفقات متنوعة ، ومصممينَ على شراء أي شيء ، ذلك أنهم يبيعونه على اليابسة بخمسة أضعاف قيمته . وسرعان ما اكتشف المسافرون الغافلون فن المضاربة . وفي المساء جاء قائد الميناء يرافقه وكيل من الجمارك ووراءهما زورقان فيهما عدة مكسيكيين وصينيين عرضوا نقل الحمولة من السفينة إلى الرصيف . كانوا يتقاضون مبلغاً ضخماً ، إنما لم يكن ثمة خيار آخر . لم يبد قائد الميناء أي اهتمام بتفحص جوازات السفر أو التحري عن هوية المسافرين ، وأعلن قائلاً :

- أتقولون وثائق ؟ لا شيء من هذا! لقد وصلتم إلى فردوس الحرية . لا وجود هنا للأوراق المختومة .

أما النساء بالمقابل ، فقد أثرن اهتمامه بحيوية . كان يفاخر بأنه أول من

يضاجعهن جميعهن وكل واحدة ممن ينزلن في سان فرانسيسكو ، مع أنهن لسن كثيرات بقدر ما يشتهي . وروى بأن أول من أتين إلى المدينة ، منذ عدة شهور ، استقبلهن بحشد من الرجال المبتهجين الذين وقفوا في صف لساعات كي يأخذوا دورهم ويدفعوا الذهب تبراً أو قطعاً أو مسكوكات أو حتى في سبائك . والنسوة المعنيات كن فتاتين أمريكيتين باسلتين ، قامتا بالرحلة من بوسطن . وعبرتا إلى المحيط الهادي عبر برزخ بنما . وكانتا تقدمان خدماتهما إلى أفضل مزايد ، فتكسبان في اليوم ما يعادل الدخل العادي في سنة . ومنذ ذلك الحين جاءت أكثر من خمسمئة امرأة ، جميعهن مكسيكيات أو تشيليات أو بيروويات ، باستثناء عدد محدود من الأمريكيات الشماليات والفرنسيات ، ولكن عددهن ما يزال تافهاً بالمقارنة مع التدفق المتزايد للرجال الشباب الوحيدين .

لم تسمع أثوثينا بلاثيرس أخبار ذلك اليانكي ، لأن تاو تشين أخذها إلى العنبر منذ علم بمجيء وكيل الجمارك . لم يعد بإمكانه إنزال الفتاة في كيس على كتف أحد الحمالين ، مثلما صعدت ، لأنه سيجري الكشف على الحزم دون ريب . فوجئت إلزا عندما رأتهما ، فقد كانا كلاهما بمظهر لم تكد تعرفه : فهو يرتدي سترة وبنطالاً مغسولين حديثاً ، وجديلته المشدودة تلمع وكأنها مطلية بالزيت ، كما أنه كان قد حلق حتى آخر شعرة في جبهته ووجهه ، بينما كانت أثوثينا بلاثيرس قد استبدلت ملابس الفلاحات بثياب الميدان ، فارتدت فستاناً أزرق مزيناً برياش على الصدر المفتوح ، وسرحت شعرها في تسريحة عالية تتوجها قبعة مع صباغ أحمر على شفتيها وخديها .

قالت لها بسعادة :

ـ ها قد انتهت الرحلة ، وما تزالين على قيد الحياة يا صغيرتي .

كانت تفكر بأن تقدم إلى إلزا أحد فساتينها المبهرجة وتخرجها من السفينة كما لو أنها واحدة أخرى من جماعة النساء ، وهي فكرة ليست سيئة

بالكامل ، إذ أوضحت لها بأنه من المؤكد أن تلك ستكون مهنتها الوحيدة الممكنة على اليابسة .

فردت إلزا للمرة المئة :

ـ لقد جئت للزواج من خطيبي .

ـ ليس هناك من خطيب يستحق العناء في مثل هذه الحالة . إذا كان لا بد لإحدانا من أن تبيع مؤخرتها لكي تأكل ، فلتبعها . لا يمكنك التدقيق في التفاصيل عند بلوغ هذا المستوى يا صغيرتي .

قاطعهما تاو تشين . وقال إنه إذا كان هناك سبع نساء على متن السفينة طوال شهرين ، فإنه سيكون من غير الممكن نزول ثمان . كان قد أمعن النظر في جماعة المكسيكيين والصينيين الذين صعدوا إلى السفينة لإنزال الأمتعة وكان ينتظر أوامر القبطان ووكيل الجمارك على متن السفينة . طلب من أثوثينا أن تسرح شعر إلزا الطويل في ضفيرة كضفيرته ، ريثما يذهب هو لإحضار بعض ملابسه . ألبسا الفتاة بنطالاً وقميصاً مربوطاً عند الخصر بحبل ، وقبعة من القش لها واقية شمسية عريضة . وكانت إلزا قد فقدت الكثير من وزنها خلال الشهرين اللذين أمضتهما تتخبط بين كثبان الجحيم ، وصارت تبدو ضامرة وشاحبة بلون ورق الرز . وبدت بملابس تاو تشين الواسعة عليها مثل صبي صيني سيئ التغذية وكئيب . طوقتها أثوثينا بلاثيرس بذراعيها الممتلئين وطبعت قبلة تأثر على جبهتها . لقد أحبتها وكانت تتمنى في أعماقها أن يكون لها خطيب ينتظرها ، لأنها لا تستطيع أن تتصورها خاضعة لفظاظة الحياة التي تتحملها هي .

ـ إنك تبدين مثل سحلية . ـ قالت لها أثوثينا ضاحكة .

ـ وماذا إذا اكتشفوني ؟

فقالت المرأة معربة عن رأيها :

ـ ما هو أسوأ ما يمكن أن يحدث ؟ أن يجبرك كاتز على دفع ثمن بطاقة

السفر . ويمكنك دفعها بالمجوهرات ، ألست تحملينها من أجل ذلك ؟

فقال تاو تشين :

- يجب ألا يعرف أحد أنك هنا . حتى لا يبحث عنك القبطان سوميرز في كاليفورنيا .

- إذا ما عثر عليّ فسوف يعيدني إلى تشيلي .

- ولماذا يعيدك ؟ لقد صرت مدنسة على كل حال . والأغنياء لا يتحملون مثل هذا . لا بد أن أسرتك تشعر بالسعادة لاختفائك ، لأن ذلك سيعفيهم من طردك إلى الشارع .

- هكذا فقط ؟ لو كنتِ في الصين لقتلوك على فعلتك .

- حسن أيها الصيني ، نحن لسنا في بلادك . فلا تسبب مزيداً من الخوف للصغيرة . يمكنك الخروج مطمئنة يا إلزا . فلن ينتبه إليك أحد . الجميع سيكونون مشغولين بالنظر إلي . - أكدت لها أثوثينا بلاثيرس ذلك وهي تودعها بزوبعة من الريش الأزرق ، وبروش الفيروز يتدلى على صدرها .

وكان ذلك هو ما حدث . فقد شكلت التشيليات الخمس والبيرويتان بزينتهن الحربية ، المشهد الأكثر أهمية في ذلك اليوم . نزلن إلى الزوارق على سلم من الحبال يسبقهن سبع بحارة محظوظين أحرزوا امتياز إسناد مؤخرات النساء إلى رؤوسهم ، وسط كورال تصفير وتصفيق من مئات الفضوليين الذين احتشدوا في الميناء لاستقبالهن . لم ينتبه أحد إلى المكسيكيين والصينيين الذين كانوا مثل صف من النمل ينقلون الحزم من يد إلى يد . وركبت إلزا في أحد آخر الزوارق إلى جانب تاو تشين الذي أخبر مواطنيه بأن الصبي أصم وأبكم ، وبه شيء من البلاهة ، وأنه من غير المجدي محاولة التواصل معه .

الباحثون عن الذهب

وطئت أقدام تاو تشين وإلزا سوميرز أرض سان فرانسيسكو أول مرة في الساعة الثانية من مساء يوم ثلاثاء من شهر نيسان سنة ١٨٤٩ . وكان آلاف المغامرين قد مروا من هناك سريعاً حتى ذلك الحين وهم في طريقهم إلى مواقع الذهب . كانت ريح معاندة تجعل المسير صعباً ، ولكن النهار كان صافياً واستطاعا رؤية مشهد الخليج في جماله البهي . كان تاو تشين يمثل مشهداً غريباً وهو يحمل حقيبة الطبيب التي لا يتخلى عنها مطلقاً ، وحزمة على ظهره ، ويضع قبعة من القش وعباءة بونتشو صوفية متعددة الألوان اشتراها من أحد الحمالين المكسيكيين . ومع ذلك ، فقد كان المظهر هو آخر ما يلفت الأنظار في تلك المدينة . كانت ساقا إلزا ترتجفان بعد شهرين من عدم استخدامهما ، وكانت تشعر بالدوار على اليابسة مثلما كانت تشعر في البحر من قبل ، ولكن الملابس الرجالية منحتها حرية لم تعرفها من قبل ، ولم تكن قد أحست مطلقاً من قبل بأنها غير مرئية إلى ذلك الحد . وعندما تخلصت من الإحساس بأنها عارية ، تمكنت من الاستمتاع بالنسمات التي تدخل من كمي البلوزة والبنطال . وصارت تتنفس ملء رئتيها بعد أن كانت معتادة على ضغط التنانير والمشدات . وبمشقة كبيرة كانت تحمل الحقيبة الصغيرة التي تضم الملابس الرائعة التي جهزتها لها مس روز بنية طيبة . وحين رآها تاو تشين تمشي

مترنحة أخذ الحقيبة منها ووضعها على كتفه . وكانت البطانية القشتالية الملفوفة تحت إبطها لا تقل ثقلاً عن الحقيبة ، ولكنها أدركت أنه لا يمكن لها التخلي عنها ، وأنها ستكون أثمن ممتلكاتها في الليل . وبينما هي تطأطئ رأسها المخبأ تحت قبعتها القشية ، كانت تتقدم متعثرة في فوضى الميناء المرعبة . لم تكن قرية يربا بوينا التي أسستها حملة إسبانية سنة ١٧٦٩ ، تضم سوى أقل من خمسمئة نسمة ، ولكن ما أن شاع خبر الذهب حتى بدأ المغامرون بالتوافد . وخلال شهور قليلة استيقظت تلك القرية البريئة على اسم سان فرانسيسكو ووصلت شهرتها حتى آخر أطراف المعمورة . لم تكن قد أصبحت مدينة بعد ، وإنما مجرد معسكر هائل لرجال عابرين .

ولم تمر حمى الذهب على أحد دون مبالاة : لقد جاء حدادون ، ونجارون ، ومعلمون ، وأطباء ، وجنود ، وهاربون من العدالة ، وواعظون ، وخبازون ، وثوريون ومجانين هادئون من كل الأنواع ، تركوا وراءهم أسرهم وممتلكاتهم لكي يقطعوا نصف العالم بحثاً عن المغامرة . « إنهم يبحثون عن الذهب ويفقدون في أثناء ذلك الروح » ، هذا ما كان يكرره دون كلل القبطان كاتز في كل واحدة من قداديسه التي يفرضها على مسافري السفينة إميليا وبحارتها في أيام الآحاد . ولكن أحداً لم يكن يوليه اهتماماً ، فهم مبهورون بوهم الثراء المفاجئ الذي يمكن له أن يبدل حيواتهم . فللمرة الأولى في التاريخ يوجد الذهب ملقى على الأرض لا أصحاب له ، بالمجان وبوفرة ، وبمتناول كل مصمم على جمعه . من أقصى سواحل العالم يأتي الباحثون عن الذهب : أوربيون هاربون من الحروب والأوبئة والطغيان ؛ يانكيون طموحون ومتهورون ؛ زنوج يبتغون الحرية ؛ أوريغونيون وروس يرتدون الفراء ، مثل الهنود ؛ ومكسيكيون وتشيليون وبيرويون ؛ وقطاع طريق أستراليون ؛ وفلاحون صينيون جائعون يجازفون برؤوسهم بخرقهم الحظر الإمبراطوري لمغادرة الوطن . جميع الأجناس كانت تختلط في أزقة سان فرانسيسكو الموحلة .

الشوارع الرئيسية ، المرسومة كأكقواس كبيرة تلامس نهاياتها الشاطئ ، تقطعها شوارع أخرى مستقيمة تنزل من الهضاب الوعرة وتنتهي في الميناء ، وكان بعضها شديد الانتصاب وممتلئاً بالوحل ، حتى أن البغال تعجز عن تسلقه . وقد تهب فجأة ريح عاصفة ، تثير زوبعة من الغبار والرمل ، ولكن الهواء ما يلبث أن يهدأ بعد وقت قصير وتصفو السماء . كانت هناك عدة عمارات متينة وعشرات ورشات البناء ، بل كان يُعلن عن بعضها كفنادق مستقبلية فخمة ، أما ما تبقى فكان خليطاً من الأبنية المرتجلة ، والبراكات ، وأكواخ من صفائح حديدية أو من الخشب أو الكرتون ، وخيام من المشمع أو سقوف من القش . كانت أمطار الشتاء الحديث قد حولت الميناء إلى مستنقع ، وكانت العربات القليلة تغوص في الوحل وتحتاج إلى ألواح خشبية لتجتاز الحفر المغطاة بالزبالة وآلاف الزجاجات المكسرة والنفايات الأخرى . لم تكن هناك مجار ولا بالوعات وكانت الآبار ملوثة ؛ والكوليرا والديزنطاريا تتسببان بحدوث وفيات بين الجميع ، اللهم إلا بين الصينيين المعتادين على شرب الشاي ، والتشيليين المترعرعين على مياه بلادهم الآسنة ، والمحصنين بالتالي ضد الجراثيم الدنيا . كانت الحشود غير المتجانسة تعج أسيرة نشاط محموم ، تتدافع وتصطدم بمواد بناء ، وبراميل ، وصناديق ، وحمير وعربات . وكان الحمالون الصينيون يوازنون حمولاتهم على طرفي عصا ، دون أن يأبهوا بمن يصدمونهم في طريقهم ؛ أما المكسيكيون الأقوياء ذوو الجَلَد فيحملون على ظهورهم ما يساوي وزنهم ويصعدون مهرولين إلى الهضاب ؛ ويستغل الملاويون والهاوايون أي ذريعة ليبدؤوا شجاراً ؛ ويدخل اليانكيون على صهوات خيولهم إلى المتاجر المرتجلة ، ساحقين من يعترض طريقهم ؛ والكاليفورنيون المولودون في المنطقة يعرضون بزهو ستراتهم البديعة المطرزة ، ومهاميزهم الفضية وبنطلوناتهم المفتوحة على الجانبين مع صفين من الأزرار من الخصر وحتى الجزمة . وكان صخب المشاجرات والحوادث يضاف

إلى ضوضاء المطارق والمناشير والمعاول . وتسمع أصوات الرصاص بتواتر مرعب ، ولكن أحداً لم يكن يهتم بميت يزيد أو ينقص ، بينما سرقة علبة مسامير بالمقابل كانت تستدعي على الفور مجيء جماعة من المواطنين الساخطين المستعدين لإقرار العدالة بأيديهم . فالملكية أثمن من الحياة ، وأي سرقة تزيد على المئة دولار يُعاقَب مقترفها بالشنق . كانت تنتشر بكثرة محلات القمار والبارات والصالات المزينة بصور نساء عاريات لعدم وجود نساء حقيقيات . وفي الخيام يباع كل شيء ، وخصوصاً الخمور والأسلحة ، بأسعار فاحشة لأنه لم يكن لدى أحد متسع من الوقت للمساومة . وكان الزبائن يدفعون الثمن ذهباً في معظم الأحيان ، ولا يتوقفون ليأخذوا فتات التبر الذي يبقى عالقاً بالميزان . وقرر تاو تشين أن «غوم سان» أو جبل الذهب الشهير الذي طالما سمع عنه ، هو جحيم خالص ، وقدر أن مدخراته لن تكفيه إلا لوقت قصير بمثل تلك الأسعار . أما حقيبة مجوهرات إلزا فستكون بلا فائدة ، لأن العملة الوحيدة المتداولة هي الذهب الخالص .

شقت إلزا طريقها بين الحشود كيفما استطاعت ، ملتصقة بتاو تشين وشاكرة له ملابسه الرجولية ، لأنه لم تكن هناك نساء في أي مكان . أما مسافرات السفينة إميليا السبع فقد جرى اقتيادهن على الفور على محفات إلى واحدة من الصالات الكثيرة ، حيث بدأن دون ريب بكسب المائتين والسبعين دولاراً التي يدنّ بها للقبطان فينسينت كاتز . كان تاو تشين قد علم من الحمالين بأن المدينة مقسمة إلى قطاعات وكل جنسية تحتل أحد الأحياء . ونصحوه بألا يقترب من القوادين الأستراليين الذين يمكنهم أن يهاجموه لمجرد الرغبة في التسلية ، وأشاروا له باتجاه ركام من الخيام والأكواخ حيث يعيش الصينيون . فتوجه إلى هناك .

سألته إلزا وهي تشعر بالضياع والعجز :

ـ كيف سأجد خواكين في هذه الفوضى ؟

- ما دام هناك حي صيني ، فلا بد من وجود حي تشيلي . ابحثي عنه .
- لا أفكر في الابتعاد عنك يا تاو .

فحذرها :

- في الليل سأرجع إلى السفينة .
- لماذا ؟ ألا يهمك الذهب ؟

حث تاو تشين الخطى وضبطت هي إيقاع خطواتها حتى لا يغيب عن نظرها . وهكذا وصلا إلى الحي الصيني - أو كانتون الصغيرة ، كما يسمونه - وهو عبارة عن شارعين وخيمين ، حيث شعر على الفور بأنه في بيته لأنه لم يرَ هناك وجه فان غووي واحد ، ولأن الهواء يعبق بروائح مأكولات بلاده اللذيذة ، وتُسمع عدة لهجات ، وخصوصاً الكانتونية . أما بالنسبة إلى إلزا فكان الأمر كما لو أنها قد انتقلت إلى كوكب آخر ، إذ لم تكن تفهم كلمة واحدة وبدا لها أن الجميع غاضبون ، لأنهم كانوا يومئون صارخين . لم يكن هناك نساء أيضاً ، ولكن تاو أشار إلى كوتين ضيقتين لهما قضبان حديدية تطل منهما وجوه نسائية يائسة . كان قد أمضى شهرين دون أن يعاشر امرأة ، وقد أومأت أولئك النسوة له ، ولكنه كان يعرف جيداً أضرار الأمراض التناسلية بحيث لا يمكنه المجازفة مع واحدة من تلك المرتبة الدنيا . إنهن فتيات فلاحات يُشترين ببضع قطع نقدية ويجلبن من أقاصي الأقاليم الصينية . فكر بأخته التي باعها أبوه ، فشطرته نوبة غثيان إلى شطرين .

- ماذا أصابك يا تاو ؟
- إنها ذكريات بغيضة... هؤلاء الفتيات مستعبدات .
- ألا يقولون إنه لا وجود للعبودية في كاليفورنيا ؟

دخلا مطعماً مشاراً إليه بالشرائط القماشية الصفراء التقليدية . كانت هناك مائدة كبيرة مزدحمة برجال يلتصق مرفق أحدهم بالآخر وهم يلتهمون طعامهم بسرعة . ضجة ارتطام عيدان الأكل في القصعات والأحاديث الصاخبة

كانت أشبه بالموسيقى في مسمعي تاو تشين . انتظرا واقفين في صف مزدوج إلى أن تمكنا من الجلوس . لم يكن هناك مجال للاختيار ، إذ لا بد من الإسراع في الحصول على ما هو في متناول اليد . كان لا بد من المهارة لالتقاط الأطباق بسرعة قبل أن يسبق إليها متحفز آخر ، ولكن تاو تشين تمكن من الحصول على طبق لإلزا وآخر له . تفحصتْ بارتياب ذلك السائل المائل إلى الخضرة ، حيث تطفو بعض الخيوط الشاحبة والرخويات الهلامية . لقد اعتادت أن تفاخر بأنها تعرف مكونات أي طبق من رائحته ، ولكن ذلك الطبق بدا لها وكأنه غير صالح للأكل ، فقد كان له مظهر ماء مستنقع مع شراغيف ضفادع ، ولكن أكله لا يتطلب استخدام العيدان ، إذ يمكنها أن ترتشفه من الزبدية مباشرة . وكان الجوع أقوى من الشكوك ، فتجرأت وتذوقته ، بينما كان صف من الزبائن نافدي الصبر وراء ظهرها يستعجلونها صارخين . وجدت ذلك الطبق الصغير لذيذاً وكانت مستعدة لتناول واحد آخر بطيب خاطر ، لكن تاو تشين لم يتح لها الوقت ، إذ أمسكها من ذراعها واقتادها خارجاً . لحقت به في أول الأمر إلى دكاكين الحي لكي يعوض المواد الطبية التي نقصت من حقيبته ؛ ويتبادل الحديث مع اثنين من العشابين الصينيين الذين يعملون في المدينة ، ثم ذهبا إلى واحد من محلات لعب القمار الكثيرة والمنتشرة في كل مكان . كان المحل بناء من الخشب فيه تطلعات إلى الفخامة ، مزين برسوم نساء شهوانيات شبه عاريات . وكان تبر الذهب يوزن لاستبداله بالنقد ، ستة عشر دولاراً للأونصة الواحدة ، أو يوضع جراب الذهب كله ببساطة على طاولة اللعب . وكان الأمريكيون والفرنسيون والمكسيكيون يشكلون غالبية الزبائن ، ولكن كان هناك كذلك مغامرون من هاواي وتشيلي والنمسا وروسيا . أشهر الألعاب المتداولة هي « مونتي » المكسيكية الأصل ، و« لاسكانت » و« واحد وعشرون » . وبما أن الصينيين يفضلون لعبة فان-تان ولا يكادون يغامرون إلا ببعض السنتات القليلة ، فإنهم لم يكونوا موضع

ترحيب على موائد القمار الغالية . ولم يكن هناك زنجي واحد يشارك في اللعب ، بالرغم من وجود بعضهم يعزفون الموسيقى أو يقومون على خدمة الموائد ؛ وقد علمنا فيما بعد بأنه إذا ما دخل الزنوج إلى البارات أو محلات القمار ، فانهم يقدمون إليهم كأساً من الشراب مجاناً ويتوجب عليهم المغادرة بعد ذلك أو أنهم يخرجونهم بالرصاص . كانت هناك ثلاث نساء في الصالون ، شابتان مكسيكيتان لهما عيون واسعة تطلق شرراً ، وترتديان ملابس بيضاء وتدخنان سيجارة بعد أخرى ، وواحدة فرنسية تضع مشداً ضيقاً ومكياجاً كثيفاً ، وهي ناضجة بعض الشيء وجميلة . وكن يتجولن بين الموائد للحث على اللعب والشرب ، وكثيراً ما يتوارين عن الأنظار وراء ستارة من البروكار الأحمر وهن يتأبطن ذراع أحد الزبائن . وقد أُخبر تاو تشين بأنهن يتقاضين أونصة من الذهب مقابل مرافقته في البار خلال ساعة واحدة وعدة مئات من الدولارات مقابل قضاء ليلة كاملة مع رجل متوحد ، ولكن الفرنسية كانت أغلى سعراً وهي لا تتعامل مع الصينيين أو الزنوج .

•

جلست إلزا في أحد الأركان منهوكة القوى دون أن تهتم بإتقان دورها كفتى شرقي ، بينما راح تاو يتبادل الحديث مع هذا وذاك متقصياً التفاصيل عن الذهب وعن الحياة في كاليفورنيا . وبدا تاو تشين الذي تحميه ذكرى لين أكثر قدرة على تحمل إغراء النساء من إغراء لعب القمار . فقرقعة أحجار لعبة الفان تان والنرد على سطح الطاولات كان يستدعيه بصوت حورية بحر . ورؤية ورق اللعب في أيدي المقامرين يجعله يتعرق ، ولكنه كبح نفسه ، مصلباً إياها بالقناعة بأن حسن الطالع سيتخلى عنه إلى الأبد إذا ما خرق عهده . بعد سنوات عديدة من ذلك ، سألته إلزا عن أي حسن طالع يتكلم ، فرد عليها دون أن يفكر مرتين ، بأنه يعني بقاءه حياً وتعرفه عليها . لقد علم في مساء ذلك اليوم بأن مكامن الذهب.تنتشر على ضفاف نهر سكرامينتو والنهر الأمريكي

ونهر سان خواكين وفي وتفرعاتها التي تعد بالمئات ، ولكن الخرائط غير جديرة بالثقة والمسافات شاسعة . كان الذهب سهل المنال والقريب من سطح الأرض ينفد . صحيح أنه لا يُعدم وجود مَنجميين محظوظين يتعثرون بقطعة ذهب بحجم حذاء ، إلا أن الغالبية يرتضون بحفنة من التبر الناعم الذي يجنونه بجهود مضنية . وقيل له إن حديثاً كثيراً يدور عن الذهب ، ولكن قلما يجري الحديث عن التضحيات المبذولة . وإنه لا بد من الحصول على أونصة ذهب في اليوم من أجل تحقيق شيء من الربح ، على أن يكون المرء مستعداً للعيش كالكلاب ، لأن تكاليف الحياة باهظة جداً ، والذهب يتبخر ما بين إغماضة عين وفتحها . أما التجار والمرابون بالمقابل ، فإنهم يجنون ثروات طائلة ، مثل أحد أبناء جلدته الذي احترف غسل الملابس ، وتمكن خلال شهور قليلة من بناء بيت من المواد المتينة ، وهو يفكر الآن في العودة إلى الصين ليشتري عدة زوجات ويتفرغ لإنتاج الأبناء الذكور . أو ذاك الآخر الذي كان يقرض المال في أحد محلات القمار بفائدة تبلغ عشرة بالمئة في الساعة ، أي أكثر من سبع وثمانين ألفاً في السنة . وأكدوا له قصصاً أسطورية عن كتل ذهب ضخمة وحبيبات تبر وفيرة مختلطة بالرمل ، وعن عروق ذهب بين صخور الكوارتز ، وعن بغال تنتزع بقوائمها حجراً بارزاً تتعثر به فيظهر تحته كنز ، ولكن الثراء يتطلب العمل والحظ . اليانكيون يفتقرون إلى الصبر ، فهم لا يحسنون العمل في فريق ، وتغلب عليهم الفوضى والجشع . والمكسيكيون والتشيليون يفهمون في أعمال المناجم ، ولكنهم يبذرون كثيراً ؛ والأوريغونيون والروس يهدرون وقتهم في المشاجرات والشراب . أما الصينيون بالمقابل ، فإنهم يجنون الفوائد مهما كانت وسائلهم ضئيلة وبائسة ، لأنهم زاهدون ، لا يسكرون ويشتغلون كالنمل ثمانية عشر ساعة دون راحة أو تذمر . والفان غووي يتضايقون من نجاح الصينيين ، وحذروه بأنه لا بد له من المداراة والتظاهر بالبلاهة ، وعدم استفزاز الآخرين ، وإلا فإنه سيواجه المصاعب مثلما

يحدث للمكسيكيين المتعجرفين . وقالوا له : أجل ، يوجد معسكر للتشيليين ؛ وهو منعزل بعض الشيء عن مركز المدينة ، في الجهة اليمنى ، ويسمى «تشيلي الصغيرة» ، ولكن الوقت قد تأخر ولا يمكن المجازفة بالتجول في تلك الأنحاء دون مرافقة أحد سوى أخيه المتخلف .

وعندما خرجا أخيراً من صالة القمار ، قال لها تاو تشين :

- أنا سأرجع إلى السفينة .

- أشعر بالدوار ، وأحس بأنني سأقع أرضاً .

- لقد كنتِ مريضة جداً . إنكِ بحاجة إلى أن تأكلي جيداً وتستريحي .

- لن أستطيع عمل ذلك بمفردي يا تاو . أرجوك ألا تتركني وحيدة بعد....

- إنني مرتبط بعقد عمل ، والقبطان سيأمر بالبحث عني .

- ومن سينفذ الأمر ؟ كل السفن مهجورة . لم يبق أحد على متنها . يمكن لهذا القبطان أن يخدع نفسه بالصراخ ، ولكن أحداً من بحارته لن يرجع إليه .

وتساءل تاو تشين بصوت عال وباللهجة الكانتونية : «ماذا سأفعل بها ؟» . فاتفاقه معها ينتهي في سان فرانسيسكو ، ولكنه لا يجد نفسه قادراً على التخلي عنها وتركها لمصيرها في ذلك المكان . إنه عالق في ورطة ، إلى أن تسترد قواها على الأقل ، وتقيم اتصالاً مع تشيليين آخرين أو تجد مكان حبيبها الزلق . وقد خمن بأن ذلك لن يكون صعباً . فمهما بدت فوضى سان فرانسيسكو ، فإنه ليست هناك أسرار على الصينيين في أي مكان ، ولا بأس بأن ينتظر إلى اليوم التالي ويوصلها إلى «تشيلي الصغيرة» . كان الظلام قد خيم ، مضفياً على المكان مظهراً شبحياً . وكانت جميع البيوت تقريباً من قماش خيم سميك ، تجعلها الفوانيس المضاءة في الداخل تبدو شفافة ومشعة مثل الماس . وكانت المشاعل والمواقد في الشارع ، والموسيقى في بيوت القمار تسهم في إعطاء انطباع بعدم الواقعية . بحث تاو تشين عن مأوى يمضيان فيه الليل ، ووجد مهجعاً كبيراً طوله نحو خمسة وعشرين متراً وعرضه

ثمانية أمتار ، مبني من ألواح خشب وصفائح معدن مأخوذة من السفن الجانحة على الشاطئ ، وكانت تعلو ذلك المهجع لوحة تشير إلى أنه فندق . وفي الداخل توجد أسرة عالية من طابقين ، هي مجرد دكك خشبية يمكن لرجل واحد أن يستلقي عليها متكوراً ، وهناك في أقصى المكان منضدة يبيعون عليها المشروبات الروحية . لم تكن ثمة نوافذ ، والهواء الوحيد الذي يمكن استنشاقه يدخل من شقوق بين صفائح الجدران . ويمكن للنزيل قضاء الليل هناك مقابل دولار واحد ، وعليه أن يأتي معه بأغطية السرير . ويحتل أول القادمين الأسرة ، أما الآخرون فينامون على الأرض . ولكنهم لم يعطوهما سريراً على الرغم من وجود بعضها فارغاً ، لكونهما صينيين . استلقيا على الأرضية الترابية مستخدمين صرة الملابس كوسادة ، وكانت عباءة البونتشو والبطانية القشتالية دثارهما الوحيد . وسرعان ما امتلأ المكان برجال من كل الأجناس والأشكال ، راحوا يستلقون إلى جوار بعضهم بعضاً في صفوف متراصة ، بملابسهم ، واضعين أسلحتهم في متناول أيديهم . كانت عفونة القذارة والتبغ والغازات البشرية ، فضلاً عن الشخير والأصوات النشاز الصادرة عن التائهين في كوابيسهم ، تجعل النوم مستحيلاً ، ولكن إلزا كانت متعبة إلى حد لم تعرف معه كيف انقضت الساعات . استيقظت عند الفجر مرتجفة من البرد ، متكورة وراء ظهر تاو تشين ، وعندئذ اكتشفت عبقه البحري . فأثناء وجودها في السفينة كانت الرائحة تختلط برائحة الماء الشاسع الذي يحيط بهم ، ولكنها عرفت في تلك الليلة أنها الرائحة الخاصة بذلك الرجل . أغمضت عينيها ، والتصقت به أكثر ، وسرعان ما غطت في النوم من جديد .

انطلقا في التالي معاً قاصدين «تشيلي الصغيرة» التي تعرفت عليها على الفور لأنها رأت راية تشيلية ترفرف في أعلى سارية ، ولأن معظم الرجال يعتمرون قبعات ماولينو التقليدية ذات الشكل المخروطي . وكانت هناك ما بين ثمان وعشر مجموعات من الأبنية المزدحمة بالناس ، بما في ذلك بعض

النساء والأطفال الذين سافروا مع رجالهم ، وكان الجميع منهمكين في مهنهم أو تجارتهم . أما المساكن فكانت مؤلفة من خيام وأكواخ وبراكات من ألواح خشبية محاطة بخليط من أدوات العمل والقمامة ، وكانت هناك أيضاً مطاعم وفنادق ومواخير مرتجلة . قدّرا عدد التشيليين المقيمين في الحي بألفي شخص ، ولكن أحداً لم يكن قد أحصاهم ، والواقع أن المكان لم يكن سوى محطة عبور للقادمين حديثاً . أحست إلزا بالسعادة حين سمعت لغة بلادها ورأت إعلاناً على خيمة مهلهلة من يقول «بيكينيس وتشوتشولس» . فدنت وطلبت وجبة من الصنف الثاني وهي تخفي لكنتها التشيلية . بقي تاو تشين ينظر إلى ذلك الطعام الغريب الذي يقدم في قصاصة من ورق الصحف لعدم وجود أطباق ، دون أن يعرف أية شياطين هو . فأوضحت له بأنها أحشاء خنزير مقلية بالدهن . ثم أمرته :

- يوم أمس أكلتُ حساء صينياً . وعليك أن تأكل اليوم التشوتشولس التشيلي .

وتدخل البائع بلطف :

- وكيف تتكلمان الإسبانية أيها الصينيان ؟

فردت إلزا :

- صديقي لا يتكلمها ، وإنما أنا وحدي لأنني كنت في البيرو .

- وعم تبحثان هنا ؟

- عن رجل تشيلي يدعى خواكين اندييتا .

- ولماذا تبحثان عنه ؟

- نحمل رسالة إليه . هل تعرفه ؟

- لقد مر أناس كثيرون من هنا في الشهور الأخيرة . لا أحد يبقى أكثر من بضعة أيام ، ثم يمضون بسرعة إلى مغاسل الذهب... بعضهم يرجعون وآخرون لا يرجعون .

ـ وخواكين اندييتا ؟

ـ لست أتذكر ، ولكنني سأستفسر عنه .

جلست إلزا وتاو تشين ليأكلا في ظل شجرة صنوبر . وبعد نحو عشرين دقيقة رجع بائع المأكولات يرافقه رجل له مظهر هندي شمالي ، ساقاه قصيرتان وظهره عريض ، وقال إن خواكين اندييتا قد مضى إلى مغاسل الذهب في سكرامنتو منذ شهرين على الأقل ، مع أن أحداً هناك لم يكن يدقق بالتواريخ أو يحسب مواعيد تحركات الآخرين .

ما أن ابتعدا عن «تشيلي الصغيرة» حتى قررت إلزا :

ـ سنذهب إلى سكرامنتو يا تاو .

ـ ليس بإمكانكِ السفر بعد . عليك أن تستريحي لبعض الوقت .

ـ سأستريح هناك ، عندما أجده .

ـ أنا أفضل العودة مع القبطان كاتز . كاليفورنيا ليست بالمكان المناسب لي .

ـ ما الذي يجري لك ؟ هل دمك عصير لوز ؟ لم يعد هناك أحد في السفينة باستثناء القبطان وكتابه المقدس . الجميع يبحثون عن الذهب وأنت تفكر بالبقاء طاهياً مقابل أجر بائس!

ـ أنا لا أؤمن بالثراء السهل . ما أصبو إليه هو الحياة الهادئة .

ـ حسن ، إذا كان الذهب لا يهمك ، فلا بد من وجود شيء يشد اهتمامك...

ـ التعلم .

ـ تعلم أي شيء ؟ إنك تعرف الكثير .

ـ ما زال ينقصني تعلم كل شيء .

ـ لقد وصلت إذن إلى المكان المناسب . فأنت لا تعرف شيئاً عن هذه البلاد . وهم هنا بحاجة إلى أطباء . كم من الرجال يوجد في المناجم

باعتقادك ؟ إنهم بالآلاف! وكلهم بحاجة إلى طبيب . هذه هي بلاد الفرص يا تاو . تعال معي إلى سكرامنتو . ثم إنني لن أستطيع الوصول بعيداً إذا أنت لم تأتِ معي...

•

انطلق تاو تشين وإلزا باتجاه الشمال ، مجتازين خليج سان فرانسيسكو الفسيح ، مقابل أجر زهيد جداً ، بسبب حالة المركب السيئة . كان المركب مزدحماً بالركاب ومعداتهم المنجمية المعقدة ، ولم يكن باستطاعة أحد أن يتحرك في ذلك الحيز الضيق المترع بالصناديق وأدوات العمل والسلال وأكياس المؤن والبارود والأسلحة . كان القبطان ومساعده يانكيين قبيحي المظهر ، ولكنهما ملاحان جيدان وكريمان بأغذيتهما الشحيحة وكذلك بزجاجات الخمر التي لديهما . فاوضهما تاو على ثمن تذكرة إلزا أما هو فسمحا له بمقايضة تكاليف رحلته مقابل خدماته كملاح . كان المسافرون جميعهم يعلقون مسدساتهم على خصورهم وكذلك السكاكين والخناجر ، ولم يتبادل أي منهم كلمة مع الآخرين ، اللهم إلا لتوجيه الشتائم بسبب ما يتلقاه من ضربات المرافق أو الأقدام التي لا يمكن تجنبها في ذلك الزحام . وفي فجر اليوم الثاني ، بعد ليلة طويلة من البرد والرطوبة أمضوها والمركب راسٍ على الشاطئ بسبب استحالة الإبحار في الظلام ، كان كل واحد يشعر بأنه محاط بأعداء . وكانت اللحى النامية ، والقذارة ، والطعام المقيت ، والبعوض ، والريح والتيار المعاكس ، تساهم كلها في تعكير الأمزجة . وكان تاو تشين ، الشخص الوحيد الذي يمضي دون خطط أو أهداف ، يبدو هادئاً جداً ، وحين لا يكون منهمكا في الصراع مع الشراع ، فإنه يغرق في تأمل مشهد الخليج البديع . أما إلزا فكانت تمضي يائسة في دورها كصبي أصم أبكم ومخبول . قدمها تاو تشين على أنها أخوه الصغير وتمكن من تأمين مكان لها في ركن محمي من الرياح إلى حد ما ، حيث قبعت ساكنة وصامتة ، فلم يعد هناك من يتذكرها

بعد وقت قصير . كانت بطانيتها القشتالية تقطر ماء ، بينما هي ترتجف من البرد وساقاها مخدرتان ، ولكن فكرة الاقتراب في كل دقيقة من خواكين كانت تبعث فيها القوة . لقد كانت تلمس صدرها حيث تخبئ رسائل الحب وتتلوها بصمت عن ظهر قلب . في اليوم الثالث كان المسافرون قد تخلصوا من قدر كبير من عدوانيتهم وقبعوا خائري القوى بملابسهم المبللة ، وبهم شيء من السكر وكثير من القنوط .

كان الخليج أكبر بكثير مما تصوروه ، فالأبعاد المحددة على خرائطهم التي يرثى لها لم تكن تشبه في شيء الأميال الواقعية ، وعندما ظنوا أنهم قد بلغوا وجهتهم ، تبين لهم أنه مازال عليهم أن يجتازوا خليجاً آخر ، هو خليج سان بابلو . وكانت تظهر على الضفاف بعض المعسكرات وزوارق مزدحمة بالناس والبضائع ، وفيما وراءها الغابات الكثيفة . ولم تنته الرحلة هناك أيضاً ، إذ كان عليهم أن يجتازوا قنالاً جارفة ليدخلوا إلى خليج ثالث هو خليج سيسون ، حيث صار الإبحار أشد بطئاً ومشقة ، ثم انتقلوا إلى نهر ضيق وعميق أوصلهم إلى سكرامنتو . لقد أصبحوا أخيراً قريبين من الأرض التي عُثر فيها على أول قطعة من الذهب . تلك النتفة التافهة التي لا تزيد عن حجم ظفر امرأة ، أحدثت غزواً لا يمكن التحكم به ، وبدلت وجه كاليفورنيا وروح الأمة الأمريكية ، مثلما سيكتب بعد سنوات قليلة جاكوب تود الذي تحول إلى صحافي . «لقد أسس الولايات المتحدة غرباء ورواد ومهاجرون بانسون ، بأخلاقية العمل الشاق والشجاعة في مواجهة الصعاب . وقد كشف الذهب عن أسوأ ما في الطبع الأمريكي : الجشع والعنف .»

أوضح لهم ربان المركب بأن مدينة سكرامنتو قد ظهرت بين ليلة وضحاها في السنة الأخيرة . كان ميناء المدينة يعج بمراكب متنوعة ، وشوارعها حسنة التخطيط ، فيها بيوت وأبنية من الخشب ، ومتاجر ، وكنيسة وعدد كبير من محلات القمار والحانات والمواخير ، ولكنها تبدو مع ذلك أشبه

بمشهد غرق ، فالأرض مزروعة بأكياس ، وأسرجة ، ومعدات وكل أنواع القمامة التي خلفها المَنجميون المتعجلون للانطلاق إلى مكامن الذهب . وكانت هناك طيور سوداء ضخمة تطير فوق الفضلات ، بينما الذباب يتكاثر . قدرت إلزا أنها ستتمكن خلال يومين من أن تجوب البلدة بيتاً بيتاً ، لن يكون من الصعب عليها العثور على خواكين اندييتا . أما ركاب المركب الذين دب فيهم الحماس والمودة الآن مع اقترابهم من الميناء ، فقد راحوا يتقاسمون آخر ما لديهم من جرعات الخمر ، ويودعون بعضهم بعضاً بالربت ويغنون معاً شيئاً عن امرأة تدعى سوزانا أمام ذهول تاو تشين الذي لم يفهم ذلك التحول المفاجئ . نزل إلى البر مع إلزا قبل الآخرين ، لأنهما كانا يحملان القليل من الأمتعة ، وتوجها دون تردد إلى حي الصينيين ، حيث حصلا على بعض الطعام وعلى مأوى تحت مظلة من قماش الخيام . لم يكن بإمكان إلزا فهم الأحاديث التي تدور بالكانتونية ، وكان الشيء الوحيد الذي ترغب فيه هو التقصي عن حبيبها ، ولكن تاو تشين ذكّرها بأنه يتوجب عليها الاحتفاظ بالصمت وطلب منها الاعتصام بالهدوء والصبر . وفي تلك الليلة بالذات كان على الجونغ يي أن يعالج كتف أحد مواطنيه المخلوع ويعيد العظم إلى مكانه ، فاكتسب بذلك احترام كل من في المعسكر على الفور .

وفي صباح اليوم التالي انطلقا معاً للبحث عن خواكين اندييتا . وجدا رفاقهم في الرحلة جاهزين للانطلاق إلى مغاسل الذهب ، وكان بعضهم قد تمكن من الحصول على بغال لنقل أمتعتهم ، ولكن الغالبية ذهبوا سيراً على الأقدام تاركين وراءهم جزءاً كبيراً من ممتلكاتهم . جابا كل أنحاء البلدة دون أن يجدا أثراً لضالتهما ، ولكن بعض التشيليين أعربوا عن اعتقادهم بأن شخصاً بهذا الاسم قد مر من هناك قبل شهر أو شهرين . ونصحوهما بأن يواصلا صعوداً مع النهر ، فقد يلتقيان به ، فكل شيء رهن بالحظ . الشهر هو مدة أبدية . فلا أحد يتذكر من مروا من هناك في اليوم

السابق ، ولا أحد يهتم بأسماء أو مصائر الآخرين . فالهاجس الوحيد هو الذهب .

- ما الذي سنفعله الآن يا تاو ؟

فرد عليها وهو يلقي على كتفه قطعاً من قماش الخيم السميك وجدها بين البقايا المهجورة :

- يجب أن نشتغل . فدون مال لا يمكن عمل أي شيء .

- لا يمكنني الانتظار! يجب أن أعثر على خواكين! لدي بعض النقود .

- أهي ريالات تشيلية ؟ لن تنفع كثيراً هنا .

- والمجوهرات المتبقية لدي ؟ لا بد أنها تساوي شيئاً...

- خبئيها ، فهي ضئيلة القيمة هنا . يجب أن نعمل لنتمكن من شراء بغلة . كان أبي يتنقل من قرية إلى قرية ليداوي الناس . وكذلك كان جدي . وأستطيع أن أفعل الشيء نفسه ، ولكن المسافات بعيدة هنا . إنني بحاجة إلى بغلٍ .

- أتقول بغلاً ؟ لدينا واحد ، إنه أنت . يا لك من عنيد!

- ولكنني أقل منكِ عناداً .

جمعا أعواداً وبعض الألواح الخشبية ، واستعارا بعض الأدوات وأقاما مسكناً مستخدمين قطع قماش الخيم سقفاً له ، وكان كوخاً مضعضعاً ، سرعان ما سينهار أمام أول هبة ريح ، ولكنه يحميهما على الأقل من ندى الليل والأمطار الربيعية . وكان قد شاع خبر معارف تاو تشين الطبية ، فجاءه المرضى الصينيون الذين صادقوا على موهبة ذلك الجونغ يي الاستثنائية ، ثم لحق بهم المكسيكيون والتشيليون ، وأخيراً جاء بعض الأمريكيين والأوربيين . ولدى السماع بأن تاو تشين لا يقل كفاءة عن أي واحد من الأطباء الثلاثة البيض ، وأنه يتقاضى أجوراً أقل منهم ، تغلب الكثيرون على نفورهم من «السماويين» وقرروا أن يجربوا العلوم الآسيوية . وكان تاو تشين يغرق في العمل أحياناً إلى حد يتوجب معه على إلزا أن تساعده . كانت تُفتن

برؤية يديه الحساستين والماهرتين تجسان مختلف مواضع النبض في الأذرع والسيقان ، وتتلمسان أجساد المرضى وكأنهما تداعبانها ، وتغرسان الإبر في أماكن سرية لا يعرفها كما يبدو أحد سواه . كم من السنوات عمر هذا الرجل ؟ سألته عن ذلك في إحدى المرات فرد عليها بأنه إذا حسب كل أطوار تقمصاته فإن عمره سيكون ما بين سبعة وثمانية آلاف عام . وقدرت إلزا ، بالنظر ، أنه في حوالى الثلاثين ، مع أنه حين يضحك أحياناً يبدو أصغر منها سناً . ولكنه حين ينحني على أحد المرضى بتركيز مطلق ، يكتسب قِدَم سلحفاة هرمة ؛ وعندئذ يصبح من السهل الاعتقاد بأنه يحمل عدة قرون على كاهله . كانت تتأمله بإعجاب بينما هو يفحص بول مرضاه في كأس ، ويستطيع من خلال الرائحة واللون أن يحدد أمراضاً خفية ، أو عندما يفحص حدقات العيون بعدسة مكبرة ليستنتج ما ينقص ذلك الجهاز العضوي أو يزيد فيه . وقد يكتفي أحياناً بوضع يديه على بطن المريض أو رأسه ، ويغمض عينيه موحياً بالاستغراق في حلم مديد .

فتسأله إلزا بعد ذلك :

ـ ما الذي كنتَ تفعله ؟

ـ كنت أتحسس ألمه وأنقل إليه طاقة . فالطاقة السلبية تسبب الألم والأمراض . أما الطاقة الإيجابية فقادرة على الإشفاء .

ـ وكيف هي هذه الطاقة الإيجابية يا تاو ؟

ـ إنها مثل الحب : دافئة ومضيئة .

كان استخراج الرصاص من الأجساد ومعالجة جراح السكاكين من المداخلات الروتينية ، وتخلصت إلزا من خوفها من رؤية الدم وتعلمت خياطة اللحم البشري بالهدوء نفسه الذي كانت تطرز به فيما مضى جهاز عرسها . وقد برهنت ممارسة الجراحة مع الإنكليزي إيبانيزر هوبز بأنها ذات فائدة كبيرة لتاو تشين . ولم يخلُ الأمر في تلك الأراضي الموبوءة بالأفاعي السامة من

الملدوغين الذين يأتون متورمين ومزرقين على أكتاف رفاقهم . وكانت المياه الملوثة توزع بصورة ديمقراطية داء الكوليرا الذي لم يكن هناك من يعرف دواء له ، فضلاً عن أمراض أخرى ذات أعراض مثيرة للذعر ، ولكنها ليست مميتة دوماً . كان تاو تشين يتقاضى أجراً ضئيلاً ، ولكنه يحصل عليه مقدماً على الدوام ، فقد كان يعرف من خلال تجربته أن الرجل الخائف يدفع دون أن ينبس ببنت شفة ، أما السليم فإنه يساوم . وعندما يفعل ذلك يظهر له مؤدبه العجوز ناظراً إليه بتأنيب ، ولكنه كان يتخلص من تلك النظرة متمتماً : « لا يمكنني أن أسمح لنفسي بترف الكرم في مثل هذه الظروف يا معلمي » . ولم تكن أتعابه تتضمن التخدير ، فمن يرغب في راحة المخدر أو الإبر الذهبية ، عليه أن يدفع مبلغاً إضافياً . ولكنه كان يستثني اللصوص ممن كانوا يتعرضون للجلد أو صلم آذانهم بعد محاكمة سريعة ، وكان المنجميون يتباهون بسرعة إقرارهم للعدالة ، لأنه ليس هناك من هو مستعد لتمويل سجن أو حراسته .

وكانت إلزا تسأله :

- لماذا لا تتقاضى أتعاباً من المجرمين ؟

فيرد عليها :

- لأنني أفضل أن يكونوا مدينين لي بجميل .

●

بدا تاو تشين مستعداً للاستقرار . لم يقل ذلك لصديقته ، ولكنه لم يكن يرغب في التنقل لكي يمنح لين الوقت للعثور عليه . ولم تكن زوجته قد تواصلت معه منذ عدة أسابيع . أما إلزا بالمقابل ، فكانت تعدّ الساعات ، متلهفة لمواصلة رحلتها ، وكلما مرت الأيام سيطرت عليها مشاعر متعارضة مع مشاعر رفيقها في المغامرة . كانت ممتنة لحمايته لها وأسلوبه في رعايتها ، باهتمامه بأن تتغذى جيداً ، وبتدثيرها في الليل ، وإعطائها الأعشاب والإبر لتعزيز الكي ، على حد قوله . ولكنها كانت تغضب من هدوئه الذي تخلط بينه

وبين انعدام الجسارة . وكانت ملامح تاو تشين وابتسامته السهلة تفتنها أحياناً ، ولكنها تضايقها في أحيان أخرى . فلم تكن تفهم عدم مبالاته المطلقة بالسعي إلى جمع ثروة في المناجم ، بينما الجميع فيما حوله ، وخصوصاً مواطنيه الصينيين ، لا يفكرون بشيء آخر .

وقد أجابها دون تأثر عندما أنبته على ذلك :

- وأنت أيضاً لا تهتمين بالذهب .

- أنا جئت لأمر آخر! لماذا جئت أنت ؟

- لأنني كنت بحاراً . ولم أفكر بالبقاء إلا عندما طلبتِ ذلك مني .

- أنت لست بحاراً ، وإنما طبيب .

- يمكنني هنا أن أعود طبيباً ، لبعض الوقت على الأقل . وقد كنتِ على صواب ، فهناك الكثير مما يمكن تعلمه في هذا المكان .

وكان منهمكاً بذلك في تلك الأيام . فقد أقام علاقة مع السكان الأصليين لكي يتحرى حول الأدوية التي يستخدمها سحرتهم . إنهم جماعات هزيلة من الهنود المتشردين ، تغطي أجسادهم فراء ثعالب تغطيها القذارة وأسمال أوربية ، وقد فقدوا كل شيء في صدمة الذهب . كانوا يهيمون على وجوههم مع نسائهم المتعبات وأطفالهم الجائعين ، محاولين أن يغسلوا ذهباً من الأنهار بسلالهم الدقيقة التي من الخيزران ، ولكنهم ما أن يكتشفوا موقعاً مناسباً ، حتى يطردونهم منه بالرصاص . وعندما يتركونهم بسلام ، يقيمون قراهم الصغيرة من الأكواخ والخيام ويستقرون لبعض الوقت ، إلى أن يجبروهم على الرحيل من جديد . لقد تآلفوا مع الصيني ، فكانوا يستقبلونه بمظاهر الاحترام ، لأنهم يعبرونه ميديسن مان - رجلاً حكيماً - ويرغب في مشاطرتهم معارفهم . كان تاو تشين وإلزا يجلسان معهم في دائرة حول حفرة يطبخون فيها على أحجار ساخنة عصيدة البلوط ، أو يشوون بذوراً من الغابة أو جنادب بدت لإلزا لذيذة . ثم يدخنون بعد ذلك ، ويتبادلون الحديث بمزيج من

الإنكليزية والإيماءات وكلمات السكان المحليين القليلة التي تعلماها . في تلك الأيام اختفى بصورة غامضة بعض المنجميين اليانكيين ، ومع أنه لم يتم العثور على جثثهم ، إلا أن رفاقهم اتهموا الهنود بقتلهم ، وهاجموا إحدى القرى كإجراء عقابي ، واعتقلوا أربعين أسيراً ما بين نساء وأطفال ، وأعدموا سبعة رجال ليكونوا عبرة للآخرين .

وقد قالت إلزا المذعورة حين علمت بالخبر :

- إذا كانوا يعاملون الهنود بهذه الطريقة وهم أصحاب هذه الأرض الحقيقيين ، فمن المؤكد أنهم يعاملون الصينيين بصورة أسوأ يا تاو . يجب عليك أن تصير غير مرئي ، مثلي .

ولكن تاو تشين لم يكن يجد الوقت لتعلم حيل الاختفاء ، إذ كان منهمكاً في دراسة الأعشاب . فهو يقوم برحلات طويلة لجمع نماذج منها يقارنها مع تلك المستخدمة في الصين . كان يستأجر حصانين أو يقطع أميالاً سيراً على الأقدام تحت شمس لا ترحم ، آخذاً معه إلزا كمترجمة ، ليصل إلى مزارع المكسيكيين الذين عاشوا لأجيال في تلك المناطق ويعرفون طبيعتها . كانوا قد خسروا كاليفورنيا في الحرب مع الولايات المتحدة قبل زمن قصير ، وكانت تلك المزارع الكبيرة ، التي ضمت فيما مضى مئات العمال الزراعيين في نظام تعاوني ، قد بدأت تتقوض . فالمعاهدات بين البلدين تحولت إلى مجرد حبر وورق . في البدء قام المكسيكيون ذوو الخبرة بالمناجم ، بتعليم القادمين الجدد أساليب الحصول على الذهب ، ولكن مزيداً من الغرباء كانوا يأتون كل يوم لغزو الأراضي التي يشعرون بأنها لهم . وقد كان الغرينغيون يزدرونهم عملياً مثلما يزدرون أي عرق آخر . وبدأت مطاردة لا تلين ضد الهيسبانيين ، فأنكروا عليهم حق استثمار المناجم لأنهم ليسوا أمريكيين ، ولكنهم يتقبلون كأمريكيين أشخاصاً محكومين بجرائم في استراليا أو مغامرين أوربيين . كان آلاف العمال الزراعيين العاطلين عن العمل يحاولون أن يجربوا حظهم في

المناجم ، ولكن عندما صار عداء الغرينغيين لا يطاق ، راحوا يهاجرون إلى الجنوب أو يتحولون إلى أشرار . وفي البيوت البدائية التي تسكنها بعض الأسر المكسيكية المتبقية ، كانت إلزا تقضي بعض الوقت مع رفقة أنثوية ، وهو ترف نادر يعيد إليها للحظات قصيرة سعادة أزمنة المطبخ مع ماما فريسيا . وكانت تلك هي المناسبات الوحيدة التي تخرج فيها من صمتها الاضطراري وتتكلم بلغتها . أولئك الأمهات القويات والكريمات اللواتي يعملن كتفاً إلى كتف مع أزواجهن في أقسى الأعمال ، والمتمرسات في الكدح والفاقة ، كن يتأثرن لرؤية ذلك الصبي الصيني ذا المظهر الهش ، ويتعجبن من أنه يتكلم الإسبانية كأي واحدة منهن . فيقدمن إليه برحابة صدر أسرار الطبيعة المستخدمة منذ قرون لتسكين أمراض كثيرة ، كما يقدمن له في أثناء ذلك ، وصفات أطباقهن اللذيذة ، فتدونها إلزا في دفاترها وهي موقنة من أنها ستكون ذات قيمة عاجلاً أو آجلاً . في تلك الأثناء أوصى الجونغ يي على أدوية غربية من سان فرانسيسكو كان صديقه إيبانيزر هوبز قد علمه كيفية استخدامها في هونغ كونغ . كما نظف قطعة أرض إلى جوار الكوخ ، وسورها ليحميها من الغزلان وزرع فيها أعشاب مهنته الأساسية .

- بالله عليك يا تاو! هل تفكر بالبقاء هنا إلى أن تنمو هذه الشتول الضعيفة ؟ - كانت إلزا تقول له ذلك بإلحاح بائس وهي ترى سوق النباتات الخامدة والأوراق المصفرة ، ولا تتلقى أي جواب سوى إيماءة مبهمة .

كانت تشعر بأن كل يوم يمر يبعدها عن هدفها ، وبأن خواكين انديتا يوغل أكثر فأكثر في تلك المنطقة المجهولة ، ربما باتجاه الجبال ، بينما هي تضيع الوقت في سكرامنتو بالتظاهر بأنها الأخ الأبله لمداوٍ صيني . وقد اعتادت أن تسربل تاو بأقذع النعوت ، ولكنها كانت تحرص على أن تفعل ذلك بالإسبانية ، مثلما يفعل هو بالتأكيد عندما يتوجه إليها بالكانتونية . كانا قد اتقنا التواصل بالإشارات دون التكلم أمام الآخرين ، ولكثرة ما قاما بالتمثيل

معاً ، تشابها إلى حدّ لم يعد معه هناك من يخامره الشك بقرابتهما . فإذا لم يكن هناك مريض يشغلهما ، يخرجان للتجول في المدينة والمتاجر ، فيعقدان الصداقات ويتقصيان عن خواكين اندييتا . وكانت إلزا تتولى طبخ الطعام ، وسرعان ما اعتاد تاو تشين على الأطباق التي تعدها ، مع أنه كان يهرب بين حين وآخر إلى المطاعم الصينية في المدينة ، حيث يمكنه أن يبتلع كل ما يتسع له كرشه بدولارين ، وهو ثمن بخس إذا ما أخذنا بالاعتبار أن بصلة واحدة كانت تباع بدولار . كانا يتواصلان بالإيماء أمام الآخرين ، ولكنهما يفعلان ذلك بالإنكليزية حين يكونان على انفراد . وعلى الرغم من الشتائم التي يتبادلانها بلغتين في بعض المناسبات ، فقد كانا يمضيان معظم الوقت في العمل جنباً إلى جنب كرفيقين جيدين . وكانت تفيض عندهما الفرص المناسبة للضحك . وفوجئ تاو بأنه يستطيع تبادل الفكاهة مع إلزا على الرغم من العقبات اللغوية العابرة والفوارق الثقافية . ومع ذلك ، فإن تلك الفوارق تحديداً هي التي كانت تنتزع منه القهقهات : لم يكن يصدق بأنه يمكن لامرأة أن تفعل أو تقول تلك الفظاعات . كان يراقبها بفضول ورقة لا يصرح بهما . ويصاب بالبكم إعجاباً بها ، فينسب إليها شجاعة المحارب ، ولكنه حين يراها تضعف ، تتبدى له طفلةً وتغمره الرغبة في حمايتها . وكان يبدو عليها بوضوح أنها ما تزال ضعيفة على الرغم من ازدياد وزنها وتحسن لونها . فما أن تغيب الشمس حتى يبدأ رأسها بالترنح ، فتتدثر ببطانيتها وتنام ؛ ويضطجع هو إلى جانبها . لقد اعتادا على ساعات التلاصق الحميم تلك والتنفس بإيقاع واحد إلى حد أن جسديهما كانا يتوافقان تلقائياً وهما نائمان ، فإذا انقلب أحدهما ، انقلب الآخر مثله بحيث لا ينفصلان . وقد يستيقظان أحياناً وهما مقيدان بالبطانية ومتشابكان . فإذا استيقظ هو قبلها ، تمتع بتلك اللحظات التي تذكره بساعات سعادته مع لين ، ويبقى ساكناً كيلا تلحظ رغبته . ولم يكن يدور في خلده بأن إلزا بدورها كانت تفعل الشيء نفسه ، شاكرة ذلك الحضور الرجولي الذي يتيح

لها تخيل ما كانت ستؤول إليه حياتها مع خواكين اندييتا لو أن الحظ حالفها .
لم يكن أي منهما يأتي مطلقاً على ذكر ما يحدث في الليل ، وكأن تلك هي حياة موازية لا يعيانها . فما أن يرتديا ملابسهما حتى يتلاشى تماماً سحر تلك المعانقات السرية ، ويعودان أخوين . وفي بعض المناسبات القليلة كان تاو تشين يخرج وحيداً في مشاوير ليلية غامضة ، ويرجع منها بتكتم . وكانت إلزا تحجم عن التقصي ، لأنها تستطيع أن تشم الرائحة : لقد كان مع امرأة ، بل يمكنها كذلك أن تميز عطر المكسيكيات الحلو . وكلما خرج تبقى مدفونة تحت بطانيتها ، ترتجف في الظلام ، وتنصت إلى أدنى صوت فيما حولها وهي تمسك السكين بيدها ، خائفة ، مستدعية إياه بفكرها . لم يكن بمقدورها تبرير تلك الرغبة بالبكاء التي تداهمها ، وكأنها قد تعرضت للخيانة . لقد كانت تدرك بصورة غامضة بأن الرجال ربما يكونون مختلفين عن النساء ؛ فهي من جهتها لا تشعر بأي حاجة إلى الجنس . والمعانقات الليلية العفيفة معه تكفيها لإشباع لهفتها إلى الرفيق والحنان ، ولكنها لم تكن تحس باللهفة إلى أزمنة غرفة الخزائن حتى عندما تفكر بحبيبها القديم . لم تكن تعرف إذا ما كان الحب والشهوة فيها هما شيء واحد ، فإذا ما غاب الأول فإن الثاني يختفي بصورة طبيعية ؛ أم أن مرضها الطويل في السفينة قد أتلف شيئاً جوهرياً في جسدها . وقد تجرأت في إحدى المرات على سؤال تاو تشين عما إذا كان بإمكانها إنجاب أبناء ، لأنها لم تعد تحيض منذ عدة شهور ، فأكد لها بأنها ستعود إلى حالتها الطبيعية فور استعادتها لقواها وصحتها ، ولهذا السبب يضع لها إبر الوخز . وعندما كان صديقها ينزلق بصمت إلى جانبها في المرات التي يخرج فيها خفية ، كانت تتظاهر بالنوم العميق ، مع أنها تبقى ساعات مستيقظة ، متضايقة من وجود رائحة امرأة فيما بينهما . منذ أن نزلا من السفينة في سان فرانسيسكو ، عادت إلى الخفر الذي ربتها عليه مس روز .
لقد رآها تاو تشين عارية طوال أسابيع الرحلة في السفينة ، وكان يعرفها من

الداخل والخارج ، ولكنه أدرك دوافع حيائها ولم يحاول السؤال عن ذلك أيضاً ، اللهم إلا من أجل الاستفسار عن صحتها . وحتى عندما يضع لها إبر الوخز ، يراعي عدم جرح حيائها . ولم يكن كل منهما يخلع ملابسه بحضور الآخر ، وقد حافظا كذلك على اتفاق ضمني باحترام خصوصية الحفرة التي يستخدمانها كمرحاض وراء الكوخ ، ولكنهما كانا يتقاسمان كل ما عدا ذلك ، ابتداء من النقود وحتى الملابس . وبعد سنوات طويلة من ذلك ، وبينما هي تراجع يومياتها حول تلك الفترة ، تساءلت مستغربة عن سبب عدم اعتراف أي منهما بميله المؤكد الذي يشعر به نحو الآخر ، ولماذا كانا يلجأان إلى ذريعة النوم لكي يتبادلا الملامسات ، ثم يتظاهران بالبرودة في النهار . وتوصلت إلى أنهما كانا يشعران بأن تبادل الحب مع شخص من عرق آخر هو أمر مستحيل ، وأنه لا يوجد متسع في العالم لزوجين مثلهما .

وقد أوضح لها تاو تشين الذي كان شعره قد تحول إلى اللون الرمادي آنذاك :

- أنتِ لم تكوني تفكرين إلا بحبيبك .

- وأنتَ لم تكن تفكر إلا بلين .

- من الممكن الزواج من عدة نساء في الصين ، وقد كانت لين متسامحة على الدوام .

فقالت ساخرة :

- ولكنك كنت تنفر من قدمي الكبيرتين .

ورد عليها بكل جدية :

- صحيح .

●

حل في حزيران صيف بلا رحمة ، فتكاثر البعوض ، وخرجت الأفاعي من أوكارها لتتمشى دون عقاب ، ونمت نباتات تاو تشين قوية كما في الصين .

وكانت جماعات الباحثين عن الذهب تواصل المجيء بتواتر أكبر وأعداد أكثر . وبما أن سكرامنتو هي ميناء الدخول إلى منطقة الذهب ، فإنها لم تتعرض للمصير الذي تعرضت له عشرات القرى الأخرى التي كانت تنبثق مثل نبتات الفطر قرب مكامن الذهب ، فتزدهر بسرعة وتختفي فجأة فور نفاد المعدن سهل المنال . كانت المدينة تكبر في كل دقيقة ، وتُفتح فيها متاجر جديدة ، ولم تعد الأراضي تقدم هدية مثلما كان الأمر في البدء ، بل صارت تباع بأسعار لا تقل ارتفاعاً عن أسعارها في سان فرانسيسكو . كان هناك هيكل حكومة أولي وجمعيات تُعقد بكثرة لحسم أمر التفاصيل الإدارية . وظهر مضاربون ، ومحامون مدعون ، ودعاة إنجيليون ، ومقامرون محترفون ، وقطاع طرق ، وقوادات مع فتياتهن محبات حياة المرح ، ونُذُر تقدم وحضارة آخرون . كان يمر آلاف الرجال المشتعلين بالأمل والطموح في طريقهم إلى مكامن الذهب ، كما يمر آخرون مستنفدين ومرضى عائدين بعد شهور من العمل الشاق ومستعدين لتبذير أرباحهم . وكانت أعداد الصينيين تتزايد يوماً بعد يوم ، وسرعان ما ظهرت عصابتان متنافستان . وكانتا (تونغ) ، أي عصابة عائلية مغلقة ، يساعد أعضاؤها بعضهم بعضاً كأنهم أخوة في مصاعب الحياة اليومية والعمل ، ولكنها ترعى الفساد والإجرام أيضاً . وكان بين القادمين الجدد جونغ يي آخر ، أعتاد تاو تشين أن يقضي معه ساعات من السعادة التامة في مقارنة أشكال العلاج وتذكر نصوص كونفوشيوس . فكان يذكّره بإيبانيزر هوبز ، لأنه لا يكتفي بتكرار أشكال العلاج التقليدية ، وإنما يبحث عن خيارات جديدة أيضاً . وكان يقول له :

ـ يجب علينا أن ندرس طب الأجانب أيضاً ، فطبنا وحده ليس كافياً .

وكان تاو تشين يتفق معه تماماً في ذلك ، لأنه كلما تعلم أكثر ، ازداد إحساسه بأنه لا يعرف شيئاً وبأن الحياة لن تكفيه لدراسة كل ما ينقصه .

أقامت إلزا تجارة فطائر لحم كانت تبيعها بسعر الذهب ، للتشيليين في

أول الأمر ، ثم بعد ذلك لليانكيين الذين أحبوها بسرعة . وقد بدأت بصنعها من لحم البقر ، عندما تتمكن من شرائه من مربي الماشية المكسيكيين الذين يسرقون المواشي من سونورا ، وبما أن لحم البقر كان نادراً ، فقد جربت صنع الفطائر من لحم الغزلان والأرانب البرية ، والبجع الوحشي ، والسلاحف ، والسلمون ، بل ومن لحم الدببة أيضاً . وكان زبائنها الأوفياء يلتهمون كل ذلك شاكرين ، لأنه لم يكن هناك خيار آخر سوى الفاصولياء المحفوظة في علب ولحم الخنزير المملح ، وهي وجبة المَنجميين التي لا تتبدل . لم يكن هناك من لديه متسع من الوقت للصيد البري أو المائي ، أو لطهو طعامه ؛ ولم يكن ممكناً الحصول على خضار أو فواكه ؛ وكان الحليب ترفاً أشد ندرة من الشمبانيا ، ومع ذلك ، لم يكن ينقصهم الدقيق ، ولا الدهن والسكر ، كما كان يتوفر الجوز ، والشوكولاته ، وبعض البهارات ، والدراقن والخوخ المجفف . فكانت تصنع قوالب حلوى وبسكويت تحظى بالنجاح نفسه الذي تلاقيه فطائر اللحم ، كما صنعت خبزاً في فرن من الطين متذكرة ماما فريسيا . وإذا ما حصلت على بيض وشيء من شحم الخنزير علقت إعلاناً تعرض فيه تقديم وجبات فطور ، وعندئذ يصطف الرجال بالدور ليجلسوا تحت الشمس وراء طاولة مخلعة . تلك المأكولات اللذيذة التي يُحضّرها صيني أصم وأبكم ، تذكرهم بأيام الآحاد الأسرية في بيوتهم البعيدة جداً . وكان ذلك الفطور الوفير المؤلف من بيض مقلي مع شحم خنزير ، وخبز طازج ، وحلوى فاكهة ، وكثير من القهوة ، يكلف ثلاثة دولارات فقط . فكان بعض الزبائن المتأثرين والشاكرين لأنهم لم يتذوقوا شيئاً مماثلاً منذ شهور ، يلقون دولاراً آخر في علبة الإكراميات . وفي أحد أيام الصيف ، وقفت إلزا أمام تاو تشين وهي تحمل مدخراتها في يدها ، وقالت له :

- يمكننا بهذا المبلغ أن نشتري حصاناً ونرحل .

- إلى أين ؟

ـ للبحث عن خواكين .

ـ ليست لي مصلحة في العثور عليه . سأبقى هنا .

ـ ألا تريد معرفة هذه البلاد ؟ ثمة كثير مما يمكن رؤيته وتعلمه هنا يا تاو . وبينما أنا أبحث عن خواكين ، يمكنك اكتساب حكمتك الشهيرة .

ـ نباتاتي آخذة بالنمو ولست أحب التنقل من مكان إلى آخر .

ـ لا باس . أنا سأذهب .

ـ لن تصلي بعيداً وأنت وحيدة .

ـ سنرى ذلك .

نام كل منهما تلك الليلة في طرف من الكوخ دون أن يتبادلا الكلام . وفي اليوم التالي خرجت إلزا منذ الصباح الباكر لشراء مستلزمات الرحلة ، وهي مهمة غير سهلة في دورها كصبي أبكم ، ولكنها رجعت في الرابعة مساء تقود حصاناً مكسيكياً قبيحاً تملأه القروح ، ولكنه قوي . كما اشترت جزمة ، وقميصين ، وبنطالاً سميكاً ، وقفازات من الجلد ، ومظلة ذات واقية عريضة ، وكيسي مأكولات جافة ، وصحناً وفنجاناً وملعقة من الصفيح ، وسكيناً جيدة من الفولاذ ، وزمزمية للماء ، ومسدساً وبندقية لا تعرف كيف تحشوهما بالذخيرة ، ناهيك عن إطلاق النار بهما . أمضت بقية المساء وهي ترتب أمتعتها وتخيط على مجوهراتها والنقود المتبقية في زنار قطني ، وهو الزنار نفسه الذي كانت تستخدمه لتسطيح نهديها ، وتخبئ تحته على الدوام حزمة الرسائل الغرامية . أذعنت للتخلي عن الحقيبة وما فيها من الفساتين والتنانير والجزمة التي كانت ما تزال تحتفظ بها . وأعدت سرجاً مرتجلاً من بطانيتها القشتالية ، مثلما كانت قد رأت الناس يفعلون في تشيلي مرات كثيرة ؛ ثم خلعت ملابس تاو تشين التي استخدمتها طوال شهور وجربت الملابس التي اقتنتها حديثاً . وشحذت بعد ذلك السكين على حزام جلدي وجزت شعرها عند مستوى الرقبة . بقيت ضفيرتها الطويلة ملقاة على الأرض مثل أفعى ميتة .

نظرت إلى نفسها في قطعة مرآه مكسورة ، وأحست بالرضا : فبتوسيخ وجهها وتعريض حاجبيها بقطعة فحم ، سيكون التنكر تاماً . وفي أثناء ذلك جاء تاو تشين من إحدى مسامراته مع الجونغ يي الآخر ، ولم يتعرف للوهلة الأولى على راعي البقر المسلح ذاك الذي اقتحم بيته .

- غداً سأغادر يا تاو . شكراً على كل شيء ، أنت أكثر من صديق... إنك أخي . سافتقدك كثيراً...

لم يرد تاو تشين بشيء . وحين خيم الليل استلقت بملابسها في أحد الأركان بينما جلس هو خارجاً في نسيم الصيف يعد النجوم .

السر

في مساء اليوم الذي غادرت فيه إلزا بالبارايسو مختبئة في كرش السفينة إميليا ، تناول الأخوة سوميرز الثلاثة عشاءهم في الفندق الإنكليزي بدعوة من باولينا ، زوجة فيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث ، ورجعوا متأخرين إلى بيتهم في ثيرو أليغري . ولم يعلموا باختفاء الفتاة إلا بعد أسبوع من ذلك ، لأنهم كانوا يتصورونها في مزرعة أغوسطين دل بايي ، ترافقها ماما فريسيا .

في اليوم التالي وقّع جون سوميرز عقداً للعمل كقبطان لسفينة باولينا البخارية الجديدة فورتونا . وثيقة بسيطة تتضمن حدود الاتفاق أنهت عقد الصفقة . لقد كان لقاؤهما مرة واحدة كافياً لأن يشعرا بالثقة ، ولم يكن لديهما وقت لأضاعته في التوافه القانونية ، فجنون الوصول إلى كاليفورنيا هو الاهتمام الوحيد . تشيلي بأسرها كانت منهمكة في الأمر نفسه على الرغم من الدعوات إلى الحذر التي كانت تنشرها الصحف وتتردد في المواعظ القيامية على منصات الكنائس . ولم يحتج القبطان إلا لبضع ساعات من أجل تهيئة طاقم سفينته ، لأن صفوفاً من المتقدمين المصابين بحمى الذهب كانت تطوف في الميناء . وكان الكثيرون منهم يقضون الليل نائمين على الأرض حتى لا يفقدوا موقع عملهم على السفينة . وأمام ذهول رجال بحر آخرين ، لم يدركوا دوافعه ، رفض جون سوميرز أن يحمل ركاباً معه ، فكانت سفينته تبحر فارغة عملياً . لم

يقدم تفسيرات . فقد كانت لديه خطة قرصان لتجنب انشقاق بحارته لدى الوصول إلى سان فرانسيسكو ، ولكنه أبقاها طي الكتمان ، لأنه لو أذاعها لما حصل على بحار واحد . كما أنه لم يخبر طاقم البحارة بأنهم قبل التوجه إلى الشمال سيقومون بجولة فريدة في الجنوب . وكان ينتظر التوغل في عرض البحر ليخبرهم بذلك .

سألته باولينا مرة أخرى وهي تقدم إليه العقد ليوقعه :

ـ أنت تشعر إذن بأنك قادر على قيادة باخرتي والتحكم بطاقم بحارتها ، أليس كذلك أيها القبطان ؟

ـ أجل يا سيدتي ، لا تقلقي بهذا الشأن . يمكنني الانطلاق خلال ثلاثة أيام

ـ حسن . أتعرف ما هو الذي يفتقرون إليه في كاليفورنيا أيها القبطان ؟ إنها المنتجات الطازجة : الفاكهة ، الخضار ، البيض ، الأجبان الجيدة ، السجق . وهذه هي الأشياء التي سنبيعها هناك .

ـ كيف ؟ سيفسد كل شيء قبل الوصول...

فقالت دون تأثر :

ـ سننقله مغطى بالثلج .

ـ مغطى بماذا ؟

ـ بالثلج . ستذهب أولاً إلى الجنوب بحثاً عن الثلج . أتعرف أين هي بحيرة سان رافائيل ؟

ـ على مقربة من ميناء آيسين

ـ يسرني أنك تعرف تلك الأنحاء . لقد قيل لي أنه يوجد هناك ركام جليدي أزرق بديع . أريدك أن تملأ السفينة فورتونا بكتل من الثلج . ما رأيك ؟

ـ أعذريني يا سيدتي ، ولكن الأمر يبدو لي جنوناً .

ـ بالضبط . ولهذا السبب لم يفكر أحد بذلك . خذ معك براميل من الملح الخشن ، وكمية احتياطية من الأكياس ولف لي قطعاً كبيرة من الجليد . آه! يخيل إلي أنه لا بد لك من أن تدثر رجالك جيداً كيلا يتجمدوا . وبالمناسبة أيها القبطان ، أرجو ألا تتحدث في هذا الأمر مع أحد ، حتى لا يسرقوا فكرتنا .

ودعها جون سوميرز مشوشاً . لقد فكر في أول الأمر بأن المرأة مختلة ، ولكنه كلما فكر بالأمر أكثر ، ازداد إعجاباً بتلك المغامرة . إضافة إلى أنه لن يخسر شيئاً . فهي التي تجازف بتعريض نفسها للإفلاس ، أما هو فسيتقاضى راتبه حتى لو تحول الثلج ماء في الطريق . وإذا ما حققت تلك الحماقة نجاحاً ، فسيتلقى بمقتضى العقد الموقع مكافأة لا يستهان بها . بعد أسبوع من ذلك ، عندما انفجر خبر اختفاء إلزا ، كان يمضي باتجاه منطقة الجليد ومراجل الباخرة تلهث ، ولم يعلم بالأمر حتى عودته ، حين رسا في بالبارايسو ليُحمّل البضائع التي كانت قد أعدّتها باولينا لنقلها في عش من الجليد الخرافي إلى كاليفورنيا ، حيث سيبيعها زوجها وصهرها بسعر يفوق قيمتها بكثير . فإذا ما سار كل شيء مثلما خططت ، فإن ثلاث أو أربع رحلات تقوم بها فورتونا ستوفر لها أموالاً أكثر من كل ما حلمت به على الإطلاق . كانت قد قدرت كم من الزمن سيحتاج رجال الأعمال الآخرون ليقلدوا مبادرتها ويزعجوها بالمنافسة . أما بالنسبة إليه ، فلم ير مانعاً كذلك من حمل مُنتَجٍ آخر ليبيعه في مزاد لمن يدفع أعلى سعر : إنه الكتب .

عندما لم ترجع إلزا ومربيتها إلى البيت في اليوم الموعود ، أرسلت مس روز الحوذي مع ملاحظة تستفسر فيها عما إذا كانت أسرة دل بايي ما تزال في مزرعتها ، وإذا ما كانت إلزا بخير . وبعد ساعة من ذلك ظهرت على باب بيتها زوجة أغوسطين دل بايي مذعورة . وقالت إنها لا تعرف شيئاً عن إلزا . فالأسرة لم تغادر بالبارايسو لأن زوجها يعاني من نوبة نقرس . وهي لم تر إلزا

منذ شهور . وكان لدى مس روز من برود الأعصاب ما يكفي للمداراة وللاعتذار بأنه كان خطأ منها ، فإلزا في بيت صديقة أخرى ، وأنها هي التي أخطأت ، وأنها تشكرها جزيل الشكر لأنها أزعجت نفسها بالمجيء شخصياً... لم تصدق السيدة دل بايي كلمة واحدة من ذلك مثلما هو متوقع ، وقبل أن تتمكن مس روز من إخبار أخيها جيرمي في المكتب ، كان خبر هروب إلزا قد تحول إلى موضوع تتداوله الألسن في البارايسو .

أمضت مس روز بقية النهار في البكاء وأمضاه جيرمي سوميرز في التكهنات . وحين فتشا غرفة إلزا وجدا رسالة الوداع فقرأاها عدة مرات في محاولة غير مجدية للوصول إلى أثر . ولم يستطيعا كذلك أن يعرفا المكان الذي ذهبت إليه ماما فريسيا ليستجوباها ، وعندئذ فقط انتبها إلى أن تلك المرأة قد عملت عندهم طوال ثمانية عشر عاماً دون أن يعرفوا كنيتها . فهم لم يسألوها يوماً من أين هي ، أو إذا ما كانت لها أسرة . فماما فريسيا ، مثلها مثل الخدم الآخرين ، تنتمي إلى ليمبوس الأشباح المفيدة الغائم .

- بالبارايسو ليست لندن يا جيرمي . لا يمكن لهما أن تكونا قد ذهبتا بعيداً . يجب البحث عنهما .

- أتدركين حجم الفضيحة عندما نبدأ بالتقصي بين الأصدقاء ؟

- ما أهمية ما يقوله الناس! الشيء الوحيد المهم هو العثور على إلزا بأسرع وقت ، قبل أن تتورط في مشاكل .

- بصراحة يا روز ، إذا كانت قد تخلت عنا بهذه الطريقة بعد كل ما فعلناه من أجلها ، فلأنها قد تورطت في مشاكل .

فسألته مس روز مذعورة :

- ماذا تعني ؟ أي نوع من المشاكل ؟

- لا بد أن هناك رجلاً يا روز . فهذا هو السبب الوحيد الذي يدفع فتاة إلى

اقتراف حماقة بهذا الحجم . وأنت تعرفين ذلك خيراً من الجميع . مع من يمكن أن تكون إلزا ؟

ـ لا يمكنني تصور ذلك .

ولكن مس روز كانت قادرة على تصور الأمر تماماً . فقد كانت تعرف من هو المسؤول عن تلك الخيبة الفظيعة : إنه ذلك الشخص ذو المظهر المأتمي الذي أحضر بعض الصناديق إلى البيت قبل بضعة شهور ، المستخدم لدى جيرمي . لم تكن تعرف اسمه ، ولكنها ستستقصي عن ذلك . لم تخبر أخاها مع ذلك ، لأنها اعتقدت بأن الوقت ما زال يتيح لها إنقاذ الفتاة من فخ ذلك الحب المعاكس . لقد كانت تتذكر بدقة موثق عقود كل تفصيل في تجربتها الخاصة مع مغني التينور الفييني ، وغرقها في الهم آنذاك ما يزال عالقاً ببشرتها . صحيح أنها لم تعد تحبه ، وأنها قد أبعدته من روحها منذ قرون ، ولكن مجرد ذكر اسمه يكون كافياً لتشعر بدوي ناقوس في صدرها . لقد كان كارل بريتزنر هو مفتاح ماضيها وشخصيتها ، فاللقاء العابر معه وسم مصيرها وحدد المرأة التي صارت إليها . وفكرت بأنها إذا ما أحبت من جديد ، فإنها ستفعل الشيء نفسه ، بالرغم من معرفتها كيف لوى ذلك الحب مسار حياتها . ربما تكون إلزا أوفر حظاً ويأتي حبها مستقيماً ؛ ربما يكون الحبيب في حالتها طليقاً ، لا أولاد له ولا زوجة مخدوعة . يجب عليها أن تجد الفتاة ، وأن تواجه الغاوي الملعون ، وتجبرهما على الزواج ، ثم تعرض الأمر الواقع بعد ذلك على جيرمي الذي سينتهي به الأمر إلى تقبلهما على المدى الطويل . سيكون ذلك صعباً ، بالنظر إلى تصلب أخيها حين يتعلق الأمر بالشرف ، ولكنه إذا كان قد غفر لها فيما مضى ، فسوف يتمكن من أن يغفر لإلزا . وستكون مهمتها إقناعه . وحسمت أمرها : فهي لم تقم بدور الأم طوال كل تلك السنوات لكي تقف مكتوفة الذراعين عندما تقترف ابنتها الوحيدة خطيئة .

وبينما انغلق جيرمي سوميرز على نفسه في صمت ماكر ووقور لم يحمه

مع ذلك من التقولات المنفلتة ، بدأت مس روز التصرف . فبعد أيام قليلة اكتشفت هوية خواكين اندييتا ، وامتلأت رعباً حين علمت بأنه ليس سوى هارب من العدالة . فهو متهم بتزييف حسابات الشركة البريطانية للاستيراد والتصدير وبسرقة بضائع . وأدركت كم هو الوضع أكثر خطورة مما تصورته : فجيرمي لن يتقبل مطلقاً مثل ذلك الشخص ضمن أسرته . بل سيمضي أبعد من ذلك ، وما أن يتمكن من وضع قفازه على مستخدمه السابق حتى يسارع بكل تأكيد إلى إرساله إلى السجن ، حتى ولو كان زوجاً لإلزا . اللهم إلا إذا وجدت طريقة لإجباره على سحب التهمة الموجهة ضد ذلك الوغد وتبييض اسمه في سبيل مصلحتنا جميعاً .

عليها أولاً أن تجد العاشقين وبعد ذلك سترى كيف ترتب الأمور . حرصت على عدم ذكر ما توصلت إليه وأمضت بقية الأسبوع وهي تستقصي هنا وهناك إلى أن أخبروها في مكتبة سانتوس تورنيرو عن أم خواكين أندييتا . وحصلت على عنوانها بكل بساطة بالسؤال عنها في الكنيسة ؛ فقد كان القسس الكاثوليك ، مثلما قدرت ، يحصون رعيتهم .

يوم الجمعة ظهراً ذهبت إلى المرأة . مضت إليها ممتلئة بالكبرياء ، مدفوعة بغضب عادل ومستعدة لأن تواجهها بعدد من الحقائق ، ولكنها راحت تهدأ كلما تقدمت في أزقة ذلك الحي الملتوية التي لم تطأها قدماها من قبل . وأحست بالأسف على الفستان الذي اختارته ، وتحسرت على قبعتها المزينة كثيراً وحذائها الأبيض ، وشعرت بأنها مضحكة . طرقت الباب يخالطها شعور بالخجل ما لبث أن تحول إلى مذلة صريحة حين رأت أم أندييتا . لم تكن قد تصورت مثل ذلك التلف . كانت امرأة ضئيلة بلا أي قيمة ، لها عينان محمومتان وملامح كئيبة . بدت لها عجوزاً ، ولكنها حين أمعنت النظر أدركت أنها ما تزال شابة ، وأنها كانت جميلة فيما مضى ، ولم يكن هناك مجال للشك في أنها مريضة . استقبلتها دون أن تفاجأ بها لاعتيادها على السيدات الثريات

اللواتي يأتين لتكليفها بأشغال خياطة وتطريز . وقد كن يخبرن بعضهن بعضاً ، ولهذا لم يكن مستغرباً أن تأتي سيدة مجهولة لتطرق بابها . إنها أجنبية هذه المرة ، ويمكنها أن تلمح ذلك من فستانها الذي بلون فراشة ، إذ لا يمكن لتشيلية أن تلبس بتلك الطريقة . حيتها دون أن تبتسم ودعتها للدخول .

ـ اجلسي من فضلك يا سيدتي . بماذا أستطيع خدمتك ؟

جلست مس روز على حافة الكرسي الذي قدمته إليها ولم تستطع النطق بكلمة واحدة . فقد تبخر كل ما خططت له من ذهنها في ومضة إشفاق مطلق على تلك المرأة وعلى إلزا وعلى نفسها ، بينما سالت دموعها مثل نهر ، غاسلة وجهها وروحها . فأمسكت أم خواكين انديتا المرتبكة إحدى يديها بين راحتيها .

ـ ما بكِ يا سيدتي ؟ أيمكنني مساعدتك ؟

وعندئذ روت لها مس روز بتدفق وبالإسبانية مثلما تتكلمها أجنبية ، بأن ابنتها الوحيدة قد اختفت منذ أكثر من أسبوع ، وأنها كانت مغرمة بخواكين ، وأنهما تعارفا قبل شهور ومنذ ذلك الحين لم تعد الفتاة هي نفسها ، إذ صارت تمضي متأججة بنار الحب ، وكان بإمكان أي شخص أن يلاحظ ذلك ، باستثنائها هي ، أمها ، الأنانية والساهية التي لم تهتم بالأمر في الوقت المناسب ، وقد فات الوقت الآن لأنهما هربا معاً ، وقالت إن إلزا قد دمرت حياتها مثلما كانت هي نفسها قد دمرت حياتها من قبل . وواصلت حديثها منتقلة من أمر إلى آخر دون أن تتمكن من كبح نفسها ، حتى أنها روت لتلك المرأة الغريبة ما لم تكن قد قالته لأحد ، فقد حدثتها عن كارل بريتزنر وغرامياتها اليتيمة معه ، وعن العشرين سنة التي انقضت منذ ذلك الحين على قلبها النائم وبطنها القاحل . وبكت دمعاً مدراراً لصمتها على خسائرها على امتداد حياتها ، وكتمها غيظها بدافع حسن التربية ، وللأسرار التي تحملها على كاهلها مثلما يحمل السجين السلاسل الحديدية لكي تحافظ على

المظاهر ، وللشباب المتأجج الذي ذهب هدراً لمجرد سوء طالعها بولادتها كأنثى . وعندما استنفدت في آخر الأمر أنفاسها في النحيب ، بقيت جالسة هناك دون أن تدري ما الذي جرى لها ولا من أين جاءتها تلك الراحة الشفافة التي بدأت تفاجئها .

وبعد صمت طويل ، قالت لها أم خواكين أندييتا وهي تضع في يدها فنجاناً مثلوماً :

- اشربي قليلاً من الشاي .

فتلعثمت مس روز :

- أرجوكِ ، أتوسل إليك أن تخبريني إذا ما كان ابنك وإلزا متحابان . أنا لست مجنونة ، أليس كذلك ؟

- هذا ممكن يا سيدتي . فقد كان خواكين مشوشاً أيضاً ، ولكنه لم يخبرني قط باسم الفتاة .

- ساعديني ، يجب أن أجد إلزا...

- أؤكد لك أنها ليست مع خواكين .

- وكيف تعرفين ذلك ؟

- ألا تقولين إن الفتاة قد اختفت منذ أسبوع واحد فقط ؟ لقد غادر ابني في كانون الأول .

- تقولين غادر ؟ إلى أين ؟

- لا أعرف .

- أفهم موقفك ياسيدتي . ولو كنت مكانك لحاولت حمايته . أنا أعرف أن ابنك متورط في مشاكل مع العدالة . ولكنني أعطيك كلمة شرف بأنني سأساعده ، فأخي هو مدير الشركة البريطانية وهو يفعل ما أطلبه منه . لن أخبر أحداً بمكان ابنك ، وكل ما أريده هو أن أكلم إلزا .

- ابنتك وخواكين ليسا معاً . صدقيني .

ـ أعرف أن إلزا لحقت به .

ـ لا يمكن أن تكون قد لحقت به . فقد غادر ابني إلى كاليفورنيا .

●

في اليوم الذي رجع فيه القبطان جون سوميرز إلى بالبارايسو في الباخرة فورتونا محملة بالثلج الأزرق ، وجد أخويه ينتظرانه في المرفأ كالعادة ، ولكن رؤيته وجهيهما كانت كافية ليدرك أن شيئاً خطيراً قد حدث . كانت روز بادية النحول ، وما كادت تعانقه حتى انفجرت بالبكاء دون كابح .

وأخبره جيرمي بغضب لا يكاد يستطع معه لفظ الكلمات :

ـ لقد اختفت إلزا .

ما أن اجتمعت روز مع جون على انفراد حتى أخبرته بما توصلت إليه مع أم خواكين اندييتا . وفي تلك الأيام التي بدت لها أبدية ، بينما هي تنتظر أخاها المفضل وتحاول ربط بعض الخيوط المفلتة ، توصلت إلى القناعة بأن الفتاة قد لحقت بحبيبها إلى كاليفورنيا ، لأنها هي نفسها كانت ستفعل الشيء نفسه لو أنها كانت مكانها . وأمضى جون سوميز اليوم التالي متقصياً في الميناء ، وهكذا علم بأن إلزا لم تشتر تذكرة سفر على أي سفينة وأن اسمها لم يرد في قوائم المسافرين ، بينما أوردت سجلات السلطات بالمقابل اسم خواكين اندييتا الذي ابحر في شهر كانون الأول . افترض أن تكون الفتاة قد بدلت اسمها للتضليل ، فقام بالجولة نفسها مرة أخرى وهو يقدم وصفاً مفصلاً لها ، ولكن أحداً لم يكن قد رآها . وأكدوا له بأنه لا بد لفتاة شابة ، تكاد تبدو طفلة ، تسافر وحدها أو برفقة هندية فقط ، أن تلفت الانتباه فوراً . ثم إن النساء اللواتي يذهبن إلى سان فرانسيسكو قليلات جداً ، وهن من أولئك اللواتي يعشن حياة منحلة ، وقد تسافر بين حين وآخر زوجة أحد القباطنة أو التجار .

وبعد أن أخبرها القبطان بتحرياته الدقيقة ، انتهى إلى القول :

ـ لا يمكن لها أن تكون قد أبحرت دون أن تترك أثراً يا روز .

ـ وماذا عن أندييتا ؟

ـ أمه لم تكذب عليك . فاسمه وارد في إحدى لوائح المسافرين .

ـ لقد استولى على بعض بضائع الشركة البريطانية . إنني واثقة من أنه فعل ذلك لأنه لم يتمكن من تغطية نفقات رحلته بطريقة أخرى . جيرمي لا يعرف بأن اللص الذي يبحث عنه هو حبيب إلزا ، وآمل ألا يعرف ذلك أبداً .

ـ ألم تتعبي من كل هذه الأسرار يا روز ؟

ـ وماذا تريدني أن أفعل ؟ حياتي مصنوعة من المظاهر ، وليس من الحقائق . فجيرمي مثل صخرة ، وأنت تعرفه جيداً مثلما أعرفه . ما الذي سنفعله بشأن الصغيرة ؟

ـ غداً سأنطلق إلى كاليفورنيا ، السفينة محملة وجاهزة . وبما أن النساء هناك قليلات جداً كما يقال ، فسوف يكون من السهل العثور عليها .

ـ هذا لا يكفي يا جون!

ـ وهل يخطر لك ما هو أفضل ؟

أثناء تناول العشاء في تلك الليلة ، ألحت مس روز مرة أخرى على ضرورة تعبئة كل الوسائل المتوفرة للعثور على الفتاة . ولكن جيرمي الذي بقي على هامش نشاط أخته المحموم ، دون أن يقدم أي نصيحة أو يعرب عن أية مشاعر ، اللهم إلا انزعاجه من كونه جزءاً من تلك الفضيحة الاجتماعية ، رأى أن إلز لا تستحق كل تلك الضجة ، وقال :

ـ هذا الجو الهستيري مزعج جداً . أقترح عليكما أن تهدأا . فلماذا البحث عنها ؟ وحتى لو عثرتما عليها ، فلن تطأ هذا البيت ثانية .

فأنبته روز :

ـ ألا تعني لك إلزا شيئاً ؟

ـ ليست هذه هي المسألة . لقد اقترفت خطأ لا يمكن إصلاحه ويجب عليها أن تتحمل النتائج .

ـ مثلما تحملت أنا طوال عشرين سنة تقريباً ؟

خيم صمت جليدي على غرفة الطعام . فهما لم يتحدثا عن الماضي بصورة مكشوفة قط ، بل إن جيرمي لم يكن يعرف إذا ما كان جون على علم بما جرى بين أخته والمغني الفييني ، لأنه من جهته توخى ألا يخبره بذلك .

ـ أية نتائج تحملتِها يا روز ؟ لقد غفرتُ لك واحتضنتك . وليس هناك ما تلومينني عليه .

ـ لماذا كنت كريماً جداً معي ولا تستطيع أن تكون كريماً مع إلزا ؟

ـ لأنك أختي وواجبي هو حمايتك .

ـ وإلزا هي بمقام ابنتي يا جيرمي!

ـ ولكنها ليست ابنتك . ولا يترتب علينا أي واجب تجاهها : إنها لا تنتمي إلى هذه الأسرة .

فصرخت مس روز :

ـ بل تنتمي!

ـ يكفي! ـ قاطعهما القبطان وهو يضرب الطاولة بقبضته بقوة جعلت الأطباق والكؤوس تتراقص .

وكررت مس روز منتحبة وهي تغطي وجهها براحتيها :

ـ إنها تنتمي إلينا يا جيرمي . إلزا واحدة من أسرتنا . إنها ابنة جون...

وعندئذ سمع جيرمي من أخويه السر الذي احتفظا به طوال ستة عشر عاماً . فانفجر ذلك الرجل قليل الكلام الذي يتحكم بنفسه إلى حد يبدو معه وكأنه لا يتأثر بالعواطف الإنسانية ، انفجر للمرة الأولى ، وكل ما صمت عليه طوال ست وثلاثين سنة من الفتور البريطاني خرج منه متدفقاً في سيل من التأنيب ، من الغضب ، من المهانة ، لأنه لا بد له أن يرى كم كان أحمق ، رباه ، أعيش تحت السقف نفسه في وكر أكاذيب دون أن أنتبه إلى ذلك ، مقتنعاً بأن أخويّ فاضلين وأن الثقة تسود بيننا ، بينما السائد هو عادة

الكذب ، وديدن الزيف ، فمن يدري كم من الأشياء الأخرى أخفيتماها عني بمنهجية ، ولكن هذه هي الذروة . لماذا لم تخبراني بالأمر ، ما الذي فعلته لتعاملاني كمسخ... لأستحق أن تتلاعبا بي هكذا ، لتستغلا كرمي وتحتقراني في الوقت نفسه ، لأنه لا يمكن تسمية هذا السلوك باستبعادي وإحاطتي بالأكاذيب إلا احتقاراً ، فأنتما لا تحتاجان إليّ إلا لدفع الحسابات ، وحياتنا كلها كانت على هذا النحو ، مذ كنا صغاراً وأنتما تسخران مني من وراء ظهري...

تحمل جون وروز وابل التأنيب صامتين ، دون أن يعرفا كيف يبرران سلوكهما . وعندما استنفد جيرمي كلامه الغاضب ، خيم صمت طويل في غرفة الطعام . كان الثلاثة مستنفدين . فللمرة الأولى في حياتهم يتواجهون دون أقنعة التهذب والمجاملة . وبدا كما لو أن شيئاً جوهرياً كان يحفظ توازنهم الهش كتوازن طاولة بثلاث قوائم ، قد انكسر ولا سبيل إلى إصلاحه ؛ ومع ذلك ، وكلما راح جيرمي يستعيد أنفاسه ، كانت ملامحه تعود إلى تعبيرها المغلق والمتعجرف المعهود ، بينما هو يرفع خصلة شعر تهدلت على جبهته ويسوي ربطة عنقه المائلة . نهضت مس روز واقفة ، ودنت من وراء الكرسي ووضعت يدها على كتفه ، وهي الحركة الحميمة الوحيدة التي تجرأت عليها ، بينما هي تحس بقلبها يؤلمها حناناً على هذا الأخ المتوحد ، هذا الرجل الصموت والكئيب الذي كان بمثابة أب لها والذي لم تتكلف يوماً مشقة النظر إلى عينيه . واستخلصت أنها لا تعرف عنه شيئاً بالفعل ، وأنها لم تلمسه طوال حياتها .

قبل ست عشرة سنة من ذلك ، في صباح الخامس عشر من آذار ١٨٣٢ ، خرجت ماما فريسيا إلى الحديقة واصطدمت بصندوق صابون مرسيليا عادي مغطى بورقة صحيفة . اقتربت مذهولة لترى ما فيه ، وحين رفعت الورقة اكتشفت وجود مخلوقة حديثة الولادة . هرعت إلى البيت صارخة وبعد لحظة

من ذلك كانت مس روز تنحني فوق الطفلة . كان عمرها آنذاك عشرين سنة ، وكانت طازجة وجميلة مثل ثمرة دراقن ، ترتدي فستاناً بلون الياقوت ، والهواء يشعث شعرها المفلت ، بالوضع الذي تتذكرها أو تتخيلها فيه إلزا . رفعت المرأتان الصندوق وحملتاه إلى حجرة الخياطة ، حيث أزاحتا الأوراق وأخرجتا الطفلة الملفوفة كيفما اتفق بسترة صوفية . واستنتجتا أنها لم تبق وقتاً طويلاً في العراء ، لأن جسد الطفلة كان دافئاً ، وكانت تغفو بوداعة على الرغم من هواء الصباح البارد . أمرت مس روز الخادمة الهندية بالذهاب لإحضار بطانية نظيفة وملاءات ومقص لصنع حفاضات مرتجلة . وعندما رجعت ماما فريسيا كانت السترة قد اختفت وكانت الطفلة العارية تزعق بين ذراعي مس روز .

وقالت موضحة لجيرمي :

ـ لقد تعرفت على السترة فوراً . فأنا نفسي كنت قد خطتها لجون في السنة السابقة . وخبأتها لأنك كنت ستتعرف عليها أيضاً .

ـ ومن هي أم إلزا يا جون ؟

ـ لا أتذكر اسمها...

فصاح جيرمي :

ـ لا تعرف اسمها! كم من أبناء الزنى زرعت في العالم ؟

ـ لقد كانت فتاة من الميناء... شابة تشيلية ، أتذكر أنها كانت جميلة . ولم أرها بعد ذلك ولم أعرف بأنها حبلى . وعندما أرتني روز السترة ، بعد حوالى سنتين من ذلك ، تذكرت بأنني قد وضعتها على تلك الشابة على الشاطئ لأن الجو كان بارداً ونسيت استعادتها بعد ذلك . عليك أن تتفهم يا جيرمي ، فهكذا هي حياة البحارة . وأنا لست وحشاً...

ـ كنتَ مخموراً .

ـ ربما . وعندما عرفتُ أن إلزا هي ابنتي ، حاولت أن أعثر على أمها ،

ولكنها كانت قد اختفت . ربما تكون قد ماتت ، لست أدري .

وأضافت إلزا :

- لسبب ما قررت تلك المرأة أنه علينا نحن أن نربي الطفلة يا جيرمي ، وأنا لم أندم يوماً لأنني فعلت ذلك . لقد منحناها الحنان ، والحياة الجيدة ، والتربية . ربما لم يكن بإمكان الأم أن تقدم لها شيئاً ، ولهذا أحضرت إلزا ملفوفة بالسترة ، لكي نعرف من هو أبوها .

- أهذا هو كل شيء ؟ مجرد سترة متسخة ؟ هذا لا يُثبت أي شيء على الإطلاق! يمكن لأي شخص أن يكون الأب . وقد تخلصت تلك المرأة من الطفلة بمكر شديد .

فردت عليه أخته :

- كنت أخشى أن يكون رد فعلك على هذا النحو يا جيرمي . ولهذا السبب بالضبط لم أخبرك بالأمر آنذاك .

●

بعد ثلاثة أسابيع من وداعها لتاو تشين ، كانت إلزا تغسل الذهب على ضفاف النهر الأمريكي مع خمسة تشيليين . لم تسافر وحدها . ففي اليوم الذي غادرت فيه سكرامنتو انضمت إلى جماعة من التشيليين الذاهبين إلى مواقع استخراج الذهب . كانوا قد اشتروا مطايا ، ولكن أياً منهم لم يكن يعرف شيئاً عن البهائم ، وقد أخفى عنهم مربو المواشي المكسيكيون أعمار الخيول والبغال وعيوبها بمهارة . كانت البهائم مثيرة للشفقة وقد أُخفيت قروحها بالصباغ وخُدرت ، ففقدت قوة اندفاعها بعد ساعات قليلة من المسير وصارت تجرجر قوائمها وهي تعرج . كان كل خيّال يحمل معه حمولة من الأدوات والأسلحة والأواني الصفيحية ، فكانت القافلة الكئيبة تتقدم بخطوات بطيئة وسط ضوضاء الأواني المعدنية . وشرعوا خلال الطريق بالتخلص من الحمولة التي راحت تتبعثر إلى جانب الصلبان المنثورة في ذلك المشهد مشيرة إلى

أضرحة الموتى . قدمت إلزا نفسها باسم إلياس اندييتا ، القادم حديثاً من تشيلي ، موفداً من أمه للبحث عن أخيه خواكين ، والمستعد لأن يجوب كاليفورنيا من أعلاها إلى أدناها لينجز واجبه .

سألوه :

- كم سنة عمرك يا ذا المخاط ؟

- ثمانية عشر عاماً .

- تبدو في الرابعة عشرة . ألست صغيراً على البحث عن الذهب ؟

- عمري ثمانية عشر عاماً ولست أبحث عن الذهب ، وإنما عن أخي خواكين وحسب .

كان أولئك التشيليون شباناً مرحين ، مازالوا يحتفظون بالحماس الذي دفعهم للخروج من بلادهم والمغامرة بعيداً جداً ، مع أنهم كانوا قد بدؤوا يدركون أن الشوارع ليست مرصوفة بالكنوز ، كما قيل لهم . لم تكن إلزا تريهم وجهها في أول الأمر وتُبقي القبعة فوق عينيها ، ولكنها سرعان من لاحظت أن الرجال قلما يتبادلون النظر فيما بينهم . لقد تقبلوا أنها فتى ولم يستغربوا مظهر جسدها أو صوتها أو عاداتها . فكل واحد منهم كان مشغولاً بشؤونه ، ولم ينتبهوا إلى أنها لا تتبول مثلهم ، وحين يجدون بركة ماء ويتعرون ليبتردوا فيها ، تنزل هي في الماء بملابسها ، بما في ذلك قبعتها ، متعللة بأنها تريد انتهاز الفرصة لتغسل ثيابها في الوقت نفسه . وكانت النظافة من جهة أخرى هي آخر ما تفكر به ، فبعد أيام قليلة صارت لا تقل وساخة وتعرقاً عن رفاقها . واكتشفت أن الوساخة توحد الجميع في الوضاعة نفسها ؛ وصار أنفها الذي كان أنف كلب صيد لا يكاد يميز رائحة جسدها عن روائح الآخرين . وكان قماش البنطال السميك يكشط ساقيها ، ولم تكن معتادة على الركوب لمسافات طويلة ، فأصبحت في اليوم التالي غير قادرة على أن تخطو خطوة واحدة بإليتيها المسلختين ، ولكن الآخرين كانوا من أبناء المدينة أيضاً

وكانوا يتألمون مثلها . وسرعان ما أفقدهم المناخ الجاف والحار ، والعطش ، والإرهاق ، وهجوم البعوض المتواصل الرغبة في المزاح . كانوا يتقدمون صامتين ، بقعقعة أوانيهم ، نادمين قبل أن يبدؤوا . استطلعوا طوال أسابيع بحثاً عن مكان مناسب للاستقرار والبحث عن الذهب ، فكانت إلزا تستغل الوقت للاستفسار عن خواكين اندييتا . لم تنفعهم كثيراً الآثار التي اقتفوها ولا الخرائط العشوائية ، وكلما وصلوا إلى مغسل ذهب جيد ، وجدوا أن مئات المَنجميين قد سبقوهم إليه . وكان لكل واحد الحق بالمطالبة بمئة قدم مربع ، فيحدد موقعه بالعمل فيه يومياً وبترك أدواته فيه عندما يغيب ، ولكنه إذا ما غاب أكثر من عشرة أيام ، يمكن لآخر أن يشغل المكان ويسجله باسمه . وكانت أسوأ الجرائم هي اقتحام مواقع الآخرين قبل انتهاء المهلة والسرقة منها ، وهي جريمة يُعاقب عليها بالشنق أو بالجلد بعد محاكمة مقتضبة يكون المَنجميون فيها هم القضاة والمحلفون والجلادون . لقد التقوا بزمر من التشيليين في كل مكان . وكانوا يتعرفون على بعضهم بعضاً من ملابسهم ولهجتهم ، فيتعانقون بحماس ، ويتقاسمون شرب المتة ، والخمر التشاركي ، ويروون محنهم وخيبة أملهم المشتركة بالألوان الحية ، ويغنون أغنيات الحنين تحت النجوم ، ولكنهم يودعون بعضهم بعضاً في اليوم التالي ، دون أن يكون لديهم متسع من الوقت للإفراط في كرم الضيافة . ومن خلال لهجتهم المتأنقة وأحاديثهم ، اكتشفت إلزا أن بعضهم شبان مدللون من سنتياغو ، متأنقون شبه أرستقراطيين كانوا إلى ما قبل شهور يرتدون السترات الطويلة ، والأحذية اللامعة ، وقفازات من جلود الجِداء ، ويضعون مثبتات الشعر ، أما في مغاسل الذهب فمن شبه المستحيل التمييز بينهم وبين الأجلاف الذين يعملون معهم جنباً إلى جنب . فالتكلف والأحكام الطبقية المسبقة تتبخر لدى ملامسة واقع المناجم الفظ ، وهو ما لم يُصب الأحقاد العنصرية التي كانت تنفجر في مشاجرات لأدنى ذريعة . فالتشيليون الأكثر

عدداً ومبادرة من الهيسبانيين الآخرين ، كانوا محط كراهية الفرينغيين . وعلمت إلزا أن جماعة من الأستراليين السكارى في سان فرانسيسكو قد هاجموا «تشيلي الصغيرة» ، مما أدى إلى وقوع معركة حامية . وكانت تعمل في مناطق الذهب عدة شركات تشيلية أحضرت عمالاً من الأرياف ، أجراء عاشوا لأجيال في ظل نظام إقطاعي ويعملون بأجر زهيد دون أن يستغربوا من أن الذهب ليس ملكاً لمن يعثر عليه ، وإنما لرب العمل . وكان ذلك في نظر اليانكيين عبودية سافرة . فالقوانين اليانكيية تعطي الأفضلية للأفراد : فالملكيات تنحصر في الرقعة التي يمكن لشخص بمفرده أن يستغلها . ولكن الشركات التشيلية كانت تتحايل على القانون بتسجيل الحقوق باسم كل واحد من العمال لتستحوذ على مساحة أكبر من الأرض .

كان هناك بِيضٌ من جنسيات متعددة يرتدون قمصان الفانيلا وبنطلونات محشورة في الجزمات ويعلقون زوجاً من المسدسات ؛ وصينيون بستراتهم المبطنة وسراويلهم الواسعة ؛ وهنود حمر بسترات عسكرية مهترئة ومؤخرات بالية ؛ ومكسيكيون يرتدون ملابس قطنية بيضاء وقبعات ضخمة ، وأمريكيون جنوبيون بعباءات بونتشو قصيرة وأحزمة جلدية عريضة يضعون فيها سكاكينهم وتبغهم وبارودهم ونقودهم ؛ ورحالة من جزر السندويش (هاواي) حفاة يتمنطقون بأحزمة حرير لامع : جميعهم في خليط من الألوان ، والثقافات ، والأديان ، واللغات ، وبهاجس مشترك واحد . وكانت إلزا تسأل كل واحد عن خواكين انديتا وتطلب أن يذيعوا في الآفاق أن أخاه إلياس يبحث عنه . وكلما توغلت أكثر فأكثر في تلك الأراضي ، كانت تدرك كم هي فسيحة وكم سيكون من الصعب العثور على حبيبها وسط خمسين ألف غريب يزحفون من مكان إلى آخر .

وأخيراً قررت الجماعة التشيلية المستنفدة أن تستقر . فقد وصلت إلى وادي النهر الأمريكي تحت الحر القائظ ، ولم يبق معها سوى بغلين وحصان

إلزا ، أما بقية البهائم فنفقت في الطريق . كانت الأرض جافة ومشققة لا نباتات فيها سوى أشجار الصنوبر والسنديان ، ولكن نهراً صافياً ومتدفقاً كان ينحدر من الجبال متقافزاً على الصخور ، مخترقاً الوادي مثل سكين . وعلى ضفتيه كانت هناك صفوف ومزيد من صفوف رجال يحفرون ويملؤون دلاء بالتراب الناعم ، ثم يصولونها في أداة تشبه مهد طفل رضيع . كانوا يعملون ورؤوسهم تحت الشمس وأرجلهم في الماء المثلج وثيابهم مبللة ؛ ويناموون على الأرض دون أن يفلتوا أسلحتهم ، ويأكلون خبزاً يابساً ولحماً مملحاً ، ويشربون ماء ملوثاً بمئات الحفريات في أعالي النهر وخموراً مغشوشة إلى حد تفتيت أكباد الكثيرين منهم أو إصابتهم بالجنون . رأت إلزا رجلين يموتان خلال أيام قليلة وهما يتلويان من الألم ويغطيهما عرق الكوليرا الرغوي ، فحمدت حكمة تاو تشين الذي لم يكن يسمح لها بشرب الماء دون غليه . فمهما بلغ منها العطش ، كانت تنتظر إلى أن ينصبوا مخيمهم في المساء ، لتصنع شاياً أو متة . وبين الحين والآخر كانت تُسمع صرخات الابتهاج : فقد وجد أحدهم قطعة كبيرة من الذهب ، ولكن الغالبية كانوا يرتضون بفصل بضعة غرامات من المعدن الثمين من بين أطنان الأتربة غير المجدية . لقد كان بالإمكان إلى ما قبل شهور رؤية حراشف الذهب المتلألئة تحت الماء الصافي ، ولكن الطبيعة اختلت الآن بفعل الجشع البشري ، وتبدل المشهد إلى أكوام من الأتربة والأحجار ، والحفر الهائلة ، والأنهار والغدران التي حُرفت عن مسارها ، والمياه التي توزعت إلى ما لا حصر له من المستنقعات ، وآلاف الجذوع المبتورة حيث كانت توجد غابة من قبل . لقد كان الوصول إلى المعدن يتطلب تصميم الجبابرة .

لم تكن إلزا تفكر بالبقاء ، ولكنها كانت منهوكة القوى ووجدت نفسها عاجزة عن مواصلة الركوب وحدها على غير هدى . احتل رفاقها قطعة أرض في آخر صف المنجميين ، على مسافة بعيدة عن القرية التي بدأت بالبروز في ذلك

المكان بحانتها ومخزنها لتلبية الحاجات الأولية . كان جيرانهم من الأوريغونيين الذين يشتغلون ويشربون الخمر بتحمل لا يجارى ، ولم يضيعوا الوقت بتبادل التحية مع القادمين الجدد ، بل على العكس من ذلك ، إذ سارعوا إلى إخبارهم على الفور بأنهم لا يعترفون بحق المزيتين باستثمار الأرض الأمريكية . فواجههم أحد التشيليين بالقول إنهم هم أيضاً لا ينتمون إلى تلك الأرض ، وأنها أرض الهنود الحمر ، وكاد أن ينشب صراع لو لم يتدخل الآخرون لتهدئة الخواطر . كان الضجيج جلبة متواصلة من أصوات الرفوش والمعاول والمياه والصخور المتدحرجة والشتائم ، ولكن السماء كانت صافية ، والهواء يعبق برائحة أوراق الغار . تهاوى التشيليون على الأرض وهم يشرفون على الموت تعباً ، بينما انهمكت إلياس أنديتا المزيفة في إشعال موقد صغير لصنع القهوة وتقديم الماء للحصان . وقدمت الماء للبغلين المسكينين أيضاً ، بدافع الشفقة ، مع أنهما ليسا لها ، وأنزلت الحمولة عنهما ليتمكنا من الراحة . كان التعب يغشي عينيها ولا تكاد تتحمل ارتجاف ركبتيها ، فأدركت أن تاو تشين كان على حق حين نبهها إلى ضرورة استعادة قواها قبل أن تلقي بنفسها في هذه المغامرة . فكرت بكوخ ألواح الخشب وقطع قماش الخيم في سكرامنتو ، حيث يكون هو مستغرقاً في مثل هذا الوقت بالتأمل أو بكتابة خطه البديع بالريشة والحبر . وابتسمت مستغربة من أن حنينها لا يستحضر حجرة خياطة مس روز الهادئة أو مطبخ ماما فريسيا . فتنهدت : كم تغيرتُ ، وكانت تنظر إلى يديها المحروقتين بالشمس القاسية والمليئتين بالفقاعات والبثور .

في اليوم التالي أرسلها رفاقها إلى المتجر لتشتري ما هو ضروري للبقاء على قيد الحياة وواحداً من تلك المهود لتصويل التراب ، لأنهم رأوا كم هي أكثر فعالية من صينياتهم البائسة . الشارع الوحيد في القرية ، إذا كان بالإمكان تسمية تلك الدسكرة بهذا الاسم ، كان مخاضة وحل مزروعة بالفضلات . أما المتجر الذي هو كوخ من الجذوع والألواح ، فكان مركز الحياة الاجتماعية في

مجتمع الرجال المتوحدين ذاك . وهناك كان يباع من كل ما هو موجود ، ويقدم الخمر وبعض المأكولات ؛ وفي الليل ، عندما يأتي المَنجميون للشرب ، كان يحرك الجو عازف كمان بألحانه الكئيبة ، وعندئذ يعلق بعض الرجال مناديل في أحزمتهم ، في إشارة إلى أنهم يقومون بدور النساء ، بينما يتناوب الآخرون دعوتهم للرقص . لم تكن هناك امرأة واحدة في دائرة قطرها عدة أميال ، إنما قد تمر بين حين وآخر عربة تجرها البغال محملة بالعاهرات . فكان الرجال ينتظرونهن بلهفة ويدفعون لهن بسخاء . وكان صاحب المتجر مُرمونياً ثرثاراً وطيب القلب ، له ثلاث زوجات في ولاية يوته ، يقدم قروضاً لمن يتحولون إلى ديانته . وكان يمتنع عن شرب الخمر ، وبينما هو يبيع المشروبات الكحولية يقدم المواعظ ضد رذيلة شربها . وقد أخبر إلزا حين سألته ، بأنه عرف شخصاً يدعى خواكين ويخيل إليه أن كنيته أنديتا ، ولكنه مر من هناك منذ زمن طويل ، ولا يمكنه أن يحدد في أي اتجاه مضى . وهو يتذكره لأنه كان متورطاً في شجار بين أمريكيين وإسبان حول ملكية أرض . أهم تشيليون ؟ ربما ، ولكنه متأكد فقط من أنهم كانوا يتكلمون الإسبانية ، وقال إنهم قد يكونون مكسيكين ، فجميع المزيتين في نظره يبدون متشابهين .

- وماذا حدث أخيراً ؟

- استولى الأمريكيون على قطعة الأرض ، واضطر الآخرون إلى الرحيل . وما الذي يمكن أن يحدث غير ذلك ؟ لقد بقي خواكين ورجال آخرون هنا في المتجر يومين أو ثلاثة أيام . وضعت بعض البطانيات هناك في الركن وتركتهم يستريحون إلى أن استردوا بعض عافيتهم ، لأنهم كانوا قد تعرضوا لضرب شديد . لم يكونوا أشراراً . إنني أتذكر أخاك ، كان فتى أسود الشعر وواسع العينين... إنه فتى وسيم .

فقالت إلزا وقلبها يخفق بقوة :

- إنه هو .

القسم الثالث

١٨٥٠ ـ ١٨٥٣

إلدورادو

تعاون أربعة رجال لحمل الدب ، اثنان من كل جانب ، وهم يشدون الحبال الثخينة ، وسط حشد هائج . جروه إلى منتصف الحلبة الرملية وقيدوه من إحدى قوائمه إلى عمود بسلسلة طولها عشرون قدماً ثم أمضوا بعد ذلك خمس عشرة دقيقة في فكه ، بينما هو يحاول الخدش والعض بغضب قيامي . كان وزنه يزيد على ستمئة كيلوغرام ، له فرو بني قاتم ، وعين عوراء ، وفي ظهره قروح وندوب من مصارعات سابقة ، ولكنه كان فتياً . وكان لعابٌ زبدي يغطي شدقيه بأسنانهما الصفراء الهائلة . وبينما هو منتصب على قائمتيه الخلفيتين ، يوجه ضربات غير مجدية بمخالبه الخرافية ، راح يجوب الحشد بعينه السليمة ، ويشد السلسلة بيأس .

كانت قرية صغيرة انبثقت منذ شهور من العدم . بناها من هجروا ذويهم خلال زفرة قصيرة دون طموح بالبقاء . ولعدم وجود ميدان مصارعة ثيران ، مثل تلك الموجودة في كل قرى كاليفورنيا المكسيكية ، فقد اتخذوا قطعة أرض خلاء مستديرة يستخدمونها لترويض الخيول وحبس البغال ، ودعموها بألواح وجهزوها بمنصات خشبية ليستريح عليها الجمهور . وفي ذلك المساء من تشرين الثاني بدت السماء بلون الفولاذ تهدد بالمطر ، ولكن الجو لم يكن بارداً وكان التراب جافاً . وفيما وراء السياج احتشد مئات المتفرجين يردون

على كل زمجرة يطلقها الحيوان بكورال من السخريات . أما النساء الوحيدات ، فكن ست شابات مكسيكيات بملابس بيضاء مطرزة ، يدخن سجائرهن الأبدية ، وكن محط الأنظار مثل الدب ، يحييهن حشد الرجال كذلك بصيحات « أوليه! » ، بينما زجاجات الخمر وأكياس ذهب المراهنات تنتقل من يد إلى يد . وكان منظمو المراهنات الذين يرتدون ملابس أهل المدينة والسترات المزركشة وربطات العنق العريضة والقبعات العالية ، يتميزون عن الجموع الفظة والمشعثة . وكان هناك ثلاثة موسيقيين يعزفون على كمنجاتهم ألحان الأغنيات المفضلة ، وما أن بدؤوا بعزف نشيد المنجميين «آه سوزانا» باندفاع ، حتى قفز إلى الحلبة مهرجان ملتحيان ، ولكن بملابس النساء ، وقاما بجولة أولمبية وهما يطلقان البذاءات ويتبادلان الصفعات ، ويرفعان تنورتيهما ليكشفا عن سيقان يغطيها الشعر وسراويل داخلية فضفاضة ذات كشاكش . احتفل بهما الجمهور بوابل سخي من نقوده ، وصخب تصفيق وقهقهات . وعندما انسحبا ، علا صوت بوق وقرع طبول معلناً بدء المصارعة ، وتبعه هدير الحشد المتحفز .

كانت إلزا الضائعة بين الحشود تتابع الاستعراض بافتتان ورعب . فقد راهنت بالنقود القليلة المتبقية لديها على أمل مضاعفتها خلال الدقائق التالية . وحين صدح البوق للمرة الثالثة ، رفعوا بوابة خشبية ، واندفع ثور فتي أسود ولامع وهو يشخر . خيم على منصات الجمهور صمت ذهول استمر للحظات ، ثم دوت صرخة « أوليه! » بأصوات مجروحة مستقبلة الحيوان . وقف الثور حائراً ، يرفع رأسه المتوج بقرنين كبيرين لم يهذبهما مبرد ، وعيناه المتأهبتان تقدران الأبعاد ، وحافراه الأماميان يضربان الرمل ، إلى أن شدت انتباهه زمجرة من الدب . لقد رآه خصمه وراح يحفر حفرة في الأرض بأقصى سرعة على بعد خطوات من العمود ، حيث ربض منكمشاً على نفسه ، ملتصقاً بالأرض . وعلى صيحات الجمهور أحنى الثور رقبته ، وشد عضلاته واندفع

راكضاً مثيراً سحابة من الرمل وقد أعماه الغضب وهو يلهث ويطلق بخاراً من أنفه ولعاباً من فمه . وكان الدب بانتظاره . فتلقى النطحة الأولى التي أحدثت شقاً دامياً في جلده السميك ، ولكنها لم تزحزحه بوصة واحدة . دار الثور حول الحلبة راكضاً مشوشاً ، بينما الحشد يحثه بالسباب ، وعلى الفور عاد للهجوم محاولاً رفع الدب بقرنيه ، ولكن هذا الأخير بقي قابعاً وتلقى الضربة دون أن يصدر عنه أي صوت ، إلى أن رأى فرصته تلوح فوجه ضربة بمخالبه هشمت أنف الثور . فبدأ الحيوان النازف والمختل ألماً يفقد صوابه ويهاجم بنطحات عمياء ، محدثاً في خصمه جروحاً متتالية دون أن يتمكن من إخراجه من الحفرة . وفجأة ، انتصب الدب وأمسكه من عنقه في عناق رهيب ، وراح يعض رقبته . رقصا معاً لدقائق عديدة ضمن الدائرة التي تسمح بها السلسلة ، بينما كان الرمل يتخضب بالدم ويتعالى من المنصات صراخ الرجال . وأخيراً تمكن الثور من الإفلات ، وابتعد بضع خطوات مترنحاً وقد خارت قوائمه واصطبغ فروه الأسود اللامع بالأحمر إلى أن انثنت ركبه وهوى على وجهه أرضاً . وعندئذ انطلق هتاف مدو محيياً فوز الدب . ودخل فارسان إلى الحلبة ، وأطلقا رصاصة بندقية ما بين عيني المهزوم المحتضر ، ثم ربطا قائمتيه الخلفيتين بحبل وأخرجاه سحلاً . شقت إلزا طريقها نحو المخرج وهي تشعر بالقرف . وكانت قد خسرت آخر أربعين دولاراً لديها .

في شهور صيف وخريف ١٨٤٩ جابت إلزا على حصانها امتداد سلسلة فيتا مادري من الجنوب إلى الشمال ، بدءاً من ماريبوسا وحتى دونيفيل ثم رجعت عبر جبال وعرة . مقتفية آثار خواكين انديتا التي كانت تزداد التباساً ، ابتداء من مجاري الأنهار وحتى سفوح سييرا نيفادا . لدى السؤال عنه في أول الأمر ، قلة هم الذين كانوا يتذكرون شخصاً بذلك الاسم أو تلك الأوصاف ، ولكن صورته بدأت تتخذ مظهراً واقعياً منذ أواخر تلك السنة ، مما منح الفتاة قوة لمواصلة البحث . لقد أطلقتْ في عدة مناسبات خلال تلك الشهور إشاعة

أن أخاه إلياس يبحث عنه ، وكان الصدى يعيد إليها صوتها . وفي أكثر من مناسبة ، ما أن تستفسر عن خواكين ، حتى يحدد الناس أنها أخوه ، حتى قبل أن تعرف بنفسها . لقد كان البريد يصل من سان فرانسيسكو إلى تلك المنطقة الهمجية متأخراً عدة شهور ، والصحف تتأخر لأسابيع ، ولكن الأخبار المتناقلة شفاهاً لم تكن تخطئ هدفها . وكانت تفكر : كيف لم يسمع خواكين بأن هناك من يبحث عنه ؟ وبما أنه لا أخوة لديه ، فلا بد له من أن يتساءل عمن يكون ذلك المدعو إلياس ، وإذا ما كان لديه ذرة من الحدس فيمكنه أن يربط ما بين هذا الاسم واسمها ؛ وإذا هو لم ينتبه إلى ذلك ، فسوف يشعر على الأقل بالفضول لمعرفة من هو هذا الذي يدعي قرابته . كانت لا تكاد تستطيع النوم في الليل ، مشوشة بالتكهنات ، تخامرها الشكوك الملحة بأنه لا يمكن تفسير صمت حبيبها إلا بموته أو بأنه غير راغب في لقائها . وماذا لو كان صحيحاً أنه يهرب منها مثلما ألمح تاو تشين ؟ كانت تُمضي النهار على صهوة الجواد وتنام مستلقية على الأرض في أي مكان ، مستخدمة بطانيتها القشتالية دثاراً وجزمتها وسادة ، دون أن تخلع ملابسها . لم يعد العَرق والوسخ يضايقانها ، وكانت تأكل عندما تستطيع ، والاحتياطات الوحيدة التي تتوخاها هي غلي الماء قبل أن تشربه وعدم النظر مباشرة إلى عيون الغرينغيين .

بلغ عدد الباحثين عن الذهب في ذلك الحين مئة ألف ، وكان المزيد منهم يتوافدون ، وينتشرون على امتداد فيتا مادري ، ليقلبوا الدنيا رأساً على عقب ، ويحركوا جبالاً ، ويحولوا مجاري أنهار ، ويدمروا غابات ، ويفتتوا صخوراً ، وينقلوا أطناناً من الرمال ، ويحفروا حفراً هائلة . وفي المناطق التي عُثر فيها على الذهب ، كانت الأراضي الرعوية الشاعرية التي بقيت على حالها منذ بدء الأزمنة ، تتحول إلى ما يشبه كابوس قمري . كانت إلزا تعيش مستنفدة ، ولكنها استعادت قواها وتخلصت من الخوف . وقد عاودها الحيض

في وقت غير مناسب ، لأنه من الصعب إخفاء ذلك وهي برفقة الرجال ، ولكنها فرحت به كعلامة على تعافي جسدها أخيراً . «لقد أفادتني إبر الوخز التي عالجتني بها يا تاو . وآمل أن أُنجب أبناء في المستقبل» ، هذا ما كتبته إلى صديقها وهي واثقة من أنه سيفهم ما تعنيه دون مزيد من الشروح . لم تكن تتخلى عن أسلحتها أبداً ، مع أنها لم تكن تعرف كيف تستخدمها وتأمل ألا تجد نفسها مضطرة إلى استخدامها . لقد أطلقت النار مرة واحدة في الهواء لتخيف صبية هنود اقتربوا منها أكثر مما يجب وأحست بأنهم يهددونها ، ولكنها لو اشتبكت معهم لخرجت خاسرة ، إذ لم يكن بإمكانها إصابة حمار عن بعد خمس خطوات . فهي لم تشحذ قدرتها على التصويب ، ولكنها شحذت بالمقابل موهبتها بالاختفاء . فكان بإمكانها الدخول إلى القرى دون أن تلفت الانتباه ، وتختلط بجماعات اللاتينيين ، حيث يمكن لفتى بمثل مظهرها أن يمر دون أن يُلحظ . وتعلمت محاكاة اللهجة البيروية والمكسيكية بإتقان ، فكانوا يحسبونها واحداً منهم عندما تطلب مأوى . وبدلت كذلك لكنتها الإنكليزية البريطانية بالإنكليزية الأمريكية واعتادت على تكرار بعض الألفاظ النابية التي لا بد منها لتكون مقبولة بين الغرينغيين . فقد لاحظت أنهم يحترمونها إذا ما تكلمت مثلهم ؛ ولكن المهم هو عدم تقديم تفسيرات ، والاكتفاء بقول أقل قدر من الكلام ، وعدم طلب شيء ، والعمل مقابل طعامها ، ومواجهة الاستفزازات والتمسك على الدوام بنسخة من الكتاب المقدس كانت قد اشترتها من سونورا . فحتى أكثر الأجلاف فظاظة يشعرون بتوقير حراقي تجاه هذا الكتاب . وقد كانوا يستغربون من هذا الفتى الأمرد الذي له صوت امرأة ويقرأ الكتابات المقدسة في الأمسيات ، ولكنهم لا يسخرون منه بصورة سافرة ، بل على العكس ، فقد كان بعضهم يحمونه ، ويسارعون إلى العراك باللكمات مع أي شخص يسخر منه . أولئك الرجال المتوحدون والأفظاظ الذين خرجوا بحثاً عن الثروة مثل أبطال اليونان القديمة

الأسطوريين ، ووجدوا أنفسهم لا يحصلون إلا على ما هو أساسي ، يعانون المرض في أحيان كثيرة ، ويستسلمون للعنف والكحول ، كان في داخلهم شوق خفي إلى الحنان والنظام . فالأغاني العاطفية تخضل عيونهم ، وهم مستعدون لدفع أي ثمن مقابل قطعة من حلوى التفاح توفر لهم لحظة عزاء من الحنين إلى بيوتهم ؛ ويحومون طويلاً كي يقتربوا من بيت فيه طفل ليتأملوه بصمت ، وكأنه إحدى الأعاجيب .

•

كتبت إلزا إلى صديقها تقول : «لا تخف يا تاو ، فأنا لا أسافر وحيدة ، لأن ذلك سيكون ضرباً من الجنون . يجب التنقل في جماعات كبيرة ، جيدة التسلح والتيقظ ، لأن عصابات قطاع الطرق تكاثرت في الشهور الأخيرة . الهنود الحمر أناس أقرب إلى المسالمين ، على الرغم من مظهرهم المخيف ، ولكنهم حين يرون فارساً بائساً ، فقد ينتزعون منه ممتلكاته المرغوبة : الحصان ، والأسلحة ، والحذاء . إنني أنضم إلى مسافرين آخرين : تجار يتنقلون ببضائعهم من قرية إلى أخرى ، ومَنجميون يبحثون عن عروق ذهب جديدة ، وأسر مزارعين ، وصيادين ، ومقاولين ، ووكلاء أملاك ممن بدؤوا يغزون كاليفورنيا . أما أكثر رفاق السفر تسلية وكرماً فهم المقامرون ، والقتلة بالمسدسات ، والمحامون وأوغاد آخرون . وهناك أيضاً واعظون يجوبون هذه الدروب ، وهم شبان على الدوام ويبدون مجانين ملهمين . تصور كم من الإيمان يتطلب السفر لثلاثة آلاف ميل عبر مرابع عذراء بهدف مقارعة رذائل الآخرين . إنهم يخرجون من قراهم مفعمين بالقوة والحماس ، مصممين على حمل كلمة المسيح إلى تلك المجاهل ، غير عابئين بمصاعب الطريق ومحنه ، لأن الرب معهم . وهم يسمون الباحثين عن الذهب «عبدة العجل الذهبي» . عليك أن تقرأ الكتاب المقدس يا تاو ، وإلا فإنك لن تفهم المسيحيين أبداً . هؤلاء القسس لا تهزمهم المحن المادية ، ولكن كثيرين منهم يسقطون

محطمي الأرواح وعاجزين أمام قوة الجشع الماحقة . كم هي مريحة رؤيتهم فور وصولهم ، وهم ما يزالون بريئين بعد ، وكم هو محزن اللقاء بهم حين يكون الرب قد خذلهم وتخلى عنهم ، فيتنقلون بمشقة من مخيم إلى آخر ، يعانون الظمأ وحرقة الشمس الرهيبة فوق رؤوسهم ، يقدمون مواعظهم في الساحات والحانات أمام حشد غير مبالٍ ، يستمع إليهم دون خلع القبعات ، ويعود إلى السكر بعد خمس دقائق من ذلك مع نساء عاهرات . لقد تعرفت على فريق من الفنانين الجوالين يا تاو ، إنهم بعض البائسين ممن يتوقفون في القرى لكي يمتعوا الناس بتمثيل إيمائي ، وأغنيات لاذعة ومشاهد كوميدية خرقاء . ورافقتهم عدة أسابيع وضموني إلى استعراضهم . فإذا ما حصلوا على بيانو ، أعزف عليه ، وإذا لم يجدوه أقوم بدور السيدة الشابة في الفرقة ، فيُدهش الجميع لأدائي الرائع لدور المرأة . وقد اضطررت إلى تركهم لأن التشوش كاد أن يودي بي إلى الجنون ، فلم أعد أعرف إذا ما كنتُ امرأة بملابس رجل ، أم رجل بملابس امرأة أم أنني إحدى شذوذات الطبيعة .

أقامت صداقة مع ساعي البريد ، وكانت تنطلق على حصانها معه ، لأنه يسافر سريعاً وله اتصالاته ؛ وفكرت بأنه إذا كان هناك من هو قادر على العثور على خواكين أندييتا ، فسيكون هو المؤهل لذلك . كان الرجل ينقل البريد إلى المنَجميين ويرجع بأكياس الذهب لإيداعها في البنوك . لقد كان واحداً من بعيدي النظر الذين أثروا في حمى الذهب دون أن يمسكوا رفشاً أو معولاً بأيديهم قط . فهو يتقاضى دولارين ونصف مقابل حمل رسالة إلى سان فرانسيسكو ، ويستغل لهفة المنجميين لتلقي رسالة من بيوتهم ، فيطلب أونصة ذهب مقابل تسليمهم الرسائل التي تصلهم . كان يجني ثروة من هذه التجارة ، ولديه فائض من الزبائن ، ولا يجادله أي واحد منهم في الأسعار ، لأنه لا وجود لخيار آخر ، فهم لا يستطيعون مغادرة المناجم والذهاب للبحث عن الرسائل أو لإيداع أرباحهم على بعد مئة فرسخ . لقد ارتاحت إلزا كذلك لرفقة

تشارلي ، الرجل الصغير المليء بالحكايات الذي كان ينافس البغالين المكسيكيين في نقل البضائع على البغال . ومع أنه لم يكن يخاف الشيطان ، إلا أنه يرغب في وجود من يرافقه ، لأنه بحاجة لمن يستمع إلى حكاياته . وكلما تأملته إلزا أكثر ، أزداد يقينها بأنه امرأة ترتدي زي الرجال ، مثلما هي حالها . كانت بشرة تشارلي مدبوغة بالشمس ، وكان يمضغ تبغاً ، ويحلف الأيمان مثل قاطع طريق ، ولا يتخلى عن مسدسيه وقفازيه ، ولكنها تمكنت في إحدى المرات من رؤية يديه وكانتا صغيرتين وبيضاوين ، مثل يدي آنسة عذراء .

لقد تعشقت الحرية . فقد عاشت بين أربعة جدران في بيت آل سوميرز ، في أجواء لا تتبدل ، حيث الزمن يدور في حركة دائرية وخط الأفق لا يكاد يُلمح إلا من خلال نوافذ مُعذبة . وترعرعت في درع كتيم من أساليب السلوك الحميد والتقاليد ، ودُربت على الدوام كيف تكون ممتعة وخدومة ، وعاشت محصورة في مشد الصدر ، والروتين ، والأعراف الاجتماعية والخوف . لقد كان الخوف رفيقها الدائم : خوف من الرب وعدالته ، وخوف من السلطة ومن أبويها بالتبني ، وخوف من المرض واللعنة ، ومن المجهول والمختلف ، وخوف من الخروج من كنف البيت وحمايته ومواجهة أخطار الشارع ، وخوف من هشاشتها الأنثوية نفسها ، من الدنس ومن الحقيقة . لقد كان واقعها مفرطاً في التنميق ، يقوم على التجاهل والصمت المجامل والأسرار المحفوظة جيداً ، وعلى النظام والانضباط . وكانت الفضيلة هي أقصى تطلعاتها ، ولكن الشكوك بدأت تساورها الآن بمعنى هذه الكلمة . فعندما استسلمت لخواكين أندييتا في غرفة الخزائن اقترفت خطيئة لا يمكن إصلاحها في نظر الجميع ؛ أما في نظرها فالحب يبرر كل شيء . لم تكن تعرف ما خسرته وما كسبته من ذلك الهوى . وخرجت من تشيلي بهدف العثور على حبيبها لتكون عبدة له إلى الأبد ، معتقدة بأنها تطفئ بذلك تعطشها إلى الخضوع ورغبتها الخفية في المجامعة ، ولكنها لم تعد قادرة على التخلي عن هذه الأجنحة الجديدة التي

بدأت تنمو على كتفيها . إنها غير نادمة بأي حال على ما تقاسمته مع حبيبها ، وغير خجلة من تلك المحرقة التي بلبلت ذهنها ، بل على العكس ، فهي تشعر بأنها صلبتها فجأة ودفعة واحدة ، ومنحتها الكبرياء لاتخاذ القرارات وتحمل نتائجها . فليست مدينة بتقديم تفسيرات إلى أحد ، وإذا ما كانت قد اقترفت أخطاء ، فقد تلقت عقوبة كافية بخسارتها أسرتها ، وبعذابها وهي مدفونة في قاع السفينة ، وبابنها الميت وعدم اليقين المطلق الذي يحيط بمستقبلها . عندما حبلت ووجدت نفسها متورطة ، كتبت في يومياتها بأنها فقدت الحق في السعادة ، ولكنها في هذه الشهور الأخيرة ، وبينما هي تجوب على صهوة جوادها مشاهد كاليفورنيا الذهبية تلك ، أحست بأنها تحلق عالياً مثل نسر كوندور . استيقظت في صباح أحد الأيام على صهيل حصانها وضوء الفجر في وجهها ، فوجدت نفسها محاطة بأشجار السَّكُوية العملاقة التي تنتصب مثل حراس معمرين يحرسون أحلامها ، وبهضاب ناعمة وقمم بنفسجية شاهقة في البعيد ؛ وعندئذ غمرتها سعادة ارتدادية لم تعرفها من قبل قط . وانتبهت إلى أنها لم تعد تعاني ذلك الإحساس بالرعب الذي كان يقبع عند فم معدتها مثل فأر متأهب لعضها . لقد ذابت المخاوف في اتساعات تلك الأراضي الشاسعة . فكلما واجهت المخاطر ، اكتسبت مزيداً من الجسارة : إلى أن فقدت خوفها من الخوف . « إنني أجد قوى جديدة في داخلي ، ربما كانت موجودة لدي دوماً ، ولكنني لم أعرفها لأنني لم أكن بحاجة إلى استخدامها قبل الآن . لستُ أدري في أي منعطف على الطريق أضعت الشخص الذي كنته فيما مضى يا تاو . إنني الآن واحد آخر من المغامرين الكثيرين المنتشرين على ضفاف هذه الأنهار الصافية وسفوح هذه الجبال الأبدية . إنهم رجال متكبرون ، لا شيء فوق قبعاتهم سوى السماء ، وهم لا ينحنون أمام أحد لأنهم يبدعون المساواة . وأنا أريد أن أكون واحداً منهم . بعضهم يمشون ظافرين وهم يحملون على كاهلهم كيس الذهب ، وآخرون مهزومون لا يحملون سوى الخيبة والديون ،

ولكنهم جميعهم يشعرون بأنهم سادة أقدارهم ، وسادة الأرض التي يطأونها ، والمستقبل ، وكرامتهم التي لا يمكن أن تُنتقص . لم يعد بإمكاني بعد أن تعرفت عليهم أن أعود لأكون تلك الآنسة التي أرادتها مس روز . وقد بدأتُ أخيراً أتفهم خواكين ، عندما كان يختلس من ساعات حبنا الثمينة ليحدثني عن الحرية . هذا هو ما كان يعنيه إذن... إنها هذا الإشراق ، وهذا الضياء ، وهذه السعادة الزخمة كسعادة لحظات الحب القليلة المتقاسمة التي أستطيع تذكرها . إنني مشتاقة إليك يا تاو . فليس هناك من يمكنني التحدث إليه عما أراه ، وعما أشعر به . لا صديق لي في هذه العزلات ، وأنا أتوخى الحذر في كل ما أقوله في ممارستي لدور الرجل . إنني أمضي مقطبة الجبين ، حتى ينظروا إليّ على أنني فحل حقيقي . كم هو مزعج أن يكون المرء رجلاً ، ولكن الأسوأ من ذلك هو كونه امرأة» .

وبينما هي تهيم على وجهها من مكان إلى آخر ، توصلت إلى معرفة تلك الأراضي الوعرة وكأنها قد ولدت هناك . فصار بإمكانها أن تحدد موقعها وتقدر المسافات ، وتميز الأفاعي السامة من المسالمة ، والجماعات المعادية من الصديقة ، وتتنبأ بحالة الجو من شكل الغيوم ، وتعرف الوقت من زاوية انحراف ظلها ، وصارت تعرف ما يتوجب عليها عمله إذا ما صادفها دب ، وكيف تدنو من كوخ منعزل دون أن يستقبلوها بالرصاص . كانت تلتقي أحياناً بشبان حديثي المجيء يجرون آلات مناجم معقدة إلى أعلى الجبل ، ثم يتخلون عنها هناك وتبقى مهجورة لأنها غير نافعة ، وقد تلتقي بجماعات من الرجال ينزلون من سلسلة الجبال بعد شهور من العمل غير المجدي . ولا يمكنها أن تنسى تلك الجثة التي نقرتها الطيور وهي معلقة على شجرة سنديان وتحمل لافتة تحذير... لقد رأت في تجوالها أمريكيين وأوربيين وكاناكيين ومكسيكيين وتشيليين وبيروبيين ، كما رأت صفوفاً طويلة من الصينيين الصامتين يقودهم مراقب عمال يعاملهم كالعبيد ويدفع لهم الفتات ، بالرغم من كونه من أبناء

جنسهم . يمضون حاملين حزمهم على ظهورهم وأحذيتهم في أيديهم ، لأنهم معتادون على انتعال الأخفاف ولا يطيقون صبراً على الأثقال في أقدامهم . وهم أناس مقتصدون ، يعيشون على لا شيء وينفقون أقل ما يمكن ، ويشترون أحذية كبيرة لأنهم يعتقدون أنها أثمن قيمة ، ويفاجؤون حين يعرفون أن سعرها هو مثل سعر الأحذية الصغيرة . صارت غريزة تجنب المخاطر لدى إلزا أشد رهافة . وتعلمت أن تعيش ليومها دون أن تضع خططاً ، مثلما نصحها تاو تشين . وكانت تفكر به بكثرة وتكتب إليه على الدوام ، ولكنها لا تستطيع إرسال الرسائل إليه إلا عندما تصل إلى قرية تتوفر فيها خدمة بريدية إلى سكرامنتو . فكانت كمن يلقي رسائل في قوارير إلى البحر ، إذ أنها لا تعرف إذا كان ما يزال يعيش في تلك المدينة ، والعنوان الوحيد المؤكد الذي تملكه هو المطعم الصيني . فإذا ما وصلت رسائلها إلى هناك ، فإنهم سيسلمونها إليه دون شك .

كانت تكتب له عن المشهد الرائع ، عن الحر والعطش ، عن الهضاب ذات الانحناءات والتكورات الشهوانية ، وعن أشجار السنديان الثخينة وأشجار الصنوبر السامقة ، وعن الأنهار المثلجة ذات المياه الصافية إلى حد يمكن معه رؤية الذهب يلمع في قاع مجاريها ، وعن البجع البري ينعق في السماء ، وعن الغزلان والدببة الضخمة ، عن حياة المنجميين القاسية وسراب الثراء السهل . وتقول له ما يعرفانه كلاهما : إنه ليس هناك ما يستحق عناء استنفاد الحياة في البحث عن ذلك التراب الأصفر . وتحزر الجواب الذي سيقوله تاو تشين : وليس هناك من جدوى في استنفاد الحياة كذلك في ملاحقة حب وهمي . ولكنها تواصل ترحالها لأنه لا يمكنها التوقف . لقد بدأ خواكين اندييتا يتلاشى ، ولم تعد ذاكرتها القوية قادرة على تحديد ملامح الحبيب بوضوح ، فيتوجب عليها قراءة رسائل الحب من جديد لتوقن بأنه قد وُجد فعلاً ، وأنهما قد تحابا ، وأن ليالي غرفة الخزائن ليست وهماً ابتدعته مخيلتها . فتجدد بذلك

عذاب الحب المتوحد . وكانت تصف لتاو تشين الناس الذين تتعرف عليهم في الطريق ، جموع المهاجرين المكسيكيين المستقرين في سونورا ، وهي القرية الوحيدة التي يتراكض أطفال في شوارعها ، والنساء البائسات اللواتي يستقبلنها في بيوتهن الطينية دون أن يخطر لهن بأنها واحدة منهن ، وآلاف الشبان الأمريكيين الذين توافدوا إلى مغاسل الذهب في ذلك الخريف ، بعد أن اجتازوا القارة براً من شواطئ الأطلسي إلى شواطئ الباسفيكي . وقد قُدر عدد القادمين حديثاً بأربعين ألفاً ، كل واحد منهم مستعد للثراء في طرفة عين والعودة ظافراً إلى قريته . كانوا يطلقون عليهم تسمية « جماعة الـ ٤٩ » ، وهي التسمية التي شاعت شعبياً واتخذها كذلك من جاؤوا قبل وبعد تلك السنة . لقد بقيت قرى بكاملها في الشرق دون رجال ، لا يقطنها سوى النساء والأطفال والسجناء .

« لا أرى إلا القليل من النساء في المناجم ، ولكن هناك بعضهن ممن لديهن الجرأة لمرافقة أزواجهن في حياة الكلاب تلك . الأطفال يموتون بالأوبئة أو الحوادث ، فيقمن بدفنهم ، ويبكينهم ثم يواصلن العمل من شروق الشمس حتى مغيبها ليحلن دون أن تجرف البربرية كل أثر للوقار . يشمرن تنانيرهن ويخضن في الماء بحثاً عن الذهب ، ولكن بعضهن اكتشفن أن غسل ملابس الآخرين أو صنع الكعك وبيعه هو عمل أوفر مردوداً ، وكن يكسبن في أسبوع ما يقصم أزواجهن ظهورهم للحصول عليه في مغاسل الذهب خلال شهر . إذ يمكن لرجل وحيد أن يدفع راضياً عشرة أضعاف ما يساويه رغيف خبز تعجنه يدان أنثويتان ، ولو أنني حاولت أن أبيع الشيء نفسه وأنا بزي إلياس أنديتا ، فلن يدفعوا لي أكثر من عشرة سنتات يا تاو . فالرجال مستعدون لأن يقطعوا أميالاً كثيرة لرؤية امرأة عن قرب . ويمكن لفتاة جالسة تتشمس أمام حانة أن تجمع على ركبتيها مجموعة من أكياس الذهب ، هدايا من رجال يفقدون صوابهم أمام الرؤية الموحية لتنورة . الأسعار تواصل صعودها ،

والمنجميون يصبحون أشد فقراً بينما التجار يزدادون ثراء . لقد دفعتُ في إحدى لحظات اليأس دولاراً ثمناً لبيضة أكلتها نيئة مع دفقة من البراندي وقليل من الملح والفلفل ، مثلما علمتني ماما فريسيا ، وهو دواء مؤكد للكآبة . لقد تعرفت على شاب من جورجيا ، وهو معتوه بائس ، ولكنهم أخبروني بأنه لم يكن كذلك من قبل . ففي بدايات السنة اكتشف عرقاً من الذهب وكشط من الصخر بملعقة ما قيمته تسعة آلاف دولار ، ولكنه خسرها كلها في أمسية واحدة بلعبة «مونت» . آه يا تاو ، لا يمكن لك أن تتصور مدى لهفتي إلى الاستحمام ، وتحضير الشاي والجلوس معك لتبادل الحديث . أرغب في ارتداء فستان نظيف ووضع القرطين اللذين أهدتهما إلي مس روز ، لكي تراني جميلة ولو مرة واحدة ولا تحسبني مسترجلة . إنني أسجل في يومياتي كل ما يحدث لي ، وهكذا سأتمكن من قص التفاصيل عليك عندما نلتقي ، وأنا واثقة على الأقل من أننا سنلتقي ، وسنكون معاً في يوم من الأيام . أفكرُ بمس روز وبكم ستكون غاضبة مني ، ولكنني لا أستطيع الكتابة إليها قبل أن أجد خواكين ، لأنه يجب ألا يعرف أحد مكاني حتى ذلك الحين . لو قيض لمس روز أن تتخيل ما رأيتُ وسمعتُ ، فإنها ستموت . ولقال السيد سوميرز : هذه هي أرض الخطيئة ، فلا وجود لأخلاق أو قوانين تحكم رذائل القمار والخمر وبيوت الدعارة . ولكن هذه البلاد بالنسبة إلي هي صفحة بيضاء ، ويمكنني هنا أن أكتب حياتي الجديدة ، وأن أتحول إلى من أشاء ، فليس هناك من يعرفني إلا أنت ، ولا أحد يعرف ماضيّ ، ويمكنني أن أولد من جديد . لا وجود هنا لسادة وخدم ، وإنما أناس ينكبون على العمل وحسب . لقد رأيت عبيداً سابقين جمعوا ما يكفي من الذهب لتمويل صحف ، ومدارس وكنائس لأبناء جنسهم ، ويقارعون العبودية من كاليفورنيا . وتعرفت على واحد اشترى حرية أمه ؛ وجاءت المرأة البائسة معتلة وهرمة ، ولكنها الآن تكسب ما تشاء من بيع الطعام ، وقد اشترت مزرعة وصارت تذهب في أيام الآحاد إلى الكنيسة

مرتدية الحرير في عربة تجرها أربعة جياد . أتعرف أن أعداداً من البحارة الزنوج قد فروا من السفن ، ليس من أجل الذهب وحده ، وإنما كذلك لأنهم يجدون هنا شكلاً فريداً من الحرية ؟ إنني أتذكر العبدات الصينيات اللواتي أريتني إياهن في سان فرانسيسكو وكن يطللن من وراء قضبان حديدية ، لا يمكنني نسيانهن ، إنهن يعذبنني مثل أرواح الموتى المحزونين . وحياة المومسات قاسية أيضاً في هذه الأنحاء ، وبعضهن ينتحرن . فالرجال ينتظرون ساعات لتحية معلمة جديدة باحترام ، ولكنهم يسيئون معاملة فتيات صالونات اللهو . أتعرف أي تسمية يطلقون عليهن ؟ إنهم يسمونهن : الحمائم المدنسة . والهنود الحمر ينتحرون أيضاً يا تاو . فهم يطردونهم من كل مكان ، فيمضون جائعين ويائسين . لا أحد يقدم لهم عملاً ، ثم يتهمونهم بالتشرد ويحكمون عليهم بالأشغال الشاقة . ويدفع العُمد خمسة دولارات مقابل كل هندي ميت . إنهم يقتلونهم كنوع من الرياضة ويسلخون في بعض الأحيان فروة رؤوسهم . ولا يُعدم وجود غرينغيين يجمعون مثل هذه الغنائم ويعرضونها معلقة على أسرجة خيولهم . سيروقك أن تعرف أن هناك صينيين ذهبوا للعيش مع الهنود الحمر . وهم يمضون بعيداً ، إلى غابات الشمال ، حيث ما يزال الصيد متاحاً . ويقال إن أعداداً قليلة من جواميس البوفالو ما تزال في المرابع » .

●

خرجت إلزا من مصارعة الدب جائعة ودون نقود ، لم تكن قد تناولت طعاماً منذ اليوم السابق ، وقررت عدم المراهنة بمدخراتها أبداً ومعدتها خاوية . وعندما لم يعد لديها ما تبيعه ، أمضت حوالى يومين دون أن تعرف كيف تواصل البقاء على قيد الحياة ، إلى أن خرجت بحثاً عن عمل واكتشفت أن كسب العيش أسهل مما كانت تتصوره ، وأنه في كل الأحوال أفضل من مهمة البحث عن شخص آخر يدفع الحساب . كانت مس روز قد ضعضعتها

لكثرة ما قالت لها : لن يكون مصير المرأة سوى الضياع ما لم تجد رجلاً يحميها ويعيلها . ولكنها اكتشفت أن الأمور ليست على هذا النحو دائماً . ففي دورها كإلياس أنديينا حصلت على أعمال يمكن لها أن تقوم بها لو كانت بملابس امرأة . صحيح أنه كان من المستحيل عليها العمل كعامل أو راعي بقر ، وأنها لم تكن تعرف كيفية استخدام الأدوات أو الأنشوطة ، وأن قواها لن تسعفها في رفع رفش أو طرح عجل أرضاً ، ولكن كانت هناك أعمال أخرى في متناول يدها . وفي ذلك اليوم لجأت إلى ريشة الكتابة ، مثلما فعلت في أحيان كثيرة من قبل . فقد كانت فكرة كتابة الرسائل نصيحة طيبة من صديقها ساعي البريد . فإذا لم تستطع عمل ذلك في إحدى الحانات ، نشرت بطانيتها القشتالية في وسط ساحة ، ووضعت فوقها دواة الحبر والورق ، ثم راحت تعلن عن مهنتها بصوت من حلقها . قلما كان المَنجميون قادرين على القراءة بسهولة أو التوقيع بأسمائهم ، وما كانوا قد كتبوا رسالة في حياتهم ، ولكنهم جميعهم ينتظرون البريد بتلهف مؤثر ، فهو وسيلة الاتصال الوحيدة بأسرهم البعيدة . لقد كانت بواخر بريد الباسفك ميل تصل إلى سان فرانسيسكو مرة كل أسبوعين حاملة أكياس المراسلات ، وما أن تظهر تلك البواخر في الأفق حتى يهرع الناس للوقوف صفوفاً أمام مكتب البريد . وكان الموظفون يتأخرون عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة في فرز محتويات الأكياس ، ولكن أحداً لم يكن يتضايق من الانتظار طوال يوم كامل . وكانت الرسائل تتأخر عدة أسابيع أخرى في الوصول من هناك إلى المناجم . عرضت إلزا خدماتها بالإنكليزية والإسبانية . فكانت تقرأ الرسائل وترد عليها . وإذا لم تخطر للزبون جملتان موجزتان يعرب فيهما عن أنه ما يزال على قيد الحياة ويوجه تحياته إلى ذويه ، فإنها تستجوبه بصبر وتضيف حكاية أكثر نضارة لتملأ صفحة على الأقل . وتتقاضى دولاين اثنين عن كل رسالة ، بغض النظر عن طولها . ولكنها إذا أضافت عبارات عاطفية لم تخطر ببال الرجل قط ، فإنها

تتلقى عادة إكرامية جيدة . وكان بعضهم يأتونها برسائل لتقرأها لهم ، فتزينها بعض الشيء أيضاً ، فيتلقى ذلك التعس العزاء ببعض كلمات الحنان . ذلك أن النساء المتعبات من الانتظار في الجانب الآخر من القارة ، لا يكتبن عادة سوى الشكاوى والتأنيب ، أو سلسلة من النصائح المسيحية ، دون أن يتذكرن بأن رجالهن مرضى بداء الوحدة . وفي يوم اثنين كئيب جاء شريف إحدى القرى في طلبها لتكتب آخر كلمات سجين محكوم عليه بالإعدام ، وهو شاب من ويسكونسن اتهم في صباح ذلك اليوم بالذات بسرقة حصان . وعلى الرغم من أنه كان قد أكمل التاسعة عشرة من عمره للتو ، فقد أملى على إلزا بهدوء : «أمي الحبيبة ، آمل أن تكوني على ما يرام عندما تتلقين هذا الخبر وأن تقولي لبوب وجيمس إنهم سيشنقونني اليوم . تحياتي ، ثيودور .» حاولت إلزا أن تخفف قليلاً من وطأة الرسالة ، لتوفر إغماءة على تلك الأم الثكلى ، ولكن الشريف قال إنه لا وقت للملاطفات . وبعد دقائق من ذلك اقتاد عدد من المواطنين الشرفاء المتهم إلى ساحة القرية ، فأجلسوه على حصان ووضعوا أنشوطة حول عنقه ، ثم مرروا طرف الحبل الآخر من فرع شجرة سنديان ، وضربوا بعد ذلك ردف الحصان فبقي ثيودور معلقاً دون مزيد من التشريفات . لم يكن أول مشنوق تراه إلزا . وقد كان تنفيذ العقوبة سريعاً على الأقل ، أما لو كان المتهم من عرق آخر ، فإنه يتعرض عادة للجلد قبل إعدامه ، ومع أنها كانت تمضي بعيداً ، إلا أن صرخات المحكوم بالإعدام وجلبة المتفرجين كانت تلاحقها طوال أسابيع .

كانت تستعد في ذلك اليوم للاستفسار إذا ما كان بإمكانها أن تقوم بمهنتها ككاتبة عمومية في الحانة ، عندما لفتت انتباهها جلبة صاخبة . وقد حدث ذلك بالضبط في اللحظة التي كان الجمهور يغادر فيها استعراض مصارعة الدب ، فقد دخلت عبر شارع القرية الوحيد عربات تجرها البغال ويتقدمها صبي هندي يقرع طبلاً . لم تكن عربات عادية ، فأغطيتها القماشية مزركشة ،

وتتدلة من سقوفها شراشيب ، وشرّابات ومصابيح صينية ، وبغالها مزينة مثل حيوانات سيرك وترافقها قعقعة جلاجل نحاسية مستحيلة . وكانت تجلس على مقعد الحوذي في العربة الأولى امرأة مسترجلة لها ثديان ضخمان ، ترتدي ملابس الرجال وتضع غليون قرصان بين أسنانها . ويقود العربة الثانية رجل ضخم يغطي جسمه بفراء ذئاب بالية ، رأسه حليق ، وفي أذنيه حلقتان معدنيتان وهو مسلح كما لو أنه ذاهب إلى الحرب . وكانت كل واحدة من العربتين تجر خلفها عربة أخرى مربوطة بها ، حيث يركب بقية الكومبارس ، أربعة فتيات متسربلات بملابس من مخمل وبروكار بالٍ ، يقذفن قبلاتهم إلى الجمهور المندهش . ولكن الذهول لم يستمر إلا للحظة ، فما أن تعرفوا على العربات حتى تعالت الصيحات وانطلق الرصاص في الهواء باعثاً الحماس في ذلك الأصيل . كانت سطوة الحمائم المدنسات كاملة حتى ذلك الحين في غياب المنافسة الأنثوية ، ولكن الحال تبدلت عندما استقرت في القرى الجديدة أول الأُسر وراح الواعظون يهزون الضمائر بالتوعد بعذاب الجحيم الأبدي . ولعدم وجود المعابد ، كانوا يقيمون القداديس الدينية في صالات اللهو نفسها التي تزدهر فيها الرذيلة . فكان يوقف بيع الخمر خلال ساعة ، وتُخبأ أوراق اللعب ، وتُقلب اللوحات الماجنة ، بينما الرجال يتلقون تأنيب القس على هرطقاتهم وفسوقهم . فتطل المومسات من شرفة الطابق الثاني ويقاومن تأثير ذلك المغطس بصورة فلسفية ، وبعزاء أن كل شيء سيعود إلى مجراه الطبيعي بعد ساعة من الزمن . فطالما أن تجارتهن لن تنهار ، لن يكون مهماً إذا أراد من يدفعون لهن مقابل مضاجعتهن أن يُحَمّلونَهن جريرة الخطيئة لأنهن يتلقين أجراً ، كما لو أن الرذيلة ليست منهم وإنما ممن يغوونهم . وهكذا راحت تستقر حدود واضحة بين النساء الفاضلات ونساء حياة اللهو . وكان بعضهن يتعبن من رشوة السلطات وتحمل الإهانات ، فيحملن صناديقهن ويرحلن إلى أماكن أخرى ، حيث ستتكرر الدورة نفسها عاجلاً أو آجلاً . وقد كانت فكرة

الخدمات الجوالة توفر ميزة التملص من حصار الزوجات والمتدينين ، فضلاً عن توسيع آفاق الخدمة إلى أبعد المناطق ، حيث يكون السعر مضاعفاً . وكانت تلك التجارة تزدهر في أجواء جيدة ، ولكنهن صرن على أبواب الشتاء ، وسرعان ما سيهطل الثلج وتنقطع الطرق . وقد كانت تلك إحدى آخر رحلات القافلة .

اجتازت العربات الشارع وتوقفت عند مخرج القرية ، يتبعها موكب رجال دب فيهم الحماس بفعل الخمر ومشاهدة صراع الدب . وتوجهت إلزا إلى هناك أيضاً لترى الحدث الجديد عن قرب . وأدركت أنها ستفتقر إلى زبائن في عملها الرسائلي ، وأنه لا بد لها من إيجاد طريقة أخرى لكسب عشائها . ولاستغلال صفاء السماء ، عرض عدد من المتطوعين تقديم مساعدتهم في فك البغال وإنزال بيانو مخلع وضعوه على العشب بأوامر من « الست » التي يعرفونها جميعهم باسم « جو كسارة العظام » . وبأسرع من لمح البصر نظفوا قطعة من الأرض ، ونصبوا الطاولات وظهرت زجاجات الروم كما في السحر ، ورزم من بطاقات بريدية لنساء عاريات . كما ظهر صندوقا كتب طبعات سوقية على أنها « قصائد المخدع مع أكثر المشاهد سخونة من فرنسا » . سعر النسخة منها عشرة دولارات ، وهو ثمن بخس كما أوضحت كسارة العظام ، وأكثر فائدة من امرأة حقيقية ، لأنها تتيح لهم استثارة شهواتهم قدر ما يشاؤون ، ويمكنهم كذلك إعارتها لأصدقائهم . ولكي تؤكد لهم ذلك قرأت مقطعاً أصغى إليه الجمهور بصمت مطبق ، وكأن الأمر يتعلق بوحي أو نبوءة . وأحيط انتهاء القراءة بجوقة من الضحك والمزاح ولم يبق خلال دقائق قليلة نسخة واحدة من الكتب في الصندوقين . وفي أثناء ذلك خيم الليل وكان لا بد لهم من إضاءة الحفلة بمشاعل . وأعلنت « الست » عن الثمن الباهظ لزجاجات الروم ، أما الرقص مع الفتيات فيكلف ربع ذلك السعر . وسألت : هل هناك من يعرف العزف على هذا البيانو اللعين ؟ وعندئذ تقدمت إلزا دون أن تفكر في

الأمر مرتين ، وكانت أمعاؤها تتلوى جوعاً ، وجلست أمام تلك الآلة ذات الصوت النشاز ، متذكرة مس روز . لم تكن قد عزفت منذ عشرة شهور ولم يكن سمعها كذلك في حالة جيدة ، ولكن سنوات التدرب مع القضيب المعدني المثبت إلى ظهرها وعصي معلم العزف البلجيكي هرعت لمساعدتها . انقضت على أغنية لاذعة كان من عادة مس روز وأخوها القبطان غناؤها في صوت ثنائي في أيام السهرات الموسيقية البريئة ، قبل أن يضرب الزمن بذيله وينقلب عالمها رأساً على عقب . ولاحظت وهي مذهولة الاستحسان الذي قوبل به عزفها الأخرق . وبعد أقل من دقيقتين ظهر كمان أجش لمرافقتها ، وحمي وطيس الرقص وراح الرجال يتخاطفون النساء الأربع ليرقصوا معهن بما يشبه الجري والهرولة في الحلبة المرتجلة . ونزع المارد الذي يرتدي الفراء قبعة إلزا ووضعها فوق البيانو بحركة حازمة لم يتجرأ معها أحد على تجاهلها ، وسرعان ما امتلأت بالإكراميات .

كانت إحدى العربات تستخدم لكل الخدمات وغرفة نوم «للست» وابنها المتبنى ، وهو صبي الطبل ، وفي الأخرى تتكدس بقية النساء ، أما العربتان المقطورتان فقد تحولتا إلى مخدعين . كل واحدة منهما مبطنة من الداخل بمناديل متعددة الألوان ، وفيها سرير له أربع دعامات ومظلة وناموسية ، ومرآة ذات إطار مذهب ، وطقم اغتسال وطشت من الخزف ، وسجاجيد فارسية باهتة الألوان ومنخورة بالعث في بعض الأماكن ، ولكنها ما تزال مقبولة ، وشمعدانات شموع للإضاءة . وقد كان هذا الديكور المسرحي يشجع الزبائن ، ويخفي غبار الدروب وآثار الاستخدام الطويل . وبينما كانت امرأتان ترقصان على إيقاعات الموسيقى ، كانت الاثنتان الأخريان تُسيّران تجارتهما بأقصى سرعة في العربتين . أما «الست» التي كانت تخلط ورق اللعب بأصابع حورية . فلم تكن تغفل عن طاولات اللعب ولا عن واجبها في تقاضي أجور خدمات حمائمها مقدماً ، وبيع الروم وتنشيط الحفلة ، دون أن تنزع الغليون

من بين أسنانها . عزفت إلزا كل الأغنيات التي تعرفها عن ظهر قلب وعندما انتهت لائحتها بدأت مرة أخرى من البداية ، دون أن ينتبه أحد إلى التكرار ، حتى غام بصرها من التعب . وحين رأى العملاق ضعفها أعلن عن استراحة ، والتقط النقود من القبعة ودسها في جيوب عازفة البيانو ، ثم أمسكها من ذراعها وقادها وهو يحملها عملياً إلى العربة الأولى ، حيث وضع في يدها كأساً من الروم . فرفضته بإيماءة دائخة ، فشربه على الجوع يعادل ضربة هراوة على أم رأسها ، وعندئذ نبش الرجل في فوضى الصناديق والأواني وأخرج خبزاً وقطعاً من البصل ، فانقضت عليها مرتجفة . وعندما التهمتها رفعت بصرها ورأت نفسها أمام رجل الفراء الذي كان يتأملها من علوه الرهيب . وكانت تشع منه ابتسامة بريئة تظهر معها أكثر الأسنان نصاعة وانتظاماً في هذا العالم .

واختلجت حين قال لها :

ـ لك وجه امرأة .

ـ اسمي إلياس أنديتا . . ردت عليه بذلك وهي تمد يدها إلى المسدس وكأنها تبدي استعددها للدفاع عن اسمها الذكري بالرصاص .

ـ وأنا بابالو الشرير .

ـ وهل هناك بابالو طيب ؟

ـ كان هناك .

ـ وماذا جرى له ؟

ـ لقد التقى بي . من أين أنت أيها الصغير ؟

ـ من تشيلي . إنني أبحث عن أخي . ألم تسمع بخواكين أنديتا ؟

ـ لم أسمع بأحد . ولكن إذا كانت لأخيك خصيتان حقيقيتان ، فسوف يأتي لزيارتنا عاجلاً أو آجلاً . فالجميع يعرفون فتيات جو كسارة العظام .

صفقات تجارية

رسا القبطان جون سوميرز بالباخرة فورتونا في خليج سان فرانسيسكو على مسافة كافية عن الشاطئ ، بحيث لا تتوفر لأي شجاع الجرأة على إلقاء نفسه في الماء والسباحة حتى اليابسة . وكان قد حذر الملاحين من أن الماء بارد وأن التيارات ستقضي عليهم في أقل من عشرين دقيقة ، وإن لم يحدث ذلك فإن أسماك القرش ستتكفل بتحقيقه . كانت تلك هي رحلته الثانية مع حمولة الثلج ، وكان يشعر بالثقة التامة بنفسه . فقبل الدخول في قنال غولدن غيت الضيقة أمر بفتح عدد من براميل الروم ، ووزعها بسخاء على البحارة ، وعندما سكروا أخرج مسدسين ضخمين وأجبرهم على الانبطاح أرضاً . وقام معاونه بتقييد أقدامهم بأغلال أمام حيرة المسافرين الذين أبحروا معه من بالبارايسو ، وكانوا يراقبون المشهد من سطح السفينة الثاني دون أن يعرفوا أية شياطين تحدث . وفي أثناء ذلك كان الأخوان روديغيث دي سانتا كروث قد أرسلا من الشاطئ أسطولاً من الزوارق لتنقل مسافري الباخرة وحمولتها الثمينة إلى البر . أما البحارة فسيتم إطلاق سراحهم عند قيام الباخرة بمناورة الإقلاع في موعد الرجوع ، بعد أن يتلقوا مزيداً من الخمر ومكافأة نقدية من الذهب والفضة الحقيقيين تعادل ضعف أجرهم . ومع أن ذلك لا يعوض عن عدم تمكنهم من التوغل في اليابسة بحثاً عن المناجم ، مثلما خططوا جميعهم

تقريباً ، إلا أنه يشكل نوعاً من العزاء على الأقل . وقد استخدم القبطان الأسلوب نفسه في رحلته الأولى ، وتوصل إلى نتائج باهرة ؛ وكان يتباهى بأنه يقود واحدة من السفن التجارية القليلة التي لم تُهجر في جنون الذهب . لم يكن هناك من يتجرأ على تحدي ذلك القرصان الإنكليزي ابن الأم العاهرة وفرانسيس درك ، مثلما كانوا يسمونه ، لأنه لا يخامرهم أدنى قدر من الشك في أنه سيُفرغ رصاص طبنجتيه في صدر أي متمرد منهم .

كدسوا على أرصفة مرفأ سان فرانسيسكو البضائع التي أرسلتها باولينا من بالبارايسو : بيض وأجبان طازجة ، خضار وفواكه الصيف التشيلي ، زبدة ، وخمر تفاح ، أسماك وحيوانات بحرية ، وسجق من أفخر الأنواع ، لحوم بقرية وكل أنواع الطيور المحشوة والمتبلة الجاهزة للطهو . وكانت باولينا قد كلفت الراهبات بصنع قوالب حلوى الحليب الكولونيالية وكعكات الألف رقاقة ، وأشهر مأكولات المطبخ الكريولي التي نُقلت مجمدة في حجرات الثلج الأزرق . وكان قد جرى تخاطف الشحنة الأولى في أقل من ثلاثة أيام وبأرباح مذهلة جعلت الأخوين يهملان صفقاتهم الأخرى ليركزا جهودهما على أعجوبة الثلج . ومع أن قطع الثلج أخذت تذوب ببطء خلال الرحلة ، إلا أنه بقي منها الكثير ، وقد فكر القبطان وهو في طريق العودة بأن يبيع الثلج المتبقي بأسعار المرابين في بنما . وكان من المستحيل إخفاء النجاح الباهر الذي حققته الرحلة الأولى ، فشاع الخبر عن أن بعض التشيليين يبحرون بسفينة محملة بكتل من الجليد ، وسرى سريان النار في البارود . وسرعان ما تشكلت مؤسسات للقيام بالشيء نفسه بجبال جليد ألاسكا ، ولكن كان من المستحيل العثور على بحارة ومنتجات طازجة يمكنها منافسة المنتجات التشيلية ، وتمكنت باولينا من مواصلة تجارتها المكثفة دون منافسين ، بينما كانت تعمل للحصول على باخرة أخرى من أجل توسيع أعمالها .

وبيعت كذلك صناديق كتب القبطان سوميرز الايروتيكية في مثل إغماضة

عين وفتحها ، ولكن تحت ستار من التكتم ودون أن تمر بين أيدي الأخوين رودريغيث دي سانتا كروث . فقد كان على القبطان أن يتحاشى بكل السبل ارتفاع أصوات دعاة الفضيلة ، مثلما حدث في مدن أخرى ، حين صادرت الرقابة تلك الكتب لأنها غير أخلاقية ، وأضرمت بها النار في محارق علنية . وكان يجري تداولها سراً في أوربا في طبعات فاخرة تقتصر على السادة المرموقين وهواة جمع تلك الكتب ، ولكن أكبر الأرباح تحققت من الطبعات الشعبية . فكانت تطبع في انكلترا ، حيث تعرض خفية بسنتات قليلة ، ولكن القبطان حصل على سعر يزيد خمسين ضعفاً عن قيمتها . ونظراً للحماس الذي لاقاه هذا النوع من الأدب ، فقد خطر له إضافة صور توضيحية ، لأن معظم المنجميين لم يكونوا يقرؤون سوى عناوين الصحف . وكانت قد بدأت طباعة تلك الطبعات الجديدة في لندن مزودة برسوم غير متقنة ، ولكنها صريحة وهو الأمر الوحيد المهم في نهاية المطاف .

في مساء ذلك اليوم بالذات ، استقر جون سوميرز في أفضل قاعات فندق سان فرانسيسكو ليتناول العشاء مع الأخوين رودريغيث دي سانتا كروث اللذين استعادا خلال شهور قليلة مظهرهما المتأنق . فلم يبق أي أثر لساكني الكهوف المشعثين اللذين كانا يبحثان عن الذهب قبل شهور . وكانا يقولان إن الثروة موجودة في متناول اليد ، في صفقات نظيفة يمكن عقدها على مقاعد الفندق المريحة ، مع كأس ويسكي في اليد ، مثل الناس المتحضرين وليس كالأجلاف الجهلة . وقد ضما إلى التشيليين الخمسة الذين أحضراهم معهما في أواخر عام ١٨٤٨ ، ثمانين عاملاً ريفياً من الناس البائسين والمذعنين الذين لا يعرفون شيئاً عن المناجم ، ولكنهم يتعلمون بسرعة ، وينفذون الأوامر ولا يتمردون . وقد أبقاهم الأخوان للعمل على ضفاف النهر الأمريكي تحت إمرة مراقبي عمال أوفياء ، بينما تفرغا هما لأعمال الشحن والتجارة . فاشتريا مركبين لنقل البضائع من سان فرانسيسكو إلى سكرامينتو ومنتي بغل لإيصال

البضاعة إلى مواقع البحث عن الذهب ، حيث كانا يبيعانها مباشرة دون أن تمر على المتاجر . أما العبد الهارب الذي كان يقوم بدور الحارس الشخصي فيما مضى ، فقد تكشف عن «فلتة» في التعامل مع الأرقام وصار يتولى الحسابات ، وكان يرتدي ملابس سيد رفيع المقام مع قبعة عالية وسيجار في يده ، على الرغم من تذمر الغرينغيين الذين كان يصعب عليهم تحمل لون بشرته ، ولكنهم لا يجدون مهرباً من التعامل معه .

قال القبطان سوميرز لفيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث :

ـ لقد طلبت زوجتك مني أن أخبرك بأنها ستأتي في الرحلة القادمة للباخرة فورتونا ، ومعها الطفلان والخادمات والكلب . وهي تطلب منك أن تبدأ بالتفكير في المكان الذي ستستقر فيه ، لأنها لا تفكر بالإقامة في فندق .

ـ يا للفكرة الحمقاء! فورة الذهب ستنتهي فجأة وتعود هذه المدينة لتتحول من جديد إلى القرية الصغيرة التي كانت عليها قبل سنتين . وهناك دلائل على تناقص المعدن ، فقد انتهى زمن العثور على كتل بحجم الصخور . ومن الذي ستهمه كاليفورنيا حين ينفد الذهب ؟

ـ عندما جئتُ إلى هنا أول مرة ، كان هذا المكان أشبه بمخيم لاجئين ، ولكنه تحول إلى مدينة حقيقية . وبصراحة ، أنا لا أظن أنها ستتلاشى في نفخة . إنها بوابة الغرب الأمريكي على المحيط الهادي .

ـ وهذا ما تقوله پاولينا في رسالتها .

فقاطعه أخوه :

ـ اعمل بنصيحة زوجتك يا فيليثيانو ، وانتبه إلى أن لها عيني قط بري .

وابتسم القبطان :

ـ أضف إلى ذلك أنه ليس ثمة طريقة لإيقافها ، فهي آتية معي في الرحلة القادمة . ويجب ألا ننسى أنها مالكة الباخرة فورتونا .

قدموا لهم محاراً طازجاً من المحيط الهادي ، وهو أحد المأكولات الفخمة

القليلة في سان فرانسيسكو ، وحمائم محشوة بلوز وأجاص مجفف محفوظ بالسكر من شحنة باولينا ، كان الفندق قد اشتراها فوراً . وكان النبيذ الأحمر من تشيلي والشمبانيا من فرنسا . وما كاد خبر مجيء التشيليين مع الثلج ينتشر حتى غصت كل مطاعم وفنادق المدينة بالزبائن المتلهفين للتمتع بالملذات الطازجة قبل أن تنفد . وعندما كانوا يشعلون السيجار ليدخنوه مع القهوة والبراندي ، أحس جون سوميرز بربت على كتفه كاد أن يوقع الكأس من يده . وحين التفت وجد نفسه وجهاً لوجه مع جاكوب تود الذي لم يكن قد رآه منذ أكثر من ثلاث سنوات . عندما أوصله إلى إنكلترا ، فقيراً مهاناً . لقد كان آخر من يفكر برؤيته واحتاج لهنيهة كي يتعرف عليه ، لأن المبشر المزيف القديم بدا أشبه بكاريكاتير شخص يانكي . إذ فقد شيئاً من وزنه وشعره ، وكان هناك سالفان طويلان يؤطران وجهه ، ويرتدي بدلة ذات مربعات ضيقة عليه بعض الشيء ، وحذاء من جلد أفعى وقبعة فيرجينية بيضاء غير ملائمة ، كما كانت تظهر أقلام وكراسات وأوراق صحف من جيوب سترته الأربعة . تعانقا كرفيقين قديمين . لقد مضى على جاكوب تود خمسة شهور وهو في سان فرانسيسكو يكتب مقالات صحفية حول حمى الذهب ، تُنشر بانتظام في إنكلترا ، وكذلك في بوسطن ونيويورك . وقد جاء بفضل مبادرة كريمة من فيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث الذي لم يُلقِ الخدمة التي يدين بها للإنكليزي في كيس مثقوب . فهو كتشيلي جيد لا ينسى الجميل أبداً – ولا الإهانة – وحين علم بهموم صديقه في إنكلترا ، بعث إليه نقوداً وتذكرة سفر وملاحظة يوضح له فيها أن كاليفورنيا هي أبعد مكان يمكنه الذهاب إليه قبل أن يبدأ الرجوع من جهة أخرى . كان جاكوب تود قد نزل في عام ١٨٤٥ من سفينة القبطان جون سوميرز متمتعاً بصحة جيدة ونشاط وفير ، ومستعداً لنسيان حادثة بالبارايسو المخجلة والانكباب جسداً وروحاً على إقامة طائفته اليوتوبية التي طالما حلم بها في بلاده . كان يحمل دفتره السميك ، المصفر

من كثرة الاستخدام ومن هواء البحر ، مملوءاً بالملاحظات . فقد درس وخطط أدنى تفاصيل تلك الطائفة ، وكان واثقاً من أن شباناً كثيرين - فالشيوخ لا يهمونه - سيهجرون حياتهم المنهكة لينضموا إلى أخويته المثالية للرجال والنساء الأحرار ، في ظل نظام من المساواة المطلقة ، دون سلطة أو شرطة أو دين . وتبين له أن من كان يعتبرهم أقوى المرشحين لخوض التجربة هم أكثر عناداً في التفهم مما تصور ، ولكنه بعد بضعة شهور توصل إلى العثور على شخصين أو ثلاثة لديهم الاستعداد لخوض المحاولة . ولم يكن ينقصه سوى راعٍ يمول تكاليف المشروع ، إذ أن الأمر يتطلب قطعة أرض فسيحة ، لأن هدف الجماعة هو العيش بعيداً عن ضلالات العالم ووجوب أن تُشبع كل حاجاتها . وكان تود قد بدأ محادثات مع لوردٍ مشوش بعض الشيء ، يملك عقارات شاسعة في ايرلندا ، عندما لحقت به إلى لندن إشاعة الفضيحة في بالبارايسو ، وحاصرته مثل كلب لجوج دون أن تتيح له التقاط أنفاسه . فأغلقوا هناك أيضاً الأبواب في وجهه ، وخسر أصدقاءه ، وانفضّ عنه أتباعه والنبيل ، وذهب حلم اليوتوبيا إلى الشيطان . وكان يعيش مثل فأر في فندق بانس عندما وصلته رسالة صديقه المنقذة . فلم يفكر في الأمر مرتين . بل استبدل كنيته وأبحر نحو الولايات المتحدة ، مستعداً لبدء مستقبل جديد ومشرق . وكان هدفه الوحيد هو دفن العار والعيش في الظل إلى أن تواتيه الفرصة المناسبة ليحيي مشروعه . كان عليه أن يجد عملاً قبل كل شيء ؛ إذ كان دخله قد تقلص وانتهت إلى غير رجعة أزمنة البطالة المجيدة . ولدى وصوله إلى نيويورك تقدم إلى صحيفتين عارضاً عليهما العمل كمراسل في كاليفورنيا ثم قام بالرحلة إلى الغرب الأمريكي عبر برزخ بنما ، لأنه لم يملك الجرأة للسفر عبر مضيق ماجلان والعودة للمرور من بالبارايسو ، حيث ينتظره العار بثبات ، وحيث ستعود مس روز الجميلة لسماع اسمه المدنس . وفي كاليفورنيا ساعده صديقه فيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث في الاستقرار

والحصول على عمل في أقدم جريدة في سان فرانسيسكو . وبدأ جاكوب تود الذي تحول الآن إلى جاكوب فريمونت بالعمل لأول مرة في حياته ، مكتشفاً بذهول أنه محب للعمل . وراح يجوب المنطقة ويكتب حول كل ما يلفت انتباهه ، بما في ذلك المجازر ضد الهنود الحمر ، والمهاجرين القادمين من أنحاء المعمورة ، ومضاربات التجار المنفلتة من عقالها ، والعدالة السريعة التي يفرضها المنجميون ، والرذيلة الشاملة . وكاد أحد ريبورتاجاته أن يكلفه حياته . فقد وصف بعبارات ملطفة ، ولكن بوضوح تام ، كيف تعمل بعض بيوت القمار بأحجار نرد مُعلَّمَةٍ ، وأوراق لعب مزيتة ، وخمور مغشوشة ، ومخدرات ، وعاهرات ، وتحدث عن ممارسة تسميم النساء بالكحول حتى يفقدن الوعي ، من أجل بيع حق اغتصابهن بدولار لكل الرجال الراغبين في المشاركة بذلك اللهو . وكتب أخيراً « كل ذلك يجري تحت حماية السلطات التي يفترض بها أن تحارب مثل تلك الموبقات » . فانقض عليه المجرمون ورئيس الشرطة والسياسيون ، وكان عليه أن يختفي قرابة شهرين إلى أن تهدأ الخواطر . وعلى الرغم من المصاعب ، كانت مقالاته تظهر بانتظام وبدأ يتحول إلى صوت محترم ، مثلما قال لصديقه جون سوميرز : جاء بحثاً عن الإغفال ، فإذا به يصيب الشهرة .

وبعد انتهاء العشاء دعا جاكوب فريمونت أصدقاءه إلى خبطة اليوم : إنها امرأة صينية يمكن رؤيتها ولكن دون لمسها . أسمها آه توي وقد أبحرت في سفينة شراعية مع زوجها ، وهو تاجر مسن بلغت به سلامة الذوق حد الموت في عرض البحر ومنحها الحرية . ولم تضيع هي الوقت في تحسرات الأرامل ، ولكي تنعش ما تبقى من الرحلة تحولت إلى عشيقة القبطان الذي تبين أنه شخص سخي . وعندما نزلت في سان فرانسيسكو جميلة ومثرية ، انتبهت إلى النظرات الشهوانية التي تلاحقها ، فخطرت لها الفكرة الباهرة بأن تتقاضى أجراً مقابل تلك النظرات . استأجرت غرفتين ، وأحدثت ثقوباً في

الجدار الفاصل بينهما وصارت تبيع امتياز النظر إليها بأونصة من الذهب . لحق الأصدقاء بجاكوب فريمونت بمزاج رائق ، وبدفع بضعة دولارات كرشوة تمكنوا من تجاوز الدور والدخول مع أول الداخلين . قادوهم إلى غرفة ضيقة ، مشبعة بدخان التبغ ، حيث يتزاحم أكثر من عشرة رجال وأنوفهم ملتصقة بالجدار . أطلوا من الثقوب الضيقة وهم يشعرون بأنهم أشبه بتلاميذ مضحكين ، ورأوا في الحجرة الأخرى شابة باهرة الجمال ترتدي كيمونو من الحرير مفتوح من الجانبين ابتداء من الخصر وحتى القدمين . ولا تلبس أي شيء تحته . وكان النظارة يتأوهون أمام كل حركة من حركاتها المتكاسلة التي تكشف بها جزءاً من جسدها البديع . راح جون سوميرز والأخوان رودريغيث دي سانتا كروث يتلوون من الضحك ، غير مصدقين أن الحاجة إلى النساء خانقة إلى ذلك الحد . وهناك افترقوا ومضى القبطان مع الصحفي ليشربا كأساً أخيرة . وبعد الاستماع إلى أخبار رحلات جاكوب ومغامراته ، قرر القبطان أن يثق به :

- هل تتذكر إلزا ، الطفلة التي كانت تعيش مع أخويَ في بالبارايسو ؟

- أتذكرها تماماً .

- لقد هربت من البيت ولدي من الأسباب ما يجعلني أعتقد بأنها في كاليفورنيا . لقد حاولت العثور عليها ، ولكن أحداً لم يسمع بها أو بمن هي بأوصافها .

- النساء الوحيدات اللواتي جئن إلى هنا هن مومسات .

- إذا كانت قد جاءت إلى هنا فلست أدري كيف فعلت ذلك . المعلومة الوحيدة التي أعرفها هي أنها رحلت بحثاً عن حبيبها ، وهو شاب تشيلي اسمه خواكين أنديتا...

- خواكين أنديتا! إنني أعرفه ، لقد كان صديقي في تشيلي .

- إنه هارب من العدالة . متهم بالسرقة .

ـ لا أصدق ذلك . أنديتا شاب نبيل . الواقع أنه كان شديد الكبرياء والنزاهة ، بحيث يصعب الاقتراب منه . وهل قلت لي إنه وإلزا متحابان ؟

ـ ما أعرفه هو أنه أبحر إلى كاليفورنيا في كانون الأول ١٨٤٨ . وبعد شهرين من ذلك اختفت الصغيرة . وأختي تعتقد بأنها جاءت في أثر انديتا ، مع أنني لا أستطيع تصور كيف فعلت ذلك دون أن تخلف أثراً . وبما أنك تتنقل بكثرة في مخيمات وقرى الشمال ، فربما تمكنت من التوصل إلى شيء...

ـ سأفعل ما أستطيعه أيها القبطان .

ـ أنا وأخواي سنكون شاكرين لك إلى الأبد يا جاكوب .

●

يقيت إلزا سوميرز مع قافلة جو كسارة العظام ، تعزف على البيانو وتتقاسم الإكراميات مع «الست» . اشترت كُتيب أغنيات أمريكية وآخر لأغنيات لاتينية لتنشط السهرات . وكانت تستغل ساعات الفراغ لتعلم الصبي الهندي القراءة ، وتساعد في الأعمال اليومية الكثيرة وتطهو الطعام . وكان أفراد الفرقة يقولون إنهم لم يأكلوا أفضل من ذلك الطعام قط . فمن اللحم المجفف نفسه ، والفاصولياء وشحم الخنزير المعهود ، كانت تُعدّ أطباقاً شهية تبتكرها من وحي حماسة اللحظة ، وكانت تشتري توابل مكسيكية وتضيفها إلى وصفات ماما فريسيا التشيلية لتخرج بنتائج شهية ؛ وتصنع قوالب حلوى دون أي مكونات سوى الدهن والدقيق والفواكه المعلبة ، ولكنها إذا حصلت على بيض وحليب فإن إلهامها يرتفع إلى ذرى المأكولات السماوية . لم يكن بابالو الشرير من أنصار انشغال الرجال بالطبخ ، ولكنه كان أول من يلتهم مآدب عازف البيانو الشاب ، واختار السكوت على التعليقات الساخرة . ولأن ذلك المارد كان معتاداً على الحراسة ليلاً ، فإنه كان ينام ملء عينيه شطراً كبيراً من النهار ، ولكن ما أن تصل إلى أنفه التنيني روائح القدور ، حتى يستيقظ ويستقر مترصداً قرب المطبخ بقفزة واحدة . كان يعاني من شهية لا

ترتوي ولم تكن هناك ميزانية قادرة على ملء كرشه الضخم . فقبل مجيء «التشيلي الصغير» مثلما كانوا يسمون إلياس أنديتا ، كانت وجبته الأساسية تتألف من الحيوانات التي يتمكن من اصطيادها ، يشطرها طولاً إلى نصفين ويتبلها بحفنة من الملح الخشن ويضعها على الجمر إلى أن تتفحم . فكان يلتهم بهذه الطريقة غزالاً في يومين . ومع احتكاكه بمطبخ عازف البيانو رهُف ذوقه ، وصار يخرج إلى الصيد يومياً ، فيختار أفضل الطرائد ويسلمها إليه مسلوخة ونظيفة .

كانت إلزا تتقدم القافلة في الدروب ممتطية حصانها الضليع الذي تبين ، بالرغم من مظهره الكئيب ، أنه لا يقل نبلاً عن أي فرس من سلالة أصيلة ، مثبتة بندقيتها غير المجدية على السرج ومردفة طفل الطبل وراءها . وصارت تشعر بالراحة وهي بملابس الرجال إلى حد أنها بدأت تتساءل عما إذا كانت ستتمكن يوماً من العودة إلى ملابس النساء . ولكنها كانت واثقة من شيء واحد فقد ، فهي لن تضع مشداً أبداً ، حتى ولا في يوم زفافها إلى خواكين أنديتا . وكلما وصلوا إلى نهر ، تنتهز النساء الفرصة لجمع الماء في براميل ، وغسل الثياب والاستحمام ؛ وكانت تلك هي أصعب اللحظات بالنسبة إليها ، فتضطر إلى اختلاق ذرائع في كل مرة لتغتسل دون شهود .

كانت جو كسارة العظام هولندية ضخمة من بنسلفانيا ، وجدت قَدرها في اتساعات الغرب الأمريكي الفسيح . لها موهبة الحاوي في ألعاب الورق والنرد ، ويفتنها الغش في اللعب . وكانت تكسب عيشها من المراهنات إلى أن خطرت لها فكرة المتاجرة بالفتيات وراحت تجوب فيتا مادري «بحثاً عن الذهب» ، مثلما كانت تسمي تلك الطريقة في ممارسة العمل المنجمي . لقد كانت واثقة من أن عازف البيانو الشاب شاذ جنسياً ، فتعاطفت معه لهذا السبب وأحبته بالمشاعر نفسها التي تحس بها تجاه الهندي الصغير . فلم تسمح لفتياتها بأن يسخرن منه ، ولا لبابالو بأن يطلق عليه ألقاباً : فالفتى

المسكين ليس مذنباً إذا كان قد ولد دون شعر في ذقنه وبمظهر رجل متكلف ، مثلما أنها هي نفسها غير مذنبة في أنها ولدت كرجل في جسد امرأة . إنها سخريات خطرت للرب من أجل الإزعاج وحسب . وكانت قد اشترت الطفل الهندي بثلاثين دولاراً من بعض الحراس اليانكيين الذين أبادوا بقية أفراد القبيلة . وكان عمره آنذاك أربع أو خمس سنوات ، لا يكاد يبدو أكثر من هيكل عظمي بطنه مليء بالديدان ، ولكن بعد شهور قليلة من تغذيته بالقوة وكبح غضبه كيلا يكسر كل ما يقع تحت يديه ولا يضرب رأسه بعجلات العربات ، نما الطفل شبراً وتبدت طبيعته الحقيقية كمحارب : لقد كان صلباً ، كتوماً ، وصبوراً . وأسمته : توم بلا قبيلة ، كيلا ينسى واجبه في الثأر . فالهنود يقولون : «الاسم ملازم للكائن» ، وجو كسارة العظام تؤمن بذلك ، ولهذا السبب ابتكرت كنيتها .

حمائم القافلة المدنسات كن يتألفن من أختين من ميسوري ، قامتا بالرحلة الطويلة براً ، وفقدتا أسرتهما في أثناء الطريق ؛ وإستر ، وهي شابة في الثامنة عشرة ، هربت من أبيها المتدين المتعصب الذي كان يجلدها ؛ والرابعة مكسيكية جميلة ، ابنة لأب غرينغي وأم هندية ، وهي تبدو كبيضاء ، وقد تعلمت أربع جمل بالفرنسية لتضلل الزبائن الساهين ، لأن الفرنسيات ، حسب الأسطورة الشعبية ، أكثر خبرة من سواهن . ففي مجتمع المغامرين والأفاقين ذاك ، وُجدت أيضاً أرستقراطية عرقية ؛ فالرجال البيض يتقبلون المولدات اللواتي بلون القرفة ، ولكنهم يزدرون أي اختلاط مع زنجي . وكانت النساء الأربع يحمدن حسن طالعهن الذي أوصلهن إلى جو كسارة العظام . وقد كانت إستر هي الوحيدة من بينهن التي لم تخض تجربة سابقة ، أما الأخريات فعملن في سان فرانسيسكو وعرفن الحياة السيئة . إذ لم يحظين بالعمل في صالات لهو من المرتبة الراقية ، بل عرفن الضرب والأمراض والمخدرات وخبث القوادين ، وأصبن بعدوى إلتهابات لا حصر لها ، وتحملن أساليب علاج

وحشية وإجهاضات كثيرة أودت بهن إلى العقم ، ولكنهن لم يأسفن على ذلك ، بل اعتبرنه رحمة . وقد أنقذتهن جو من عالم الفظاعات ذاك بحملهن بعيداً عنه . ثم أبقتهن بعد ذلك في عذاب الحرمان الطويل لتخليصهن من الإدمان على الأفيون والكحول . وقد كافأتها النساء بوفاء كوفاء البنات لأمهن ، لأنها كانت تعاملهن فوق ذلك بعدل ولا تسرقهن . كما أن وجود بابالو المريع معهن يُخمد اندفاع الزبائن العنيفين والمخمورين الكريهين . كن يأكلن جيداً ، وبدت لهن العربات الجوالة حافزاً للصحة والحماس . وكن يشعرن بالحرية في اتساعات الجبال والغابات تلك . لم يكن هناك ما هو سهل أو رومنسي في حيواتهن ، ولكنهن استطعن ادخار بعض المال وكان بإمكانهن الذهاب إذا ما رغبن في ذلك . ولكنهن لم يفعلن لأن تلك الجماعة البشرية هي أقرب ما يمكن شبهاً بالأسر التي كن ينتمين إليها .

وكانت فتيات جو كسارة العظام مقتنعات كذلك بأن الفتى إلياس أنديتا الهزيل ذا الصوت الرنان هو مخنث أيضاً . وقد منحهن ذلك الثقة على التعري والاغتسال والخوض في أي موضوع بحضوره ، وكأنه واحدة منهن . لقد تقبل الجميع وجوده بتلقائية إلى حد أن إلزا كانت تنسى أحياناً دورها كرجل ، فيتولى بابالو تذكيرها بذلك . إذ أخذ على عاتقه مهمة تحويل ذلك الفتى الرعديد إلى فحل ، فكان يراقبه عن كثب ، مستعداً للفت انتباهه حين يجلس وساقاه متلاصقتان أو عندما يهز شعره القصير بحركة خالية من الرجولة . وعلمه تنظيف الأسلحة وتزييتها ، ولكنه فقد صبره وهو يحاول تعليمه دقة التصويب : فكلما ضغط على الزناد . يغمض تلميذه عينيه . ولم يكن يتأثر لرؤية الكتاب المقدس مع إلياس أنديتا ، بل على العكس ، كان يشتبه بأنه يستخدمه لإخفاء بلادته ، ويرى أنه إذا كان الفتى لا يفكر في التحول إلى واعظ ملعون ، فمن أجل أية شياطين يقرأ تلك الترهات ، وأنه من الأفضل له أن يلتفت إلى الكتب البذيئة القذرة ليرى إذا ما كانت ستخطر له بعض الأفكار

الرجولية . لم يكن قادراً على توقيع اسمه إلا بصعوبة ، وكان يقرأ بمشقة ، ولكنه لا يتقبل الاعتراف بذلك ولو أدى إلى موته . فكان يقول إن بصره ضعيف ولا يتيح له رؤية الحروف جيداً ، بالرغم من أنه كان قادراً على إصابة أرنب مذعور برصاصة بين عينيه عن مسافة مئة متر . وقد اعتاد أن يطلب من التشيلي الصغير أن يقرأ الصحف بصوت مرتفع ، وكذلك كتب كسارة العظام الإيروتيكية ، ليس من أجل المقاطع البذيئة وإنما لأن رومنسيتها كانت تهزه دوماً . فهي قصص تدور على الدوام حول غراميات متأججة بين رجل من طبقة النبلاء الأوربيين وفتاة من الرعاع ، أو العكس أحياناً : سيدة أرستقراطية تفقد عقلها هياماً برجل من العامة ، ولكنه شريف ومعتد بنفسه . وتكون النساء في هذه القصص جميلات على الدوام والعاشقون لا يكلون في اندفاعهم . أما الستارة الخلفية فهي متوالية من الحفلات الصاخبة ، ولكنها قصص ذات حبكة ، خلافاً لروايات إباحية أخرى تباع هناك بعشرة سنتات . وكانت إلزا تقرأ بصوت عال دون أن تبدي دهشة ، وكأنها راجعة للتو من ممارسة أسوأ الرذائل ، بينما بابالو وثلاث من الحمائم حولها يستمعون بافتتان . لم تكن إستر تشارك بتلك الجلسات ، لأنها كانت ترى أن وصف تلك الأفعال هو خطيئة أكبر من اقترافها عملياً . كانت أذنا إلزا تتقدان ، ولكنها لا تستطيع إلا أن تعترف بالرشاقة الملهمة التي كتبت بها تلك القذارات : وقد كانت بعض عباراتها تذكرها بأسلوب مس روز المتقن . أما جو كسارة العظام التي لم تكن تهتم أدنى اهتمام بأي شكل من أشكال الحب الجسدي ، وتمل بالتالي من تلك القراءات ، فكانت تحرص شخصياً بألا تجرح أي كلمة من تلك الكلمات أذني « توم بلا قبيلة » البرينتين . وكانت تقول : إنني أربيه ليكون زعيماً هندياً لا قواد عاهرات ، ولم تكن تسمح للصبي ، في جهدها لتجعل منه رجلاً ، بأن يناديها بجدتي .

ـ يا للعنة! أنا لست جدة أحد! أنا كسارة العظام ، هل تفهمني يا ذا المخاط اللعين ؟

ـ أجل يا جدتي .

أما بابالو الشرير ، وهو مجرم سابق من شيكاغو ، فقد اجتاز القارة سيراً على الأقدام قبل وقت طويل من حمى الذهب . وكان يتكلم لغات الهنود ، واشتغل في كل شيء لكسب عيشه ، بدءاً من القيام بدور الظاهرة الغريبة في سيرك متجول ، حيث يرفع فجأة حصاناً إلى ما فوق رأسه ، أو يسحب بأسنانه عربة مملوءة رملاً ، وحتى العمل كحمال في ميناء سان فرانسيسكو . وهناك اكتشفته كسارة العظام واشتغل في القافلة . فهو قادر على القيام بعمل يتطلب عدة رجال ، وهي لن تحتاج معه إلى مزيد من الحماية . ويمكنهما معاً أن يخيفا أي عدد من الخصوم ، مثلما أثبتا في أكثر من مناسبة .

وكان بابالو ينصح إلزا بالقول :

ـ يجب أن تكون قوياً وإلا سيسحقونك أيها التشيلي الصغير . لا تظن أنني كنت دوماً مثلما تراني الآن . لقد كنت في السابق مثلك ، ضعيفاً وخاملاً ، ولكنني بدأت أرفع أثقالاً ، وانظر عضلاتي . لم يعد هناك الآن من يتجرأ على مواجهتي .

ـ طولك يزيد على المترين يا بابالو ، ولك وزن بقرة . لن أصير مثلك أبداً .

ـ لا أهمية للحجم يا رجل . ما يحسب حسابه هو الخصيتان . لقد كنتُ ضخماً على الدوام ، ولكنهم كانوا يضحكون مني .

ـ ومن الذي كان يسخر منك ؟

ـ الجميع ، بمن في ذلك أمي ، لتسترح روحها بسلام . سأخبرك بشيء لا يعرفه أحد...

ـ نعم ؟

ـ هل تتذكر بابالو الطيب ؟... إنه أنا في السابق . ولكنني منذ عشرين سنة صرت بابالو الشرير ، وهذا يناسبني أكثر بكثير .

حمائم مدنسة

في شهر كانون الأول حل الشتاء فجأة على سفوح سلسلة الجبال وكان على آلاف المَنجميين أن يهجروا ممتلكاتهم لينتقلوا إلى القرى بانتظار الربيع . لقد غطى الثلج بدثاره الرحيم الأراضي الشاسعة التي ملأتها تلك النمال الجشعة بالثقوب ، وعاد الذهب المتبقي ليستريح في صمت الطبيعة . قادت جو كسارة العظام قافلتها إلى واحدة من القرى التي نشأت حديثا على امتداد سلسلة فيتا مادري ، حيث استأجرت مستودعاً لقضاء الشتاء . فباعت البغال ، واشترت برميلاً خشبياً ضخماً للاستحمام ، وموقد مطبخ ، ومدفأتين ، وقطع قماش عادية وجزمات روسية لجماعتها ، لأنه لا بد منها في موسم الأمطار والبرد . أشركت الجميع في كشط وساخة المستودع ، وفي صنع ستائر لتقسيمه إلى غرف ، ونصبت السريرين ذوي المظلات ، والمرايا المذهبة والبيانو . ثم انطلقت على الفور في زيارة مجاملة إلى الحانات والمتاجر ومحل الحدادة ، وهي مراكز النشاط الاجتماعي . وكان في القرية ورقة أخبار على شكل جريدة تُطبع في مطبعة عتيقة اجتازت القارة جرجرة ، فاستفادت منها جو لتعلن بتكتم عن تجارتها . فهي تعرض ، فضلاً عن فتياتها ، زجاجات روم من أفضل أنواع الروم الكوبي والجامايكي ، مثلما كانت تسميه ، مع أنه في الحقيقة مشروب آكلة لحوم بشر فظيع يمكن له أن يلوي اتجاه الروح ، ولديها كذلك كتب

«ساخنة» وطاولتا لعب . وسرعان ما توافد الزبائن . لقد كان هناك ماخور آخر ، ولكن كل جديد هو موضع ترحيب على الدوام . أعلنت صاحبة المحل الآخر حرب افتراءات مستترة ضد منافساتها ، ولكنها امتنعت عن خوض مواجهة سافرة مع الثنائي الرهيب المؤلف من كسارة العظام وبابالو الشرير . كان المرح يعم فيما وراء ستائر المستودع المرتجلة ، ويدور الرقص على أنغام البيانو ، وتجري المقامرة بمبالغ كبيرة تحت حراسة السيدة التي لم تكن تقبل بوقوع مشاجرات أو غش في اللعب ، باستثناء غشها هي ، تحت سقفها . رأت إلزا رجالاً يخسرون في ليلتين ما جنوه في شهور من الجهود الجبارة ويبكون على صدور الفتيات اللواتي شاركن في استنزافهم .

وخلال وقت قصير أحب المَنجميون جو . فعلى الرغم من مظهرها القرصاني ، كان للمرأة قلب أم وضعته أحداث ذلك الشتاء على المحك . فقد انتشرت جائحة ديزنطاريا طرحت نصف أهالي القرية وقتلت عدداً منهم . فكانت جو ، ما أن تسمع بأن هناك من هو على وشك الموت حتى تستعير حصانين من محل الحدادة وتذهب مع بابالو لنجدة المنكوب . وقد اعتاد الحداد مرافقتهما ، وهو رجل مهيب من أتباع مذهب الكويكرز ، يستنكر تجارة تلك المرأة الضخمة ، ولكنه مستعد على الدوام لمساعدة الغير . وكانت جو تعد طعاماً للمريض ، وتنظفه ، وتغسل ملابسه وتواسيه بإعادة قراءة رسائل ذويه البعيدين للمرة المئة ، بينما يتولى بابالو والحداد إزاحة الثلج ، وإحضار الماء ، وقطع الحطب وتكديسه إلى جانب المدفأة . وإذا كان الرجل في حالة سيئة جداً ، تلفه جو بالبطانيات وتلقيه مثل كيس على مطيتها وتنقله إلى بيتها ، حيث تتولى النساء رعايته باهتمام ممرضات ، سعيدات بإتاحة الفرصة لهن للشعور بأنهن فاضلات . لم يكن بمقدورهن عمل الكثير ، باستثناء إجبار المرضى على شرب ليترات من الشاي المُحلى حتى لا يصابون بالجفاف التام ، وإبقائهم نظيفين ومدثرين ومستريحين ، على أمل ألا يُفرغ

التفوط أرواحهم ولا تسلق الحمى أدمغتهم . كان بعضهم يموتون ، ويعاني آخرون لعدة أسابيع قبل أن يعودوا إلى الدنيا . وكانت جو هي الوحيدة التي يخطر لها تحدي الشتاء والذهاب إلى الأكواخ المعزولة ، وهكذا توصلت إلى اكتشاف أجساد متحولة إلى تماثيل من الزجاج الجليدي . ولم يكونوا جميعهم ضحايا المرض ، ففي بعض الأحيان يكون الرجل قد أطلق رصاصة في فمه لأنه لم يعد يطيق تلويات أحشائه والعزلة والهذيان . وقد اضطرت جو في مناسبتين إلى إغلاق تجارتها لأن المستودع صار مزروعاً بالحصائر المفروشة على الأرض ، ولم يعد لدى حمائمها متسعاً من الوقت لرعاية المرضى الكثيرين . وكان شريف القرية يرتجف عندما تظهر له بغليونها الهولندي وصوتها النبوي الغليظ المزعج لتطالبه بالمساعدة . لم يكن هناك من هو قادر على رفض طلبها . وحتى الرجال الذين منحوا بشرورهم اسماً سيئاً للقرية ، كانوا يجتمعون بوداعة لخدمتها . ولم يكن هناك في القرية أي شيء له شبه بمستشفى ، والطبيب الوحيد كان مثقلاً ، فتولت هي بتلقائية مهمة تعبئة الموارد عندما تكون هناك حالة طوارئ . وكان المحظوظون الذين أنقذت حياتهم يتحولون إلى أتباع مدينين لها ، وهكذا نسجت في ذلك الشتاء شبكة علاقات ستكون سنداً لها عند وقوع الحريق .

الحداد الذي يدعى جيمس مورتون هو واحد من تلك النماذج النادرة من الرجال الطيبين . فهو يشعر بمحبة مؤكدة تجاه البشرية بأسرها ، بمن في ذلك خصومه في المعتقد الذين يعتبرهم ضالين بفعل الجهل وليس لخبث متأصل فيهم . وهو غير قادر على اقتراف دناءة . ولا يمكنه تصورها في الغير ، ويفضل الاعتقاد بأن خبث الآخرين هو مجرد انحراف في الطبع يمكن علاجه بنور الرحمة والمحبة . إنه ينحدر من سلالة كويكرز من أوهايو ، حيث ساهم مع أخوته في حلقة سرية للتضامن مع العبيد الهاربين بإخفائهم ونقلهم إلى ولايات حرة أو إلى كندا . وقد جرت عليه نشاطاته غضب دعاة العبودية ، فانقضت في

إحدى الليالي عصبة منهم على مزرعته وأضرمت فيها النار ، بينما الأسرة تراقب المشهد دون حراك ، لأن ولاءها لمعتقداتها لا يسمح لها بحمل السلاح ضد أمثالها من البشر . واضطر آل مورتون إلى هجر أراضيهم والتشتت ، ولكنهم حافظوا على تواصل وثيق فيما بينهم لأنهم ينتمون إلى شبكة دعاة إعتاق الرقيق الإنسانية . وكان جيمس يرى أن البحث عن الذهب ليس بالوسيلة الشريفة لكسب العيش ، لأنه عمل لا يُنتج شيئاً ولا يقدم خدمة . ويؤكد أن الثراء يؤدي إلى خسة الروح ويعقد الحياة ويولد التعاسة . ثم إن الذهب من المعادن اللينة ، لا ينفع في صنع المعدات ؛ ولم يكن قادراً على فهم الافتتان الذي يثيره الذهب في الآخرين . إنه رجل طويل القامة ، متين البنية ، له لحية كثة بلون البندق ، وعينان سماويتان وذراعان مفتولان موشومان بحروق لا تحصى . لقد كان تجسيداً حياً لإله النار والمعادن «فولكان» ، يضينه بريق كوره . لم يكن هناك في القرية سوى ثلاثة من الكويكرز ، وهم أناس محبون للعمل والأسرة ، يبدون سعداء دوماً بقدرهم ، وهم الوحيدون الذين لا يحلفون الأيمان ، ولا يشربون الخمر ويتجنبون المواخير . وكانوا يجتمعون بانتظام لممارسة شعائرهم دون مبالغة في المظاهر ، ويعظون بالقدوة الحسنة ، بينما هم ينتظرون بلهفة مجيء أصدقاء لهم سيأتون من الشرق الأمريكي لتكثير الطائفة . كان مورتون يتردد على مستودع كسارة العظام ليساعد ضحايا الجائحة ، وهناك تعرف على إستر . فصار يذهب لزيارتها ويدفع أجور خدماتها كاملة ، ولكنه يكتفي بالجلوس إلى جوارها لتبادل الحديث . ولم يكن قادراً على فهم سبب اختيارها ذلك النمط من الحياة .

- إذا ما خيَّرتَ بين سياط أبي وهذا الذي أنا فيه ، فإنني أفضل ألف مرة هذه الحياة التي أعيشها الآن .

- ولماذا كان يجلدك ؟

- كان يتهمني بإثارة الشبق والحث على الخطيئة . ويعتقد بأن آدم كان

سيبقى حتى الآن في الفردوس لولا إغواء حواء . ربما كان على حق ، فها أنت ترى كيف أكسب عيشي...

ـ هناك أعمال أخرى يا إستر .

ـ هذا العمل ليس سيئاً يا جيمس . إنني أغمض عيني ولا أفكر في شيء . إنها بضع دقائق فقط وتنقضي بسرعة .

وعلى الرغم من محن مهنتها ، كانت الفتاة تحافظ على نضارة سنواتها العشرين ، وكان هناك شيء من الفتنة في طريقة تصرفها الرصينة والصامتة ، والمختلفة تماماً عن أساليب رفيقاتها . لم يكن بها شيء من التغنج ، وهي ممتلئة ، لها وجه عجل وديع ، ويدا فلاحة قوية . وإذا ما قورنت مع الحمائم الأخريات ، فإنها تبدو أقلهن وسامة ، ولكنها ذات بشرة لامعة ونظرة عذبة . لم يدرِ الحداد متى بدأ يحلم بها ، ويراها في الشرر المتطاير من الكور ، وفي وميض المعدن الساخن ، وفي السماء الصافية ، إلى أن لم يعد قادراً على تجاهل تلك المادة القطنية التي تلف قلبه وتهدد بخنقه . لا يمكن أن تصيبه نكبة أعظم من الوقوع في حب امرأة سيئة السمعة ، وسيكون من المستحيل عليه تبرير ذلك أمام الرب والطائفة . وقرر التغلب على الغواية بالتعرق ، فصار يحبس نفسه في محل الحدادة ليشتغل مثل مخبول . وفي بعض الليالي كانت طرقات مطرقته الشرسة تُسمع حتى الفجر .

ما أن صار لإلزا عنوان ثابت حتى كتبت إلى تاو تشين على عنوانه في المطعم الصيني في سكرامينتو ، مقدمة إليه اسمها الجديد إلياس أنديتا وطالبة منه النصح في معالجة الديزنطاريا ، لأن العلاج الوحيد الذي تعرفه ضد العدوى هو ربط قطعة لحم نيء على السرة بحزام من الصوف الأحمر ، مثلما كانت تفعل ماما فريسيا في تشيلي . ولكن هذا العلاج لم يكن يحقق النتائج المرجوة . لقد كانت تشتاق إليه بصورة مؤلمة ، وتستيقظ أحياناً وهي تحتضن « توم بلا قبيلة » متخيلة في تشوش نومها المؤرق أنه تاو تشين ، ولكن رائحة

الدخان التي تفوح من الطفل كانت تعيدها إلى الواقع . ليس هناك من ينبعث منه ذلك العبق البحري الطازج الذي يفوح من صديقها . لقد كانت المسافة التي تفصل بينهما قصيرة إذا ما قيست بالأميال . ولكن قسوة المناخ جعلت الطريق وعراً وخطراً . وقد خطر لها أن ترافق ساعي البريد لتواصل البحث عن خواكين اندييتا ، مثلما فعلت في مناسبات أخرى ، ولكن عدة أسابيع مضت وهي تنتظر فرصة مناسبة . ولم يكن الشتاء وحده هو الذي يعرقل خططها . ففي تلك الأيام تفجر التوتر ما بين المنجميين اليانكيين والتشيليين إلى الجنوب من فيتا مادري . فالغرينغيون الذين ملّوا من وجود الأجانب ، اجتمعوا ليطردوهم ، ولكن الآخرين قاوموا ، في البدء بأسلحتهم ، وبعد ذلك أمام القاضي الذي اعترف لهم بحقوقهم . ولكن أمر القاضي لم يُخفف المعتدين ، وإنما زاد من تأجيج غضبهم ، وانتهى عدد من التشيليين إلى المشنقة أو ألقي بهم في هاوية صخرية ، فاضطر الأحياء منهم إلى الهرب . ورداً على ذلك شكلوا عصابات عكفت على قطع الطريق والسطو ، مثلما كان يفعل مكسيكيون كثيرون . وأدركت إلزا أنه لا يمكنها المجازفة ، إذ يكفي تنكرها كفتى لاتيني لتوجه إليها التهمة بأي جريمة مختلقة .

في أواخر كانون الثاني عام ١٨٥٠ هطلت أسوأ ثلوج عرفتها تلك الأنحاء . لم يكن هناك من يجرؤ على مغادرة بيته ، وبدت القرية ميتة ، ولم يأت زبون واحد إلى المستودع خلال عشرة أيام . وكان البرد شديداً إلى حد أن الصباح كان يطلع على الماء متجمداً في الطسوت ، على الرغم من المدافئ المشتعلة على الدوام . وقد اضطروا في بعض الليالي إلى إدخال حصان إلزا إلى البيت لإنقاذه من مصير حيوانات اخرى ، طلع عليها الصباح وهي حبيسة كتل من الثلج . النساء كن ينمن كل اثنتين في سرير ، وتنام هي مع الطفل الذي تحس نحوه بعاطفة قوامها الغيرة والضراوة . يردها هو بإظهار ولاء ماكر . وكانت جو هي الشخص الوحيد القادر على منافسة إلزا في حب الصبي . وقد

روت لتاو تشين في رسائلها : «سأنجب في أحد الأيام ابناً قوياً وشجاعاً مثل توم بلا قبيلة ، ولكنه أكثر منه مرحاً بكثير . فهذا المخلوق لا يضحك أبداً» .
لم يكن بابالو الشرير يستطيع النوم ليلاً ، فيقضي ساعات الظلام الطويلة وهو يتمشى من أحد أطراف المستودع إلى الطرف الآخر بجزمته الروسية ، وفرائه البالية وبطانية على كتفيه . وقد توقف عن حلاقة شعر رأسه فصار يبدو مثل فروة ذنب كتلك التي صُنعت منها سترته . كانت إستر قد حاكت له طاقية صوفية صفراء بلون فراخ البط ، تغطي رأسه حتى أذنيه وتضفي عليه مظهر مسخ طفولي . وكان هو نفسه من سمع بعض الطرقات الخفيفة في فجر ذلك اليوم وواتته سلامة الحس تمييزها عن ضوضاء الجو العاصف . فتح الباب قليلاً والمسدس في يده ووجد حزمة ملقاة على الثلج . فاستدعى جو قلقاً وتمكنا معاً ، وهما يصارعان الريح كيلا تخلع الباب من إطاره ، من سحب تلك الحزمة إلى الداخل . فكانت رجلاً شبه متجمد .

لم يكن إنعاش ذلك الزائر سهلاً . فبينما راح بابالو يدلكه ويحاول أن يصب البراندي في فمه ، أيقظت جو النساء ، وأضرمن النار في المدافئ وبدأن بتسخين الماء لملء حوض الاستحمام . حيث غطسنه إلى أن راح ينتعش شيئاً فشيئاً ، تخلص من اللون الأزرق واستطاع أن يتلعثم ببعض الكلمات . كان أنفه وقدماه ويداه محروقة من الثلج . وقال إنه فلاح من ولاية سونورا المكسيكية ، جاء مثل آلافٍ من مواطنيه إلى مغاسل الذهب في كاليفورنيا . اسمه جاك ، وهو اسم غرينغو وليس اسمه الحقيقي دون شك . وقد وصل عدة مرات في الساعات التالية إلى عتبة الموت ، ولكن كلما بدا أنه لم يعد بالإمكان عمل أي شيء من أجله ، يرجع من العالم الآخر ويبتلع عدة رشفات من الخمر . وفي حوالى الساعة الثامنة ، عندما هدأت العاصفة أخيراً ، أمرت جو بابالو بأن يذهب لإحضار الدكتور . وحين سمع ذلك المكسيكي الذي كان جامداً يتنفس غرغرة مثل سمكة ، فتح عينيه وأطلق «لا!» مدوية ، أرعبت الجميع . وطالبهم

بضراوة بأنه يجب ألا يعرف أحد أنه هناك ، فلم يجرؤوا على معارضته . ولم تكن هناك حاجة إلى توضيحات كثيرة ؛ فمن الجلي أن له مشاكل مع العدالة ، وهذه القرية بمشنقتها التي في الساحة هي آخر مكان في العالم يرغب هارب في البحث فيه عن ملجأ . وقسوة المناخ وحدها هي التي أجبرته على الاقتراب من هناك . إلزا لم تقل شيئاً ، ولكن رد فعل الرجل لم يكن مفاجئاً لها ؛ فقد كانت تصدر عنه رائحة الخبث .

بعد ثلاثة أيام استرد جاك شيئاً من قواه ، ولكن قمة أنفه تآكلت وبدأ إصبعان من إحدى يديه يصابان بالغرغرينا . ولكنهم لم يستطيعوا مع ذلك إقناعه بضرورة اللجوء إلى الطبيب ؛ وقال إنه يفضل أن يتعفن شيئاً فشيئاً على أن ينتهي مشنوقاً . فجمعت جو كسارة العظام جماعتها في الجهة الأخرى من المستودع وتداولوا همساً ؛ يجب عليهم أن يبتروا إصبعيه . واتجهت كل العيون إلى بابالو الشرير

- أنا ؟ ولا بأي شكل!

فصاحت جو غاضبة :

- دعك من التخنث يا بابالو يا ابن الزانية!

- افعلي ذلك أنت يا جو ، فأنا لا أنفع في هذه الأمور .

- ما دمت قادراً على تقطيع غزال فإنك قادر على عمل ذلك . فأي شيء يعنيه إصبعان بانسان ؟

- الحيوان شيء والمسيحي شيء آخر مختلف تماماً .

- لا أستطيع أن أصدق ذلك! فابن أعظم العاهرات هذا – مع الاعتذار منكن يا فتيات– لا يستطيع أن يقدم لي مثل هذه الخدمة التافهة! بعد كل الذي فعلته من أجلك أيها التعس!

- سامحيني يا جو . فأنا لم أؤذ إنساناً قط...

- ماذا تقول! ألستَ قاتلاً يا ترى ؟ ألم تكن في السجن ؟

فاعترف المارد وهو على وشك البكاء من المهانة :

ـ كان ذلك بسبب سرقة مواش .

وقاطعتهما إلزا عندئذ بشحوب ، ولكن بصوت متماسك :

ـ أنا سأفعل ذلك .

تبادلوا النظرات غير مصدقين . فحتى توم بلا قبيلة كان يبدو لهم أكثر ملاءمة لإجراء العملية من التشيلي الحساس .

ـ إنني بحاجة إلى سكين حادة جداً ، ومطرقة ، وإبرة ، وخيط وبعض الخرق النظيفة .

جلس بابالو على الأرض مرعوباً ورأسه الضخم بين يديه ، بينما النساء يهيئن الضروريات بصمت وقور . راجعت إلزا في ذهنها ما تعلمته من تاو تشين حين كان يُخرج رصاصاً ويخيط جروحاً في سكرامينتو . وقررت بأنها إذا استطاعت عمل ذلك دون أن يرف لها جفن آنذاك ، فإنها ستتمكن من عمله الآن . وأهم ما في الأمر ، كما كان يقول صديقها ، هو تجنب النزيف والالتهابات . لم تره يقوم بعمليات بتر ، ولكنها سمعته يعلق وهما يعالجان عاثري الحظ ممن يأتونهم وقد صلمت آذانهم ، بأنهم في أنحاء أخرى من العالم يقطعون الأيدي والأقدام جزاء لمثل تلك الجريمة . وقد قال تاو تشين : «فأس الجلاد أسرع ، ولكنها لا تُبقي أنسجة لتغطية العظم المقطوع» . وشرح لها دروس الدكتور إيبانيزر هوبس الذي مارس عملياً على جرحى الحرب وعلمه كيف يفعل ذلك . وانتهت إلزا إلى التفكير بأن الحالة التي لديها لحسن الحظ هي بتر أصابع فقط .

أشبعت كسارة العظام المصاب بالخمر إلى أن فقد الوعي ، بينما كانت إلزا تعقم السكين بتسخينه حتى الاحمرار . أجلست جاك على كرسي ، وغطست يده في طست من الويسكي ثم وضعتها على الطاولة مباعدة ما بين الإصبعين المصابين : تمتمت بإحدى ترتيلات ماما فريسيا السحرية ، وعندما

صارت جاهزة أومأت بصمت إلى النساء لكي يثبتن المريض . وضعت السكين على الإصبعين وضربتها ضربة قوية بالمطرقة فغاصت الشفرة وبترت العظم في قَطعٍ نظيف وانغرست في الطاولة . أطلق جاك صرخة من أعماق بطنه ، ولكنه كان مسمماً بالكحول إلى حد لم يشعر معه بشيء حين خاطت الجرح ثم ضمدته إستر . انتهى العذاب في دقائق قليلة . وبقيت إلزا تتطلع إلى الإصبعين المبتورين محاولة كبح غثيانها ، بينما النساء يمددن جاك على إحدى الحصائر . أما بابالو الشرير الذي بقي أبعد ما يمكن عن المشهد ، فقد اقترب متردداً وهو يحمل طاقيته الطفولية في يده ، وتلعثم بإعجاب :

ـ أنت رجل بكل معنى الكلمة أيها التشيلي الصغير .

في شهر آذار أتمت إلزا ثمانية عشر عاماً بصمت ، بينما هي تنتظر أن يظهر خواكينها عاجلاً أو آجلاً في الباب ، مثلما يفعل أي رجل في دائرة قطرها مئة ميل ، على حد تأكيد بابالو . استرد جاك المكسيكي عافيته خلال أيام قليلة وتسلل هارباً في الليل دون أن يودع أحداً ، وقبل أن يلتئم إصبعاه . لقد كان شخصاً مشؤوماً ، وقد فرحوا لذهابه . فهو قليل الكلام ودائم التحفز والتحدي ، ومستعد للهجوم لدى ظل أدنى شبهة باستفزاز موهوم . لم يبدِ أي امتنان للجميل الذي تلقاه ، بل على العكس من ذلك ، فعندما استيقظ من سكرته وعلم بأنهم قد بتروا له إصبعيه اللذين يستخدمهما في إطلاق النار ، اندفع مطلقاً الشتائم والتوعدات ، مقسماً بأن ابن الكلبة الذي أتلف يده سيدفع حياته ثمناً لذلك . عندئذ نفد صبر بابالو ، فأمسكه مثل دمية ، ورفعه إلى مستواه ، وصوب إليه عينيه قائلاً بصوته الناعم الذي يستخدمه حين يكون على وشك الانفجار :

ـ أنا من فعل ذلك : بابالو الشرير . هل توجد أي مشكلة ؟

وما أن تعافى جاك من الحمى حتى أراد استغلال الحمائم ليستمتع بهن ، ولكنهن صددنه بصوت واحد : فهن غير مستعدات لمنحه أي شيء مجاناً ،

وهو مفلس ، جيوبه خاوية مثلما تأكدن حين نزعن عنه ملابسه لتغطيسه في حوض الاستحمام في الليلة التي ظهر فيها متجمداً . وقد كلفت جو كسارة العظام نفسها مشقة التوضيح له بأنهم لو لم يبتروا إصبعيه لكان فقد ذراعه أو حياته نفسها ، ولهذا فإنه من الخير له أن يحمد السماء لأنه وقع تحت سقفها . ولم تكن إلزا تسمح لتوم بلا قبيلة أن يقترب من ذلك الشخص ، ولم تكن هي نفسها تقترب منه إلا لتقدم له الطعام وتبدل الأضمدة ، لأن رائحة الخبث المنبعثة منه كانت تضايقها مثل حضور ملموس . ولم يكن بابالو قادراً على تحمله كذلك ، وامتنع عن التكلم معه أثناء وجوده في البيت . فقد كان يعتبر هاتيك النسوة مثل أخواته ، ويغضب عندما يلمّح جاك بتعليقات بذيئة . ولم يكن يخطر له حتى وهو في أقصى حالات التهيج بأن يستفيد من خدمات رفيقاته المهنية ، لأن ذلك في نظره أشبه بزنى المحارم ، فإذا ما أثقلت عليه حاجته ذهب إلى المحلات المنافسه لمحلهم ، وكان ينبه التشيلي الصغير إلى عمل ذلك إذا ما شفي من عادات الآنسات السيئة ، وهو أمر غير محتمل .

بينما كانت إلزا تقدم طبق حساء إلى جاك ، تجرأت أخيراً على سؤاله عن خواكين أنديتا .

- فسألها بارتياب :

- أتعنين موريتا ؟

- بل أنديتا .

- لا أعرفه .

فقالت إلزا :

- ربما كان الشخص نفسه .

- وماذا تريدين منه ؟

- إنه أخي . وقد جئت من تشيلي للبحث عنه .

- وكيف هو أخوك ؟

ـ ليس طويلاً جداً ، له شعر أسود وعينان سوداوان ، بشرته بيضاء ، مثلي ، ولكننا غير متشابهين . وهو نحيل ، مفتول العضلات ، وشجاع ومندفع . وحين يتكلم يصمت الجميع .

ـ هكذا هو خواكين موريتا ، ولكنه ليس تشيلياً ، إنه مكسيكي .

ـ أأنت متأكد ؟

ـ لستُ متأكداً من شيء ، ولكنني إذا التقيت بموريتا فسأخبره بأنك تبحث عنه

في الليلة التالية انصرف ولم يعودوا يعرفون شيئاً عنه ، ولكنهم وجدوا بعد أسبوعين أمام باب المستودع كيساً فيه ليبرتان من البُن . وبعد قليل من ذلك فتحت إلزا الكيس لكي تعد الفطور ورأت أن ما فيه ليس بُناً وإنما تبر ذهب . وقد رأت جو كسارة العظام أنه يمكن لذلك الذهب أن يكون آتياً من أي واحد من المَنجميين المرضى الذين اعتنين بهم في تلك الفترة ، ولكن قلب إلزا حدثها بأن جاك هو الذي تركه على شكل أجر . فذلك الرجل ليس مستعداً لأن يكون مديناً بجميل لأحد . وفي يوم الأحد علموا أن الشريف كان ينظم جماعة الحراس للبحث عن قاتل أحد المنجميين : فقد وجدوا القتيل في كوخه ، حيث كان يقضي الشتاء وحيداً ، مطعوناً بتسع طعنات في صدره ، وعيناه مقلوعتان . لم يكن هناك أي أثر للذهب الذي كان يملكه ، وبسبب وحشية الجريمة ألقوا التهمة على الهنود . فلم تشأ جو كسارة العظام أن تورط نفسها في مشاكل ، ودفنت ليبرتي الذهب تحت شجرة سنديان وأصدرت تعليماتها الحازمة لجماعتها بإطباق أفواههم وعدم الإتيان ولو مزاحاً على ذكر المكسيكي ذي الأصابع المبتورة أو كيس البُن . وخلال الشهرين التاليين قتلَ الحراس ستة هنود ثم نسوا القضية ، لأن بين أيديهم مشاكل أخرى أشد إلحاحاً ، وعندما جاء زعيم قبيلة الهنود بوقار مطالباً بتفسيرات ، أجهزوا عليه أيضاً . إذ لم يكن مسموحاً للهنود الحمر أو الصينيين أو الخلاسيين بالتقدم

كشهود في محاكمة ضد أبيض . وكان جيمس مورتون والكويكرز الثلاثة الآخرون في القرية هم الوحيدون الذين تجرؤوا على مواجهة الحشد المستعد لتنفيذ الشنق بطريقة اللنشينغ . فقد انتصبوا دون أسلحة في دائرة حول المحكوم ، وراحوا يرتلون من الذاكرة مقاطع من الكتاب المقدس تحرم قتل الإنسان للإنسان ، ولكن الجموع أبعدتهم دفعاً .

لم يعلم أحد بعيد ميلاد إلزا ، وبالتالي لم يحتفلوا به ، ولكن ليلة الخامس عشر من آذار تلك كانت تاريخية بالنسبة إليها وللآخرين . كان الزبائن قد عادوا إلى ارتياد المستودع ، والحمائم كن مشغولات على الدوام ، وكان التشيلي الصغير يعزف على البيانو بحماس صادق بينما جو تجري حسابات متفائلة . فالشتاء لم يكن سيئاً على الرغم من كل شيء ، فالأسوأ في الجائحة كان ينقضي ولم يعد هناك مرضى على الحصائر . لقد كان في تلك الليلة حوالى اثني عشر منجمياً يشربون وهم واعون ، بينما الريح في الخارج تنتزع أغصان الصنوبر من أصولها . وفي حوالى الساعة الحادية عشرة انفلت الجحيم . لم يستطع أحد أن يفسر كيف بدأ الحريق ، وقد ظلت جو تشك بصاحبة الماخور الآخر . اشتعلت الأخشاب كالمفرقعات وسرعان ما امتدت النار إلى الستائر وإلى شالات الحرير وستائر السرير . وهرب الجميع سالمين ، بل وتمكنوا من إلقاء بعض البطانيات على أكتافهم ، والتقطت إلزا بمثل لمح البصر العلبة التي تضم رسائلها الثمينة . وسرعان ما لف اللهب والدخان المحل وراح يستعر خلال أقل من عشر دقائق مثل مشعل ، بينما النساء شبه العاريات إلى جانب زبائنهن الدائخين ، يراقبن المشهد بعجز كامل . وعندئذ ألقت إلزا نظرة لتحصي الحضور ، وانتبهت مرعوبة إلى غياب توم بلا قبيلة . لقد بقي الطفل نائماً في الفراش الذي يتقاسمانه معاً . ولم تدر كيف انتزعت بطانية عن كتفي إستر ، وغطت رأسها واندفعت متجاوزة الحاجز الخشبي الرقيق المشتعل ، ولحق بها بابالو محاولاً وقفها بالصراخ دون أن يفهم لماذا تلقي بنفسها إلى

النار . وجدت الصبي واقفاً وسط الدخان ، يحملق بعينين مذعورتين ، ولكنه سليم تماماً . ألقت عليه البطانية وحاولت حمله بين ذراعيها ، ولكنه كان ثقيلاً ، وجعلتها نوبة سعال تنحني على نفسها . فهوت على ركبتيها وهي تدفع توم ليركض إلى الخارج ، ولكنه لم يبتعد عنها ، وكانا سيتحولان إلى رماد لو لم يظهر بابالو في تلك اللحظة ليحمل كلاً منهما تحت أحد ذراعيه وكأنهما حزمتان ويخرج بهما راكضاً وسط هتافات من كانوا ينتظرون خارجاً .

وراحت جو تؤنب الهندي الصغير بينما هي تعانقه وتقبله وتصفعه برفق ليتنفس ،

- يا للصبي اللعين! ما الذي كنت تفعله في الداخل!

وبفضل بُعد المستودع وعزلته لم يشتعل نصف القرية مثلما قال الشريف فيما بعد ، وهو ذو خبرة في الحرائق لأنها كانت تحدث بتواتر كبير في تلك الأنحاء . وعلى وهج اللهيب هرع حوالى اثني عشر متطوعاً يتقدمهم الحداد لمقاومة اللهب ، ولكن الوقت كان قد فات وتمكنوا فقط من إنقاذ حصان إلزا الذي لم يتذكره أحد في فوضى الدقائق الأولى وبقي مربوطاً في حظيرته ، يجننه الرعب . في تلك الليلة فقدت جو كسارة العظام كل ما تملكه في هذه الدنيا وشوهدت تضعف لأول مرة . لقد شهدت الدمار وهي تحمل الطفل بين ذراعيها ، ودون أن تستطيع كبح دموعها ، عندما لم يبق هناك سوى جذوات يتصاعد منها الدخان خبأت وجهها في صدر بابالو الضخم الذي احترقت حواجبه ورموشه . وحيال ضعف تلك الأم الحنون التي كانوا يظنونها عصية على التأثر ، انفجرت النساء الأربع في البكاء معاً في عنقود من التنانير الداخلية والشعور المشعثة واللحوم المرتجفة . ولكن شبكة التضامن بدأت تتحرك قبل أن تخمد ألسنة اللهب ، وقبل انقضاء ساعة من الوقت كان قد توفر المأوى للجميع في عدد من بيوت القرية ، وبدأ أحد المنجميين الذين أنقذتهم جو من الديزنطاريا ، بجمع التبرعات . التشيلي الصغير وبابالو والطفل - أي ذكور

الفرقة الثلاثة - أمضوا الليلة في محل الحدادة . فقد وضع جيمس مورتون فرشتين مع أغطية سميكة إلى جانب الكور الساخن دوماً ، وقدم فطوراً رائعاً لضيوفه ، أعدته باهتمام زوجة الواعظ الذي يستنكر بصوت عال في أيام الآحاد الممارسة الوقحة للرذيلة ، كما يسمي نشاطات الماخورين .

وقد قالت زوجة القس عندما جاءت إلى محل الحدادة حاملة أرنباً برياً مطبوخاً وإبريق شوكولاته وبسكويتاً بالقرفة :

- ليس هذا وقت التكلف ، فهؤلاء المسيحيون البائسون يرتجفون من البرد .

وقد جابت السيدة نفسها القرية طالبة ملابس للحمائم اللواتي كن ما يزلن بتنانيرهن الداخلية ، وكان رد السيدات الأخريات سخياً . لقد كن يتجنبن المرور من أمام محل «الست» الأخرى ، ولكن كان عليهن التعامل مع جو كسارة العظام خلال الجائحة وقد احترمنها . وهكذا صارت المومسات الأربع يرتدين لوقت طويل ملابس سيدات متواضعات ، تغطيهن من العنق وحتى القدمين ، إلى أن استطعن استعادة ملابسهن المزركشة . في ليلة الحريق أرادت زوجة القس أن تأخذ توم بلا قبيلة إلى بيتها ، ولكن الطفل تشبث بعنق بابالو ولم تكن هناك قوة بشرية قادرة على انتزاعه . وقد أمضى المارد ساعات من الأرق بينما التشيلي الصغير متكور على أحد ذراعيه والطفل على الذراع الآخر ، وقد لدغته نظرات الحداد المستنكرة ، فدمدم ساخطاً ، ولكن دون أن يبعد أياً من الاثنين النائمين على ذراعيه :

- أخرج هذه الفكرة من رأسك يا رجل . فأنا لستُ شاذاً جنسياً .

أفادت تبرعات المنجميين وكيس البُن المدفون تحت شجرة السنديان في استقرار المتضررين في بيت مريح ومحترم إلى حد فكرت معه جو كسارة العظام بالتخلي عن فرقتها الجوالة والإقامة هناك . فبينما كانت قرى أخرى تندثر عندما ينتقل المنجميون إلى مغاسل ذهب أخرى ، كانت هذه القرية

تكبر ، وتترسخ ، حتى إنهم فكروا باستبدال اسمها باسم أكثر وقاراً . عندما ينتهي الشتاء ، ستعاود الصعود إلى سفوح سلسلة الجبال أفواج جديدة من المغامرين ، وستبدأ «الست» الأخرى بالاستعداد . لم يكن لدى جو كسارة العظام إلا ثلاث فتيات ، إذ كان واضحاً أن الحداد يفكر في انتزاع إستر منها ، ولكنها سترى كيف ستتدبر الأمر . كانت قد اكتسبت شيئاً من التقدير لأعمالها الرحيمة ، ولم تكن راغبة في خسارة ذلك : فقد أحست للمرة الأولى في حياتها المضطربة بأنها مقبولة ضمن مجتمع . وكان ذلك أكثر بكثير مما حصلت عليه بين الهولنديين في بنسلفانيا ، ولم تكن فكرة غرس جذورها والاستقرار هناك بالفكرة السيئة تماماً في مثل سنها . عندما علمت إلزا بتلك المشاريع ، حسمت أمرها بأنه إذا لم يظهر خواكين أنديتا -أو موريتا- في الربيع ، فإنها ستضطر إلى وداع أصدقائها ومواصلة البحث عنه .

خيبات أمل

في أواخر الخريف تلقى تاو تشين آخر رسالة من إلزا ، وكانت قد انتقلت من يد إلى يد طوال شهور مقتفية أثره حتى سان فرانسيسكو . كان قد غادر سكرامينتو في شهر نيسان . وبدا له الشتاء في تلك المدينة أبدياً ، ولم يُبقه هناك شيء سوى رسائل إلزا التي تصله بصورة متباعدة ، والأمل بأن تحدد روح لين مكانه ، وصداقته مع الجونغ يي الآخر . وكان قد حصل على كتب طبية غربية ، وتولى بافتتان المهمة الدؤوبة بترجمتها سطراً سطراً لصديقه ، وهكذا كانا يتشربان معاً في الوقت ذاته تلك المعارف المختلفة جداً عن معارفهما . فعلم بأنهم في الغرب لا يعرفون إلا القليل عن النباتات الأساسية ، وعن الوقاية من الأمراض أو عن « الكي » ، فطاقة الجسد لا يرد ذكرها في تلك النصوص ، ولكنهم متقدمون أكثر بكثير في نواح أخرى . كان يقضي مع صديقه أياماً في المقارنة والمناقشة ، ولكن الدراسة لم تكن بالعزاء الكافي ؛ فقد أثقلت عليه العزلة والوحدة ، فهجر كوخه ذي الألواح الخشبية وحديقة نباتاته الطبية وانتقل للعيش في فندق صيني ، حيث يمكنه على الأقل أن يسمع لغته ويأكل ما يروقه . وبالرغم من أن زبائنه كانوا فقراء جداً وغالباً ما كان يعالجهم مجاناً ، إلا أنه تمكن من ادخار بعض المال . وكان يفكر بأنه إذا ما رجعت إلزا فسيقيمان في بيت لائق ، أما مادام وحيداً فالفندق يكفيه . كان الجونغ يي

الآخر يخطط لطلب زوجة شابة من الصين كي يستقر نهائياً في الولايات المتحدة ، لأنه على الرغم من وضعه كأجنبي ، يستطيع أن يعيش هنا حياة أفضل من حياته في بلاده . وقد حذره تاو تشين من بطلان المزاعم حول الزنابق الذهبية ، وخصوصاً في أميركا ، حيث يجب المشي كثيراً ، وحيث سيسخر الفان غووي من امرأة لها قدما دمية . «اطلب من الوكيل أن يأتيك بزوجة باسمة وسليمة ، وكل ما سوى ذلك ليس له أهمية» هكذا كان ينصح صديقه مفكراً بمرور زوجته لين التي لا تُنسى في هذا العالم ، وبالسعادة التي كان سينعم بها لو كانت لها قدما إلزا ورئتاها القويتان . لا بد أن زوجته تمضي تائهة ، غير قادرة على تحديد مكانه في هذه الأراضي الغريبة . لقد كان يستحضرها في ساعات تأمله وفي أشعاره ، ولكنها لم تعد إلى الظهور حتى في أحلامه . فالمرة الأخيرة التي رآها فيها هي في ذلك اليوم في عنبر السفينة ، عندما زارته بثوبها الحريري الأخضر وعيدان الفاونيا في تسريحتها لتطلب منه إنقاذ إلزا ، ولكن ذلك حدث وهم يبحرون عند مستوى البيرو ، وقد اجتاز منذ ذلك الحين الكثير من المياه والأراضي والزمن ، ولا بد أن لين تهيم على وجهها مشوشة . وكان يتصور روحها العذبة تبحث عنه في أرجاء تلك القارة المترامية المجهولة دون أن تتمكن من تحديد مكانه . وبناء على اقتراح الجونغ يي الآخر طلب رسم صورة لها بيد فنان قادم حديثاً من شنغهاي ، وهو عبقري حقيقي في الوشم والرسم ، اتبع تعليماته بدقة ، ولكن النتيجة لم تكن منصفة بالمقارنة مع شفافية بهاء لين . وصنع تاو تشين مذبحاً صغيراً من اللوحة ، وصار يجلس أمامه ليستدعيها . لم يكن يفهم كيف صار لا يطيق العزلة التي كان يعتبرها بركة وترفاً . لقد كانت أسوأ هموم سنوات حياته كبحار هي عدم امتلاك خلوة في حيز خاص للسكينة والصمت ، ولكنه حين صار يمتلكه الآن بدأ يرغب في الرفقة . ولكن فكرة التوصية على عروس بالنسبة إليه هو ضرب من الحماقة . لقد تمكنت أرواح أسلافه في مرة سابقة من الحصول له على

زوجة جيدة ، ولكن وراء حسن الطالع الظاهري ذاك كانت هناك لعنة مخبأة . وقد عرف الحب الذي يُقابل بحب ، ولا يمكن لأزمنة البراءة تلك أن تعود ، حين كان يعتبر أي امرأة صغيرة القدمين وطيبة الطباع كافية . صار يعتقد بأنه محكوم عليه بالعيش على ذكرى لين ، لأنه ما من امرأة أخرى يمكنها أن تحتل مكانها بوقار . ولم يكن يرغب في خادمة أو محظية . بل إن الحاجة إلى إنجاب أبناء يكرمون اسمه ويعنون بقبره لم تكن تشكل حافزاً له . وقد حاول أن يوضح ذلك لصديقه ، ولكن اللغة اختلطت عليه ، ولم يجد مفردات في معجمه للإعراب عن ذلك العذاب . وقال له صديقه عندما صارحه آخر مرة بمشاعره : المرأة مخلوق مفيد للعمل والأمومة والمتعة ، ولكن ليس هناك رجل مثقف وذكي يسعى إلى جعلها رفيقة له . وتكفي المرء في الصين نظرة واحدة إلى ما حوله ليتفهم ذلك . أما العلاقات بين الأزواج في أميركا فتبدو مختلفة . فبادئ ذي بدء ، ليس هناك من يملك محظيات ، بصورة سافرة على الأقل . وعائلات الفان غووي القليلة التي تعرف عليها تاو تشين في بلاد الناس المتوحدين تلك ، بدت له غير قابلة للاختراق . ولم يكن قادراً على تصور ممارستهم لعلاقاتهم الحميمة ، خصوصاً وأن الأزواج في الظاهر يعتبرون زوجاتهم أنداداً لهم . لقد كان ذلك الأمر سراً يرغب في اكتشافه ، مثل أمور كثيرة أخرى في تلك البلاد الغريبة .

وصلت رسائل إلزا الأولى إلى المطعم الصيني ، وبما أن الجالية الصينية تعرف تاو تشين ، فإنهم لم يتأخروا في تسليمها إليه . وقد كانت تلك الرسائل المطولة ، المترعة بالتفاصيل ، هي أفضل رفيق له . كان يفكر بإلزا متفاجئاً من شوقه إليها ، لأنه لم يفكر قط بأنه يمكن للصداقة أن تكون مع امرأة ، وخصوصاً إذا كانت تنتمي إلى ثقافة أخرى . لقد رآها على الدوام تقريباً بثياب ذكورية ، ولكنها كانت تبدو له أنثوية تماماً ، واستغرب تقبل الآخرين لمظهرها دون أن يسألوا عن ذلك . وقد كتبت إليه في إحدى رسائلها عن ذلك

تقـول : «الرجـال لا ينظرون إلى الرجـال ، والنسـاء يعتـقـدن بأنني صـبي مخنث» . أما هو بالمقابل ، فكان يرى فيها الفتاة ذات الملابس البيضاء التي خلع عنها مشدها في كوخ صيادين في بالبارايسو ، والمريضة التي استسلمت دون تحفظ لرعايته في عنبر السفينة ، والجسد الدافئ الملتصق بجسده في الليالي الجليدية تحت سقف من قماش الخيام ، والصوت السعيد المترنم بينما هي تطبخ ، والوجه ذا التعبير الرصين وهي تساعده في معالجة الجرحى . لم يعد يراها كطفلة ، وإنما كامرأة ، على الرغم من عظامها الهشة ووجهها الطفولي . وفكر كيف تبدل مظهرها عندما قصت شعرها ، وندم لأنه لم يحتفظ بضفيرتها ، وهي فكرة خطرت له في ذلك الحين ، ولكنه استبعدها باعتبارها حركة عاطفية معيبة . لو أنه احتفظ بها لكان يحملها الآن بين يديه ليستحضر تلك الصديقة الفريدة . وفي أثناء ممارسته التأمل ، لم يكن يتوقف قط عن إرسال طاقة واقية لها لتساعدها في تجاوز آلاف الميتات والنكبات المحتملة التي لا يحاول تصور صيغ لها ، لأنه يعرف أن من يتورط في التفكير بالشر ، ينتهي به الأمر إلى استحضاره . لقد كان يحلم بها في بعض الأحيان ، ويستيقظ متعرقاً ، وعندئذ يجرب حظه بعيدان «الآي شين» ليرى ما هو خفي . وكانت إلزا تظهر على الدوام في تلك الرسائل الغائمة سائرة باتجاه الجبل ، فيطمئنه ذلك بعض الشيء .

في شهر أيلول ١٨٥٠ كان عليه أن يشارك في احتفال وطني صاخب عندما تحولت كاليفورنيا إلى ولاية في الاتحاد . فالأمة الأمريكية صارت تضم الآن القارة كلها ، من الأطلسي وحتى الباسفيكي . وفي أثناء ذلك كانت حمى الذهب قد بدأت بالتحول إلى خيبة أمل جماعية هائلة ، وصار تاو يرى جمعاً من المنجميين الواهنين والفقراء ينتظرون دورهم ليبحروا عائدين إلى قراهم . وكانت الصحف تقدر أعداد العائدين بأكثر من تسعين ألفاً . ولم يعد البحارة يهربون من السفن ، بل على العكس ، فالسفن لم تعد تتسع لكل الراغبين في

الرحيل . كان قد مات واحد من كل خمسة مَنجميين غرقاً في الأنهار ، أو بفعل المرض أو البرد ؛ وكثيرون ماتوا قتلاً أو أطلقوا رصاصة على صدغهم . وكان ما يزال يصل بعض الأجانب ، ممن بدؤوا إبحارهم قبل شهور ، ولكن الذهب لم يعد في متناول يد أي جسور مزود بطبق تصويل ورفش وجزمة عالية . فزمن الأبطال المتوحدين كان ينتهي ، وقامت مقامهم شركات جبارة مزودة بآلات قادرة على تفتيت الجبال بقوة تدفق الماء . وصار المنجميون يعملون مقابل أجر ، أما من يصيبون الثراء فهم رجال الأعمال ، الطامعين في الثراء المفاجئ مثل مغامري عام ٤٩ ، ولكنهم أكثر منهم خبثاً بكثير ، مثل ذلك الخياط اليهودي المكنى ليفي ، الذي صنع بنطلونات من قماش سميك بدرزات خياطة مزدوجة وتبشيمات معدنية ، لتكون الزي الاضطراري للعمال . وبينما الكثيرون يرحلون ، كان الصينيون بالمقابل يواصلون التوافد مثل نمال صامتة . وكثيراً ما كان تاو تشين يترجم الصحف المكتوبة بالإنكليزية لصديقه الجونغ يي الذي كان يُعجب خصوصاً بمقالات المدعو جاكوب فريمونت ، لأنها تتطابق مع آرائه .

فقد كتب فريمونت : « آلاف الباحثين عن الذهب يرجعون إلى موطنهم مهزومين ، لأنهم لم يحصلوا على جزازة الذهب ، وانتهت الأوديسة التي انطلقوا بها إلى مأساة ، ولكن كثيرين آخرين ، حتى وهم فقراء ، سيبقون لأنهم ما عادوا قادرين على العيش في مكان آخر . فستتان من الحياة في هذه الأراضي الوحشية والرائعة قد حولت الرجال . فالأخطار ، والمغامرة ، والعافية ، والقوة الحيوية التي تمتعوا بها في كاليفورنيا لا تتوفر في أي مكان آخر . لقد أنجز الذهب مهمته : اجتذب الرجال الذين راحوا يرتادون هذه الأراضي ليحولوها إلى أرض موعودة . وهذا أمر لا رجعة عنه... »

أما تاو تشين ، فكان يرى مع ذلك بأنهم يعيشون في فردوس الجشعين ، فردوس الناس الماديين المتلهفين الذين لا هاجس لهم سوى الثراء بأسرع

وقت . فليس هناك أي غذاء للروح ، بينما يزدهر بالمقابل العنف والجهل . وهو واثق من أن كل الشرور الأخرى ستنبثق من هذين الشرين . لقد رأى الكثير في سنوات عمره السبع والعشرين ، وهو لا يعتبر نفسه منافقاً ، ولكن دمار العادات ومرور الجرائم دون عقاب كان يصدمه . وقد كان يؤكد بأن مثل هذا المكان محكوم عليه بالهلاك في مستنقع رذائله . لقد فقد الأمل في أن يجد في أميركا الطمأنينة التي يصبو إليها ، وهي في نهاية المطاف ليست بالمكان المناسب لمتطلع إلى الحكمة . فلماذا تجتذبه إذن بتلك الطريقة ؟ يجب عليه أن يتفادى الوقوع في سحر هذه البلاد ، مثلما حدث لكل من وطأ أرضها ؛ إنه ينوي الرجوع إلى هونغ كونغ أو زيارة صديقه ايبانيزر هوبز في إنكلترا ليدرسا ويمارسا الطب معاً . في السنوات التي انقضت منذ اختطافه في السفينة ليبرتي ، كتب عدة رسائل إلى الطبيب الإنكليزي ، ولكنه لم يتلق جواباً لوقت طويل لأنه كان يبحر متنقلاً ، وأخيراً تسلم القبطان جون سوميرز في بالبارايسو رسالة منه وسلمها إليه في شهر شباط ١٨٤٩ . وفي تلك الرسالة حدثه صديقة بأنه يعمل في الجراحة في لندن ، وإن كان ميله الحقيقي هو دراسة الأمراض العقلية ، وهو ميدان جديد لم يكد يبدأ الفضول العلمي في ارتياده .

وفي داي فاو ، أي «المدينة الكبيرة» مثلما كان الصينيون يسمون سان فرانسيسكو ، خطط للعمل لبعض الوقت كي يتمكن من الإبحار بعد ذلك إلى الصين ، ما لم يردَّ إيبانيزر على رسالته الأخيرة . لقد أذهلته رؤية التحول الذي طرأ على سان فرانسيسكو خلال أقل من سنة . فبدلاً من معسكر الأكواخ والخيام الصاخب الذي عرفه ، استقبلته مدينة ذات شوارع جيدة التخطيط ومبان من عدة طوابق ، منظمة ومزدهرة ، حيث ترتفع المساكن الجديدة في كل مكان . وكان حريق مروع قد دمر عدة أبنية قبل ثلاثة أشهر ، ومازالت تظهر بقايا المباني المتفحمة ، ولكن قبل أن تبرد جمار الحريق كان الجميع

قد امتشقوا المطارق وبدؤوا بإعادة البناء . كانت هناك فنادق فخمة لها شرفات وإطلالات ، وكازينوهات وبارات ومطاعم ، وعربات أنيقة وحشود من كل الأجناس سيئة اللباس وعابسة الوجوه ، تبرز بينهم القبعات العالية التي يعتمرها قلة من المتأنقين . أما البقية فهم أناس ملتحون موحلون ، لهم مظهر المحتالين ، ولكن حقيقة أي واحد هناك لم تكن في مظهره ، إذ يمكن لحمال المرفأ أن يكون أرستقراطياً أمريكياً لاتينياً ، وللحوذي أن يكون محامياً من نيويورك . وعند الحديث مع أي واحد من أولئك الأشخاص الذين يخيل للرائي أنهم يستحقون الشنق ، يمكن اكتشاف رجل مهذب ورقيق ، قد ينتهز أي ذريعة ليُخرج من جيبه رسالة مجعدة من زوجته ليعرضها على محدثة وعيناه مخضلتان بالدموع . وقد يحدث العكس أيضاً : فالمتأنق المهندم قد يخبئ قواداً تحت بدلته متقنة التفصيل . لم ير تاو تشين مدارس في طريقه إلى مركز المدينة ، ولكنه رأى بالمقابل أطفالاً يشتغلون مثل الكبار في حفر الأرض ، ونقل الآجر ، واقتياد البغال ، وتلميع الأحذية . ولكن ما أن تهب الريح البحرية حتى يهرعون لتطير طياراتهم الورقية . وقد علم فيما بعد أن كثيرين منهم أيتام مشردون يهيمون على وجوههم في الشوارع في شراذم ، يسرقون الطعام ليعيشوا . وكانت النساء ما يزلن نادرات ، فإذا مرت إحداهن في الشارع متباهية ، تتوقف حركة السير لتسمح لها بالمرور . وعند سفح هضبة تيلغراف ، حيث يرتفع نصب عليه أعلام تشير إلى منشأ السفن التي تدخل الميناء ، يمتد حي من عدة كوادرات لا تندر فيه النساء ، إنه المنطقة الحمراء التي يتحكم بها قوادون من أستراليا وتسمانيا ونيوزيلندا . وكان تاو تشين قد سمع عنهم وكان يعرف كذلك أنه لا يمكن لصيني أن يغامر بالدخول إلى تلك الأماكن وحيداً بعد مغيب الشمس . ومن خلال مراقبته للمتاجر انتبه إلى أنها تعرض البضائع نفسها التي كان قد رآها في لندن . فكل شيء يصل بحراً ، بما في ذلك شحنة من القطط لمكافحة الجرذان ، وقد بيعت بالواحدة كما تباع

كماليات الرفاهية . أما غابة صواري السفن المهجورة في الخليج فقد تقلصت إلى العُشر ، لأن معظمها أُغرق عند ردم الأرض والبناء فوقها ، أو تحولت إلى فنادق ومستودعات وسجون ، بل وإلى ملجأ للمجانين أيضاً ، حيث يذهب ليموت هناك عاثرو الحظ الذين يهيمون في هذياناتهم الكحولية . وقد كان ذلك الملجأ ضرورياً جداً ، لأنهم كانوا في السابق يقيدون المجانين إلى الأشجار .

توجه تاو تشين إلى الحي الصيني وتأكد من صحة الإشاعات التي راجت : فقد شيد مواطنوه مدينة كاملة في قلب سان فرانسيسكو ، حيث تدور الأحاديث بالمندرينية أو الكانتونية ، وكانت الإعلانات مكتوبة بالصينية ، وليس هناك أحد غير الصينيين في كل مكان : لقد كان وهم التواجد في « إمبراطورية السماء » كاملاً . استقر في فندق محترم واستعد لممارسة مهنته كطبيب طوال الوقت اللازم لجمع مزيد من المال ، لأن أمامه رحلة طويلة . ومع ذلك ، فقد حدث ما قوض كل خططه وأبقاه في المدينة . «لم يكن قدري هو العثور على الطمأنينة في دير في الجبال ، مثلما حلمت أحياناً ، بل خوض حرب بلا توقف وبلا نهاية» ، هذا ما توصل إليه بعد سنوات طويلة جداً ، حين استطاع أن ينظر إلى ماضيه ويرى بوضوح الدروب التي اجتازها وتلك التي مازال عليه اجتيازها . وبعد شهور تلقى آخر رسالة من إلزا في مغلف تداولته أيد كثير .

●

نزلت باولينا روديغيث دي سانتا كروث من الباخرة فورتونا مثل إمبراطورة ، محاطة ببطانتها وبأمتعة مؤلفة من ثلاثة وتسعين صندوقاً . لقد كانت رحلة القبطان جون سوميرز الثالثة مع الثلج عذاباً حقيقياً له ولبقية المسافرين وطاقم البحارة . فقد أعلمت باولينا الجميع بأن الباخرة ملك لها ، ولكي تثبت ذلك راحت تعارض القبطان وتصدر أوامر تعسفية للبحارة . ولم

ينعموا حتى برؤيتها تصاب بالدوار ، لأن معدة الفيل التي لها تحملت الإبحار دون أي تأثر باستثناء ازدياد شهيتها . وقد اعتاد ابناها الضياع في تشعبات دروب السفينة ، بالرغم من أن المربيات لم يكن يرفعن بصرهن عنهما ، وحين يحدث ذلك تدوي صفارات الإنذار في السفينة ويتوجب عليهم التوقف ، لأن الأم اليانسة تصرخ بأنهما قد سقطا في الماء . فيحاول القبطان أن يشرح لها بأقصى ما لديه من لباقة بأنه إذا كان ذلك قد حدث فليس أمامهم إلا الاستسلام للقدر ، لأن المحيط الهادي سيكون قد ابتلعهما ، ولكنها تأمر بإنزال زوارق النجاة إلى البحر . ثم يظهر الصغيران عاجلاً أو آجلاً ، ويتمكنون من مواصلة الرحلة بعد عدة ساعات مأساوية . أما كلبها المدلل المنفر بالمقابل ، فقد انزلق في أحد الأيام وسقط في المحيط أمام عدد من الشهود الذين التزموا الصمت . ولدى الوصول إلى ميناء سان فرانسيسكو كان بانتظارها زوجها وصهرها ومعهما عدد من العربات والطنابر لنقل الأسرة والصناديق . كان المنزل الجديد الذي شيد من أجلها بيتاً أنيقاً على الطراز الفيكتوري ، جيء به في صناديق من إنكلترا ، في أجزاء مرقمة وخريطة لتركيبه ؛ كما أستوردوا ورق الجدران ، والأثاث ، والقيثارة ، والبيانو ، والثريات ، وحتى التماثيل الخزفية واللوحات الريفية الشاعرية لتزين البيت . ولكنه لم يرق لباولينا . فقد كان يبدو بالمقارنة مع بيتها الرخامي في تشيلي أشبه ببيت للدمى مهدد بالانهيار إذا ما استند أحد إلى جدرانه ، ولكن لم يكن ثمة خيار آخر آنذاك . وكانت نظرة واحدة منها على المدينة التي تعج بالحركة كافية لكي تدرك الإمكانيات التي تتيحها .

- هنا سنستقر يا فيليثيانو . فأول الواصلين سيتحولون إلى أرستقراطيين مع مرور السنوات .

- ولكنك أرستقراطية في تشيلي يا امرأة .

- أجل ، أنا أرستقراطية ، أما أنت فلست كذلك . صدقني أن هذه المدينة ستكون أهم مدينة على المحيط الهادي .

- مدينة أنشأها الأوغاد والعاهرات!

- بالضبط . فهؤلاء هم أكثر المتلهفين إلى الاحترام . ولن يكون هناك من هو أكثر احتراماً من أسرة كروز . من المؤسف أن الغرينغيين لا يستطيعون نطق كنيتك الحقيقية . فكروز هو اسم صانع أجبان . ولكنني أعتقد على أي حال أنه لا يمكن امتلاك كل شيء...

توجه القبطان جون سوميرز إلى أفضل مطعم في المدينة ، مستعداً لأن يأكل ويشرب جيداً لكي ينسى الأسابيع الخمسة التي أمضاها برفقة تلك المرأة . وكان قد أحضر معه عدة صناديق من طبعات الكتب الإيروتيكية الجديدة . فقد كان نجاح الكتب السابقة رائعاً ، وهو يأمل بأن تستعيد أخته روز حماسها إلى الكتابة . فمنذ اختفاء إلزا غرقت في الكآبة ولم تعد تمسك ريشة الكتابة . وهو نفسه تبدل مزاجه أيضاً . وكان يقول في ذهنه حين يفاجئ نفسه تائهاً في الحنين غير المجدي ، يا للعنة ، لقد بدأت أشيخ . لم يُتح له الوقت للتمتع بابنته ، وبأخذها إلى إنكلترا مثلما خطط ، ولم يتوصل كذلك إلى إخبارها بأنه أبوها . لقد كان متخماً حد الضجر بالخدع والأسرار . وتجارة الكتب هذه هي سر آخر من الأسرار العائلية . فقبل خمس عشرة سنة ، عندما اعترفت له أخته بأنها تكتب من وراء ظهر جيرمي قصصاً فاجرة كيلا تموت من الضجر ، خطر له أن ينشرها في لندن ، حيث كان سوق الإيروتيكية يزدهر ، جنباً إلى جنب مع الدعارة وأندية ذوي السياط ، باطراد مع فرض الأخلاق الفيكتورية الصارمة . وبينما أخته تجلس وراء طاولة أنيقة من خشب أشقر ، في مقاطعةٍ تشيلية نائية ، ودون أي مصدر إلهام آخر سوى ذكرياتها المضخمة والمشذبة ألف مرة عن حبها الوحيد ، كانت تُنتج الرواية بعد الرواية وتوقعها باسم « سيدة مجهولة » . ولم يكن هناك من يصدق أن تلك القصص الملتهبة ، والتي تذكر بعض لمساتها بالمركيز دو ساد الذي صار كلاسيكياً في هذا الجنس من الكتابة ، هي من تأليف امرأة . وكان على القبطان أن يتولى مهمة

أخذ المخطوطات إلى الناشر ، ومراقبة الحسابات ، وقبض الأرباح وإيداعها في مصرف لندني باسم أخته . وكانت تلك هي طريقته في رد جميلها الكبير الذي قدمته إليه بالتقاطها ابنته والاعتصام بالصمت . إلزا... لا يمكنه تذكر أمها ، وإذا كانت قد ورثت عنها ملامحها الجسدية ، فقد ورثت عنه دون ريب الاندفاع إلى المغامرة . أين هي الآن ؟ ومع من ؟ روز تصر على أنها قد ذهبت إلى كاليفورنيا في أثر حبيبها ، ولكن كلما مضى مزيد من الوقت تتناقص قناعته بذلك . فصديقه جاكوب تود - الذي صار جاكوب فريمونت الآن - والذي جعل من البحث عن إلزا مهمته الشخصية ، يؤكد له بأنها لم تطأ سان فرانسيسكو قط .

التقى فريمونت مع القبطان ليتناولا العشاء ، ثم دعاه بعد ذلك إلى استعراض مثير في أحد أوكار القمار والرقص في المنطقة الحمراء . وأخبره بأن « آه توي » ، الصينية التي رأياها من خلال ثقوب في الجدار ، صارت تملك الآن سلسلة مواخير و« صالوناً » بالغ الترف ، حيث تُقدم أفضل الفتيات الشرقيات ، وبعضهن لا يتجاوزن الحادية عشرة من أعمارهن ، وهن مدربات لإرضاء كل النزوات . وقال إنهما لن يذهبا إلى هناك ، وإنما لمشاهدة راقصات الحريم التركي . وبعد قليل من ذلك كانا يدخنان ويشربان في بناء من طابقين مزين بطاولات من المرمر ، والبرونز المشذب ، وبلوحات لعذراوات أسطوريات يلاحقهن تيوس لهم شكل « فونوس » (إله المراعي والقطعان) . وكانت هناك نساء من أجناس مختلفة يخدمن الزبائن ، ويقدمن الخمر ويدرن طاولات القمار ، تحت النظرات المترصدة لقبضايات مسلحين يرتدون ثياباً بالغة التكلف والشذوذ . وفي حجرات خاصة على جانبي الصالون الرئيسي ، كانت المراهنات تجري بمبالغ كبيرة . فهناك يجتمع نمور اللعب لكي يجازفوا بالآلاف كل ليلة : سياسيون ، وقضاة ، وتجار ، ومحامون ، ومجرمون ، كلهم متساوون في الهوس نفسه . أما الاستعراض الشرقي فجاء مخيباً لآمال القبطان

الذي كان قد شاهد رقصة هز البطن الحقيقية في استنبول وتكهن بأن أولئك الفتيات الخرقاوات ينتمين دون شك إلى آخر إرسالية مومسات من شيكاغو وصلت حديثاً إلى المدينة . أما الجمهور المؤلف في غالبيته من مَنجميين جهلة غير قادرين على تحديد موقع تركيا على الخريطة ، فقد جن حماساً أمام ذلك الفوج من الحريم شبه العاريات إلا من تنورة قصيرة من الخرز . أحس القبطان بالضجر واتجه إلى إحدى موائد اللعب ، حيث كانت امرأة توزع أوراق لعبة « مونت » بمهارة لا تصدق . ودنت منه واحدة أخرى أمسكت بذراعه وهمست في أذنه تدعوه . التفت ليراها . كانت أمريكية جنوبية قصيرة ومبتذلة ، ولكنها ذات ملامح تفيض بسعادة ساذجة . وكاد أن يصرفها عنه ، لأنه كان يفكر بقضاء بقية الليلة في أحد الصالونات الغالية ، حيث اعتاد أن يذهب في كل زيارة له إلى سان فرانسيسكو ، عندما انتبه إلى صدرها . فقد كانت تضع بين نهديها بروشاً ذهبياً مرصعاً بالفيروز . فصرخ وهو يمسكها من كتفيها بمخلبين :

- من أين جئت بهذا!

تلعثمت مذعورة :

- إنه لي! لقد اشتريته .

- من أين ؟ وتابع هزها إلى أن دنا أحد أولئك المراقبين القتلة ، وقال بتوعد :

- هل حدث لك شيء يا مستر ؟

أومأ القبطان إلى أنه يريد هذه المرأة واقتادها وهو يكاد يحملها عملياً إلى إحدى حجرات الطابق الثاني . أغلق الستارة ، وبصفعة واحدة على وجهها طرحها على ظهرها فوق السرير .

- ستقولين لي من أين جئت بهذا البروش وإلا سأحطم كل أسنانك ، هل هذا واضح ؟

- لم أسرقه يا سيدي ، أقسم لك . لقد أعطوني إياه!

- من أعطاكِ إياه ؟

- لن تصدقني إذا ما أخبرتك...

- من!

- لقد كانت فتاة ، منذ زمن ، في سفينة...

ولم تجد اثوثينا بلاثيرس بداً من أن تخبر ذلك المعتوه بأن طاهياً صينياً هو الذي أعطاها البروش ، مقابل العناية بفتاة مسكينة كانت تموت بسبب الإجهاض في قاع سفينة وسط المحيط الهادي . وكلما تقدمت في حكايتها كان غضب القبطان يتحول إلى رعب .

وسألها جون سوميرز وهو يضع رأسه بين يديه بإعياء :

- وماذا حدث لها ؟

- لا أدري يا سيدي .

فتوسل إليها وهو يضع رزمة من الأوراق النقدية في حضنها :

- بحق من تحبين يا امرأة ، أخبريني بما جرى لها .

- ومن تكون حضرتك ؟

- أنا أبوها .

- لقد ماتت نزفاً وألقينا بالجسد إلى البحر . أقسم لك ، إنها الحقيقة ..

ردت عليه أثوثينا بلاثيرس بذلك دون تردد ، لأنها فكرت بأنه إذا كانت تلك التعسة قد قطعت نصف الدنيا وهي مختبئة في جحر مثل فأرة ، فإن إطلاق الأب في أثرها سيكون خسة لا تغتفر من جانبها .

●

أمضت إلزا الشتاء في القرية ، فقد راحت الأيام تنقضي بينما هي مشغولة بأمر أو بآخر . ففي البدء أصيب بابالو الشرير بنوبة صاعقة من الديزنطاريا أثارت هلعاً جماعياً ، لأنهم كانوا يعتقدون بأنه قد تمت السيطرة على

الجائحة . فقد مضت عدة شهور لم تحدث فيها حالات تدعو للقلق ، باستثناء وفاة طفل عمره سنتان ، هو أول مخلوق يولد ويموت في مكان عبور الغرباء والمغامرين ذاك . وقد مهر ذلك الطفل القرية بخاتم الحقيقة ، فهي لم تعد مجرد معسكر هذياني مبرر وجوده الوحيد على الخريطة هو المشنقة المنصوبة في الساحة ، بل صار في القرية الآن مقبرة مسيحية وقبر صغير لكائن انقضت حياته كلها في ذلك المكان . لقد نجوا من الوباء بأعجوبة في ذلك الوقت الذي تحول فيه المستودع إلى مستشفى ، لأن جو لم تكن تؤمن بالعدوى ، وكانت تقول إن الأمر كله مسألة حظ : فالعالم مليء بالأوبئة ، والبعض يصابون بها وآخرون لا يصابون . لذلك لم تكن تتخذ أية احتياطات ، ومنحت نفسها ترف تجاهل تحذيرات الطبيب التي يقتضيها الحس السليم ، وكانت تكتفي في بعض الأحيان مكرهة ، بغلي الماء للشرب . وعندما انتقلوا إلى بيت بكل معنى الكلمة أحس الجميع بالأمان ؛ فطالما أنهم لم يمرضوا من قبل ، فإن ذلك لن يحدث الآن إطلاقاً . بعد أيام قليلة من إصابة بابالو ، انتقل المرض إلى كسارة العظام وفتاتي ميسوري والمكسيكية الجميلة . وسقطوا جميعهم في إسهال منفر وحرارة مقلى وارتعاشات مفرطة كانت في حالة بابالو ترج البيت كله . عندئذ حضر جيمس مورتون مرتدياً ثياب يوم الأحد ، ليطلب يد إستر رسمياً .

- آه يا بني ، ألم يكن بإمكانك اختيار لحظة أسوأ من هذه . - قالت له كسارة العظام ذلك متنهدة ، ولكنها كانت مريضة إلى حد لا تستطيع معه المعارضة ، فمنحت موافقتها وسط الحسرات .

وزعت إستر ممتلكاتها على رفيقاتها ، لأنها لم تشأ حمل شيء إلى حياتها الجديدة ، وتزوجت في ذلك اليوم بالذات دون مراسم ، يرافقها توم بلا قبيلة وإلزا ، السليمان الوحيدان في الفرقة . واجتمع صفان من زبائنها القدماء على جانبي الشارع حين مرّ العروسان ، وراحوا يطلقون الرصاص في الهواء

ويهللون لهما . استقرت في محل الحدادة مصممة على تحويله إلى منزل ونسيان الماضي ، ولكنها واظبت على عادة الذهاب يومياً لزيارة بيت جو حاملة طعاماً ساخناً وملابس نظيفة للمرضى . وحلت على كاهل إلزا وتوم بلا قبيلة المهمة المزعجة في العناية ببقية سكان البيت . أما طبيب القرية ، وهو شاب من فيلادلفيا أمضى شهوراً في التحذير من أن المياه ملوثة بفضلات المنجميين في أعالي النهر دون أن يوليه أحد اهتماماً ، ففرض الحجر الصحي على منزل جو . وهكذا ذهب التمويل إلى الجحيم ، ونجوا من الجوع بفضل مساعدة إستر والهدايا المغفلة التي كانت تظهر بصورة غامضة عند الباب : كيس فاصولياء ، بضع ليبرات من السكر ، تبغ ، أكياس تبر صغيرة ، بعض الدولارات الفضية . ومن أجل مساعدة أصدقائها لجأت إلزا إلى ما تعلمته من ماما فريسيا في طفولتها ومن تاو تشين في سكرامينتو ، إلى أن استعادوا أخيراً عافيتهم واحداً بعد الآخر ، وإن بقوا لوقت طويل يمشون متعثرين ومشوشين . وكان بابالو الشرير هو من عانى أكثر من الجميع ، لأن جسده العملاق لم يكن معتاداً على اعتلال الصحة ، فنحل جسمه وتهدل لحمه إلى حد أن الوشوم التي عليه فقدت شكلها .

في تلك الأيام ظهر في الصحيفة المحلية خبر مقتضب عن قاطع طريق تشيلي أو مكسيكي - لم يكن ذلك مؤكداً - يدعى خواكين مورييتا ، بدأ يكتسب بعض الشهرة على طول فييتا مادري وعرضها . وكان العنف سائداً آنذاك في منطقة البحث عن الذهب . فالأمريكيون الذين خاب أملهم حين أدركوا أن الثراء المفاجئ ، مثل معجزة ساخرة ، لم يصب إلا قلة قليلة ، راحوا يتهمون الأجانب بالجشع وبالإثراء دون أن يساهموا في ازدهار البلاد . وكان الخمر يؤججهم وانعدام العقاب على فرضهم القانون على هواهم يمنحهم إحساساً غير عقلاني بالسلطة . فلم يكن أي يانكي يدان على جرائم يقترفها ضد أعراق أخرى ، والأسوأ من ذلك هو أنه كان بإمكان المتهم الأبيض في

الغالب أن يختار بنفسه هيئة محلفيه . وتحول العداء العرقي إلى حقد أعمى . فالمكسيكيون لا يقبلون بخسارتهم لأراضيهم في الحرب ولا يرضون بطردهم من مزارعهم أو من المناجم . والصينيون يتحملون التعسف بصمت ، ولا يغادرون ويواصلون استثمار الذهب بأرباح برغوثية ، ولكن بعناد غير محدود يحول الغرام فوق الغرام إلى ثروة . وآلاف التشيليين والبيروبيين الذين كانوا أول الواصلين حين انفجرت حمى الذهب ، قرروا العودة إلى بلادهم لأنه لم يعد هناك ما يستحق عناء ملاحقة أحلامهم في مثل تلك الظروف . وفي سنة ١٨٥٠ تلك ، فرض التشريع الكاليفورني ضريبة على المناجم ترمي إلى حماية البيض . وبقي الزنوج والهنود مستبعدين ، إلا إذا اشتغلوا مثل العبيد ، وصار على الغرباء أن يدفعوا عشرين دولاراً ويجددوا تسجيل ممتلكاتهم شهرياً ، وهو ما بدا مستحيلاً عملياً ، إذ لم يكن بإمكانهم هجر مواقع البحث عن الذهب لكي يسافروا طوال أسابيع إلى المدن من أجل التقيد بتطبيق القانون ، ولكنهم إذا لم يفعلوا ذلك يحتل الشريف المنجم ويمنحه إلى أمريكي . وكان المسؤولون عن تنفيذ الإجراءات يعينون من قبل الحاكم ، ويتقاضون رواتبهم من الضرائب والمخالفات التي تجبى ، وهي طريقة متقنة لتشجيع الفساد . وكان القانون يطبق فقط على الأجانب ذوي البشرة القاتمة ، بالرغم من أن المكسيكيين يتمتعون بحق المواطنية الأمريكية بموجب الاتفاقية التي وضعت حداً لحرب عام ١٨٤٨ . ثم جاء مرسوم آخر ليجهز عليهم : فملكية مزارعهم التي عاشوا فيها لأجيال يجب أن تصادق عليها محكمة في سان فرانسيسكو . وكانت المعاملات تطول لسنوات والتكاليف تصل إلى ثروات باهظة . إضافة إلى أن القضاة ومأموري العدالة هم في الغالب من استولوا على العقارات . وبما أن العدالة لم توفر لهم الحماية ، فقد خرج بعضهم عليها ، وتسنموا بعمق دور المجرمين . فمن كانوا يكتفون في السابق بسرقة المواشي ، صاروا يهاجمون الآن المنجميين والمسافرين المتوحدين . واشتهرت بعض العصابات

بقسوتها ، فلم تكن تكتفي بسلب ضحاياها ، وإنما كانت تلهو بتعذيبهم قبل قتلهم . وكان الحديث يدور بصورة خاصة عن قاطع طريق دموي ، ينسبون إليه بين جرائم أخرى ، قتله بطريقة مروعة لشابين أمريكيين . لقد عثروا على جثتيهما مقيدتين إلى شجرة مع دلائل تشير إلى أنهما استخدما هدفاً للرماية بالسكاكين ؛ كما قُطع لساناهما ، وفقئت عيونهما ، وسلخ جلدهما قبل تركهما حيين ليموتا ببطء . وكانوا يطلقون على ذلك المجرم اسم جاك الثلاثة أصابع ، وقيل إنه اليد اليمنى لخواكين موريتا .

ومع ذلك ، لم يكن كل شيء هناك مجرد وحشية وحسب ، فقد تطورت مدن ، وظهرت قرى جديدة ، واستقرت أسر ، وولدت صحف وفرق مسرحية وموسيقية ، وشيدت مصارف ومدارس ومعابد ، وشقت طرق وتحسنت الاتصالات . وكانت هناك خدمة عربات للسفر ، وبريد يوزع بانتظام . وراحت تصل نساء ، ويزدهر مجتمع يصبو إلى النظام والأخلاق ، لا مجتمع كارثة الرجال الوحيدين والعاهرات مثلما كان في البدء ، ونشطت المساعي لتطبيق القانون والعودة إلى الحضارة المنسية في هذيان الذهب السهل . وأطلق على القرية اسم لانق في احتفال مهيب مع فرقة موسيقية واستعراض ، وحضرته جو كسارة العظام مرتدية ملابس امرأة لأول مرة ، تحيط بها فرقتها كلها . وكانت الزوجات القادمات حديثاً يكشرن لمرأى «الوجوه المطلية» ، ولكنهن يغضضن النظر عن نشاطات جو وفتياتها اللواتي أنقذن حياة الكثيرين خلال الجائحة . بينما خضن بالمقابل ضد الماخور الآخر حرباً لم تُجدِ نفعاً ، لأنه لم تكن هناك بعد سوى امرأة واحدة لكل تسعة رجال . وفي أواخر تلك السنة رحب جيمس مورتون بخمس عائلات من الكويكرز اجتازت القارة في عربات تجرها الجواميس ، ولم تأت من أجل الذهب ، وإنما منجذبة إلى اتساعات تلك الأراضي العذراء .

لم تعد إلزا تعرف أي سبيل تتخذ . فقد ضاع خواكين أنديتا في فوضى

تلك الأزمنة وبدأ يبرز مكانه قاطع طريق له المواصفات الجسدية نفسها واسم مشابه ، أما بالنسبة إليها فكان من المستحيل المطابقة بين ذلك المجرم والشاب النبيل الذي تحبه . فكاتب الرسائل المؤثرة التي تحتفظ بها باعتبارها كنزها الوحيد ، لا يمكن له أن يكون هو الشخص نفسه الذي تُنسب إليه تلك الجرائم الفظيعة . وهي تعتقد بأنه لا يمكن لرجل غرامياتها أن يرتبط بأي حال بمتوحش مثل جاك الثلاثة أصابع . ولكن يقينها كان يذوب في الليل ، حين يظهر لها خواكين بألف قناع مختلف ، حاملاً إليها رسائل متناقضة . فتسقط مرتجفة ، محاصرة بمسوخ كوابيسها الهذيانية . ولم يعد بمقدورها دخول الأحلام والخروج منها بمشيئتها ، مثلما علمتها ماما فريسيا في طفولتها ، ولا تفسير الرؤى والرموز التي تبقى حائمة في رأسها بدوي حجارة يجرفها النهر . وصارت تكتب دون كلل في يومياتها آملة أن تكتسب الصور مغزى ما . وكانت تعيد قراءة رسائل الحب حرفاً حرفاً باحثة عن علامات موحية ، ولكن النتيجة كانت مزيداً من الحيرة . لقد كانت تلك الرسائل هي الدليل الوحيد على وجود حبيبها ، فتشبثت بها حتى لا تختل بالكامل . وكان الإغراء بإغراق نفسها في اللامبالاة ، كوسيلة للهرب من عذاب مواصلة البحث ، لا يُقاوم عادة . وصارت تشك بكل شيء : بمعانقاتهما في حجرة الخزائن ، وبشهور حبسها في عنبر السفينة ، وبالطفل الذي راح منها دماً .

●

كانت المشاكل المالية التي تسبب بها زواج إستر من الحداد كثيرة جداً . فقد حرمت الفرقة فجأة من ربع دخلها ، فضلاً عن الأسابيع التي أمضاها الآخرون منهوكين من الديزنطاريا ، حتى أوشكت جو على خسارة بيتها الصغير ، ولكن فكرة العودة إلى رؤية حمائمها يعملن للمنافسة كان يمنحها زهواً ودفعاً لمواصلة النضال ضد خصومها . لقد مرت الفتيات بالجحيم ولا يمكنها دفعهن ثانية إلى تلك الحياة ، لأنها كانت قد تعلقت بهن وأحبتهن على

الرغم منها . لقد كانت تعتبر نفسها على الدوام مجرد خطأ خطير من الرب ، فهي رجل محشور بالقوة في جسد امرأة ، ولهذا السبب لم تكن تفهم غريزة الأمومة تلك التي برزت لديها في ذلك الوقت غير الملائم . صحيح أنها كانت ترعى توم بلا قبيلة بحرص وغيرة ، ولكنها تشير دائماً إلى أنها تفعل ذلك «مثل رقيب عسكري» . فلا شيء من التدليل ، لأن ذلك ليس في طبعها ، أضف إلى ذلك أن الطفل يجب أن يصبح قوياً مثل أسلافه ، والدلال لا يؤدي إلا إلى تشويه الرجولة ، مثلما كانت تحذر إلزا كلما وجدتها تحمل الصغير بين ذراعيها وتروي له حكايات تشيلية . أما تلك الرقة في معاملة حمائمها فهي عائق جدي ، والأدهى من ذلك أنهن انتبهن للأمر وبدأن بمناداتها «أمنا» . وكان اللقب يغيظها ، فمنعتهن من ذلك ، ولكنهن لم ينصعن . فصارت تدمدم : «يا للعنة! العلاقة بيننا تجارية . لا يمكنني أن أكون أكثر وضوحاً : فما دمتن تعملن ستحصلن على دخل ، وسقف ، وطعام ، وحماية ، أما في اليوم الذي تمرضن فيه ، أو تضعفن أو تظهر التجاعيد والشيب ، فسأقول لكنّ وداعاً! وليس هناك ما هو أسهل من استبدالكن بأخريات ، فالعالم مليء بالساقطات» . وعندئذ تلف وجودها فجأة حبائل ذلك الشعور العذب الذي لا يمكن لأي قوادة بكامل وعيها أن تسمح لنفسها به . وكان بابالو الشرير يسخر منها : «كل هذا يحل بك لأنك مخلوقة طيبة» . وقد كانت كذلك فعلاً ، فبينما كانت تهدر وقتاً ثميناً في العناية بمرضى لا تعرف حتى أسماءهم ، لم تكن «الست» الأخرى في القرية تسمح لأي مصاب بالوباء بأن يقترب من محلها . وكانت جو تزداد فقراً بينما الأخرى تسمن وتصبغ شعرها بالأشقر ، وتتخذ عشيقاً روسياً أصغر منها بعشر سنوات ، له عضلات رياضي وماسة مثبتة في أحد أسنانه ، وكانت قد وسعت تجارتها وصار المَنجميون يصطفون أمام بابها في نهاية الأسبوع وهم يحملون النقود في يد والقبعة في اليد الأخرى ، إذ لا يمكن لأي امرأة ، مهما كان الحضيض الذي انحطت إليه ، أن

تتسامح مع من يحدثها وقبعته على رأسه . وكانت جو تؤكد : ليس ثمة مستقبل في نهاية الأمر لهذه المهنة ، فالقانون لا يحميهن ، والرب قد نسيهن ، ولا يلمحن أمامهن سوى الشيخوخة والفقر والعزلة . وقد خطرت لها فكرة العمل في غسل الثياب وصنع الحلوى لبيعها ، مع الحفاظ على تجارة طاولات القمار والكتب البذيئة ، ولكن فتياتها لم يكن مستعدات لكسب عيشهن من أعمال بمثل تلك القسوة والأجر السيئ . فتتنهد بحزن :

- هذه المهنة براز يا صغيراتي . عليكن أن تتزوجن... ادرسن وصرن معلمات . افعلن شيئاً بحياتكن ولا تسببن لي مزيداً من الإزعاج!

وبابالو الشرير كان ضجراً كذلك من القيام بدور القبضاي والحارس . فحياة القعود تسبب له الملل ، وكسارة العظام تغيرت كثيراً ، ولم يعد هناك مغزى لمواصلة العمل معها . فما الذي بقي له إذا كانت هي نفسها قد فقدت حماسها للمهنة ؟ وكان في لحظات اليأس يثق بالتشيلي الصغير ، ويتسليان معاً في وضع خطط خيالية لانعتاقهما : سيقيمان استعراضاً متجولاً ، وكانا يتحدثان عن شراء دب وتعليمه الملاكمة للتنقل من قرية إلى أخرى وتحدي الشجعان للعراك بالقبضات مع الحيوان . كان بابالو يبحث عن المغامرة وإلزا تفكر بأن ذلك سيكون ذريعة مناسبة للسفر مع رفيق بحثاً عن خواكين اندييتا . فباستثناء طهو الطعام والعزف على البيانو ، لم يكن هناك نشاط كثير يمكنها القيام به مع كسارة العظام ، وكانت بدورها تشعر بتعكر المزاج من حياة البطالة . فهي ترغب في استعادة الحرية الفسيحة في الدروب ، ولكنها أحبت أولئك الناس وكانت فكرة الابتعاد عن توم بلا قبيلة تمزق قلبها . لقد صار الطفل يقرأ دون صعوبة ويكتب باجتهاد ، لأن إلزا أقنعته بأنه يجب عليه أن يدرس عندما يكبر ليصير محامياً ويدافع عن حقوق الهنود ، بدل الثأر بالرصاص للموتى ، مثلما أرادت جو ، وكانت تقول له : «ستصبح بذلك محارباً أقوى بكثير ، وسيرهبك الغرينغيون» . ولم يكن يضحك بعد ، ولكنه

في مناسبتين اثنتين ، عندما جلست إلى جانبه لتحك له رأسه ، رسم ظل ابتسامة على وجهه الهندي الغاضب .

حضر تاو تشين إلى بيت جو كسارة العظام في الساعة الثالثة من يوم أربعاء من شهر كانون الأول . فتح له الباب توم بلا قبيلة ، وأدخله إلى الصالة الخاوية في تلك الساعة ، وذهب لاستدعاء الحمائم . بعد قليل دخلت المكسيكية الجميلة إلى المطبخ ، حيث كان التشيلي الصغير يعجن الخبز ، لتعلن أن هناك صينياً يسأل عن إلياس أنديتا ، ولكن إلزا لم تنتبه إليها لأنها كانت مستغرقة بالعمل وبذكرى أحلام الليلة السابقة ، حيث تختلط موائد يانصيب بعيون مفقوءة . فكررت المكسيكية :

ـ أقول لك إن هناك صينياً ينتظرك .

عندئذ رفس قلب إلزا في صدرها رفسة بغل ، وصرخت وهي تخرج راكضة :

ـ تاو!

ولكنها حين دخلت الصالة وجدت نفسها أمام رجل مختلف جداً ، احتاجت لبضع ثوان كي تتعرف عليه . إذ لم تعد له ضفيرة ، وكان شعره قصيراً ، مصمغاً ومسرحاً إلى الخلف ، وكان يستخدم نظارات مدورة ذات إطار معدني ، ويرتدي بدلة قاتمة ذات سترة طويلة ، وصدرية بثلاثة أزرار وبنطلوناً ضيقاً . ويحمل على ذراعه معطفاً ومظلة ، وفي يده الأخرى قبعة عالية .

ـ رباه! ماذا جرى لك يا تاو ؟

فابتسم لها :

ـ لا بد للمرء في أميركا من أن يلبس مثل الأمريكيين .

لقد هاجمه في سان فرانسيسكو ثلاثة قتلة وقبل أن يتمكن من سحب سكينه من حزامه ، أفقدوه الوعي بضربة هراوة لمجرد التسلية بواحد من « السماويين » ، وعندما استعاد وعيه وجد نفسه مرمياً في زقاق ، ملطخاً

بالقذارة ، وضفيرته مقطوعة وملفوفة حول عنقه . فقرر عندئذ إبقاء شعره قصيراً وارتداء ملابس الفان غووي . وقد تميزت هيئته الجديدة عن حشود الحي الصيني ، ولكنه اكتشف أنهم يتقبلونه أفضل بكثير في الخارج وتُفتح له أبواب أماكن كانت محظورة عليه . ربما كان الصيني الوحيد الذي له ذلك المظهر في المدينة . فالضفيرة تعتبر مقدسة وقصها يعني النية بعدم العودة إلى الصين والاستقرار نهائياً في أميركا ، وهي خيانة لا تغتفر للإمبراطور ، والوطن ، والأسلاف . ولكن بدلته وتسريحته كانتا تثيران بعض الإعجاب أيضاً ، لأنهما تدلان على أنه قادر على دخول عالم الأمريكيين . لم تستطع إلزا رفع بصرها عنه : إنه غريب عنها وعليها أن تعود إلى التآلف معه من البداية . انحنى تاو تشين عدة مرات بتحيته المعهودة ولم تتجرأ هي على الانصياع لدافعها الذي كان يحرق بشرتها لمعانقته . لقد نامت معه جنباً إلى جنب ، ولكن أياً منهما لم يلمس الآخر إلا بذريعة النوم .

- أظن أنك كنت تروقني أكثر وأنت صيني من أعلى إلى أسفل يا تاو . إنني لا أعرفك الآن . - ثم طلبت منه : - دعني أشمك .

بقي مشوشاً ودون حراك بينما هي تشمه مثلما يشم الكلب طريدته ، وتعرفت أخيراً على عبق البحر الخفيف ، رائحة الماضي المنعشة نفسها . لقد جعلته قصة شعره والملابس الصارمة يبدو أكبر سناً ، ولم يعد يملك تلك اللمسة من التدفق الشبابي السابق . وكان قد نحل وبدا أطول قامة ، وبرزت وجنتاه في وجهه الأملس . تفحصت إلزا فمه بمتعة ، فهي تتذكر تماماً ابتسامته المُعدية وأسنانه المنتظمة ، ولكن ليس شكل شفتيه الشهواني . لاحظت تعبيراً كئيباً في عينيه ، ولكنها ظنته من تأثير النظارة . وقالت وقد فاضت عيناها بالدموع :

- كم هو رائع أن أراك يا تاو!

- لم أستطع المجيء من قبل ، لأنه لم يكن لدي عنوانك .

ـ يروقني أيضاً مجيئك الآن . إنك تبدو مثل موظف دفن الموتى ، ولكنك موظف دفن وسيم .

فابتسم :

ـ وهذا هو ما أمارسه الآن ، دفن الموتى . عندما علمت بأنك تعيشين في هذا المكان ، فكرت بأن نبوءة أثوثينا بلاثيرس قد تحققت . كانت تقول بأنك ستنتهين مثلها عاجلاً أو آجلاً .

ـ لقد أوضحت لك في الرسالة بأنني أكسب عيشي من عزف البيانو .

ـ غير معقول!

ـ لماذا ؟ أنت لم تسمعني قط ، ولكن عزفي ليس سيئاً . وإذا كنتُ قد استطعت التحول إلى صيني أصم وأبكم ، فإنني قادرة على التحول أيضاً إلى عازف بيانو تشيلي .

انفجر تاو تشين بالضحك مدهوشاً ، لأنها المرة الأولى التي يشعر فيها بالسعادة منذ شهور .

ـ وهل عثرت على حبيبك ؟

ـ لا . لم أعد أعرف أين أبحث عنه .

ـ ربما لا يستحق أن تعثري عليه . تعالي معي إلى سان فرانسيسكو .

ـ ليس لدي ما أفعله في سان فرانسيسكو...

ـ وهنا ؟ ها قد بدأ الشتاء ، وبعد حوالى أسبوعين تصبح الطرق غير سالكة وتصير هذه القرية معزولة .

ـ من الممل جداً أن أكون أخاك الأبله الصغير يا تاو .

ـ هناك الكثير مما يمكن عمله في سان فرانسيسكو ، سترين ذلك ، ولن يكون عليك أن تلبسي زي الرجال ، فهناك الآن نساء في كل مكان .

ـ وماذا عن مشاريعك للعودة إلى الصين ؟

ـ إنها مؤجلة . لا يمكنني الذهاب بعد .

فتيات سينغ سونغ

في صيف العام ١٨٥١ قرر جاكوب فريمونت إجراء مقابلة صحفية مع خواكين موريتيا . فقد كان قطاع الطرق والحرائق هما الموضوعان الرائجان اللذان يرعبان الناس ويشغلان الصحافة في كاليفورنيا . لقد أفلتت الجريمة من عقالها ، وكان معروفاً للجميع فساد الشرطة المؤلفة بمعظمها من مجرمين يهتمون بحماية رفاقهم أكثر من اهتمامهم بحماية الأهالي . وبعد حريق عنيف دمر جزءاً كبيراً من سان فرانسيسكو ، تشكلت «لجنة حراس» مؤلفة من مواطنين هائجين يترأسهم الغني عن التعريف سام برانان ، وهو المرموني الذي نشر في عام ١٨٤٨ خبر اكتشاف الذهب . كانت فرق الإطفائيين تهرع وهي تجر بالحبال عربات الماء صعوداً إلى الرابية ونزولاً منها ، ولكنها قبل أن تصل إلى مبنى ، تكون الريح قد دفعت ألسنة اللهب إلى المبنى المجاور . وقد اندلعت النيران عندما صب «السلوقيون» الأستراليون الكيروسين على دكان تاجر رفض دفع إتاوة الحماية لهم ، ثم ألقوا عليه مِشعلاً . وحيال عدم مبالاة السلطات ، قررت «اللجنة» أن تتصرف بنفسها . وكانت الصحف تصرخ : «كم من الجرائم اقترفت في هذه المدينة خلال سنة ؟ ومن الذي شُنق أو عُوقب على تلك الجرائم ؟ لا أحد! كم من الرجال قُتلوا بالرصاص أو طُعنوا بالسكاكين أو تعرضوا للضرب وأغمي عليهم ، ومن الذي أدين في تلك الأعمال ؟ لسنا

نؤيد اللنشنغ[1] ، ولكن من يعرف ما الذي يمكن للجمهور الغاضب أن يفعله لحماية نفسه ؟ » الشنق باللنشنغ ، هذا هو بالضبط الحل الذي تبناه الجمهور . وانطلق « الحراس » على الفور إلى المهمة وشنقوا أول مشبوه صادفوه . وراح أعضاء « اللجنة » يتكاثرون يوماً بعد يوم ، ويعملون بحماس هستيري اضطر معه قطاع الطرق لأول مرة إلى الحذر من العمل في وضح النهار . وفي أجواء العنف والحذر تلك ، بدأت صورة خواكين مورييتا تتحول إلى رمز . وتولى جاكوب فريمونت تأجيج نار شهرته ؛ فخلقت مقالاته المؤثرة بطلاً للهسبانيين وشيطاناً لليانكيين . ونسبَ إليه عصابة كبيرة ، وموهبةً نابغةٍ عسكري ، فكان يقول عنه إنه يخوض حرب مناوشات تقف حيالها السلطات عاجزة . فهو يهاجم بدهاء وسرعة ، منقضاً على ضحاياه مثل لعنة ، ثم يختفي في الحال دون أن يخلف أثراً ، ليبرز بعد قليل على بعد مئة ميل موجهاً ضربة أخرى فريدة الجرأة ولا يمكن تفسيرها إلا بأنها من فنون السحر . وكان الشك يراود فريمونت بأن خواكين مورييتا ليس شخصاً واحداً ، وإنما عدة أشخاص ، ولكنه لم يعلن ذلك ، كيلا يحطم الأسطورة . وقد بدا ملهماً بالمقابل حين أسماه « روبن هود كاليفورنيا » ، فأشعل بذلك على الفور محرقة خصومة عرقية . فصار موريتا يجسد في نظر اليانكيين أشد ما هو بغيض في المزيتين ، بينما كان المكسيكيون كما يعتقد يتسترون عليه ، ويقدمون إليه الأسلحة ، ويمدونه بالمؤن ، لأنه يسرق اليانكيين ليساعد أبناء جلدته . فقد خسر المكسيكيون في الحرب أراضي تكساس ، واريزونا ، ونيومكسيكو ، ونيفادا ، ويوته ، ونصف كولورادو وكاليفورنيا ؛ وكان أي اعتداء على اليانكيين يعتبر عملاً وطنياً في نظر المكسيكيين . وقد حذر حاكم الولاية

---

(١) اللنشنغ lynching: طريقة في الإعدام غير قانونية ودون محاكمة شاعت في الولايات المتحدة ، وتجري بشنق المتهم على شجرة أو عمود في الشارع على يد جموع من المواطنين الهائجين ، والمتعصبين في الغالب ، وقد مورست هذه الطريقة في الشنق بكثرة ضد الزنوج .

الصحيفة من تحويل المجرم إلى بطل ، ولكن الاسم كان قد ألهب المخيلة الشعبية . وراحت تصل إلى فريمونت عشرات الرسائل ، بما في ذلك رسالة من شابة من واشنطن تعرب عن استعدادها للإبحار حول نصف العالم لتتزوج من قاطع الطريق ، وصار الناس يوقفونه في الشارع ليستفسروا منه عن بعض التفاصيل عن خواكين موريينا ، فكان الصحفي يصفه ، دون أن يكون قد رآه قط ، بأنه شاب رجولي المظهر ، له تقاطيع نبيل إسباني وجرأة مصارع ثيران . لقد وقع فريمونت ، دون قصد منه ، على منجم أكثر مردودية من معظم المناجم المنتشرة على امتداد سلسلة جبال فيتا مادري . وفكر بإجراء مقابلة مع ذلك المدعو خواكين ، إذا كان له وجود ، ليكتب سيرة حياته ، أما إذا كان مجرد أسطورة فإن الموضوع يصلح لرواية . ودوره كمؤلف سيقتصر ببساطة على كتابة الرواية بنبرة بطولية ملائمة لذوق جمهور الرعاع . وكان فريمونت يؤكد بأن كاليفورنيا تحتاج إلى خرافات وأساطير خاصة بها ، فهي ولاية وليدة في نظر الأمريكيين الذين يسعون إلى شطب التاريخ السابق للهنود الحمر والمكسيكيين والكاليفورنيين بجرة قلم . وأي بطل أفضل من قاطع طريق لتلك الأرض ذات الامتدادات غير المتناهية والرجال المتوحدين ، تلك الأرض المهيأة للارتياد والعنف ؟ وضع حاجاته الضرورية في حقيبة ، وتمون بما يكفي من الدفاتر والأقلام وانطلق بحثاً عن شخصية روايته . لم تخطر لذهنه المخاطر ، وظن بعنجهيته المزدوجة كإنكليزي وصحفي بأنه محصن من أي سوء . وباستثناء ذلك ، كان يسافر بشيء من الراحة ، فقد صارت هناك طرق وعربات نقل منتظمة تصل بين القرى التي فكر بإجراء تحقيقاته فيها ، فالأمور لم تعد مثلما كانت في السابق ، حين بدأ عمله في كتابة الريبورتاجات وكان يمضى على متن بغل شاقاً طريقه وسط جبال وغابات مريبة ، دون دليل سوى بعض الخرائط الجنونية التي يمكن لمن يهتدي بها أن يسير في دوائر إلى الأبد . وفي الطريق استطاع أن يلحظ التغيرات التي طرأت على المنطقة .

وسجل الصحفي في دفتره : لقد اغتنى قليلون بالذهب ، ولكن كاليفورنيا تحضرت بفضل المغامرين الذين قدموا بالآلاف . فلولا حمى الذهب لكان ارتياد الغرب قد تأخر قرنين آخرين .

لم تكن تنقصه الموضوعات ، مثل قصة ذلك المنجمي الشاب ، ابن الثامنة عشرة الذي أمضى أكثر من سنة في العوز ، وتمكن من جمع عشرة آلاف دولار كان بحاجة إليها لكي يعود إلى أوكلاهوما ويشتري مزرعة لأبويه . وبينما هو يهبط على سفوح سييرا نيفادا متوجهاً إلى سكرامينتو في يوم مشرق ، وكيس كنزه معلق على ظهره ، فاجأته شرذمة من المكسيكيين أو التشيليين القساة ، إذ لم يكن ذلك مؤكداً . وما عُرف بصورة مؤكدة هو أنهم يتكلمون الإسبانية ، لأن الوقاحة بلغت بهم حد ترك يافطة بهذه اللغة ، مخربشة بسكين على قطعة من الخشب : « الموت لليانكيين » . ولم يكتفوا بضربه وسلبه ، بل قيدوه إلى شجرة وطلوه بالعسل . وعندما عثرت عليه دورية بعد يومين من ذلك ، كان قد أصيب بالجنون . وكان البعوض قد التهم جلده .

وقد وضع فريمونت موهبته في الصحافة الوبيلة موضع اختبار في النهاية المأساوية التي انتهت إليها خوسيفا ، وهي مكسيكية جميلة تعمل في صالة للرقص . فقد دخل الصحافي إلى بلدة دونيفيل في يوم الاستقلال ، ووجد نفسه وسط احتفال يترأسه سيناتور مرشح ويرويه نهر من الخمر . وكان باحث عن الذهب مخموراً قد دخل بالقوة السافرة إلى غرفة خوسيفا فصدته بغرس سكينها في منتصف قلبه . وعندما وصل جاك فريمونت كان جسد القتيل مسجى على طاولة ، ومغطى بعلم أمريكي ، بينما حشد من ألفي متعصب متأججين بالحقد العنصري يطالبون بالمشنقة لخوسيفا . وكانت المرأة هادئة ، تدخن سيجارتها وكأن تلك الضجة لا تعنيها ، وبلوزتها البيضاء ملطخة بالدم ، بينما هي تجوب وجوه الرجال بازدراء سحيق ، مدركة مزيج العدوانية والرغبة الجنسية المتأججة التي تثيرها فيهم . تجرأ طبيب على التكلم لمصلحتها ،

وأوضح بأنها قد تصرفت دفاعاً عن النفس ، وأن إعدامها سيؤدي كذلك إلى قتل الجنين الذي في بطنها ، ولكن الحشد أجبره على السكوت مهدداً بشنقه هو أيضاً . وجيء بثلاثة أطباء مذعورين بالقوة لكي يفحصوا خوسيفا ، وأبدى الثلاثة رأيهم بأنها غير حبلى ، ونظراً لذلك أدنتها المحكمة المرتجلة خلال دقائق قليلة . وقد قال أحد القضاة : « من غير المستحسن قتل هؤلاء المزيتين بالرصاص ، بل يجب منحهم محاكمة عادلة وشنقهم بكل مهابة القانون » . لم يكن فريمونت قد شهد عملية لينشنغ عن قرب واستطاع أن يصف بعبارات مؤثرة كيف أرادوا في الساعة الرابعة مساء أن يجرجروا خوسيفا إلى الجسر ، حيث رتبوا طقوس الإعدام ، ولكنها انتفضت بكبرياء وتقدمت بنفسها إلى المنصة ، ووضعت الحبل حول عنقها ، وسوت وضع جديلتيها السوداوين وودعت الحشد بشجاعة : « الوداع أيها السادة » ، فتركت الصحفي مرتبكاً والآخرين مجللين بالعار . وقد كتب فريمونت في مقاله : « لم تمت خوسيفا لأنها مذنبة ، وإنما لأنها مكسيكية . إنها المرة الأولى التي يشنقون فيها امرأة في كاليفورنيا . يا له من تبذير ، حين تكون النساء قليلات إلى هذا الحد! » .

وبينما هو يتتبع آثار خواكين موريتا اكتشف وجود قرى مستقرة ، فيها مدرسة ، ومكتبة ، ومعبد ، ومقبرة ؛ وأخرى دون أي معلم من معالم الثقافة باستثناء ماخور وسجن . وكان هناك « صالون لهو » في كل واحدة منها ، وهو مركز الحياة الاجتماعية . وهناك كان يستقر جاكوب فريمونت مستقصياً ، وهكذا راح يشيد من بعض الحقائق وأكوام من الأكاذيب مسيرة - أو أسطورة - خواكين مرييتا . كان أصحاب الحانات يصفونه بأنه إسباني رجيم ، يرتدي الجلد والمخمل الأسود ، ويضع مهمازين من فضة وخنجراً في حزامه ، ويمتطي أسرع حصان أشقر رأوه في حياتهم . وقالوا إنه يدخل دون خوف من عقاب وسط جلبة مهاميز وبين بطانته من الخارجين على القانون ، فيضع دولاراته الفضية على الطاولة ويأمر بجولة من الشراب لكل الزبائن . وليس هناك من

يجرؤ على رفض كأسه ، فحتى أكثر الرجال شجاعة يشربون وهم صامتون تحت نظرات الوغد الصاعقة . أما في رأي المأمورين القضائيين بالمقابل ، فلم يكن هناك أي شيء من الأبهة في تلك الشخصية ، فهو مجرد قاتل مبتذل قادر على اقتراف أسوأ الفظائع ، وإنه استطاع الإفلات من العدالة لأن المزيتين يحمونه . فالتشيليون يعتبرونه واحداً منهم ولد في مكان يدعى كييوتا ، ويقولون إنه كان وفياً لأصدقائه ولا ينسى أبداً رد جميل يتلقاه ، وبالتالي فإن مساعدته هي سياسة جيدة . ولكن المكسيكيين يقسمون بأنه ينحدر من ولاية سونورا ، وأنه كان شاباً مؤدباً ، من أسرة عريقة ونبيلة ، تحول إلى مجرم من أجل الانتقام . واعتبره المقامرون خبيراً في لعبة « مونت » ولكنهم تجنبوه لأن حظاً مجنوناً يحالفه في ورق اللعب ، ولأن خنجراً مرحاً يظهر في يده لدى أول استفزاز . والعاهرات البيض يمتن فضولاً لما يشاع عن أن لذلك الفتى الوسيم والسخي ، أير مهر لا يكل ؛ أما العاهرات الهسبانيات فلا ينتظرنه ، إذ اعتاد خواكين مورييتا أن يمنحهن مكافآت غير مستحقة ، لأنه لم يستفد قط من خدماتهن ، ويؤكدن أنه مخلص لخطيبته . وكان البعض يصفونه بأنه متوسط طول القامة ، له شعر أسود وعينان مشعتان كالجمر ، محبوب من عصابته ، لا يتنازل أما الخصوم ، قاس مع أعدائه ومهذب مع النساء . ويؤكد آخرون بأن له المظهر الغليظ لمجرد مجرم مصفى ، وهناك ندبة جرح مرعب تقطع وجهه ، وليس فيه أي شيء من الوسامة أو الوجاهة أو الأناقة . أخذ جاكوب فريمونت ينتقي الآراء التي تتفق أفضل من غيرها مع الصورة التي رسمها لقاطع الطريق ، وراح يعكسها في كتاباته ، مغلفة على الدوام بما يكفي من الغموض ، كما لو أنه يريد الحفاظ على خط الرجعة تحسباً للقاء قد يجمعه وجهاً لوجه ببطله في أحد الأيام . جاب المنطقة من أعلاها إلى أدناها خلال شهور الصيف الأربعة دون أن يجده في أي مكان ، ولكنه استطاع أن يبني من الروايات المختلفة سيرة خيالية وبطولية . وبما أنه لم يشأ الاعتراف بهزيمته ،

فقد راح يختلق في مقالاته لقاءات قصيرة تجري في أوقات غير محددة ، في مغاور الجبال أو في أعماق الغابات . ومن الذي سيكذبه ؟ فقد كان يقول إن رجالاً مقَنَّعين اقتادوه على حصان وهو معصوب العينين ، لا يمكنه التعرف عليهم ولكنهم يتكلمون الإسبانية . إنها البلاغة المتدفقة نفسها التي استخدمها قبل سنوات في تشيلي لوصف الهنود الباتاغونيين في منطقة أرض النار التي لم تطأها قدماه ، وها هو يستخدمها الآن ليُخرج من كُمه قاطع طريق مُتَخَيّل . لقد راح يُغرم بالشخصية وانتهى به الأمر إلى الاقتناع بأنه يعرفه ، وأن اللقاءات السرية في المغاور هي واقعية ، وأن الهارب نفسه قد كلفه بمهمة كتابة مآثره ، لأنه يعتبر نفسه المنتقم للإسبان المقهورين ، وأنه لا بد لأحد من أن يتولى مهمة منحه ومنح قضيته المكانة التي يستحقانها في تاريخ كاليفورنيا الناشيء . لقد كان فيما يكتبه قدر قليل من الصحافة ، ولكنه ينضح بما يكفي من الأدب لكتابة الرواية التي خطط فريمونت لتأليفها في ذلك الشتاء .

•

عندما قدم تاو تشين إلى سان فرانسيسكو قبل سنة من ذلك ، انهمك في إقامة الاتصالات الضرورية لكي يمارس مهنته كطبيب « جونغ يي » لبضعة شهور . لقد كان يملك شيئاً من المال ، ولكنه فكر في مضاعفته ثلاثة أضعاف بسرعة . فالجالية الصينية في سكرامينتو تضم حوالى سبعمئة رجل وتسع أو عشر عاهرات ، أما في سان فرانسيسكو فهناك آلاف الزبائن المحتملين . أضف إلى ذلك أن سفناً كثيرة تجتاز المحيط بانتظام ، وأن بعض السادة يبعثون قمصانهم لتُغسل في هاواي أو في الصين لأنه لا وجود للماء الجاري في المدينة ، وهذا يسمح له بأن يوصي على الأعشاب والأدوية من كانتون دون أية مصاعب . لن يكون في هذه المدينة معزولاً جداً مثلما كان في سكرامينتو ، فهناك عدد من الأطباء الصينيين ممن يمارسون المهنة ويمكنه

أن يتبادل معهم المرضى والمعارف . لم يكن ينوي افتتاح عيادة خاصة به ، لأنه يريد التوفير ، ولكنه يستطيع أن يشارك جونغ يي آخر مقيم هناك . ما أن استقر في فندق حتى خرج ليتجول في الحي الصيني الذي تمدد في كل الاتجاهات مثل أخطبوط . فقد صار الآن مدينة مسورة ذات مبان متينة ، وفنادق ، ومطاعم ، ومصابغ ، ومحلات لتدخين الأفيون ، ومواخير ، وأسواق ، ومصانع . وحيث كانوا يعرضون فيما مضى بعض البضائع الرخيصة ، انتصبت محلات لبيع العاديات الشرقية ، والخزف ، والمينا ، والمجوهرات ، والحرير ، والعاج . وإلى هناك كان يتوافد التجار الأغنياء ، ليس الصينيون وحسب وإنما كذلك الأمريكيون الذين يشترون تلك البضائع ليبيعوها في مدن أخرى . وكانت البضائع تعرض في فوضى مريعة ، ولكن أفضل القطع ، تلك الجديرة بمن يفهمون في التحف ويجمعونها ، فلم تكن تعرض للجميع ، بل يجري عرضها في الغرف الخلفية على الزبائن الجديين . وكانت بعض المحلات تأوي في حجرات مخفية مقامر يلتقي فيها مقامرون جريؤون . وعلى موائد القمار الحصرية تلك ، بعيداً عن فضول الجمهور وعن أعين السلطات ، كانت تجري المراهنة بمبالغ خيالية ، وتعقد صفقات غير نظيفة وتمارس السلطة . فحكومة الأمريكيين لا تتحكم بشيء بين الصينيين الذين يعيشون في عالمهم الخاص ، حيث يتحدثون لغتهم ، ويمارسون عاداتهم وقوانينهم المغرقة في القدم . فـ« السماويون » ليسوا موضع ترحيب في أي مكان ، والفرينغيون يعتبرونهم الأكثر خسة بين الأجانب غير المرغوب فيهم الذين يغزون كاليفورنيا ، ولا يغفرون لهم أنهم يزدهرون . فهم يستغلونهم قدر ما يستطيعون ، ويعتدون عليهم في الشارع ، ويسرقونهم ، ويحرقون متاجرهم وبيوتهم ، ويقتلونهم دون عقاب ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن يخيف الصينيين . وكانت هناك خمس « تونغات » تتقاسم السكان فيما بينها ؛ وكل صيني حديث القدوم ينضم فور وصوله إلى واحدة من هذه الأخويات ، وهي الطريقة الوحيدة لتوفير

الحماية ، والحصول على عمل ، وضمان أن جسده سينقل بعد وفاته إلى الصين . وتاو تشين الذي كان يتجنب الانضمام إلى أي « **تونغ** » ، اضطر الآن إلى عمل ذلك واختار أكثرها عدداً ، وهي التي ينضوي إليها معظم الكانتونيين . وسرعان ما عرّفوه على عدد من الجونغ يي ، وكشفوا له عن قواعد اللعبة . فالصمت والإخلاص أولاً وقبل كل شيء ؛ فما يحدث في الحي يبقى في شوارعه . فلا لجوء بأي حال إلى الشرطة ، حتى ولو كانت مسألة حياة أو موت ؛ والخلافات تُحل ضمن الجالية ، ولهذا وجدت « التونغ » . والعدو المشترك على الدوام هم الفان غووي . ووجد تاو تشين نفسه من جديد أسير العادات ، والمراتب ، وقيود أزمنته في كانتون . وخلال يومين لم يعد هناك من لا يعرف اسمه وبدأ يأتيه زبائن أكثر عدداً مما هو قادر على معالجته . فلم يعد بحاجة إلى البحث عن شريك ، وقرر عندئذ أنه يستطيع فتح عيادته الخاصة وجمع المال في وقت أقصر مما كان يتصوره . استأجر غرفتين فوق أحد المطاعم ، واحدة لمعيشته والأخرى للعمل ، وعلق إعلاناً على النافذة وتعاقد مع مساعد شاب ليعلن عن خدماته ويستقبل المرضى . واستخدم لأول مرة نظام الدكتور إيبانيزر هوبز في تتبع حالة المرضى . فقد كان حتى ذلك الحين يثق بذاكرته وحدسه ، ولكن ازدياد أعداد الزبائن فرض عليه البدء بوضع ملف يسجل فيه علاج كل واحد منهم .

في مساء أحد أيام الخريف الأولى جاء مساعده ومعه عنوان مدون على ورقة ودعوة إلى الحضور بأسرع ما يمكن . أنهى معاينة زبائن ذلك اليوم وانطلق إلى العنوان . كان البناء الخشبي المؤلف من طابقين ، والمزين بتنانين ومصابيح ورقية يقوم في مركز الحي . ودون أن يعيد النظر مرتين عرف أنه ماخور . فعلى جانبي الباب توجد نوافذ ضيقة ذات قضبان حديدية ، تطل منها وجوه طفولية لبنات يستدعين بالكانتونية : « أدخل هنا وافعل ما يحلو لك بطفلة صينية جميلة » ، ويرددن بإنكليزية مستحيلة ، من أجل زوار بيض

وبحارة من كل الأجناس : «دولاران للنظر ، وأربعة للمس ، وستة للممارسة» في الوقت الذي يكشفن فيه عن نهودهن الضامرة التي تدعو للرثاء ، ويغرين المارة بإيماءات بذيئة ، ولكن صدورها عن أولئك الصغيرات يجعلها تمثيلاً إيمانياً مأساوياً . لقد رآهن تاو تشين في مرات كثيرة ، فهو يمر يومياً من ذلك الشارع ، ومواء فتيات سينغ سونغ يلاحقه ، مذكراً إياه بأخته . ماذا حل بها يا ترى ؟ وفكر : ستكون في الثالثة والعشرين من عمرها إذا حدث ما هو غير محتمل وبقيت على قيد الحياة . فالمومسات الأشد فقراً بين الفقيرات يبدأن باكراً جداً ونادراً ما يعشن حتى الثامنة عشرة . أما إذا حالفهن سوء الحظ وعشن فإنهن يصبحن عجائز وهن في العشرين . وكانت ذكرى تلك الأخت الضائعة تمنعه من اللجوء إلى المحلات الصينية ؛ فإذا ما أفقدته الشهوة طمأنينته ، بحث عن نساء من أجناس أخرى .

فتحت له الباب عجوز مشؤومة ، شعرها مصبوغ بالأسود ، وحاجباها مرسومان بخطين من الفحم ، وحيته بالكانتونية . وعندما تبين أنهما ينتميان إلى «التونغ» نفسها قادته إلى الداخل . وعلى امتداد ممر يعبق برائحة كريهة رأى حجرات الفتيات ، وكان بعضهن مقيدات إلى الأسرة بسلاسل في كواحلهن . والتقى في عتمة الممر برجلين يخرجان وهما يسويان بنطلونيهما . اقتادته المرأة عبر متاهة من الممرات والأدراج ، واجتازا المبنى كله ونزلا عدة درجات متآكلة إلى الظلام . أشارت إليه بأن ينتظر ، وللحظة بدت له غير نهائية انتظر في ظلمة ذلك الجحر ، وكان يسمع ضجة الشارع القريب وكأنها آتية عبر مخففات للصوت . وسمع صَئِيّاً واهناً ولمس شيئ كاحلَه ، فأطلق ركلة وقدر أنه أصاب حيواناً ، ربما هو جرذ . رجعت العجوز وهي تحمل شمعة ، ثم قادته من ممر آخر متعرج إلى أن وصلا إلى باب مقفل بقفل . أخرجت المفتاح من جيبها وعالجت القفل حتى فتحته . رفعت الشمعة وأضاءت غرفة بلا نوافذ ، حيث الأثاث الوحيد هو سرير ضيق من ألواح

خشبية على ارتفاع بضع بوصات عن الأرض . صفعت وجهيهما موجة من رائحة نتنة ، فاضطرا إلى تغطية أنفيهما وفميهما ليدخلا . وكان على السرير جسد صغير منكمش ، وفنجان فارغ ومصباح زيت منطفئ .

أمرته المرأة :

ـ افحصها .

قلب تاو تشين الجسد وتبين له أن متصلب . إنها طفلة في حوالى الثالثة عشرة من عمرها ، على خديها دائرتان بحجم قطعة نقد مرسومتين بأحمر الشفاه . أما كل ما ترتديه فهو قميص رقيق . كان واضحاً أنها مجرد عظم ، ولكنها لم تمت من الجوع أو من مرض ، وقد حدد سبب الوفاة دون تردد :

ـ سمّ .

ـ ماذا تقول!- وضحكت المرأة وكأنها تسمع أكثر الأمور ظرافة .

وكان على تاو تشين أن يوقع على ورقة يصرح فيها بأن الموت حدث لأسباب طبيعية . أطلت العجوز على الممر وضربت ضربتين على صنج صغير ، وسرعان ما ظهر رجل دس الجثة في كيس ، وألقى بها على كتفه ومضى بها دون أن يقول كلمة واحدة ، بينما كانت القوادة تضع عشرين دولاراً في يد الجونغ يي . ثم قادته عبر متاهات أخرى إلى أن أوصلته أخيراً أمام بوابة . وجد تاو تشين نفسه في شارع آخر واحتاج لبعض الوقت كي يحدد مكانه ليعود إلى منزله .

رجع في اليوم التالي إلى العنوان نفسه . وكانت الطفلات هناك مرة أخرى بوجوههن المطلية بالأصبغة وعيونهن المخبولة ، يستدعين المارة بلغتين . لقد بدأ ممارسة الطب قبل عشر سنوات مع المومسات في كانتون ، وقد استخدمهن كلحم للإيجار ولتجارب الوخز بإبر معلمه الذهبية ، ولكنه لم يفكر يوماً بأرواحهن . فقد كان يعتبرهن واحدة من مصائب الكون الحتمية ، وخطأ آخر من أخطاء خلق هذا الكون ، وكائنات مكللة بالعار تتألم لتدفع ثمن أخطاء

اقترفتها في حيواتها السابقة ومن أجل تنظف كارماتها . كان يرثي لحالهن ، ولكن لم يخطر له أن بالإمكان تبديل مصيرهن . فليس لهن خيار آخر سوى انتظار محنتهن في حجراتهن ، مثلما تنتظر الدجاجات في أقفاص السوق ، فهذا هو قدرهن . هكذا هي فوضى العالم . وكان قد مرّ من ذلك الشارع ألف مرة دون أن يدقق النظر في النوافذ الصغيرة ، وفي الوجوه التي وراء القضبان أو في الأيدي المطلة من بينها . لقد كان لديه تصور غامض عن وضعهن كمستعبدات ، ولكن النساء جميعهن في الصين مستعبدات بهذا القدر أو ذاك . أوفرهن حظاً يكن مستعبدات من قبل آبائهن ، أو أزواجهن ، أو عشاقهن ، وأخريات مستعبدات لأرباب عمل يعملن من أجلهم من مطلع الشمس حتى مغيبها ، وكثيرات منهن مثل هؤلاء الطفلات . ولكنه في ذلك الصباح لم ينظر إليهن باللامبالاة نفسها ، لأن شيئاً فيه كان قد تغير .

لم يحاول النوم في الليلة السابقة . فبعد خروجه من الماخور توجه إلى حمّام عمومي . وهناك نقع جسده طويلاً في الماء ليتخلص من طاقة مرضاه القاتمة ومن الغم الفظيع الذي يُثقل عليه . وعندما وصل إلى بيته صرف مساعده وأعدّ لنفسه شاي الياسمين ، لكي يتطهر . لم يكن قد تناول طعاماً منذ ساعات طويلة ، ولكن الوقت لم يكن مناسباً لذلك . تعرى ، أشعل بخوراً وشمعة ، وجثا على ركبتيه ملامساً الأرض بجبهته وردد صلاه على روح البنت الميتة . ثم جلس بعد ذلك للتأمل طوال ساعات في سكينة تامة ، إلى أن تمكن من الانفصال عن صخب الشارع وروائح المطعم واستطاع الغرق في فراغ روحه وصمتها . لم يدر كم من الوقت بقي مستغرقاً يستدعي ويستدعي لين ، إلى أن سمعه الطيف الرقيق أخيراً في الاتساع السحري الذي يسكنه وراح يجد الطريق إليه ببطء ، مقترباً بخفة تنهيدة ، غير مُدْرَك في أول الأمر ، ثم أكثر فأكثر تجسداً ، إلى أن أحس تاو بحضور طيفها واضحاً . لم يشعر بلين بين جدران الغرفة ، وإنما في داخل صدره ، مستقرة في منتصف قلبه الساكن . لم

يفتح تاو تشين عينيه ولم يتحرك . وبقي لساعات في تلك الوضعية نفسها ، منفصلاً عن جسده ، طافياً في فراغ مضيء بتواصل كامل معها . وعند الفجر ، عندما تأكدا كلاهما من أن أحدهما لن يضيع عن الآخر ، ودعته لين بعذوبة . وعندئذ جاءه معلم الوخز بالإبر ، مبتسماً وساخراً ، مثلما كان في أفضل أزمنته ، قبل أن تصفعه صروف الشيخوخة ، وبقي معه ، مرافقاً إياه ومجيباً على أسئلته ، إلى أن طلعت الشمس ، واستيقظ الحي ، وسُمعت طرقات مساعده الخفيفة على الباب . نهض تاو تشين منتعشاً ومتجدداً ، مثلما يستيقظ بعد نوم هادئ ، وارتدى ثيابه ومضى ليفتح الباب . ثم قال لمساعده :

ـ أغلق العيادة . لن أستقبل اليوم مرضى ، لدي أعمال أخرى يجب القيام بها .

●

تحريات تاو تشين في ذلك اليوم بدلت مسار قدره . فالصغيرات اللواتي خلف القضبان آتيات من الصين ، حيث يلتقطن من الشوارع أو يبعن من قبل آبائهن أنفسهم بوعد أنهن سيذهبن للزواج في الجبل الذهبي . وكان الوكلاء يختارونهن من القويات ورخيصات الثمن ، وليس من الجميلات ، إلا إذا كانت هناك طلبيات خاصة من زبائن أثرياء ممن يقتنونهن كمحظيات . وقد كانت آه توي ، تلك المرأة الماكرة التي ابتكرت استعراض الثقوب في الجدار للفرجة عليها ، قد تحولت إلى أكبر مستوردي اللحم الفتي في المدينة . فقد كانت تشتري لسلسلة محلاتها فتيات في سن البلوغ ، لأن ترويضهن أسهل ولأنهن لن يبقين طويلاً على كل حال . وكانت تحقق شهرة وثراء واسعاً ، فخزائن أموالها كانت تتفزر من التخمة ، وقد اشترت قصراً في الصين لتتقاعد في شيخوختها . وكانت تفاخر بأنها « الست » الشرقية التي تقيم أفضل العلاقات ، ليس مع الصينين وحسب ، وإنما كذلك مع الأمريكيين المتنفذين . وكانت تدرب فتياتها لتَنَّس المعلومات ، فتعرف بذلك الأسرار الشخصية ،

والمناورات السياسية ، ونقاط ضعف رجال السلطة . فإذا ما أخفقت الرشاوى لجأت إلى الابتزاز . ولم يكن هناك من يتجرأ على تحديها ، لأن الجميع ، بدءاً من الحاكم فما دون لديهم سطوح من زجاج . كانت شحنات العبدات تدخل مرفأ سان فرانسيسكو دون عراقيل قانونية وفي وضح الظهيرة . ولكنها لم تكن التجارة الوحيدة ، فقد صار الفساد من أكثر التجارات مردوداً وضماناً في كاليفورنيا ، مثله مثل مناجم الذهب . فالنفقات تختزل إلى أدنى الحدود ، والفتيات رخيصات وينقلن في عنابر السفن ضمن صناديق كبيرة مبطنة . وهكذا يبقين على قيد الحياة لأسابيع ، لا يعرفن وجهتهن ولا سبب إبحارهن ، ولا يرين ضوء الشمس إلا عندما يكون عليهن تلقي دروساً في مهنتهن . ويتولى البحارة خلال الرحلة تدريبهن ، وحين ينزلن في سان فرانسيسكو يكن قد فقدن آخر أثر للبراءة . وقد يموت بعضهن من الديزنطاريا أو الكوليرا أو الجفاف ، وتتمكن أخريات من القفز إلى الماء في الوقت الذي ينقلونهن فيه إلى سطح السفينة لغسلهن بماء البحر . أما البقية فيبقين في المصيدة ، لا يتكلمن الإنكليزية ، ولا يعرفن هذه البلاد الجديدة ، وليس لهن مَنْ يلجأن إليه . ويتلقى موظفو الهجرة رشاوى ، فيغضون النظر عن مظهر البنات ويختمون وثائق التبني أو الزواج المزيفة دون أن يقرؤوها . وفي المرفأ تستقبلهن مومس قديمة خلفت لها المهنة قطعة حجر أسود مكان القلب . فتسوقهن بالعصا كما الماشية في وسط المدينة ، أمام نظر كل من هو راغب في المشاهدة . وما أن يجتزن عتبة الحي الصيني حتى يختفين إلى الأبد في متاهة من السراديب والحجرات الخفية ، والممرات السرية ، والأدراج الملتوية ، والأبواب الخادعة ، والجدران المزدوجة ، حيث لا مداهمات شرطية على الإطلاق ، لأن الشرطة ترى أن كل ما يجري هناك هو من « شؤون الصُفر » ، جنس المنحلين الذين لا حاجة للتدخل في أمورهم .

وفي فسحة هائلة تحت الأرض ، يسمونها للسخرية « قاعة الملكة » ،

تواجه الفتيات مصيرهن . فيتركونهن ليسترحن ليلة ، ويحممونهن ، ويقدمون لهن الطعام ، ويجبرونهن أحياناً على شرب كأس من الخمر لتشويشهن قليلاً . وعندما يحين موعد المزاد يقتادونهن عاريات إلى حجرة تغص بمشترين من النوعيات التي يمكن تخيلها ، فيأخذون بجسهن ، ويفحصون أسنانهن ، ويدسون أصابعهم حيث يحلو لهم ثم يقدمون في نهاية المطاف عروضهم . بعضهن يُبعن للمواخير الفاخرة أو محظيات للأثرياء ، وأقواهن بنية ينتهين عادة إلى أيدي الصناعيين أو أصحاب المناجم أو المزارعين الصينيين ليعملن لحسابهم طوال ما تبقى من حيواتهن القصيرة ؛ أما معظمهن فيبقين في حجرات الحي الصيني . وهناك تعلمهن العجائز المهنة : يجب عليهن أن يتعلمن التمييز ما بين الذهب والبرنز ، كيلا يخدعونهن عند الدفع ، واجتذاب الزبائن وإمتاعهم دون تذمر مهما كانت مطالبهم مُذلة أو مؤلمة . ومن أجل إضفاء مسحة من الشرعية على الصفقات ، فإنهن يوقعن عقداً لا يستطعن قراءته ، يبعن بمقتضاه أنفسهن لخمس سنوات ، ولكن كل شيء محسوب لكي لا يتحررن أبداً . فمقابل كل يوم يمرضن فيه يضاف أسبوعان إلى مدة خدمتهن ، وإذا ما حاولن الهرب يتحولن إلى عبدات إلى الأبد . كن يعشن مكدسات في حجرات بلا تهوية ، مقسمة بستائر سميكة ، يعملن مثل العبيد المجديفين في السفن حتى مماتهن . وإلى هناك توجه تاو تشين في ذلك الصباح ، ترافقه روحا لين ومعلمه طبيب الوخز بالإبر . قادته من يده مراهقة لا تكاد ترتدي سوى بلوزة إلى ما وراء الستارة ، حيث يوجد فراش قذر ، مدت يدها وطلبت منه أن يدفع أولاً . تلقت الدولارات الستة ، ثم استلقت على ظهرها وفتحت ساقيها وعيناها معلقتان بالسقف . كانت حدقتاها ميتتين وأنفاسها متعثرة ؛ فأدرك أنها مخدرة . جلس بجانبها ، وأنزل قميصها وحاول مداعبة رأسها ، ولكنها أطلقت صرخة قوية وتكورت على نفسها كاشفة عن أسنانها ومستعدة لعضه . ابتعد تاو تشين عنها ، وحدثها مطولاً بالكانتونية ، دون أن يلمسها ،

إلى أن بدأ تهادي صوته بتسكينها ، بينما هو يراقب الكدمات الحديثة في جسدها . وأخيراً بدأت ترد على أسئلته بالإيماءات أكثر من الكلمات ، لأنها كانت قد فقدت القدرة على استخدام اللغة ، وهكذا عرف بعض التفاصيل عن سبيها . لم تستطع أن تخبره كم مضى عليها هناك ، لأن حساب الزمن هو عمل غير مجد ، ولكنه ليس بالزمن الطويل ، لأنها مازالت تتذكر أسرتها في الصين بدقة محزنة .

انسحب تاو تشين عندما قدر أن دقائق دوره وراء الستارة قد انتهت . وكانت تنظره عند الباب العجوز نفسها التي استقبلته في الليلة السابقة ، ولكنها لم تبدِ ما يشير إلى أنها تعرفت عليه . وخرج من هناك ليستقصي في الحانات ، وفي صالات القمار ، ومحلات تدخين الأفيون ، ثم ذهب في النهاية لزيارة أطباء آخرين في الحي ، إلى أن تمكن شيئاً فشيئاً من إعادة تركيب أجزاء ذلك اللغز . فندما يشتد المرض على فتيات سينغ سونغ ولا يعدن قادرات على مواصلة الخدمة ، يقتادونهن إلى «المستشفى» ، كما يسمون الغرف السرية التي دخل إلى واحدة منها في الليلة السابقة ، ويتركونهن هناك مع فنجان ماء ، وقليل من الرز ومصباح فيه زيت يكفي لبضع ساعات . ثم يُفتح الباب بعد عدة أيام ، حين يدخلون ليتحققوا من حدوث الوفاة . فإذا ما وجدوهن على قيد الحياة ، يتولون تصريفهن : ما من واحدة منهن يمكنها العودة لرؤية ضوء الشمس . وقد استدعوا تاو تشين في ذلك اليوم لأن الجونغ يي المعهود كان غائباً .

وقد قال لإلزا بعد تسعة شهور من ذلك بأن فكرة مساعدة الفتيات لم تكن من بنات أفكاره ، وإنما هي فكرة لين ومعلمه في وخز الإبر .

ـ كاليفورنيا ولاية حرة يا تاو ، لا عبيد فيها . عليك أن تلجأ إلى السلطات الأمريكية .

ـ لا يوجد من الحرية ما يكفي الجميع . والأمريكيون عميان وصم يا

إلزا . فأولئك الفتيات لا يُرين ، مثلهم مثل المجانين والمتسولين والكلاب .

- ألا يهتم الصينيون بالأمر ؟

- بعضهم يهتمون ، مثلي ، ولكن ليس هناك من هو مستعد للمجازفة بحياته وتحدي المنظمات الإجرامية . والغالبية يرون أنه إذا كانت تلك الأمور تمارس في الصين طوال قرون ، فليس ثمة مبرر لانتقاد ما يجري هنا .

- يا لهم من قساة!

- ليست قسوة . الأمر ببساطة هو أن الحياة الإنسانية لا قيمة لها في بلادي . هناك بشر كثيرون ، ويولد على الدوام أطفال أكثر ممن يمكن إطعامهم .

- ولكن أولئك الفتيات بالنسبة إليك لسن فائضات عن الحاجة يا تاو...

- لا . فقد علمتني لين ، وأنت أيضاً ، الكثير عن النساء .

- وماذا ستفعل ؟

- كان علي أن أطيعك عندما كنت تقولين لي بأن أبحث عن الذهب . هل تتذكرين ؟ لو كنت غنياً لاشتريتهن .

- لكنك لست غنياً . ثم إن ذهب كاليفورنيا كله لا يكفي لشراء كل واحدة منهن . يجب منع هذه التجارة .

- هذا مستحيل ، ولكنني قد أتمكن من إنقاذ بعضهن إذا ما ساعدتني...

أخبرها بأنه استطاع في الأشهر الأخيرة أن ينقذ إحدى عشرة فتاة ، ولكن اثنتين منهما فقط بقيتا على قيد الحياة . وكانت طريقته في ذلك ضئيلة الفاعلية وتنطوي على المجازفة ، ولكنه لم يستطع تصور طريقة أخرى . فقد كان يعرض معالجتهن مجاناً حين يكن مريضات أو حبالى ، مقابل أن يسلموه المحتضرات . ورشا العجائز لكي يستدعينه كلما حان موعد إرسال واحدة من فتيات سينغ سونغ إلى « المستشفى » ، فيحضر عندئذ مع مساعده ، ويضعان المحتضرة على محفة ويأخذانها « للتجارب » ، مثلما كان تاو تشين يقول ، مع

أنهم نادراً ما كانوا يسألونه . فالفتاة لم تعد تساوي شيئاً وانحرافات هذا الدكتور الشاذة توفر عليهم مشكلة التخلص منها . وكانت الصفقة مرضية للطرفين . فقبل أخذ المريضة ، يسلمهم تاو تشين وثيقة وفاة ويطالب باستعادة عقد الخدمة الذي وقعته الفتاة ، لكي يتجنب المطالبة بهن . وفي تسع حالات كانت الفتيات في منأى عن أي شكل من أشكال النجاة ، واقتصر دوره ببساطة على إقامة أودهن في ساعاتهن الأخيرة ، ولكن اثنتين بقيتا على قيد الحياة .

وسألته إلزا :

- وماذا فعلت بهما ؟

- إنهما في غرفتي . ما تزالان ضعيفتان وإحداهما تبدو شبه مجنونة ، ولكنهما ستتعافيان . لقد بقي مساعدي لرعايتهما أثناء مجيئي للبحث عنك .

- أرى ذلك .

- لا يمكنني إبقاءهما حبستين لزمن طويل .

- ربما يمكننا إعادتهما إلى أسرتيهما في الصين...

- لا! ستعودان هناك إلى العبودية . في هذه البلاد يمكنهما النجاة ، ولكنني لا أعرف كيف .

- إذا كانت السلطات لا تقدم المساعدة ، فالناس الطيبين سيفعلون ذلك . فلنلجأ إلى الكنائس والمبشرين .

- لا أظن أن المسيحيين يهتمون بأولئك الفتيات الصينيات .

- يا لضعف ثقتك بالقلب البشري يا تاو!

تركت إلزا صديقها يتناول الشاي مع كسارة العظام ، ولفت واحداً من الأرغفة التي خبزتها للتو وذهبت لزيارة الحداد . وجدت جيمس مورتون نصف عارٍ ، يضع مريلة من الجلد ويعقد خرقة على رأسه وهو يتعرق أمام الكور . الحر في الداخل لا يطاق ، وتنبعث في الجو رائحة الدخان والحديد المحمى .

المكان عنبر مشيد من الخشب ، أرضيته ترابية ، وبابه الذي بمصراعين يبقى مفتوحاً في الصيف والشتاء خلال ساعات العمل . هناك في المقدمة منضدة طويلة لتلبية طلبات الزبائن ، وإلى الوراء الكور . وتتدلى من الجدران ودعائم السقف أدوات عمل وحدوات خيل صنعها موروتون . وفي القسم الخلفي من العنبر يوجد سلم نقال يؤدي إلى العلية التي تستخدم كغرفة نوم ، محمية من عيون الزبائن بستارة مشمعة من أوسنبورغ . الأثاث الذي في الأسفل مؤلف من حوض خشبي للاستحمام وطاولة وكرسيين ؛ والزينة الوحيدة هي علم أمريكي على الجدار وثلاث زهرات برية في كأس فوق الطاولة . كانت إستر تكوي جبلاً من الثياب وهي تهز بطنها الضخم وتقطر عرقاً ، ولكنها ترفع مكاوي الفحم الضخمة مترنمة . لقد جمّلها الحب والحمل وأضاءت وجهها مسحة طمأنينة كأنها الهالة . لقد كانت تغسل ثياب الآخرين ، وهو عمل لا يقل قسوة عن عمل زوجها بالسندان والمطرقة . فهي تُحمّل عربة يد بالملابس المتسخة ثلاث مرات كل أسبوع وتذهب بها إلى النهر ، وتقضي هناك معظم النهار جاثية على ركبتيها تدعك الملابس بالصابون والفرشاة . وإذا كانت الشمس مشرقة ، فإنها تنشر الثياب على الصخور ، ولكنها غالباً ما تضطر إلى العودة بالثياب المبللة بالكامل ، ويلي ذلك مهمة تنشية الثياب وكيها . لم يستطع جيمس مورتون صرفها عن عملها القاسي ، فهي لا تريد لطفلها أن يولد في ذلك المكان ، وتدخر كل سنت لكي تنتقل بالأسرة إلى بيت في القرية .

سارعت لاستقبال إلزا بعناق حار وهي تهتف :

ـ التشيلي الصغير! منذ وقت لم تأتِ لزيارتي .

فقالت إلزا وهي تعطيها الخبز :

ـ كم أنت جميلة يا إستر! الواقع أنني جئت للحديث مع جيمس .

أفلت الرجل أدوات عمله ، ومسح العرق بخرقة وقاد إلزا إلى الفناء ،

حيث انضمت إليهما إستر حاملة ثلاث كؤوس ليمونادة . كان الأصيل بارداً والسماء غائمة ، ولكن الشتاء لم يكن قد أعلن عن قدمه بعد . وكان الهواء يعبق برائحة قش قُطع حديثاً وتراب رطب .

خواكين

في شهر تشرين الثاني ١٨٥٢ أكل سكان شمالي كاليفورنيا دراقن ، ومشمشاً ، وعنباً ، وذرة طازجة ، وبطيخاً وشماماً ، بينما كان الناس في نيويورك وواشنطن وبوسطن ومدن أمريكية مهمة أخرى يرضخون لندرة الموسم . فبواخر باولينا كانت تنقل من تشيلي لذائذ صيف النصف الجنوبي من الكرة الأرضية ، التي كانت تصل سليمة على فرشة من الثلج الأزرق . وقد حققت تلك التجارة نتائج أفضل بكثير من ذهب زوجها وصهرها ، على الرغم من أن أحداً لم يعد يدفع ثلاثة دولارات مقابل ثمرة دراقن واحدة ولا عشرة دولارات ثمناً لدزينة من البيض . أما العمال التشيليون الذين خلفهم الأخوان رودريغيث دي سانتا كروث في مغاسل الذهب ، فتعرضوا للتمزيق على يد الغرينغيين . إذ انتزعوا منهم إنتاج عدة شهور ، وشنقوا مراقبيَ العمال ، وجلدوا عدداً منهم وصلموا آذانهم وطردوا بقية الغاسلين . وقد نُشرت الحادثة في الصحف ، ولكن التفاصيل المريعة رواها طفل في الثامنة من عمره ، هو ابن أحد مراقبّي العمال الذي شهد تعذيب أبيه وموته . وكانت بواخر باولينا تأتي كذلك بفرق مسرحية من لندن ، وأوبرا من ميلانو ، وثارثويلا(١) من مدريد ، لتقدم عروضها خلال وقت قصير في بالبارايسو ثم تواصل رحلتها بعد ذلك إلى الشمال . وكانت

---

(١) الثارثويلا zarzuela: نوع من المسرحيات الموسيقية التي تجمع ما بين الأوبرا والمسرح التقليدي . وهذا النمط من المسرح لم يعرف إلا في إسبانيا .

بطاقات العروض تباع قبل شهور ؛ وفي أيام العرض يلتقي في المسرح أفراد مجتمع سان فرانسيسكو الراقي وهم في أبهى ملابسهم الاحتفالية ، حيث عليهم أن يجلسوا جنباً إلى جنب مع المَنجميين الرعاع الذين يأتون بملابس العمل . ولم تكن السفن ترجع فارغة ؛ بل محملة بالدقيق الأمريكي إلى تشيلي ، وبمسافرين يعودون فقراء مثلما جاؤوا بعد أن شُفوا من وهم الذهب .

لقد كان بالإمكان رؤية كل شيء في كاليفورنيا باستثناء الشيوخ ؛ فالسكان هم من الشبان الأقوياء والصاخبين والأصحاء . لقد اجتذب الذهب جيش مغامرين ممن هم في العشرين ، ولكن حمى الذهب انقضت ، ولم ترجع المدينة ، تماماً مثلما تنبأت باولينا ، إلى وضعها السابق كقرية ، بل راحت تكبر وتتسع بتطلعات من التفنن والثقافة . وفي تلك الأجواء وجدت باولينا نفسها في صلصتها المفضلة ، فهي تحب ظرافة وحرية وتباهي ذلك المجتمع الوليد ، والمناقض تماماً لنفاق تشيلي . وكانت تفكر مفتونة بالغيظ الذي سيشعر به أبوها إذا ما كان عليه أن يجلس إلى طاولة واحدة مع حديث نعمة فاسد تحول إلى قاض ، ومع فرنسية ذات أصل مريب متبرجة كإمبراطورة . لقد ترعرعت بين جدران اللَبِن السميكة والنوافذ ذات القضبان الحديدية في بيت أبيها ، تنظر إلى الماضي ، وتنشغل بآراء الآخرين وبالعقوبات الإلهية ؛ أما في كاليفورنيا فلا قيمة للماضي ولا للوساوس ، فالشذوذ موضع ترحيب ، والخطيئة لا وجود لها إذا ما أُخفي الخطأ . كانت تكتب رسائل إلى أخواتها ، دون كبير أمل بأن تفلت من رقابة أبيها ، لكي تخبرهن عن تلك البلاد الرائعة ، حيث بالإمكان ابتكار حياة جديدة والتحول إلى مليونير أو متسول في مثل إغماضة عين وفتحها . إنها أرض الفرص ، الأرض المفتوحة والسخية . عبر بوابة الغولدن غيت تدخل جموع من البشر الهاربين من البؤس والعنف ، والمستعدين للعمل ومحو الماضي . ليس ذلك سهلاً ، ولكن أبناءهم سيكونون أمريكيين . روعة هذه البلاد هي في أن الجميع فيها يؤمنون بأن أبناءهم سيعيشون حياة أفضل . وكانت تكتب : «الزراعة هي الذهب الحقيقي في كاليفورنيا ، فالبصر يضيع في

المرابع الشاسعة المزروعة ، وكل شيء ينمو باندفاع في هذه الأرض المباركة . لقد تحولت سان فرانسيسكو إلى مدينة رائعة ، ولكنها لم تفقد طبيعة الموقع الحدودي الذي يفتنني . وما زالت مهداً للإباحيين ، والروحانيين ، والأبطال ، والأوغاد . يأتيها أناس من أقصى شواطئ المعمورة ، وتُسمع في شوارعها مئة لغة ، وتفوح أبخرة مأكولات خمس قارات ، ويُرى فيها أناس من كل الأعراق » . لم تعد مجرد معسكر رجال متوحدين ، فقد جاءتها نساء وتغير معهن المجتمع . كن صعبات المراس مثل المغامرين الذين توافدوا إليها بحثاً عن الذهب ؛ فمن أجل اجتياز القارة في عربات تجرها الجواميس لا بد من روح قوية ، وأولئك الرائدات كن يمتلكنها . ليس فيهن شيء من السيدات المتكلفات مثل أمها وأخواتها ، فالسائدات هناك هن الأمازونيات من أمثالها . وفي كل يوم يثبتن بسالتهن ، ويتنافسن دون كلل مع أشجع الشجعان ؛ لا أحد يصفهن بالجنس الضعيف ، والرجال يحترمونهن كأنداد لهم . يعملن في مهن محظورة عليهن في أماكن أخرى : ينقبن عن الذهب ، يُستخدمن كراعيات بقر ، يسقن قوافل بغال ، يصطدن قطاع الطرق المطلوبين للحصول على المكافآت ، ويُدرن صالات قمار ، ومطاعم ، ومغاسل ، وفنادق . وتسخر باولينا في رسائلها : « يمكن للنساء هنا أن يمتلكن العقارات ، وأن يشترين ويبعن أملاكاً ، وأن يُقدمن على الطلاق فعلاً إذا رغبن بذلك . وعلى فيليثيانو أن يتوخى الحذر ، لأنني سأتركه وحيداً ومعدماً لدى أول نذالة يرتكبها بحقي » . وتضيف أن كاليفورنيا تملك من السيئات أفضلها : الجرذان ، والبراغيث ، والأسلحة ، والرذائل .

وكان جاكوب فريمونت يكتب في الصحيفة : « يأتي أحدهم إلى الغرب الأمريكي ليهرب من الماضي ويبدأ من جديد ، ولكن هواجسنا تلاحقنا ، مثل الريح » . وقد كان هو نفسه مثالاً جيداً على ذلك ، لأن تغيير اسمه لم يفده كثيراً ، فعلى الرغم من تحوله إلى صحفي يكتب التحقيقات ويرتدي ملابس اليانكيين ، فقد بقي هو نفسه . وأكذوبة البعثات التبشيرية في بالبارايسو بقيت

وراءه ، ولكنه يصوغ الآن كذبة أخرى ويشعر ، مثلما شعر في السابق ، بأن ما اختلقه يهيمن عليه ، وأنه آخذ في الغرق الحتمي في ضعفه . لقد تحولت مقالاته عن خواكين موريبتا إلى هوس الصحافة . ففي كل يوم تبرز شهادات آخرين تؤكد ما كان قد قاله . وهناك عشرات الأشخاص يؤكدون بأنهم قد رأوه ويصفونه بالأوصاف التي ابتدعها له . لم يعد فريمونت واثقاً من شيء . إنه يتمنى لو أنه لم يكتب تلك القصة قط ، وتراوده نفسه في بعض الأحيان بالتراجع علناً ، والاعتراف بتزويره والاختفاء ، قبل أن تخرج القضية كلها في أسوأ حال وتهوي عليه مثل ريح عاصفة ، كما حدث في تشيلي من قبل ، ولكنه لم يملك الشجاعة لعمل ذلك . فقد أدارت الشهرة رأسه وصار يمضي دائخاً بها .

كان للقصة التي راح جاكوب فريمونت يصوغ بنيانها مواصفات الرواية الدرامية ضئيلة القيمة الفنية . فقد روى أن خواكين موريبتا كان شاباً مستقيماً ونزيهاً ، يعمل بشرف في مغاسل الذهب في ستانيسلاو برفقة خطيبته . وحين علم بعض الأمريكيين بازدهاره هاجموه ، وانتزعوا منه الذهب ، وضربوه ثم اغتصبوا خطيبته أمام ناظريه . فلم يجد الشابان المنكوبان طريقاً سوى الهرب ، واتجها إلى الشمال ، بعيداً عن مغاسل الذهب . واستقر بهما المقام للعمل كمزارعين يزرعان قطعة أرض شاعرية تحيطها الغابات ويجتازها جدول رائق ، مثلما يقول فريمونت ، ولكن الطمأنينة لم تدم لهما هناك أيضاً ، فقد جاء اليانكيون من جديد لينتزعوا منهما ما يملكان واضطرا للبحث عن وسيلة أخرى للعيش . بعد ذلك بقليل ظهر خواكين موريبتا في كالافيراس وقد تحول إلى لاعب « مونت » ، بينما راحت خطيبته تعد العدة لحفلة زواجهما في بيت أبويها في سونورا . ومع ذلك ، فقد كان مكتوباً على الفتى ألا يرتاح في أي مكان . فقد اتهموه بسرقة حصان ، وقيدته عصبة من الغرينغيين إلى شجرة دون أي إجراءات قانونية أخرى ، وجلدوه بوحشية في وسط الساحة . فكانت الإهانة أمام الملأ أكبر مما يمكن لشاب ذي كبرياء أن يتحمله ، وانقلب قلبه . بعد قليل من ذلك وجدوا يانكياً مقطع الأوصال ، مثل فروج معدّ للطبخ ، وحين جمعوا تلك الأشلاء

تعرفوا فيها على واحد من الرجال الذين أهانوا موريتا بالسوط . وفي الأسابيع التالية راح المشاركون الآخرون في إهانته يسقطون واحداً بعد الآخر ، وكل واحد منهم مُعذَّب ومقتول بطريقة جديدة . وحسب ما يقوله فريمونت في مقالاته : لم تُعرف قط مثل تلك القسوة في أرض الناس القساة تلك . وفي السنوات التالية صار اسم قاطع الطريق يظهر في كل مكان . فعصابته تسرق المواشي والخيول ، وتنقض على عربات النقل ، وتهاجم المَنجميين في مغاسل الذهب والمسافرين في الدروب ، وتتحدى المأمورين القضائيين ، وتقتل كل أمريكي ساه تقبض عليه ، وتضلل العدالة وتفلت من العقاب . ونُسبت إلى موريتا كل التجاوزات والجرائم التي مرت دون عقاب في كاليفورنيا . وكانت الأرض تساعد على التخفي ، فالصيد المائي والبري وفير في غابات يتلوها مزيد من الغابات ، وفي الجبال والوديان ، وفي المراعي المرتفعة التي يمكن لفارس أن يعدو فيها على جواده لساعات دون أن يخلف أثراً ، وفي المغاور العميقة للاختباء ، والممرات السرية بين الجبال لتضليل المطارِدين . أما حملات الرجال الذين يخرجون للبحث عن المجرمين فكانت ترجع صفر اليدين أو يلاقي أفرادها حتفهم في المحاولة . كل هذا كان يرويه جاكوب فريمونت موشى ببلاغته الخطابية ، ولم يخطر لأحد أن يطالبه بالأسماء ، أو التواريخ ، أو الأماكن .

•

كانت إلزا قد أمضت سنتين في سان فرانسيسكو وهي تعمل مع تاو تشين . وقد خرجت خلال تلك الفترة مرتين ، في فصلي الصيف ، للبحث عن خواكين موريتا بأسلوبها السابق نفسه : أي الالتحاق بمسافرين آخرين . لقد خرجت في المرة الأولى وهي تفكر بمواصلة الترحال إلى أن تجده أو إلى أن يبدأ الشتاء ، ولكنها رجعت بعد أربعة شهور منهوكة ومريضة . وفي صيف عام ١٨٥٢ سافرت من جديد ، ولكنها بعد أن جابت الدروب نفسها التي قطعتها في رحلتها السابقة ، وبعد أنْ زارت جو كسارة العظام التي استقرت نهائياً في دورها

كجدة لتوم بلا قبيلة ، وجيمس وإستر اللذين كانا ينتظران مولودهما الثاني ، رجعت بعد خمسة أسابيع لأنها لم تطق غم الابتعاد عن تاو تشين . لقد كانا يعيشان براحة في روتينهما ، متآخيين في العمل ومتقاربين في الروح مثل زوجين قديمين . وكانت تجمع كل ما ينشر عن خواكين موريتا وتحفظه عن ظهر قلب ، مثلما كانت تفعل في طفولتها بقصائد مس روز ، ولكنها تفضل أن تتجاهل الإشارة إلى خطيبة قاطع الطريق ، وتوضح ذلك لتاو تشين بالقول : « لقد ابتدعوا تلك الفتاة لكي يبيعوا الصحف ، وأنت تعرف كيف يُفتن الجمهور بالقصص الرومنسية » . وكانت تلاحق على خريطة مهلهلة تنقلات موريتا بإصرار ملاح ، ولكن المعلومات المتوفرة كانت غامضة ومتناقضة ، والدروب تتشابك مثل نسيج عنكبوت مزعزع ، دون أن تؤدي إلى أي مكان محدد . وبالرغم من أنها رفضت في البدء إمكانية أن يكون خواكينها هو الشخص نفسه الذي يرتكب الفظائع المريعة ، إلا أنها سرعان ما اقتنعت بأن مواصفات تلك الشخصية تنطبق تماماً على فتى ذكرياتها . فقد كان يتمرد أيضاً ضد التعسف وتتسلط على عقله فكرة مساعدة المحرومين . وربما لم يكن خواكين موريتا هو من يعذب ضحاياه ، وإنما أتباعه ، مثل جاك الثلاثة أصابع ذاك الذي يمكن أن يُصدق نسبة أي فظائع وحشية إليه .

واصلت ارتداء ملابس الرجال لأن ذلك يفيدها في التخفي الضروري جداً في مهمتها المتهورة مع فتيات سينغ سونغ التي أشركها تاو تشين فيها . لم تكن قد ارتدت فستاناً منذ ثلاث سنوات ، ولم تكن تعرف شيئاً كذلك عن مس روز ، وماما فريسيا وخالها جون ؛ وبدا لها وكأنها تطارد منذ ألف عام وهماً يصبح مستبعداً أكثر فأكثر . فزمن المعانقات المختلسة مع حبيبها بقيت بعيداً في الوراء ، ولم تعد واثقة من مشاعرها ، فهي لا تعرف إذا ما كانت تواصل انتظاره بدافع الحب أم الكبرياء . قد تمضي أسابيع في بعض الأحيان دون أن تتذكره ، وهي مستغرقة في عملها ، ولكن مخلب الذاكرة يوجه إليها فجأة ضربة تسبب لها الارتعاش . فتنظر عندئذ فيما حولها حائرة ، دون أن تتمكن من تحديد موقعها

في هذا العالم الذي انتهى بها المطاف فيه . ما الذي تفعله مرتدية بنطلوناً ومحاطة بصينيين ؟ ويكون عليها أن تنفض التشوش عنها لتتذكر بأن سبب وجودها هناك هو متطلبات الحب . وتفكر بأن مهمتها ليست بأي حال في مساعدة تاو تشين ، وإنما في البحث عن خواكين ، فهذا ما حملها على المجيء من بعيد ، وهو ما ستفعله ، ولو لمجرد أن تقول له وجهاً لوجه إنه هارب ملعون ، وإنه قد دمر شبابها . ولهذا السبب انطلقت للبحث عنه في المرات الثلاث السابقة ، ولكن إرادتها لا تطاوعها لمحاولة البحث من جديد . وتنتصب أمام تاو تشين لتعلن له عن تصميمها على مواصلة الترحال ، ولكن الكلمات تعلق مثل الرمل في فمها . لم يعد بإمكانها التخلي عن هذا الرفيق الغريب الذي مدها الحظ به .

لقد سألها تاو تشين في إحدى المرات :

- ماذا ستفعلين إذا ما وجدتِه ؟

- عندما أراه سأعرف إذا كنت ما أزال أحبه .

- وماذا إذا أنت لم تعثري عليه أبداً ؟

- أعتقد بأنني سأعيش مع الشك .

لقد لاحظت وجود بعض الشيب المبكر في صدغي صديقها . وكانت تراودها رغبة لا تُحتمل أحياناً في غرس أصابعها في ذلك الشعر الأسود القوي ، أو دس أنفها في رقبته لتشم عن قرب عبق المحيط الخفيف ، ولكن لم تعد تتوفر لهما الذريعة ليناما على الأرض ملتفين ببطانية ، وصارت احتمالات تلامسهما معدومة . لقد كان تاو يعمل ويدرس كثيراً ؛ ويمكنها أن تدرك كم هو متعب دون ريب . مع أنه يبدو دائماً غير متأثر ويحافظ على هدوئه حتى في أحرج الأوقات . ولا يتعثر إلا عندما يرجع من مزاد ممسكاً بذراع فتاة مذعورة . فيفحصها ليرى في أي حال هي ، ويسلمها إياها مع التعليمات الضرورية ، ثم يعتكف على انفراد لساعات . فتستنتج إلزا : « إنه مع لين » ، وينغرس ألم لا تفسير له في موقع روحها الخفي . ويكون مع لين فعلاً . ويحاول تاو تشين في

صمت التأمل أن يستعيد الاستقرار المفقود ويتخلص من وساوس الحقد والغضب . ويأخذ بالتجرد شيئاً فشيئاً من ذكرياته ورغباته وأفكاره ، إلى أن يشعر بجسده يذوب في العدم . يتجرد من وجوده لبعض الوقت ، إلى أن يعود للظهور وقد تحول إلى نسر يحلق عالياً دون أي جهد ، يحمله هواء بارد وعليل ويرفعه أعلى من أكثر الجبال ارتفاعاً . ومن هناك يستطيع أن يرى مروجاً فسيحة ، وغابات غير متناهية ، وأنهاراً من لجين خالص . وعندئذ يبلغ منتهى الانسجام ، ويعزف مع السماء والأرض كآلة موسيقية مرهفة . يطفو بين غيوم حليبية بجناحية المفتوحين بكبرياء ، وفجأة يشعر بها معه . تتجسد لين بجانبه ، نسراً آخر بديعاً معلقاً في السماء غير المتناهية . تسأله :

- أين هي سعادتك يا تاو ؟

- العالم مليء بالآلام يا لين .

- للألم غاية روحية .

- ولكن هذا الألم هو مجرد ألم دون جدوى .

- تذكر أن الحكيمَ سعيدٌ دائماً ، لأنه يتقبل الواقع .

- وهل يجب تقبل الشر أيضاً ؟

- الحب هو الترياق الوحيد . وبالمناسبة ، متى ستتزوج ثانية ؟

- إنني متزوج منك .

- أنا طيف ، لا يمكنني أن أزورك طوال حياتك يا تاو . والمجيء كلما استدعيتني يكلفني جهداً هائلاً ، فأنا لم أعد أنتمي إلى هذا العالم . تزوج وإلا فإنك ستهرم قبل الأوان . . وتضيف ساخرة بضحكتها البلورية التي لا تُنسى :- إذا أنت لم تمارس وضعيات الجماع المئتين واثنتين وعشرين ، فسوف تنساها .

كانت المزادات أسوأ بكثير من زياراته إلى «المستشفى» . فالأمل ضئيل في مساعدة الفتيات المحتضرات ، وحدوث ذلك يعتبر هدية إعجازية ، ولكنه يعرف أيضاً أنه مقابل كل فتاة يشتريها من المزاد هناك عشرات

محسوبات على الخزي . ويعذب نفسه في تخيل كم كان سينقذ منهن لو كان ثرياً ، إلى أن تذكره إلزا بأولئك اللواتي ينقذهن . لقد كانا متحدين بنسيج رقيق من التشابهات والأسرار المشتركة ، ولكنهما منفصلان كذلك بهواجس متبادلة . فقد كان طيف خواكين أنديتا يبتعد ، ولكن طيف لين بالمقابل كان محسوساً مثل النسيم أو مثل صوت الأمواج على الشاطئ . إذ يكفي تاو تشين أن يدعوها حتى تهرع إليه ، باسمة على الدوام مثلما كانت في الحياة . ومع ذلك ، فقد تحولت إلى حليفة لإلزا بدل أن تكون منافسة لها ، وإن كانت الفتاة لم تعرف ذلك بعد . فقد كانت لين هي أول من أدرك أن تلك الصداقة هي أقرب ما يكون إلى الحب ، وعندما دحض زوجها ذلك بحجة أنه لا مكان في الصين ، ولا في تشيلي ، ولا في أي مكان لمثل هذين الزوجين ، عادت هي إلى الضحك :

ـ لا تتفوه بالحماقات ، فالعالم فسيح والحياة مديدة . والأمر كله متوقف على الجرأة

ـ لا يمكنك أن تتصوري ما هي العنصرية يا لين ، فقد عشتِ دوماً بين معشركِ . هنا لا يهتم أحد بما أفعله أو بما أعرفه ، فأنا في نظر الأمريكيين لستُ سوى صيني وثني مقرف وإلزا ميزيتة . وفي الحي الصيني يعتبرونني مرتداً بلا ضفيرة ، يرتدي ثياباً يانكية . لستُ أنتمي إلى أي الجانبين .

ـ العنصرية ليست جديدة ، فأنا وأنت كنا نفكر في الصين بأن جميع الفان غووي متوحشون .

ـ هنا لا يحترمون إلا المال ، وأنا لن أملك الكثير منه كما يبدو .

ـ أنت مخطئ . فهم يحترمون كذلك من يفرض لنفسه الاحترام . أنظر إلى عيونهم .

ـ إذا عملت بنصيحتك فسوف يطلقون علي النار عند أي منعطف .

ـ الأمر جدير بالتجربة . إنك تتذمر كثيراً يا تاو ، حتى أنني لا أكاد أعرفك . أين هو الرجل الشجاع الذي أحبه ؟

وكان لا بد لتاو تشين من الاعتراف بأنه مشدود إلى إلزا بخيوط رفيعة غير

متناهية ، من السهل قطعها واحداً واحداً ، ولكن كونها مجدولة جعل منها حبالاً لا تقطع . لقد تعارفا قبل سنوات قليلة ، ولكنهما يستطيعان النظر إلى الماضي ويريان الطريق الطويل المليء بالعقبات الذي اجتازاه معاً . وراحت التشابهات تمحو الاختلافات العرقية . فقد قال لها في لحظة سهو : « لك وجه صينية جميلة » فردت عليه على الفور : « ولك وجه شاب تشيلي وسيم » . كانا يشكلان ثنائياً غريباً في الحي : شاب صيني طويل وأنيق مع فتى إسباني تافه . أما خارج الحي الصيني بالمقابل ، فكانا يمضيان دون أن يُلحظا تقريباً بين حشود سان فرانسيسكو متنوعة الأشكال .

لقد قال لها تاو في أحد الأيام :

ـ لا يمكنك انتظار هذا الرجل إلى الأبد يا إلزا . إن ما تفعلينه ضرب من الجنون ، مثل حمى الذهب . يجب أن تمنحي نفسك مهلة محددة .

ـ وما الذي سأفعله بحياتي عندما تنتهي المهلة ؟

ـ يمكنك العودة إلى بلادك .

ـ ستكون حال امرأة في مثل وضعي في تشيلي أسوأ من حال فتيات سينغ سونغ . هل بإمكانك أنت أن تعود إلى الصين ؟

ـ كان ذاك هو هدفي الوحيد ، ولكن أميركا بدأت تعجبني . فهناك سأكون الابن الرابع ، أما هنا فأنا أفضل حالاً .

ـ وأنا أيضاً . إذا لم أجد خواكين فسوف أبقى وأفتح مطعماً . إنني أملك ما هو ضروري : ذاكرة جيدة لحفظ وصفات الطعام ، وهوى لمكونات الأطباق ، وحسّ للذوق والملمس ، وغريزة لتحضير المأكولات...

ضحك تاو تشين قائلاً :

ـ وتواضع .

ـ ولماذا أكون متواضعة ولدي موهبة ؟ ثم إن لدي حاسة شمّ كلب . ولا بد لهذا الأنف الجيد من أن يفيدني في شيء : يكفيني أن أشم طبقاً لأعرف ما يضم وأصنعه بصورة أفضل .

ـ ولكنه لن ينفعك في الطعام الصيني...

ـ أنتم تأكلون أشياء غريبة يا تاو . أما مطعمي فسيكون فرنسياً ، أفضل مطعم في المدينة .

ـ سأقترح عليك اتفاقاً يا إلزا . إذا أنت لم تجدي خواكين خلال سنة ، تتزوجين مني . ـ قال لها تاو تشين ذلك وضحكا معاً .

بعد تلك المحادثة ، تبدل شيء ما في العلاقة بينهما . فصارا يشعران بالضيق كلما التقيا على انفراد على الرغم من رغبتهما في ذلك ، وبدأ كل منهما بتجنب الآخر . وكثيراً ما عذبت تاو تشين اللهفة في اللحاق بها كلما انسحبت إلى حجرتها ، ولكن مزيجاً من الخجل والاحترام كان يكبحه . وكان يقدر بأنه يتوجب عليه عدم الاقتراب منها ما دامت متعلقة بذكرى حبيبها القديم ، ولكنه لا يستطيع في الوقت نفسه مواصلة التوازن على حبل متهدل لوقت غير محدود . و يتصورها في سريرها ، تعدّ الساعات في صمت الليل المفعم بالترقب ، يؤرقها الحب أيضاً ، ولكن ليس حبها له ، وإنما لآخر . لقد كان يعرف جسدها جيداً ، ويمكنه رسمه بتفاصيله حتى الشامة الأكثر سرية ، بالرغم من أنه لم يرها عارية منذ الزمن الذي عالجها فيه في السفينة . ويخطر له بأنها إذا ما مرضتْ فسوف تتاح له ذريعة للمسها ، ولكنه يخجل بعد ذلك من مثل تلك الخواطر . أما الضحكات التلقائية والرقة الرصينة التي كانت تتدفق كل لحظة فيما بينهما في الماضي فتبدلت إلى توتر مُثقِل . فإذا ما تلامسا مصادفة ، ابتعدا مرتبكين ؛ وصار كل منهما يترصد بوعي حضور الآخر أو غيابه ؛ وبدا الهواء محملاً بالنُذر والأفكار المسبقة . وبدلاً من أن يجلسا ليقرأا أو ليكتبا بتواطؤ وديع ، صار كل منهما يودع الآخر فور انتهاء العمل في العيادة . فينطلق تاو تشين ليعود مرضاه العاجزين ، أو ليلتقي بالجونغ يي الآخرين ويتداول معهم في أمور التشخيص والعلاج أو يعتكف في غرفته ليدرس نصوصاً في الطب الغربي . فقد كان ينمي طموحه في الحصول على تصريح بممارسة الطب بصورة شرعية في كاليفورنيا ، وهو المشروع الذي لم يُطلع عليه أحداً سوى إلزا ورح لين ومعلمه في وخز الإبر .

ففي الصين يبدأ الجونغ يي كمتدرب ، ثم يواصل التحصيل بعد ذلك بمفرده . ولهذا يبقى الطب ثابتاً لا يتبدل طوال قرون ، مستخدماً على الدوام الأساليب والأدوية نفسها . والفارق بين طبيب جيد ممارس وآخر متوسط هو أن الأول يملك حدساً في التشخيص وموهبة في تخفيف الألم بيديه . أما الأطباء الغربيون فيقومون بدراسات متشددة جداً ، ويبقون على اتصال فيما بينهم ويَطّلعون على المعارف المستجدة ، ولديهم مخابر ومشارح جثث للتجارب ويُخضعون أنفسهم لتحدي المنافسة . لقد كان العلم يفتنه ، ولكن حماسه لم يكن يجد صدى ضمن جاليته الملتصقة بالتقاليد . وهو مشدود إلى آخر ما يحققه التقدم ، يشتري كل ما يقع في يده من كتب وجلات حول هذه المواضيع . فقد كان فضوله إلى الحداثة كبيراً إلى حد توجب عليه معه أن يكتب على الجدار مبدأ معلمه المبجل : « لا فائدة كبيرة من المعارف دون حكمة ، ولا حكمة دون روحانية » . ويردد لكي لا ينسى : ليس كل شيء علماً . ولكنه كان بحاجة على كل حال إلى الجنسية الأمريكية التي يصعب على من هو من عرقه الحصول عليها ، ويفكر بأنه بذلك فقط سيتمكن من البقاء في تلك البلاد دون أن يكون هامشياً إلى الأبد ، وهو يحتاج إلى شهادة ، وبذلك سيتمكن من صنع خير كثير . إذ أن الفان غووي لا يعرفون شيئاً عن الوخز بالإبر أو عن الأعشاب المستخدمة في آسيا منذ قرون ، وهم يعتبرونه نوعاً من المداوي المشعوذ ، وقد بلغ احتقارهم للأجناس الأخرى حد أن مالكي العبيد في مزارع الجنوب كانوا يستدعون الطبيب البيطري حين يمرض زنجي . ولم يكن رأيهم في الصينيين مختلفاً ، ولكن كان هناك بعض الأطباء المتبصرين ممن سافروا أو قرؤوا عن ثقافات أخرى ، ويهتمون بتقنيات الصيدلة الشرقية وعقاقيرها الألف . وكان تاو تشين يتابع اتصاله بأيبانيزر هوبز في إنكلترا ، وقد اعتاد كلاهما على التحسر للبعد الذي يفصل بينهما . « تعال إلى لندن يا دكتور تشين ، وقدم عرضاً للوخز بالإبر في الجمعية الطبية الملكية ، وأؤكد لك أنك ستدهشهم » . هكذا كان يكتب له هوبز . وكان يقول إنه إذا ما جمعوا معارف الجانبين فسوف يتمكنون من بعث الأموات .

ثنائي فريد

أودت موجات صقيع الشتاء بحياة عدد من فتيات سينغ سونغ بذات الرئة في الحي الصيني ، دون أن يتمكن تاو تشين من إنقاذهن . وقد استدعوه في مناسبتين وهن ما يزلن على قيد الحياة ، وتمكن من نقلهن ، ولكنهن قضين نحبهن بين ذراعيه بعد ساعات من ذلك وهن يهذين محمومات . وكانت مجسات إشفاقه الحذرة تمتد آنذاك على طول أميركا الشمالية وعرضها ، من سان فرانسيسكو حتى نيويورك . ومن ريو غراندي حتى كندا ، ولكن ذلك الجهد الخارق كان لا يكاد يشكل حبة ملح في محيط التعاسة الواسع . كانت أموره تمضي على ما يرام في ممارسته الطب ، وما يوفره أو يجمعه من صدقات بعض الزبائن الأثرياء ، يخصصه لشراء بعض أصغر الفتيات في المزادات . لقد صاروا يعرفونه في ذلك العالم السفلي : فاشتهر بأنه رجل منحل . إذ لم يروا فتاة واحدة من اللواتي يقتنيهن «لتجاربه» على حد قوله ، تخرج حية . ولكن لم يكن هناك من يهمه ما يجري وراء باب بيته . فهم سيتركونه بسلام لأنه أفضل جونغ يي ، ما دام لا يتسبب في فضائح ويكتفي بأولئك البنات اللواتي لسن أفضل من الحيوانات إلا قليلاً . وكان مساعده الوفي ، وهو الوحيد القادر على تقديم بعض المعلومات ، يكتفي في رده على الأسئلة الفضولية بالقول إن معارف رب عمله الاستثنائية ، المفيدة جداً للمرضى ، إنما تأتي من تجاربه

الغامضة . لقد انتقل تاو تشين في تلك الأثناء إلى بيت جيد بين عمارتين على حدود الحي الصيني ، على بُعد عدة كوادرات عن ساحة الاتحاد ، وهناك افتتح عيادته وصار يبيع أدويته ويخبئ الفتيات إلى أن يتمكن من السفر . وقد تعلمت إلزا بعض مبادئ اللغة الصينية الأساسية لتتمكن من التواصل بصورة أولية ، أما ما تبقى فترتجله بالإيماءات والرسم أو تستعين ببعض الكلمات الإنكليزية . فالأمر يستحق العناء ، وهو أفضل من التظاهر بأنها أخو الدكتور الأصم الأبكم . لم تكن قادرة على الكتابة أو القراءة بالصينية ، ولكنها صارت تعرف الأدوية من رائحتها ، ولمزيد من الضمان بدأت تعلّم القوارير برموز من ابتكارها . وقد كان هناك على الدوام عدد لا بأس به من المرضى ينتظرون دورهم للعلاج بالإبر الذهبية ، والأعشاب العجيبة ، والعزاء الذي يجدونه في صوت تاو تشين . وكان أكثر من واحد منهم يتساءل كيف يمكن لهذا الرجل العلامة والبشوش أن يكون هو نفسه مَنْ يجمع المحظيات الصغيرات وجثثهن ، وبما أن أحداً لم يكن يعرف مضمون آفته تلك ، فقد كانت الجالية الصينية تحترمه . صحيح أنه كان بلا أصدقاء ، ولكن لم يكن له أعداء كذلك . وقد تجاوزت سمعته حدود الحي الصيني ، واعتاد بعض الدكاترة الأمريكيين على استشارته حين لا تجدي معارفهم ، ويفعلون ذلك بتكتم شديد على الدوام ، لأن قبولهم بأن لدى « سماوي » ما يعلمهم إياه سيعتبر إهانة عامة . وهكذا صار يعالج بعض الشخصيات المهمة في المدينة وتعرف على آه توي الشهيرة .

لقد استدعته المرأة حين علمت بأنه قد أشفى زوجة قاض . وكانت تشكو من قعقعة صنجات في رئتيها تهدد بخنقها أحياناً . وكان رد فعل تاو تشين الأول هو الرفض ، ولكن فضوله لرؤيتها عن قرب والتأكد بنفسه من الأسطورة التي تحيط بها تغلب عليه فيما بعد . ولأن إلزا كانت تعرف ما الذي تعنيه آه توي له ، فقد وضعت في حقيبته مقداراً من الزرنيخ يكفي لقتل ثورين . وقالت موضحة :

ـ هذا من أجل الاحتياط...

ـ أي احتياط تعنين ؟

ـ تصور أنها مريضة جداً . أنت لا تريدها أن تتألم ، أليس كذلك ؟ لا بد أحياناً من مساعدة أحدهم على الموت...

ضحك تاو تشين بمزاج رائق ، ولكنه لم يُخرج القارورة من حقيبته . استقبلته آه توي في واحدة من «استراحاتها» الفخمة ، حيث يدفع الزبون ألف دولار في الجلسة الواحدة ، ولكنه يذهب راضياً على الدوام . ثم إنها كانت تؤكد : «إذا كنت مضطراً للسؤال عن السعر ، فهذا المكان لا يناسبك» . فتحت له الباب خادمة زنجية ترتدي زياً منشى وقادته عبر عدة صالونات ، تجول فيها فتيات جميلات يرتدين الحرير ، ويعشن مثل الأميرات بالمقارنة مع أخواتهن الأخريات . فهن يأكلن ثلاث مرات في اليوم ، ويستحممن يومياً . كان البيت متحفاً حقيقياً للعاديات الشرقية والأجهزة الأمريكية ، يعبق برائحة التبغ والعطور الزنخة والمساحيق . وكانت الساعة الثالثة عصراً ، ولكن الستائر السميكة تبقى مسدلة على الدوام ، والهواء البارد لا يدخل مطلقاً إلى تلك الحجرات . استقبلته آه توي في مكتب مترع بالأثاث وأقفاص الطيور . وتبين أنها أصغر وأجمل مما تخيله . كانت متبرجة بدقة ، ولكنها لا تضع مجوهرات ، وتلبس ببساطة ، وليس لها أظفار طويلة كإشارة إلى الثروة والبطالة . أمعن النظر في قدميها الصغيرتين المحشورتين في خف أبيض . كانت نظرتها نفاذة وقاسية ، ولكنها تتكلم بصوت مدغدِغ ذكّره بصوت لين . يا للعنة ، تنهد تاو تشين مهزوماً منذ الكلمة الأولى . تفحصها دون تأثر ، ودون أن يبدي اشمئزازه أو تعكره ، ودون أن يعرف ما يقول لها ، لأن توبيخها على تجارتها التي تمارسها لن يكون غير مجدٍ وحسب ، وإنما سيكون خطراً وقد يلفت الانتباه إلى نشاطاته نفسها كذلك . وصف لها الماهوانغ للربو وأدوية أخرى لتسكين الكبد ، ونبهها بجفاء إلى أنها طالما

بقيت محبوسة وراء تلك الستائر تدخن التبغ والأفيون ، فإن رئتيها ستواصلان الأنين . وراودته الرغبة بإعطائها السمّ مع تعليمات بتناول ملعقة منه كل يوم في خاطر عابر مثل لمسة فراشة ليلية ، فارتعش مرتبكاً حيال لحظة الشك تلك ، لأنه كان يعتقد حتى ذلك الحين بأن غضبه لن يكون كافياً في يوم من الأيام لقتل أحد . ثم خرج بسرعة ، موقناً أن المرأة لن تستدعيه ثانية نظراً لمعاملته الجافة .

سألته إلزا عندما رجع :

ـ ماذا هناك ؟

ـ لا شيء .

ـ كيف لا شيء! أليس لديها ولو قليل من السّل ؟ ألن تموت ؟

ـ جميعنا سنموت . وهذه المرأة ستموت من الشيخوخة . إنها قوية مثل جاموسة .

ـ هكذا هم الناس الأشرار .

وكانت إلزا من جهتها تعلم أنها تقف أمام مفترق طرق حاسم ، وأن الاتجاه الذي ستتخذه سيحدد ما تبقى من حياتها . فتاو تشين على صواب ؛ يجب عليها أن تحدد مهلة . لم يعد بمقدورها أن تتجاهل الشك في أن تكون قد أحبت الحب وأنها علقت في اختلال عاطفة خرافية ، دون أي لمسة من الواقع . فتحاول أن تتذكر المشاعر التي دفعتها إلى الإبحار في تلك المغامرة الرهيبة ، ولكنها لا تتوصل إلى ذلك . فالمرأة التي صارت إليها لا تشترك إلا بأشياء قليلة مع الطفلة المتجننة التي كانتها من قبل . بالبارايسو وغرفة الخزائن تنتميان إلى زمن آخر ، إلى عالم آخذ بالتلاشي في الضباب . تساءلت ألف مرة عن سبب لهفتها الكبيرة للانتماء جسداً وروحاً إلى خواكين أنديتا ، مع أنها لم تشعر في الحقيقة بالسعادة بين ذراعيه قط ، ولا تستطيع تفسير ذلك إلا بأنه كان حبها الأول . لقد كانت مهيأة عندما جاء هو لإنزال بعض الصناديق في

البيت ، وما تلا ذلك كان شأناً من شؤون الغريزة . لقد انصاعت بكل بساطة إلى أقوى وأقدم نداء ، ولكن ذلك كله جرى منذ زمن أزلي وعلى بعد سبعة آلاف ميل . من كانت هي في ذلك الوقت وماذا رأت فيه ؟ لا يمكنها تحديد ذلك . ولكنها تعرف أن قلبها لم يعد يهيم في تلك الاتجاهات . فهي لم تتعب من البحث عنه وحسب ، بل صارت تفضل في أعماقها عدم العثور عليه ، ولكنها لا تستطيع في الوقت نفسه أن تواصل العيش تتناهبها الشكوك . إنها بحاجة إلى محصلة لتلك المرحلة كي تبدأ بوضوح حباً جديداً .

في أواخر شهر تشرين الثاني لم تعد قادرة على تحمل القلق ، وذهبت إلى الصحيفة لتقابل جاكوب فريمونت الشهير دون أن تخبر تاو تشين بذلك . أدخلوها إلى قاعة التحرير ، حيث كان عدد من الصحفيين يعملون وراء مكاتبهم محاطين بفوضى عارمة . أشاروا لها إلى مكتب صغير وراء باب زجاجي ، فتوجهت إليه . بقيت واقفة قبالة المنضدة ، تنتظر أن يرفع ذلك الغرينغي ذو السالفين الأحمرين نظره عن أوراقه . كان رجلاً متوسط السن ، بشرته موشومة بالنمش وتنبعث منه رائحة شموع عذبة . كان يكتب بيده اليسرى بينما يده اليمنى تسند جبهته ، ولم يكن وجهه مرئياً . عندئذ ، ومن تحت رائحة شمع النحل ، أحست برائحة معروفة استحضرت إلى ذاكرتها شيئاً قصياً وغير واضح المعالم من طفولتها . انحنت قليلاً نحوه ، وبدأت تتشممه خفية في اللحظة نفسها التي رفع فيها الصحفي رأسه . فوجئا ، وبقيا يتبادلان النظر من تلك المسافة غير المريحة ، ثم تراجعا كلاهما إلى الوراء . لقد تعرفتْ عليه من رائحته . على الرغم من السنين ، والنظارة ، والسالفين والمظهر اليانكي . إنه خطيب مس روز الأبدي ، الإنكليزي نفسه الذي كان يواظب على المجيء في الموعد الدقيق إلى سهرات يوم الأربعاء في ناليارايسو . وقفت مشلولة ، ولم تستطع الهرب .

سألها جاكوب تود وهو يخلع النظارة ليمسحها بمنديله :

- ما الذي أستطيع عمله من أجلك أيها الشاب ؟

الخطبة التي كانت إلزا قد أعدتها انمحت من رأسها . فبقيت مفتوحة الفم وقبعتها في يدها ، واثقة من أنها إذا كانت قد تعرفت عليه ، فإنه تعرف عليها بدوره أيضاً . ولكن الرجل أعاد وضع نظارته بحرص وكرر السؤال دون أن ينظر إليها .

فتلعثمت وخرج صوتها أكثر خشونة من أي وقت آخر :

- الأمر يتعلق بخواكين موريبتا...

فاهتم الصحفي على الفور :

- ألديك معلومات عن قاطع الطريق ؟

- لا ، لا... على العكس ، جئت لأسأل عنه . أود مقابلته .

- مظهرك مألوف يا فتى... ألا نعرف بعضنا ؟

- لا أظن ذلك يا سيدي .

- هل أنت تشيلي ؟

- أجل .

- لقد عشتُ في تشيلي قبل بضع سنوات . إنها بلاد جميلة . ولماذا تريد مقابلة موريبتا ؟

- لأمر مهم جداً .

- أخشى أنني لا أستطيع مساعدتك . لا أحد يعرف مكانه .

- ولكنك تكلمت معه!

- أكلمه عندما يستدعيني فقط . فهو يتصل بي عندما يرغب في نشر شيء من مآثره في الصحيفة . ليس فيه شيء من التواضع ، فهو يحب الشهرة .

- بأي لغة تتفاهم معه ؟

- إسبانيتي أفضل من إنكليزيته .

- قل لي يا سيدي ، هل لكنته تشيلية أم مكسيكية ؟

ـ لا يمكنني تحديد ذلك . وأكرر لك أيها الشاب بأنني لا أستطيع مساعدتك . ـ قال الصحفي ذلك وهو ينهض ليضع حداً لذلك الاستجواب الذي بدأ يضايقه .

ودعته إلزا باقتضاب ، وبقي يفكر بحيرة بينما هي تبتعد في فوضى صالة التحرير . فهذا الشاب يبدو له معروفاً ، ولكنه لا يستطيع تحديد ذلك . وبعد لحظات ، حين كان زائره قد انسحب ، تذكر تكليف القبطان سوميرز له ، ومرت صورة الطفلة إلزا في ذاكرته مثل شهاب . وعندئذ ربط ما بين اسم قاطع الطريق واسم خواكين أنديتا وأدرك سبب بحثها عنه . خنق صرخة وخرج راكضاً إلى الشارع ، ولكن الشابة كانت قد اختفت .

●

أكثر أعمال تاو تشين وإلزا أهمية كان يبدأ في الليل . ففي الظلام يتخلصان من أجساد عاثرات الحظ اللواتي لم يستطيعا إنقاذهن وينقلن الأخريات إلى أقصى الجهة الأخرى من المدينة ، حيث يقيم أصدقاؤهما الكويكرز . فالصغيرات يخرجن واحدة فواحدة من الجحيم لينطلقن في العماء في مغامرة دون رجعة . يفقدن الأمل في العودة إلى الصين أو اللقاء بأسرهن ، وبعضهن لا يعدن إلى التكلم بلغتهن ولا إلى رؤية وجوه أخرى من أبناء عرقهن ، ويتوجب عليهن تعلم مهنة والعمل بقسوة طوال ما تبقى من حياتهن ، ولكن أي شيء يعتبر فردوساً بالمقارنة مع الحياة السابقة . من يتمكن تاو من شرائهن في المزاد يستطعن التكييف بصورة أفضل . لقد أبحرن في الصناديق ، وأُخضعن لشهوانية وقسوة البحارة ، ولكنهن لم ينكسرن بالكامل بعد ويحتفظن بشيء من القدرة على الخلاص . أما الأخريات ، من تم تخليصهن من الموت في «المستشفى» في اللحظة الأخيرة ، فإنهن لا يتخلصن مطلقاً من الخوف الذي يصير مثل داء في الدم ، ويحرقهن من الداخل حتى آخر يوم من حياتهن . وكان تاو تشين يأمل بأن يستطعن الابتسام على الأقل بين حين

وآخر . ولكنهن لا يكدن يستعدن قواهن ويدركن أنهن لن يكن مضطرات بعد اليوم للخضوع لرجل بالإكراه ، إنما سيبقين متخفيات على الدوام ، حتى ينقلانهن إلى منزل أصدقائهما دعاة تحرير العبيد ، وهم جزء من «اندرغراند رايلرود» ، مثلما كانوا يطلقون على المنظمة السرية المكرسة لغوث العبيد الفارين ، وكان ينتمي إليها كذلك الحداد جيمس مورتون واخوته . وهناك يستقبلون العبيد من الولايات التي تسود فيها العبودية ويساعدونهم على الاستقرار في كاليفورنيا ، أما في مسألة الصغيرات ، فيتوجب عليهن العمل في اتجاه معاكس ، وذلك بإخراج البنات الصينيات من كاليفورنيا لحملهن بعيداً عن المتاجرين بهن وعن عصابات الإجرام ، والبحث لهن عن مسكن وطريقة لكسب عيشهن . كان الكويكرز يتحملون المخاطر بحماس ديني : فالمسألة في نظرهم هي قضية فتيات بريئات دنسهن الخبث البشري ، وقد وضعهن الرب في طريقهم لاختبارهم . فكانوا يلتقطونهن بحدب شديد إلى حد يكون رد فعل الصغيرات معه في الغالب عنفاً أو ذعراً ؛ فهن غير معتادات على تلقي الحنان والعواطف ، ولكن صبر أولئك الناس الطيبين يأخذ بالتغلب على مقاومتهن شيئاً فشيئاً . يعلمونهن بعض العبارات التي لا بد منها بالإنكليزية ، ويعطونهن فكرة عن العادات الأمريكية ، ويعرضون عليهن خريطة لكي يعرفن على الأقل أين هن ، ويحاولون البدء بتعليمهن مهنة ما ، وهم ينتظرون مجيء بابالو لأخذهن .

لقد وجد ذلك المارد أخيراً الطريقة المثلى لاستخدام مواهبه في الخير : فقد كان رحالة لا يكل ، وساهراً عظيماً ، ومحباً للمغامرة . وعندما تراه فتيات سينغ سونغ قادماً يهرعن مذعورات للاختباء ويحتاج حُماتهن إلى كثير من أساليب الإقناع لطمأنتهن . وكان بابالو قد تعلم أغنية صينية وثلاث خدع من ألعاب الخفة ، فيستخدمها لإبهارهن وتهدئة خوف اللقاء الأول ، ولكنه لا يتخلى لأي سبب عن فرائه الذنبية ، ورأسه الحليق ، وقرطي القرصان ،

وسلاحه المهيب . يبقى حوالي يومين ، إلى أن يقنع محمياته بأنه ليس شيطاناً وأنه لن يحاول التهامهن ، ثم ينطلق معهن ليلاً . وقد كانت المسافات محسوبة بدقة لكي يصل عند الفجر إلى ملجأ آخر ، حيث يستريحون خلال النهار . كانوا يتنقلون على الخيول ؛ فالعربة غير مجدية ، لأن جزءاً كبيراً من طريقهم كانوا يقطعونه في البراري ، متجنبين الدروب المطروقة . وقد اكتشف أن السفر في الظلام أكثر أماناً بكثير ، طالما يستطيع المرء تحديد موقعه ، لأن الدببة والأفاعي وقطاع الطرق والهنود ينامون ، مثل الجميع . وكان بابالو يوصلهن سالمات إلى أيدي أعضاء آخرين من شبكة الحرية الواسعة . وينتهي بهن المطاف للعمل في مزارع أوريغون ، أو مصابغ في كندا ، أو في مشاغل حرف يدوية في المكسيك ، وتعمل أخريات خدمات لدى أسر ، وقد يتزوج بعضهن . واعتاد تاو شين وإلزا على تلقي أخبار من خلال جيمس مورتون الذي كان يلاحق آثار كل واحدة ممن تنقذهن منظمته . وبين حين وآخر يتلقيان مغلفاً مرسلاً من مكان ناء ، وعند فتحه يجدان ورقة عليها اسم مخربش بصورة سيئة ، وبعض الأزهار الجافة أو رسماً ، فيتبادلان التهنئة عندئذ لأن واحدة أخرى من فتيات سينغ سونغ قد نجت .

كان يتوجب على إلزا في بعض الأحيان أن تتقاسم غرفتها لبضعة أيام مع طفلة أُنقذت حديثاً ، ولكنها لا تكشف أمامهن عن أنها امرأة ، وهو الأمر الذي لا يعرفه أحد سوى تاو . كانت تقيم في أفضل غرفة في البيت ، فيما وراء عيادة صديقها ، وهي غرفة واسعه لها نافذتان تطلان على فناء داخلي صغير ، حيث يزرعان نباتات طبية للعيادة وأعشاباً عطرية للطبخ . وكثيراً ما حلما بالانتقال إلى بيت أكبر له حديقة حقيقية لا تنفع لغايات عملية وحسب ، وإنما كذلك من أجل متعة النظر وبهجة الذاكرة ، مكان تنمو فيه أجمل نباتات تشيلي والصين ، وتكون فيه عريشة يمكن الجلوس تحتها لتناول الشاي مساءً ، وتأمل شروق الشمس على الخليج صباحاً . لاحظ تاو تشين اهتمام إلزا بتحويل البيت إلى

منزل أسري ، وحرصها على التنظيف والترتيب ، ومتابعتها الدائمة للإبقاء على باقات زهر غضة في كل غرفة . لم تُتَح له من قبل الفرصة لتقدير مثل هذه اللفتات الرقيقة ؛ فقد ترعرع في فقر مدقع ، وكانت دارة معلم وخز الإبر تفتقر إلى يد امرأة لتحولها إلى منزل أسري ، وكانت لين ضعيفة ليس لديها ما يكفي من القوة للاهتمام بالأعمال المنزلية . أما إلزا بالمقابل ، فلها غريزة الطيور في صنع الأعشاش . وهي توظف في البيت بعضاً مما تكسبه من العزف على البيانو ليلتين كل أسبوع في صالة لهو ، ومن بيع فطائر اللحم في حي التشيليين . وبهذه الطريقة اقتنت ستائر ، وشرشفاً من الدمقس ، وأدوات مطبخ ، وأطباقاً وكؤوساً من الخزف . لقد كانت العادات الراقية التي تربت عليها جوهرية بالنسبة لها ، فهي تحوّل الوجبة الوحيدة التي يتناولانها معاً في اليوم إلى طقس احتفالي ، حيث تقدم الأطباق مزينة بإتقان ، وتَحمّر وجنتاها سعادة عندما يُطري على حماسها . وكانت الشؤون اليومية تبدو وكأنها تُحَلّ من تلقاء ذاتها ، كما لو أن هناك أرواحاً كريمة تنظف في الليل العيادة ، وترتب ملفات المرضى ، وتدخل خلسة إلى غرفة تاو تشين لتغسل ملابسه ، وتثبت أزرارها المخلخلة ، وتفرشي بدلاته ، وتبدل باقة الورد على الطاولة .

- لا تُثقلي علي باهتمامك بي يا إلزا .

- قلت لي إن الصينيين ينتظرون من النساء أن يخدمنهم .

- هذا هناك في الصين . ولكنني لم أحظ بمثل ذلك مطلقاً... إنك تفسدين تربيتي .

- هذا ما أسعى إليه . فقد كانت مس روز تقول إن السيطرة على الرجل تتطلب تعويده على الحياة المريحة ، وعندما يسيء التصرف ، تكون العقوبة بحرمانه من التدليل .

- أولم تبق مس روز عازبة ؟

- بلى . ولكن بقرار ذاتي وليس بسبب انعدام الفرص .

- أنا لا أفكر بإساءة التصرف ، ولكن كيف سأعيش وحيداً فيما بعد ؟

- لن تعيش وحيداً أبداً . فأنت لست قبيحاً بالكامل ، وستجد على الدوام امرأة كبيرة القدمين وفظة الطبع مستعدة للزواج منك .. وقد ضحك بسعادة حين ردت عليه بذلك الجواب .

اشترى تاو تشين أثاثاً فاخراً لغرفة إلزا ، وهي الغرفة الوحيدة في البيت المزينة بشيء من الديكور المترف . فقد اعتادت أن تعبر عن تقديرها لطراز الأثاث الصيني وهما يتمشيان معاً في الحي الصيني . وكانت تقول : « إنه أثاث جميل جداً ، ولكنه ثقيل . والخطأ هو في الإكثار منه » . أهدى إليها سريراً وخزانة من خشب داكن مزين بنقوش محفورة ، ثم اختارت هي طاولة وكراسٍ وحاجز بارابانان من البامبو . ولم ترغب في شرشف حريري للسرير ، مثلما هو شائع في الصين ، وإنما اختارت واحداً ذا مظهر أوربي من الكتان الأبيض المطرز مع وسائد كبيرة من القماش نفسه .

- هل أنت متأكد من أنك قادر على دفع ثمن كل هذه الأشياء يا تاو ؟

- إنكِ تفكرين بفتيات سينغ سونغ...

- أجل .

- أنتِ نفسك قلتِ إن ذهب كاليفورنيا كله لا يكفي لشرائهن جميعهن . ولكن لا تقلقي ، لدينا ما يكفي من المال .

وكانت إلزا تساهم بألف طريقة ذكية : بالرصانة في احترام صمته وساعات دراسته ، والحرص على مساعدته في العيادة ، والشجاعة في مهمة إنقاذ الصغيرات . ومع ذلك ، فإن أفضل هدية في نظر تاو تشين هي تفاؤل صديقته الذي لا يُهزم ، والذي كان يجبره على مواصلة العمل حين تهدد الظلال بلف كل شيء بالكامل . « إذا كنتَ مكتئباً فسوف تفقد قواك ولن تستطيع مساعدة أحد . هلم بنا للقيام بنزهة ، إني بحاجة إلى شمّ الغابة . فالحي الصيني يعبق برائحة صلصة الصويا » . وتأخذه في عربة إلى خارج المدينة . فيقضيان

اليـوم في الهـواء الطلق يتـراكـضـان مـثل الصـبـيـان ، وفي تـلك الليـالي ينام باطمئنان ، ويستيقظ وقد تجدد نشاطه وسعادته .

●

رسا القبطان جون سوميرز بسفينته في مرفأ بـالبارايسـو يوم الخامس عشر من آذار ١٨٥٣ ، مستنفداً من الرحلة ومن متطلبات ربة عمله ، وكانت آخر نزواتها تتمثل في قطر كتلة جليد بحجم سفينة صيد حيتان . فقد خطر لها أن تصنع مشـروبات مرطبة ومثلجات لتبيعها ، نظراً لانخفاض أسعار الخضار والفواكه الكبير منذ بدأت الزراعة تزدهر في كاليفورنيا . لقد اجتذب الذهب ربع مليون مهاجر في أربع سنوات . ولكن زمن الوفرة كان يمضي . ومع ذلك ، لم تكن باولينا رودريغيث دي سانتا كروث تفكر بمغادرة سان فرانسيسكو . فقد تبنت بقلبها الحديدي مدينة الغرباء البطوليين تلك ، حيث لم تكن الطبقات الاجتماعية قد تشكلت بعد . وكانت هي نفسها تشرف على بناء بيتها المستقبلي ، وهو دارة كبيرة في أعلى رابية لها أفضل إطلالة على الخليج ، ولكنها كانت تنتظر ميلاد ابنها الرابع ، ورغبت في وضع مولودها في بالبارايسو ، حيث ستدللها أمها وأخواتها حتى الإفساد . كان أبوها قد تعرض لسكتة قلبية خلّفت له شللاً نصفياً ، ولينت دماغه . لم يبدل الشلل من طباع أغوسطين دل بايي ، ولكنه أخافه من الموت ، ومن عذاب الجحيم بالطبع . وكان قريبه المطران يكرر دون كلل بأن رحيله إلى العالم الآخر وهو يحمل على كاهله حمولة كبيرة من الخطايا القاتلة ليس بالفكرة الجيدة . ولم يبق من زير النساء وذلك الشيطان الذي كانه أي شيء ، ليس بسبب التوبة ، وإنما لأن جسده المنهوك لم يعد قادراً على تلك الأعمال . كان يستمع إلى قداس يومي في مصلى بيته ويتحمل بصبر قراءات من الأناجيل وصلوات المسبحة غير النهائية التي ترتلها زوجته . ولكن شيئاً من ذلك لم يجعل منه طيباً مع فلاحيه ومستخدميه . وواصل معاملة أسرته والجميع كطاغية مستبد ، ولكن جزءاً من

تحوله كان حباً مفاجئاً ولا تفسير له لابنته الغائبة باولينا . لقد نسي أنه أنكرها لأنها هربت من الدير لتتزوج من ابن اليهود ذاك الذي لا يستطيع تذكر اسمه لأنه ليس له كنية من طبقته . وكتب إليها معتبراً إياها ابنته المفضلة والأثيرة ، والوريثة الوحيدة لطبعه وبُعد بصيرته في الأعمال التجارية ، متوسلاً إليها أن ترجع إلى المنزل ، لأن أباها المسكين يرغب في معانقتها قبل أن يموت . هل صحيح أن العجوز في حالة سيئة ؟ هكذا سألت باولينا أخواتها في رسائلها وهي تأمل أن يكون ذلك صحيحاً . ولكنه لم يكن كذلك ، ومن المؤكد أنه سيعيش سنوات طويلة أخرى ينغص فيها حياة الآخرين من كرسيه كمقعد عاجز . وقد كان على القبطان سوميرز على أي حال ، أن ينقل معه في تلك الرحلة ربة عمله مع أولادها سيئي التربية ، والخادمات المصابات بالدوار دوماً ، وشحنة صناديق أمتعتها ، وبقرتين من أجل الحليب للأطفال ، وثلاثة كلاب مدللة رُبطت على آذانها شرائط ملونة ، مثلما هي كلاب المومسات الفرنسيات ، وحلت محل ذلك الكلب الذي غرق في عرض البحر خلال الرحلة الأولى . بدت الرحلة للقبطان أبدية وأرعبته فكرة أنه سيحمل باولينا بعد وقت قصير مع سيركها للعودة إلى سان فرانسيسكو . وفكر بالتقاعد لأول مرة في حياته الطويلة كملاح ، وبقضاء ما تبقى من حياته على اليابسة . كان أخوه جيرمي ينتظره في المرفأ ، ورافقه إلى البيت وهو يعتذر عن تخلف روز التي تعاني من الصداع ، ويوضح :

ـ أنت تعرف ، فهي تمرض دوماً في عيد ميلاد إلزا . لم تستطع استعادة تماسكها بعد موت الفتاة .

فرد عليه القبطان :

ـ أريد التحدث معكما في هذا الموضوع .

لم تعرف مس روز كم أحبت إلزا إلى أن غابت عنها ، عندئذ أحست أن يقين الحب الأمومي أتاها متأخراً ، فندمت على السنوات التي لم تحبها فيها إلا

بين بين ، وبعاطفة اعتباطية وفوضوية ؛ وندمت على المرات التي نسيت فيها وجودها ، وهي مشغولة في تفاهاتها ، عندما كانت تتذكرها وتكتشف أن الصغيرة قد أمضت أسبوعاً بطوله بين الدجاج في الفناء... لقد كانت إلزا أشبه بابنة لها لن تنجبها أبداً ؛ فقد كانت صديقتها طوال ستة عشر عاماً ، ورفيقتها في اللعب ، والمخلوقة الوحيدة في الدنيا التي تلمسها . كان جسد مس روز يؤلمها ببساطة لمجرد الوحدة . فهي تحن إلى حمّاماتها مع الطفلة ، حين كانتا تلعبان سعيدتين في الماء المعطر بأوراق النعناع والريحان . وتفكر بيدي إلزا الصغيرتين والماهرتين وهي تغسل لها شعرها ، وتدلك عنقها ، وتشذب أظفارها وتلمعها بقطعة من جلد غزال ، وتساعدها في تسريح شعرها . وتبقى في الليل منتظرة ، وأذناها تترصدان خطوات الفتاة حاملة إليها كأسها من شراب اليانسون . وتتلهف لأن تتلقى مرة أخرى القبلة التي كانت تطبعها على جبهتها متمنية لها ليلة سعيدة . لم تعد مس روز تكتب ، وألغت نهائياً سهراتها الموسيقية التي كانت تشكل محور الحياة الاجتماعية . وقد تجاوزها كذلك زمن التغنج واستسلمت لدخول شيخوخة بلا ظرافة ، وكانت تقول : «في مثل سني لا يُنتظر من المرأة سوى أن تكون ذات كرامة وحسنة الرائحة» . ولم يخرج من يديها أي فستان جديد خلال تلك السنوات ، بل واصلت لبس فساتينها السابقة نفسها دون أن تنتبه إلى أن موديلاتها لم تعد رائجة . وهجرت حجرة الخياطة ، وراحت مجموعة قبعاتها وطاقياتها تذوي في علبها ، لأنها اختارت استخدام الطرحة السوداء التي تضعها التشيليات للخروج إلى الشارع . وصارت تشغل ساعاتها في إعادة قراءة الكتّاب الكلاسيكيين وعزف مقطوعات كئيبة على البيانو . وكانت تضجر بإصرار ومنهجية ، كعقاب ذاتي . وتَحوّل غياب إلزا إلى ذريعة مناسبة للحداد على أحزان وخسائر أربعين سنة من حياتها ، وعلى غياب الحب بصورة خاصة . وهو ما كانت تشعر به مثل شوكة تحت ظفرها ، وكألم متواصل مكبوت . ندمت لأنها ربتها في جو من

الكذب ؛ ولم تستطع أن تفهم سبب اختلاقها لقصة السلة المبطنة بملاءات قطنية ، وكذبة فرو النمس وقطع النقود الذهبية التي لا تُصدق ، بينما كانت الحقيقة أشد تماسكاً بكثير . فقد كان من حق إلزا أن تعرف أن الخال جون المحبوب هو أبوها في الواقع ، وأنها هي وجيرمي عماها ، وأنها تنتمي إلى عائلة سوميرز وليست يتيمة لقيطة الإحسان . وتتذكر مذعورة ذلك اليوم الذي جرتها فيه إلى ملجأ الأيتام لتخيفها . كم كان عمرها آنذاك ؟ ثمانية أو عشرة أعوام . لو أتيح لها أن تبدأ من جديد فستكون أماً مختلفة جداً... فهي أولاً وقبل كل شيء ستؤيدها عندما تحب ، بدل إعلان الحرب عليها ؛ ولو أنها فعلت ذلك من قبل لكانت إلزا ما تزال على قيد الحياة ، وتنهدت ، فهي المذنبة في أن الفتاة لاقت حتفها أثناء هربها . كان عليها أن تتذكر قصتها هي نفسها وتدرك بأن نساء أسرتها يفقدن صوابهن في الحب الأول . وأكثر ما كان يحزنها هو أنه ليس هناك من يمكنها التحدث معه عنها . لأن ماما فريسيا قد اختفت هي الأخرى ، وأخاها جيرمي يضغط على شفتيه ويغادر الغرفة إذا ما جاءت على ذكرها . وكانت عدوى حزنها تنتقل إلى كل ما حولها ، فأجواء البيت خلال السنوات الأربع الأخيرة صارت بزخم أجواء القبور ، وانحدرت نوعية الطعام كثيراً ، وكانت هي نفسها تعيش على الشاي والبسكويت الإنكليزي . ولم تعثر على طاهية محترمة ، كما أنها لم تبحث عن واحدة باهتمام كبير . ولم تعد تبالي بالنظافة والترتيب ؛ فالزهور اختفت من الزهريات ، ونصف نباتات الحديقة تذوي بسبب الإهمال . وخلال أربع شتاءات بقيت ستائر الصيف المزينة بالأزهار معلقة في الصالون دون أن يكلف أحد نفسه عناء استبدالها في نهاية الفصل .

لم يكن جيرمي يعاتب أخته ، بل يأكل أي عصيدة توضع أمامه ، ولا يقول شيئاً عندما تكون قمصانه سيئة الكي وبدلاته غير منظفة بالفرشاة . كان قد قرأ بأن النساء العازبات يعانين عادة من حالات قلق خطرة . وقد تم التوصل

في بريطانيا إلى علاج عجيب للهستيريا يتمثل في كي نقاط محددة من الجسم بحديد محمى ، ولكن تلك العلاجات المتقدمة لم تصل إلى تشيلي ، حيث ما زال الماء المبارك يستخدم لعلاج تلك الأمراض . ولكن ذكر ذلك أمام روز هو مسألة حساسة وصعبة على أي حال . لم يكن يعرف كيف يمكنه مواساتها ، فعادة الصمت والتكتم فيما بينهما كانت قديمة جداً . فيحاول إرضاءها بهدايا مهربة يشتريها من السفن ، ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن النساء ، فيأتيها بأشياء مريعة لا تلبث أن تختفي في أعماق الخزائن . لم يعرف كم من المرات كانت أخته تدنو منه وهو جالس على كرسيه يدخن ، وتوشك أن تنهار عند قدميه ، وأن تسند رأسها إلى ركبتيه وتبكي إلى ما لا نهاية ، ولكنها تتراجع في اللحظة الأخيرة مذعورة ، لأن أي كلمة حنان فيما بينهما سيكون لها وقع السخرية أو العواطف المبتذلة التي لا تغتفر . فكانت روز المتيبسة والكئيبة تحافظ على المظاهر بانضباط ، مع الإحساس بأن المشد وحده هو الذي يحفظ تماسكها وأن خلعه سيحولها إلى فتات مهشم . لم يبق أي شيء من مرحها وألاعيبها ؛ ولا من آرائها الجريئة ، أو إيماءاتها المتمردة ، أو فضولها المتمادي . لقد تحولت إلى أكثر ما كانت تخشاه : مجرد عانس من العصر الفيكتوري . أعرب لها الصيدلي الألماني عن رأيه بالقول : « إنه التبدل . فالنساء في هذه السن يفقدن توازنهن » ، ووصف لها حشيشة الفالريانا لتهدئة الأعصاب ، وزيت السمك للشحوب .

جمع القبطان جون سوميرز أخويه في المكتب ليروي لهما الخبر :

- هل تتذكران جاكوب تود ؟

فسأله جيرمي سوميرز :

- ذلك الرجل الذي خدعنا بقصة البعثات التبشيرية إلى أرض النار ؟

- هو نفسه .

- لقد كان مغرماً بروز إذا لم تخني الذاكرة . . قال جيرمي ذلك مبتسماً

وهو يفكر في أنهما قد تخلصا على الأقل من أن يكون لهما مثل ذلك الصهر المحتال .

- لقد بدّل اسمه . إنه يدعى الآن جاكوب فريمونت ، وقد تحول إلى صحفي في سان فرانسيسكو .

- هكذا! صحيح إذن ما يقال عن أنه يمكن لأي وغد في الولايات المتحدة أن يبدأ حياته من جديد .

- لقد دفع جاكوب تود ثمن خطيئته وأكثر . ويبدو لي رائعاً أن تكون هناك بلاد تقدم للمرء فرصة ثانية .

- وماذا عن الشرف ، أليس له حساب ؟

- الشرف ليس كل شيء يا جيرمي .

- هل هناك شيء آخر ؟

فتلعثمت روز من وراء منديل مضمخ بعطر الفانيلا :

- وماذا يهمنا جاكوب تود ؟ لا أظنك جمعتنا لتحدثنا عنه يا جون .

- لقد التقيت بجاكوب تود ، أو جاكوب فريمونت بصورة أدق ، قبل أن أبحر ، وقد أكد لي بأنه رأى إلزا في سان فرانسيسكو .

خُيل لمس روز لأول مرة في حياتها بأنه سيُغمى عليها . أحست بقلبها ينخلع ، وصدغيها يوشكان على التفجر ، وبموجة دم تتدفق في وجهها . واختنقت ولم تستطع أن تصوغ كلمة واحدة .

وتعلل جيرمي وهو يذرع المكتبة بخطوات واسعة :

- لا يمكن تصديق شيء مما يقوله هذا الرجل! لقد أخبرتنا من قبل بأن امرأة تعرفت على إلزا في سفينةٍ في عام ١٨٤٩ ، ولم يكن لديها شك في أنها قد ماتت .

- هذا صحيح . ولكنها امرأة مشبوهة ، وكانت تضع بروش الياقوت الذي أهديتُه إلى إلزا . ربما تكون قد سرقته وكذبت لتحمي نفسها . ولكن ، ما الذي يدعو جاكوب فريمونت لخداعنا ؟

ـ لا يوجد أي سبب ، اللهم إلا كونه محتالاً بطبيعته .

وتوسلت روز وهي تبذل جهداً جباراً ليخرج صوتها :

ـ يكفي ، أرجوكما . الشيء الوحيد المهم هو أن هناك من رأى إلزا ، وأنها ليست ميتة ، وأنه يمكننا العثور عليها .

فحذرها جيرمي :

ـ لا تعللي نفسك بالأوهام يا عزيزتي . ألا ترين أنها قصة خيالية ؟ وستكون ضربة رهيبة بالنسبة إليك حين تتأكدين من أنه خبر مُختلق .

قدم إليهما جون سوميرز تفاصيل اللقاء بين جاكوب فريمونت وإلزا ، دون أن يُغفل أن الفتاة كانت ترتدي ملابس رجل وأنها بدت مرتاحة بملابسها إلى حد لم يخطر معه للصحفي إلا أنها شاب . وأضاف أنهما ذهبا معاً إلى الحي التشيلي ليسألا عنها ، ولكنهما لم يعرفا الاسم الذي تطلقه على نفسها ، ولم يستطع أحد ، أو لم يشأ أحد ، أن يدلهما على مكانها . وأوضح أن إلزا قد ذهبت دون شك إلى كاليفورنيا لتلتقي بحبيبها ، لكن شيئاً ما لم يجر على ما يرام ولم يلتقيا ، لأنها ذهبت لزيارة جاكوب فريمونت بهدف الاستفسار عن قاتلٍ له اسم مشابه .

فدمدم جيرمي سوميرز :

ـ لا بد أنه هو نفسه . فخواكين أنديتا لص . غادر تشيلي هرباً من العدالة .

لم يكن بالإمكان حجب هوية حبيب إلزا عنه . وقد اضطرت مس روز كذلك إلى الاعتراف له بأنها اعتادت زيارة أم خواكين أنديتا لتتقصى الأخبار ، وأن تلك المرأة البائسة تبدو في كل مرة أشد فقراً ومرضاً ، وأنها موقنة من أن ابنها قد مات . وتؤكد بأنه ليس هناك أي تفسير آخر لصمته الطويل . فقد تلقت رسالة من كاليفورنيا مؤرخة في شباط ١٨٤٩ ، بعد أسبوع من وصوله ، يخبرها فيها بخططه للذهاب إلى مغاسل الذهب ويؤكد لها وعده بالكتابة إليها

كل خمسة عشر يوماً . وبعد ذلك لا شيء : لقد اختفى دون أن يخلف أثراً .

وسأل جيرمي سوميرز :

ـ ألا يبدو لكما غريباً أن يتعرف جاكوب تود على إلزا وهي خارج السياق المعهود وترتدي ملابس رجل ؟ عندما تعرف عليها كانت طفلة . كم سنة مضت على ذلك ؟ ست أو سبع سنوات على الأقل . وكيف أمكن له أن يتصور أن إلزا موجودة في كاليفورنيا ؟ هذا كله سخف .

ـ لقد أخبرته قبل ثلاث سنوات بما حدث ، ووعدني بالبحث عنها . لقد وصفتها له بالتفصيل يا جيرمي . ثم إن وجه إلزا لم يتغير ؛ فعندما ذهبتْ كانت ما تزال تبدو طفلة . وقد بحث عنها جاكوب فريمونت لوقت طويل ، إلى أن قلت له بأنها قد تكون ميتة . ووعدني الآن بمحاولة البحث عنها من جديد ، بل إنه يفكر في التعاقد مع تحرٍ خاص . آمل أن آتيكما بأخبار أكثر دقة في رحلتي القادمة .

فزفر جيرمي :

ـ لماذا لا ننسى هذه المسألة مرة وإلى الأبد ؟

وصرخ القبطان :

ـ لأنها ابنتي يا رجل ، بالله عليك!

فقاطعتهما مس روز وهي تنهض واقفة :

ـ سأذهب إلى كاليفورنيا للبحث عنها .

وانفجر أخوها الأكبر :

ـ أنتِ لن تذهبي إلى أي مكان

ولكنها كانت قد خرجت . لقد كان الخبر مثل حقنة دم جديد لمس روز . وكانت ثقتها مطلقة بأنها ستجد ابنتها المتبناة ، ووجدت لأول مرة منذ أربع سنوات بأن هناك مبرراً للبقاء على قيد الحياة . اكتشفت بانبهار أن قواها القديمة ما تزال على حالها ، كامنة في موقع سري من قلبها . وجاهزة لتكون

في خدمتها مثلما كانت من قبل . اختفى ألم الرأس كما في السحر ، وكانت تتعرق وخداها يتوردان عندما استدعت الخادمة لترافقها إلى غرفة الخزائن لإخراج الحقائب .

•

في أيار من عام ١٨٥٣ قرأت إلزا في الصحيفة أن خواكين موريِيتا وتابعه جاك الثلاثة أصابع ، هاجما مخيماً لستة صينيين مسالمين ، فربطاهم بضفائرهم وذبحاهم ، ثم علقا بعد ذلك رؤوسهم على شجرة مثل عنقود بطيخ . كانت الدروب تحت سيطرة قطاع الطرق ، ولم يكن هناك من يستطيع التجول آمناً في تلك المنطقة ، ولا بد للتنقل من أن يتم في جماعات كبيرة وجيدة التسليح . كانوا يقتلون مَنجميين أمريكيين ، ومغامرين فرنسيين ، وباعة يهوداً متجولين ومسافرين من كل الأعراق ، ولكنهم لا يهاجمون عادة الهنود الحمر والمكسيكيين ، لأن الغرينغيين كانوا يتولون أمر هؤلاء . صار الناس المذعورين يوصدون أبوابهم ونوافذهم بإحكام ، والرجال يترصدون ببنادقهم المحشوة ، والنساء يختبئن ، لأن أياً منهن لا تريد الوقوع في يدي جاك الثلاثة أصابع . أما موريِيتا بالمقابل ، فكان يقال عنه إنه لا يسيء معاملة النساء مطلقاً ، وإنه في أكثر من مناسبة أنقذ شابة من التدنيس على يد سفاحي عصابته . وصارت النُزل ترفض إيواء المسافرين خوفاً من أن يكون موريِيتا واحداً منهم . لم يكن هناك من رآه شخصياً وكانت الأوصاف تتضارب ، على الرغم من أن مقالات فريمونت راحت تختلق صورة رومنسية لقاطع الطريق ؛ تقبلها معظم القراء على أنها الصورة الحقيقية . تشكلت في جاكسون أول جماعة متطوعين لاصطياد العصابة ، وسرعان ما صارت هناك فرق من المنتقمين في كل قرية ، وبدأت عملية صيد بشري لا سابق لها . فلم يعد هناك متكلم بالإسبانية بمنجى من الشكوك ، وجرت خلال أسابيع قليلة عمليات شنق مستعجلة بطريقة اللينشنغ أكثر مما حدث خلال السنوات الأربع السابقة .

فيكفي أن يتكلم المرء بالإسبانية ليتحول إلى عدو عام وينهال عليه غضب الشريفين والمأمورين القضائيين . وكانت ذروة السخرية عندما تملصت عصابة موريتا من وحدة من الجنود الأمريكيين كانت تطاردها عن قرب ، وانحرفت قليلاً لتهاجم مخيم صينيين . وصل الجنود بعد ثوان قليلة فوجدوا بعض القتلى وعدداً من المحتضرين . وقد قيل إن خواكين موريتا ينكل بالآسيويين لأنهم نادراً ما يدافعون عن أنفسهم حتى ولو كانوا مسلحين ؛ وكان «السماويون» يخافونه إلى حد أن مجرد ذكر اسمه يحدث لديهم صدمة هلع قوية . ولكن الإشاعة الأكثر إلحاحاً مع ذلك ، هي القائلة بأن قاطع الطريق يعمل على تسليح جيش وأنه يفكر ، بمساعدة أصحاب مزارع مكسيكيين أثرياء في المنطقة ، بإثارة تمرد . ودعوة السكان الإسبان إلى الثورة ، وذبح الأمريكيين وإعادة كاليفورنيا للمكسيك أو تحويلها إلى جمهورية مستقلة .

وحيال الضجة الشعبية ، وقّع الحاكم مرسوماً خوّل بمقتضاه الكابتن هاري لوف وجماعة مؤلفة من عشرين متطوعاً باصطياد خواكين موريتا خلال مهلة مدتها ثلاثة شهور . وخصص لكل رجل راتباً شهرياً مقداره مئة وخمسون دولاراً ، وهو مبلغ غير كبير إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه كان عليهم أن يمولوا ثمن خيولهم وأسلحتهم ومؤنهم ، ولكن على الرغم من ذلك ، كانت الفرقة جاهزة للانطلاق خلال أقل من أسبوع . وكانت هناك جائزة قيمتها ألف دولار مقابل رأس خواكين موريتا . وكما قال جاكوب فريمونت في الصحيفة ، فقد حكموا على الرجل بالموت دون أن يعرفوا هويته ، ودون أن يكونوا قد أثبتوا جرائمه ، ودون محاكمة ، وهكذا فإن مهمة الكابتن لوف تعادل عملية لينشنغ . أحست إلزا بمزيج من الرعب والراحة لم تستطع تفسيره . لم تكن راغبة في أن يقتل أولئك الرجال خواكين ، ولكنهم ربما يكونون الوحيدين القادرين على العثور عليه ؛ وهي لا تبغي سوى الخروج من البلبلة ، فقد تعبت من محاولة الإمساك بالأشباح . وكان الاحتمال ضئيلاً على كل حال بأن يحالف

النجاح الكابتن لوف حيث أخفق الكثيرون ، فخواكين موريتا يبدو عصياً على الهزيمة . وقيل إنه لا يمكن إلا لرصاصة فضية أن تقتله ، لأنهم كانوا قد أفرغوا مسدسين في صدره عن قرب ، وواصل مع ذلك العدو على جواده في منطقة كالافيراس .

ـ إذا كان هذا الوحش هو حبيبك ، فأولى ألا تجدينه أبداً . ـ هكذا أعرب تاو تشين عن رأيه عندما أرته قصاصات الصحف التي جمعتها خلال أكثر من سنة .

ـ أعتقد أنه ليس ...

ـ وكيف تعرفين ذلك ؟

لقد كانت ترى حبيبها في أحلامها ببدلته المهلهلة نفسها وقمصانه ذات الخيوط المنسلة ، إنما النظيفة والمكوية جيداً ، تلك التي كان يرتديها في أزمنة غرامياتهما في بالبارايسو . كان يظهر لها بهيئته المأساوية ، وعينيه الزخمتين ، ورائحته التي تعبق بالصابون والعرق الطازج ، فيمسكها من يدها مثلما كان يفعل آنذاك ويحدثها باندفاع عن الديمقراطية . وفي بعض الأحيان يستلقيان معاً على كومة الستائر في غرفة الخزائن ، جنباً إلى جنب ، دون أن يلمس أحدهما الآخر ، وهما بكامل ملابسهما ، بينما الأخشاب تئن من حولهما مصفوعة بريح البحر . وفي كل حلم يظهر خواكين على الدوام وعلى جبهته نجمة نورانية .

فسألها تاو تشين وهو يريد أن يعرف :

ـ وماذا يعني هذا ؟

ـ لا يمكن أن يكون هناك نور على جبهة رجل شرير .

ـ إنه مجرد حلم يا إلزا .

ـ ليس حلماً واحداً ، بل أحلام كثيرة...

ـ إنك تبحثين إذن عن الرجل الخطأ .

فردت هي دون أن تعطي مزيداً من الايضاحات :

- ربما ، ولكنني لم أضيع الوقت .

وللمرة الأولى منذ أربع سنوات عادت تعي جسدها المستبعد إلى مستوى الإهمال منذ اللحظة التي ودعها فيها خواكين أندييتا في تشيلي ، في ذلك الثاني والعشرين من كانون الأول ١٨٤٨ . ففي هوسها للعثور على ذلك الرجل تخلت عن كل شيء ، بما في ذلك أنوثتها . وخشيت أن تكون قد فقدت على الطريق وضعها كامرأة لتتحول إلى مخلوق غريب دون جنس محدد . في بعض الأحيان ، وبينما هي تعدو على صهوة جوادها بين الجبال والغابات ، معرضة لقسوة كل الرياح ، كانت تتذكر نصائح مس روز التي كانت تغتسل بالحليب ولا تسمح لشعاع من الشمس بأن يحط على بشرتها الخزفية ، ولكن لم يكن بإمكانها التوقف عند مثل تلك الاعتبارات . لقد كانت تتحمل المشقة والعقاب لأنه ليس لديها خيار آخر . فهي تعتبر جسدها ، مثلما هي أفكارها ، أو ذاكرتها ، أو حاسة شمها ، جزءاً لا يتجزأ من كيانها . لم تكن تفهم من قبل ما الذي كانت تعنيه مس روز عندما تتكلم عن الروح ، لأنها لم تكن قادرة على تمييزها عن الوحدة المتكاملة التي كانتها هي نفسها ، ولكنها بدأت الآن تلمح طبيعتها . فالروح هي الجزء الثابت من ذاتها . أما الجسد بالمقابل فهو ذلك الوحش المرهوب الذي يستيقظ جامحاً ومليئاً بالمتطلبات بعد سنوات من البيات الشتوي . يذكرها به تأجج الرغبة التي تمكنت من تذوقها باقتضاب في غرفة الخزائن . ومنذ ذلك الحين لم تعد تشعر بتلهف حقيقي للحب أو اللذة الجسدية ، وكأن هذا الجزء منها قد غرق في نوم عميق . وعزت ذلك إلى الألم الذي سببه لها هجران حبيبها ، والخوف من أن تجد نفسها حبلى ، ومرورها عبر متاهات الموت في السفينة ، وصدمة الإجهاض . لقد كانت معتلة إلى حد أن الخوف من أن تجد نفسها في مثل تلك الظروف مرة أخرى كان أقوى من اندفاع الشباب . فقد فكرت بأن ثمن الحب باهظ جداً ومن الأفضل تجنبه

تماماً ، ولكن شيئاً انقلب في داخلها خلال السنتين الأخيرتين وهي إلى جانب تاو تشين ، وإذا بالحب فجأة ، مثل الرغبة ، يبدو لها أمراً لا مناص منه . بدأ ارتداء ملابس الرجال يضايقها مثل حمل ثقيل . راحت تتذكر غرفة الخياطة ، حيث مس روز تقوم دون شك بصنع فستان آخر من تلك الفساتين المتقنة ، فتثقل عليها موجة حنين إلى أمسيات طفولتها الرقيقة تلك ، إلى شاي الساعة الخامسة في الفناجين التي ورثتها مس روز عن أمها ، وإلى جولات شراء المهربات بحماس من السفن . وماذا حل بماما فريسيا ؟ إنها تراها تهمهم في المطبخ ، بدينة ومتثاقلة ، تعبق برائحة الحبق ، وتحمل في يدها على الدوام مغرفة ، بينما هناك قدر تغلي على الموقد ، وكأنها ساحرة بشوشة . إنها تشعر بحنين متلهف إلى ذلك التواطؤ الأنثوي القديم ، ورغبة جامحة في أن تشعر من جديد بأنها امرأة . لم تكن هناك في غرفتها مرآة كبيرة تراقب من خلالها هذه المخلوقة الأنثى التي تناضل لتفرض نفسها . كانت تريد رؤية نفسها عارية . وتستيقظ أحياناً في الفجر محمومة بأحلام مندفعة حيث تتبدى لها صورة خواكين أنديتا ذي النجمة في جبهته تطفى عليها شيئاً فشيئاً رؤى تنبثق من تلك الكتب الإيروتيكية التي كانت تقرؤوها فيما مضى بصوت عالٍ لحمائم كسارة العظام . لقد كانت تقرؤها آنذاك بلامبالاة ملحوظة ، لأن وصف الصور الذي تقدمه لم يكن يثير فيها أي إحساس ، ولكن تلك الصور تأتي الآن مثل أشباح ماجنة لتعذبها في أحلامها . وبينما هي وحدها في غرفتها البديعة ذات الأثاث الصيني ، تستغل تسلل نور الفجر الواهن من النافذتين لتنهمك في استكشاف لذيذ لنفسها . تخلع بيجامتها ، تنظر بفضول إلى أجزاء جسدها التي تستطيع رؤيتها وتجوب الأجزاء الأخرى بالملامسة ، مثلما كانت تفعل قبل سنوات في الفترة التي اكتشفت فيها الحب . وتتأكد من أنها لم تتبدل إلا قليلاً . كانت أشد نحولاً ، ولكنها تبدو الآن أقوى . اليدان مدبوغتان بالشمس والعمل ، ولكن بقية الجسم نقية وناعمة مثلما تتذكرها . ويبدو لها

مدهشاً ، بعد كل تلك السنوات من استخدام المشد لضغط صدرها ، أن يكون لها النهدان السابقان نفسهما ، صغيران وصلبان ، بحلمتيهما اللتين مثل حبتي حمّص . تفلت شعرها الذي لم تقصه منذ أربعة أشهر ، وتسرحه في ذيل مشدود على رقبتها . تغمض عينيها وتهز رأسها بمتعة أمام ثِقل وتركيب الحيوان الحي الذي لشعرها . تفاجئها هذه المرأة شبه المجهولة ، ذات التكورات في الفخذين والوركين ، والخصر النحيف ، والشعر الكث والخشن في العانة ، والمختلف تماماً عن شعر رأسها الناعم والمرن . ترفع أحد ذراعيها لتقيس امتداده وتقدر شكله ، ولترى من بعيد أظفارها ، وتلمس بيدها الأخرى خاصرتها ، ونتوء أضلاعها ، فجوة إبطها ، ومحيط ذراعها . وتتوقف عند أشد النقاط حساسية في المعصم وفي انحناءة المرفق ، متسائلة عما إذا كان تاو تشين يشعر بالدغدغة أيضاً في تلك المواضع نفسها . تلمس عنقها ، ترسم أذنيها ، وقوس الحاجبين ، وخط الشفتين ؛ وتجوب بأحد أصابعها جوف الفم ثم تنقله إلى الحلمتين اللتين تنتصبان لملمس اللعاب الدافئ . تمر بيدها بقوة على الإليتين ، لتتعرف على شكلهما ، ثم برفق لكي تحس بنقاء البشرة . تجلس على سريرها وتتلمس القدمين وتواصل الملامسة صاعدة إلى أصل الفخذين ، متفاجئة بالزغب الذهبي الخفيف الذي ظهر على ساقيها . تفتح فخذيها وتلمس شق عضوها الغامض ، البض والرطب ؛ تبحث عن برعم البظر ، مركز رغباتها واضطراباتها ، وحين تلمسه ترد إلى ذهنها على الفور رؤيا تاو تشين غير المتوقعة ، فصديقها الوفي ، وليس خواكين أنديينا الذي لم تعد تتذكر من ملامح وجهه إلا القليل . هو الذي جاء ليغذي تخيلاتها المحمومة بمزيج لا يقاوم من المعانقات المتأججة والرقة الحانية ، والضحكة المشتركة . ثم تشم بعد ذلك يديها مفتونة بذلك العبق القوي من الملح والفواكه الناضجة الذي يتضوع به جسدها .

●

بعد ثلاثة أيام من تحديد الحاكم سعراً لرأس خواكين موريتا ، رست في مرفأ سان فرانسيسكو الباخرة نورثينر وهي تحمل مئتين وخمسة وسبعين كيس بريد و«لولا مونتيث» . لقد كانت أشهر مومس في أوربا . ولكن لم يكن تاو تشين ولا إلزا قد سمعا باسمها من قبل . لقد كانا في المرفأ بالمصادفة ، إذ ذهبا لاستلام صندوق أدوية صينية أحضره لهما بحار من شنغهاي . وقد ظننا أن سبب الازدحام الكرنفالي هو وصول البريد ، إذ لم يجر من قبل تسلم شحنة بريد بمثل تلك الوفرة ، ولكن المفرقعات الاحتفالية أخرجتهما من خطئهما . ففي تلك المدينة المعتادة على كل أنواع العجائب ، اجتمع حشد من الرجال الفضوليين لرؤية «لولا مونتيث» الفريدة التي سافرت عبر برزخ بنما يسبقها قرع طبول شهرتها . نزلت من الزورق على أذرع بحارين اثنين محظوظين ، وضعاها على اليابسة بتوقير يليق بملكة . وكان ذلك هو بالضبط سلوك تلك الأمازونية الشهيرة وهي تتلقى هتافات المعجبين . فاجأ الصخب إلزا وتاو تشين على حين غرة ، فهما لا يعرفان أصل تلك الجميلة ، ولكن الجمهور أطلعهما فوراً على التفاصيل . إنها ايرلندية منحطة وابنة زنى ، تتظاهر بأنها ممثلة وراقصة إسبانية نبيلة . وهي ترقص مثل بجعة ، أما كممثلة فليس لديها سوى الغرور المفرط ، ولكن اسمها يوحي بصور داعرة لمغويات كبيرات ، بدءاً من دليلة وحتى كليوباترا ، ولهذا تتوافد حشود هاذية للتصفيق لها . إنهم لا يحتشدون من أجل موهبتها ، وإنما ليتأكدوا عن قرب من خبثها المهيج ، وجمالها الخرافي ، ومزاجها الشرس . فدون أن تكون لها أي موهبة أخرى سوى الوقاحة والجرأة ، كانت تملأ مسارح ، وتُنفق ما ينفقه جيش ، وتجمع مجوهرات وعشاقاً ، وتعاني نوبات غضب ملحمية ، فقد أعلنت الحرب على الجزويت ، وطُردت من عدة مدن ، ولكن مأثرتها الكبرى تتمثل في تحطيمها قلب ملك . فقد كان لودفيك الأول ، ملك بافاريا ، رجلاً طيباً وبخيلاً ورصيناً طوال سبعين سنة ، إلى أن ظهرت هي في طريقه ،

فلفَتْهُ لفتين خلفته بعدهما وقد تحول إلى ألعوبة . فقد العاهل عقله وصحته وشرفه ، بينما هي تستنزف الخزائن الملكية في مملكته الصغيرة . لقد منحها العاشق لودفيك كل ما أرادت ، بما في ذلك لقب كونتيسة ، ولكنه لم يستطع جعل رعيته تتقبلها . فأخلاق المرأة الفظة ونزواتها الجنونية استثارت حقد مواطني ميونخ الذين نزلوا في آخر الأمر بجموعهم إلى الشارع مطالبين بطرد عشيقة الملك . وبدل أن تختفي «لولا» بصمت ، واجهت الجموع المسلحة وهي تحمل مقرعة الخيل ، وكان يمكن لهم أن يحولوها إلى «كفتة» لو لم يسارع خدمها المخلصون إلى حشرها بالقوة في العربة ووضعها على الحدود . سيطر القنوط على لودفيك الأول ، فتنازل عن العرش ، وتهيأ للحاق بها إلى المنفى ، ولكن السيد الذي صار دون تاج ولا سلطة ولا حساب مصرفي لم يعد ينفع كثيراً ، فخذلته الغانية .

قال تاو تشين :

ـ هذا يعني أن ميزتها الوحيدة هي سوء السمعة .

أسرعت جماعة من الايرلنديين إلى فك خيول عربة «لولا» ، وربطوا أنفسهم محلها وجروها حتى فندقها عبر شوارع مفروشة ببتلات الزهور . ورآها تاو تشين وإلزا تمر في الموكب المجيد ، فتنهد الصيني دون أن يلقي نظرة أخرى إلى الجميلة :

ـ هذا هو الشيء الوحيد الذي كان ينقص بلاد المجانين هذه .

تابعت إلزا الكرنفال لعدة كوادرات بمشاعر تختلط فيها المتعة بالتقدير ، بينما راحت تنفجر من حولها المفرقعات ويطلق الرصاص في الهواء . كانت لولا مونتيث تحمل قبعتها بيدها ، وشعرها الأسود المفروق من منتصفه مجعد فوق أذنيها ، ولعينيها المهووستين لون الزرقة الليلية . ترتدي تنورة من المخمل الأسقفي ، وبلوزة مخرّمة عند العنق والمعصمين ، وسترة مصارع ثيران قصيرة منوشاة برسوم طيور . وكانت تتخذ موقفاً ساخراً

ومتحدياً ، مدركة تماماً أنها تجسد أشد الشهوات بدائية وسرية لدى الرجال ، وتمثل رمزاً لأكثر ما يرهبه المدافعون عن الأخلاق . لقد كانت وثناً خبيثاً ، وكان هذا الدور يفتنها . وفي حماس تلك اللحظات رماها أحدهم بحفنة من تبر الذهب ، فالتصقت بشعرها وثيابها مثل هالة . رؤية تلك المرأة الشابة ، الظافرة وغير الخائفة ، هزت إلزا . وفكرت بمس روز ، وبما كانت تفعله باطراد يزداد مرة بعد أخرى ، وأحست بموجة من الإشفاق والحنان تجاهها . تذكرتها مرتبكة في مشدها ، ظهرها منتصب ، وخصرها مخنوق ، متعرقة تحت تنانيرها الداخلية الخمس ، «اجلسي مضمومة الساقين ، أمشي منتصبة الظهر ، لا تستعجلي ، تكلمي بصوت خافت ، ابتسمي ، لا تكشري وإلا امتلأ وجهك بالتجاعيد ، اصمتي وتظاهري بالاهتمام ، فالرجال يسعدهم أن تصغي إليهم النساء» . مس روز المجاملة على الدوام التي تعبق برائحة الفانيلا... ولكنها تذكرتها كذلك في حوض الاستحمام ، لا يكاد يسترها سوى قميص مبلل ، عيناها تلمعان وهي تضحك ، وشعرها مشعث ، وخداها متوردان ، حرة وسعيدة ، تهمس لها : «يمكن للمرأة أن تفعل ما تشاء يا إلزا ، طالما تفعله بتكتم» . ولكن لولا مونتيث تفعل ذلك دون أي نوع من الحذر ، وقد عاشت من الحيوات أكثر مما عاشه أشجع المغامرين ، وفعلت ذلك من موقعها المترفع كامرأة واثقة تماماً من نفسها . في تلك الليلة دخلت إلزا إلى غرفتها وهي تفكر ، وفتحت حقيبة ملابسها بحذر ، مثل من يرتكب خطيئة . كانت قد تركت الحقيبة في سكرامنتو عندما ذهبت بحثاً عن حبيبها في المرة الأولى ، ولكن تاو تشين احتفظ بها مفكراً بأن محتوياتها قد تلزمها في أحد الأيام . ما أن فتحتها حتى سقط شيء على الأرض وفوجئت عندما رأت عقد لؤلئها ، وهو الثمن الذي دفعته لتاو تشين ليدخلها إلى السفينة . بقيت تمسك اللآلئ بيدها طويلاً وهي متأثرة . نفضت الفساتين ووضعتها على السرير ، كانت مجعدة وتنبعث منها رائحة أقبية . وفي اليوم التالي حملتها إلى أفضل مصبغة في الحي الصيني .

أعلنت قائلة :

- سأكتب رسالة إلى مس روز يا تاو .

- لماذا ؟

- إنها مثل أمي . وإذا كنتُ أحبها إلى هذا الحد ، فمن المؤكد أنها تحبني بالقدر نفسه . لقد انقضت أربع سنوات دون أخبار ، لا بد أنها تظنني ميتة .

- أترغبين في رؤيتها ؟

- بالطبع ، ولكن ذلك مستحيل . سأكتب لكي أطمئنها فقد ، وسيكون جيداً لو نها تستطيع أن ترد على رسالتي . هل يضايقك أن أرسل إليها هذا العنوان ؟

- تريدين أن تعثر عليك أسرتك... - وانقطع صوته وهو يقول ذلك .

بقيت تنظر إليه وانتبهت إلى أنها لم تكن قريبة من أحد في هذا العالم على الإطلاق ، مثلما هي قريبة في تلك اللحظة من تاو تشين . أحست بذلك الرجل في دمها ، بيقين قديم جداً وضار إلى حد دُهشت معه من الوقت الطويل الذي أمضته إلى جانبه دون أن تنتبه إلى ذلك . كانت تشتاق إليه حتى وهي تراه كل يوم . تحن إلى أزمنة عدم المبالاة التي كانا فيها صديقين حميمين ، فكل شيء كان يبدو آنذاك شديد السهولة ، ولكنها لم تكن ترغب في العودة إلى الوراء . فهناك الآن شيء عالق بينهما ، شيء أكثر تعقيداً وفتنة بكثير من الصداقة القديمة .

•

عادت فساتينها وتنانيرها الداخلية من المصبغة ، وكانت فوق السرير ، ملفوفة بالورق . فتحت الحقيبة وأخرجت جوربيها الأبيضين وجزمتها ، ولكنها استبقت المشد في الحقيبة . وابتسمت لفكرة أنها لم تعتد على ارتداء ملابسها كآنسة قط دون مساعدة ، ثم لبست التنانير الداخلية وجربت الفساتين واحداً بعد الآخر لتختار أنسبها لتلك المناسبة . أحست نفسها غريبة

في تلك الملابس ، واختلطت عليها الشرائط والتخريمات والأزرار ، واحتاجت لعدة دقائق لكي تبكل جزمتها وتستعيد توازنها تحت كل تلك التنانير الكثيرة ، ولكنها مع كل قطعة ثياب ترتديها كانت تسيطر على شكوكها وتؤكد رغبتها في العودة لتكون امرأة . لقد حذرتها ماما فريسيا من قدر الأنوثة ، وقالت لها : «سيتبدل جسدك ، وتغيم أفكارك ، وسيكون بإمكان أي رجل أن يفعل بك ما يحلو له» ، ولكن هذه المخاطر لم تعد تخيفها .

كان تاو تشين قد انتهى من معاينة آخر مريض في ذلك اليوم . وكان يرتدي قميصاً قصير الأكمام ، فقد خلع السترة وربطة العنق التي يضعها دوماً احتراماً لمرضاه ، عملاً بنصيحة معلمه في وخز الإبر . وكان يتعرق لأن الشمس لم تغب بعد ، ولأن ذلك اليوم كان واحداً من الأيام الحارة القليلة في شهر تموز . وفكر بأنه لن يعتاد مطلقاً على نزوات مناخ سان فرانسيسكو ، حيث للصيف مظهر الشتاء . فقد يخرج الصباح على شمس مشعة وبعد ساعات يأتي ضباب كثيف من الغولدن غيت ، أو تنهال ريح البحر القوية . كان يغمس الإبر في الكحول ويرتب قوارير الأدوية ، عندما دخلت إلزا . أما مساعده فكان قد انصرف ، ولم تكن لديهما في ذلك اليوم أي واحدة من فتيات سينغ سونغ ، لقد كانا وحيدين في البيت . قالت له :

ـ لدي شيء لك يا تاو .

رفع بصره عندئذ وأوقعت المفاجأة قارورة من يده . كانت إلزا ترتدي فستاناً أسود له ياقة بيضاء مخرمة . لم يكن قد رآها سوى مرتين بالملابس النسائية عندما تعرف عليها في بالبارايسو ، ولكنه لم ينس مظهرها الذي كانت عليه آنذاك .

ـ هل يُعجبك ؟

فابتسم وهو يخلع النظارة لكي يتأملها عن بعد :

ـ إنك تعجبينني دوماً .

ـ هذا فستان أيام الآحاد . لقد ارتديته لأنني أريد أن ألتقط صورة . خذ ، هذا لك . ـ وقدمت له كيساً .

ـ ما هذا ؟

ـ إنها مدخراتي... يمكنك أن تشتري طفلة أخرى يا تاو . كنت أفكر في الذهاب للبحث عن خواكين هذا الصيف ، ولكنني لن أفعل . أعرف أنني لن أجده أبداً .

ـ يبدو لي أننا جميعنا جئنا نبحث عن شيء ووجدنا شيئاً آخر .

ـ وعم كنت تبحث أنت ؟

ـ عن المعرفة ، الحكمة ، لم أعد أتذكر . ولكنني وجدت بالمقابل فتيات سينغ سونغ ، وانظري الخيبة التي أنا فيها .

ـ رباه! كم أنت قليل الرومنسية يا رجل! كان عليك أن تقول من باب المجاملة بأنك عثرت علي أيضاً .

ـ كنت سأعثر عليك في كل الأحوال ، فهذا مقدر مسبقاً .

ـ لا تأتني الآن بحكاية التقمص...

ـ بالضبط . ففي كل تجسد لنا سنعود نلقاء إلى أن ينفصل قدرانا .

ـ لهذا الكلام وقع مرعب . لن أرجع إلى تشيلي على أي حال ، ولكنني لن أواصل التخفي يا تاو . أريد الآن أن أكون أنا نفسي .

ـ لقد كنتِ أنت نفسك على الدوام .

ـ حياتي هنا . وهذا يعني أنك إذا أردت أن أساعدك...

ـ وماذا عن خواكين أنديتا ؟

ـ ربما كانت النجمة التي على جبهته تعني أنه ميت . تصور! لقد قمت بهذه الرحلة دون طائل .

ـ ليس هناك شيء دون طائل . وما من أحد يصل في الحياة إلى أي مكان يا إلزا . إننا نمشي وحسب .

- ما مشيناه معاً لم يكن سيئاً . تعال معي ، سأذهب ليلتقطوا لي صورة أرسلها إلى مس روز .

- هل يمكن أن يلتقطوا لك واحدة أخرى من أجلي ؟

ذهبا مشياً على الأقدام ممسكين أحدهما بيد لآخر إلى ساحة الاتحاد ، حيث أقيمت عدة محلات تصوير ، فاختارا أفخمها مظهراً . كانت تُعرض في النافذة مجموعة صور لمغامري الـ ٤٩ : ثمة شاب بلحية شقراء وملامح صارمة ، يحمل معولاً ورفشاً بين ذراعيه ؛ وجماعة مَنجميين بقمصان قصيرة الأكمام ، يقفون بجدية ونظراتهم مصوبة إلى الكاميرا ؛ وصينيون عند ضفة نهر ؛ وهنود يغسلون ذهباً في سلال ناعمة الثقوب ؛ وعائلات رواد يستريحون إلى جانب عرباتهم . كانت صور الداغيريتيب موضة رائجة ، فهي الرابطة مع الناس البعيدين ، والدليل على أنهم خاضوا مغامرة الذهب . يقال إن رجالاً في مدن الشرق الأمريكي لم يصلوا إلى كاليفورنيا قط ، كانوا يلتقطون صوراً وهم يحملون أدوات عمال المناجم . وكانت إلزا واثقة من أن اختراع التصوير الفوتوغرافي قد أنزل الرسامين نهائياً عن عروشهم ، لأن رسومهم لم تكن تصل إلى الشبه إلا نادراً .

- لدى مس روز رسم لها بثلاث أيدٍ يا تاو . لقد رسمه فنان شهير ، ولكنني لا أتذكر اسمه .

- وكيف هو بثلاث أيدٍ ؟

- حسن ، الرسام جعلها بيدين اثنتين ، ولكنها أضافت يداً أخرى . أخوها جيرمي يكاد يموت عندما يرى اللوحة .

كانت ترغب في وضع صورتها في إطار فخم من المعدن المذهب والمخمل الأحمر ، لكي توضع على مكتب مس روز . وحملت رسائل خواكين أنديتا لكي تُخلدها في الصورة قبل أن تتلفها . بدا المحل في الداخل أشبه بكواليس مسرح صغير ، فهناك ستائر رسمت عليها عرائش مزهرة وبحيرات

فيها طيور مالك الحزين ، وأعمدة إغريقية من الورق المقوى ، وأكاليل ورود ، وحتى دب محنط أيضاً . كان المصور رجلاً قصيراً ، متعجلاً ، يتكلم متعثراً ويمشي متقافزاً مثل ضفدع متفادياً ديكورات الاستوديو . وبعد الاتفاق على التفاصيل ، أوقف إلزا أمام طاولة والرسائل في يدها ، ووضع لها قضيباً معدنيا على ظهرها مع دعامة للرقبة ، يشبه إلى حد كبير ذاك الذي كانت تضعه لها مس روز أثناء دروس البيانو .

- نضع هذا كيلا تتحركي . انظري إلى الكاميرا ولا تتنفسي .

اختفى الرجل وراء قطعة قماش سوداء ، وبعد لحظة لمع وميض أبيض أبهر بصرها ورائحة احتراق جعلتها تعطس . ومن أجل الصورة الثانية تركت الرسائل جانباً وطلبت من تاو تشين أن يساعدها في وضع عقد اللؤلؤ .

في اليوم التالي خرج تاو تشين باكراً لشراء الصحيفة مثلما يفعل دوماً قبل فتح العيادة ، ورأى العناوين على ستة أعمدة : لقد قتلوا خواكين موريتا . رجع إلى البيت وهو يشد الصحيفة إلى صدره ، مفكراً بالطريقة التي سيخبر بها إلزا بذلك ، وكيف ستتلقى الخبر .

في فجر الرابع والعشرين من تموز ، وبعد ثلاثة شهور من الخبب على غير هدى عبر كاليفورنيا ، وصل الكابتن هاري لوف ومرتزقته العشرون إلى وادي تولار . وكانوا في أثناء ذلك قد ملوا من مطاردة الأشباح ، واقتفاء آثار زائفة ، وكانوا في أسوأ حال بسبب الحر والبعوض ، وبدؤوا يكرهون بعضهم بعضاً . فثلاثة شهور من العدو على صهوات الجياد على غير هدى في تلك الجبال الجافة ، مع شمس حارقة تغلي فوق رؤوسهم ، كان تضحية أكبر من الأجر الذي تلقوه . وكانوا قد رأوا في القرى الإعلانات التي تعرض ألف دولار مكافأة لمن يقبض على قاطع الطريق . وكانت هناك خربشة تحت بعضها تقول : « أنا أدفع خمسة آلاف » وتوقيع خواكين موريتا . لقد بدؤوا يتحولون إلى أضحوكة ، ولم يبق سوى ثلاثة أيام لانتهاء المهلة المحددة ؛ فإذا رجعوا

صفر اليدين ، فلن يروا سِنتاً واحداً من دولارات الحاكم الألف . ولكن ذلك اليوم كان يوماً حسن الطالع ، لأنهم عندما كانوا يفقدون الأمل نهائياً ، التقوا بجماعة من سبعة مكسيكيين غافلين يخيمون تحت بعض الأشجار .

وسيقول الكابتن فيما بعد بأنه كانت لديهم بدلات وأسرجة فاخرة ، وخيول أصيلة ، وهو مبرر أكثر من كافٍ لإيقاظ شكوكهم ، ولهذا تقدم منهم مطالباً إياهم التعريف بأنفسهم . وبدل أن ينصاعوا لطلبه هرع المشبوهون بصورة مريبة إلى خيولهم ، ولكن حراس لوف حاصروهم قبل أن يتمكنوا من الركوب . والوحيد الذي تجاهل المهاجمين تماماً وتقدم نحو حصانه كما لو أنه لم يسمع التحذير هو ذاك الذي بدا أنه الزعيم . لم يكن يحمل سوى خنجره في حزامه ، أما أسلحته فكانت معلقة على دابته ، ولكنه لم يستطع الوصول إليها لأن الكابتن وجه مسدسه إلى جبهته . وعلى بعد خطوات قليلة كان المكسيكيون الآخرون يرقبون باهتمام ، جاهزين للإسراع لمساعدة زعيمهم عند أول سهو من الحراس ، وفي أثناء ذلك تمكن زعيمهم ، بقفزة هائلة ، من امتطاء حصانه الوثاب والهرب مخترقاً الصفوف . لم يتمكن من الوصول بعيداً مع ذلك ، لأن طلقة بندقية جرحت الحصان فتدحرج على الأرض وهو يتقيأ دماً . وعندئذ انطلق الفارس الذي لم يكن سوى خواكين مورييتا الشهير ، كما يؤكد الكابتن ، يركض مثل غزال ، فلم يبق أمامهم خيار آخر سوى إفراغ مسدساتهم في صدر قاطع الطريق الذي قال لهم وهو يهوي ببطء ، وقد هزمه الموت :

- توقفوا عن إطلاق النار ، لقد أنجزتم عملكم .

هذه هي الرواية المفتعلة دراميا التي نشرتها الصحافة ، ولم يبق هناك مكسيكي واحد على قيد الحياة ليقدم روايته للأحداث . وسارع الكابتن الباسل هاري لوف إلى قطع رأس خواكين موريتا المزعوم بضربة سيف . وقد انتبه أحدهم إلى أن يد ضحية أخرى كانت مشوهة ، فقدروا على الفور أنه جاك الثلاثة أصابع ، فقطعوا رأسه كذلك ، وبتروا في طريقهم يده المشوهة . انطلق الحراس

العشرون على خيولهم إلى أقرب قرية ، وكانت تبعد عدة أميال ، ولكن الحر كان جهنمياً ، وكان رأس جاك الثلاثة أصابع مملوءاً بثقوب الرصاص ، وبدأ يتفسخ ، فألقوا به على الطريق . وبسبب ملاحقة الذباب والرائحة الكريهة ، أدرك الكابتن هاري لوف أنه لا بد له من حفظ غنيمته من الأشلاء وإلا فإنها لن تصل معهم إلى سان فرانسيسكو لكي يقبضوا المكافأة المستحقة ، وهكذا وضع كلاً منها في وعاء مملوء بالجن . جرى استقباله كبطل ؛ فقد خلص كاليفورنيا من أسوأ قاطع طريق في تاريخها . ولكن المسألة لم تتضح تماماً ، فقد أشار جاكوب فريمونت في تحقيقه الصحفي إلى أن القصة تعبق برائحة المؤامرة . فلم يكن هناك بادئ ذي بدء من يمكنه أن يؤكد بأن الأحداث قد جرت مثلما يدعي هاري لوف ورجاله ، وبدا من المريب أنه بعد ثلاثة شهور من البحث الشاق ، يقع في قبضتهم سبعة مكسيكيين في الوقت الذي كان فيه الكابتن بأمس الحاجة إليهم بالضبط . ولم يكن هناك كذلك من هو قادر على التعرف على خواكين موربيتا ؛ وقد تقدم هو نفسه لرؤية الرأس ولم يستطع أن يؤكد أنه قاطع الطريق الذي عرفه ، مع أن هناك كما قال بعض التشابه .

●

عرضوا طوال أسابيع أشلاء خواكين موربيتا المزعوم ويد تابعه الفظيع جاك الثلاثة أصابع في سان فرانسيسكو ، قبل أن يحملوها في جولة ظافرة عبر أرجاء كاليفورنيا . كانت أرتال الفضوليين تمتد حول البناء ولم يبق من لم يشاهد تلك الغنائم المشؤومة . وكانت إلزا من أول الذاهبين ، وقد رافقها تاو تشين ، لأنه لم يشأ لها أن تمر بتلك التجربة وحيدة ، على الرغم من أنها تلقت الخبر بهدوء مذهل . وبعد انتظار بدا أبدياً تحت الشمس ، جاء دورهما أخيراً ودخلا إلى المبنى . تشبثت إلزا بيد تاو تشين وتقدمت بتصميم دون أن تفكر بنهر العرق الذي يبلل فستانها والرعشة التي تزعزع عظامها . وجدا نفسيهما في قاعة ظليلة ، سيئة الإضاءة بشموع صفراء تنشر رائحة ضريحية . كانت

الجدران مغطاة بأقمشة سوداء ، وفي أحد الأركان أجلسوا عازف بيانو مكرهاً ، كان يلوك بعض المعزوفات الجنائزية ، ويفعل ذلك باستسلام أكثر مما هو شعور حقيقي . وعلى طاولة ، مغطاة كذلك بأقمشة منصات النعوش ، وضعوا الإنلهين الزجاجيين . أغمضت إلزا عينيها وتركت تاو تشين يقودها ، واثقة من أن ضربات طبل قلبها تطغى على أنغام البيانو . توقفا ، وأحست بضغط يد صديقها على يدها ، استنشقت جرعة من الهواء وفتحت عينيها .

نظرت إلى الرأس بضع ثوانٍ وتركته يقودها على الفور إلى الخارج .

سألها تاو تشين :

ـ أكان هو ؟

فردت عليه دون أن تفلت يده :

ـ إنني الآن حرة...

الفهرس

القسم الأول
١٨٤٣-١٨٤٨

- بالبارايسو 9
- الإنكليز 31
- آنسات 53
- سمعة سيئة 69
- الخاطبون 83
- مس روز 99
- الحب 115

القسم الثاني
١٨٤٨-١٨٤٩

- الخبر 135
- الوداع 157
- الابن الرابع 173
- تاو تشين 191
- الرحلة 221
- الباحثون عن الذهب 247
- السر 275

القسم الثالث
١٨٥٠-١٨٥٣

- إلدورادو 297
- صفقات تجارية 317
- حمائم مدنسة 331
- خيبات أمل 347
- فتيات سينغ سونغ 371
- خواكين 391
- ثنائي فريد 403

ايزابيل الليندي

- ولدت الكاتبة التشيلية إيزابيل أللييندي عام ١٩٤٢ . وعملت في الصحافة مذ كانت في السابعة عشرة من عمرها .
- حققت شهرة كبيرة برواياتها التي أوصلتها إلى قمة الرواية الأمريكية اللاتينية .
- من أبرز أعمالها : «بيت الأرواح» و«إيفالونا» و«حكايات إيفالونا» و«الحب والظلال» و«باولا» و«الخطة اللانهائية» و«افروديت» .
- «ابنة الحظ» هي قصة مرحلة موسومة بالعنف والجشع ، حيث الأبطال يفتدون الحب والصداقة ، والجرأة والتعاطف الإنساني .
- تقدم إيزابيل أللييندي في «ابنة الحظ» أكثر رواياتها طموحاً ، عالماً مذهلاً يعجّ بشخصيات حميمة ستبقى في ذاكرة القراء وقلوبهم إلى الأبد ، ولعل من أبرز هذه الشخصيات «خواكين موريتا» تلك الشخصية الاسطورية التي كرّس لها بابلو نيرودا مسرحيته الشعرية الوحيدة «تألق خواكين موريتا ومصرعه» .

ISBN => 2-84305-171-1
EAN => 9782843051715